محمد عبد الحميد الحمد

الأعراق والطوائف السورية

(التاريخ والعقيدة والتوجه)





الأعراق والطوائف السورية
(التاريخ والعقيدة والتوجه)

عنوان الكتاب: **الأعراق والطوائف السورية (التاريخ والعقيدة والتوجه)**
اســم المؤلف: **محمد عبد الحميد الحمد**

الطبعة الأولى ـ 2006

التنفيذ

دار الطليعة الجديدة
سورية ـ دمشق ـ ص.ب 34494
تلفاكس: 2311378
Email: Sakkalfa@scs-net.org

يطلب هذا الكتاب من:
عبيدة الحمد
موبايل: 093 507591

صمم الغلاف: جمال سعيد

محمد عبد الحميد الحمد

الأعراق والطوائف السورية

(التاريخ والعقيدة والتوجه)

أبواب الكتاب وفصوله

المقدمة: الرؤية والمنهج

الكتابة التاريخية نشاط معرفي هادف، لها غاية يحددها الباحث من خلال موضوع بحثه. وكتابي عن الأعراق والطوائف في سورية، هدفه: **كيف يمكننا خلق سبل ميسَّرة للعيش المشترك؟** ولتحقيق هذا الهدف لا بد لنا من التبصر في تاريخ الأعراق والطوائف، وتاريخ المجال الحيوي الذي تعيش فيه.

كانت سورية في القديم تشمل الهلال الخصيب أو بلاد الشام، وبعد انفصالها عن الدولة العثمانية، وصدور معاهدة سايكس بيكو عام 1916م، قسمت إلى عدة دول (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن). لم يكن ذلك التقسيم بناء على إرادة أهل البلاد. وعندما وضع القطران السوري واللبناني تحت الانتداب الفرنسي عام 1920م، قسمت سورية تقسيماً طائفياً إلى عدة دول، دولة دمشق وحلب ودولة اللاذقية (العلويين) ودولة جبل الدروز، ودولة الجزيرة والفرات. ولكن الشعب السوري رفض ذلك التقسيم وقامت ثورات في طول البلاد وعرضها، وأهمها الثورة السورية الكبرى عام 1925م. وظل النضال مستمراً حتى الاستقلال عام 1946م.

شكَّل المجتمع السوري بكل طوائفه، بعد الاستقلال، مجتمعاً متماسكاً، وصار الانتماء الوطني (لسورية) هدفاً، وإن ظل الشعب في الوقت نفسه يطمح للوحدة العربية، وزاد الشعور القومي بعد نكبة فلسطين عام 1948م. وتمت الوحدة بين القطرين سورية ومصر في عام 1958، ولكن الوحدة لم تدم وحدث الانفصال، وقامت ثورة البعث العربي الاشتراكي في 8 آذار عام 1963م، وطرح الحزب شعار: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. ثم حدثت ثورة في القطر العراقي الشقيق، بقيادة حزب البعث، ولكن الحزب لم يستطع تحقيق شعاره في الوحدة، وسبب ذلك في رأي المفكر العراقي سليم مطر، لأن الشعار لم يكن يعبر عن حاجة عقلية وثقافية، ولم تستطع الأيديولوجيا العربية أن تخلق الوعي الوطني بالهوية، ففشلت كما فشلت الشعارات الدينية والأممية من قبل[1].

إذن، لا بد من إيجاد ثقافة وطنية حقيقية ليصبح الانتماء للوطن حقيقة ملموسة، وبما أننا نعيش اليوم، في زمن العولمة، زمن الدولة ذات القطب الواحد، التي أفرزت مفرزات متناقضة، ففي مجال الاقتصاد: يجب توحيد الشركات الكبرى في مؤسسات اقتصاديّة من دول مختلفة، لتسهيل الربح، وتهميش الدول الفقيرة.

وفي مجال السياسة: ركزت العولمة على الدعوة إلى الديمقراطية الليبرالية ونادت بدعم حقوق الأقليات والأفراد، وهذه الدعوة تؤدي إلى نهاية الحدود الجغرافية للدولة الوطنية، بدلاً من التركيز على دمج الأقليات في المجتمع، وخلق الهوية الوطنية.

كيف نواجه هذا الخطر؟ هنا، لا بد لنا من الاهتمام بالتربية والتعليم، وأن نتفاعل ونتعاون في المدرسة والأسرة والمسجد والكنيسة معاً، لتكوين قيم عند المواطن الصالح، والوقوف في وجه الثقافات الوافدة التي تستخدم وسائل الاتصالات الحديثة (المذياع والانترنيت والفضائيات والصحافة) التي أصبحت كلها تتحدى الثقافة الوطنية والنظم التربوية، وتخلق مشكلات خطيرة على صعيد الاندماج الاجتماعي[2]، ولمجابهة هذا التحدي لا بد لنا من اتباع الخطوات التالية:

1) تعليم الفرد، لتنمو شخصيته، تنمية كاملة من مختلف جوانبها، بحيث يصبح الفرد قادراً على التصرف باستقلالية، ويصدر الحكم الصائب ويتحمل المسؤولية.

2) تعليم المواطن التاريخ والثقافة الوطنية، ليتمكن من الاستفادة من التنمية والتربية، ليواجه المواقف التي تدعو إليها الحاجة.

3) تعليم المواطن كيفية العيش مع الآخرين في ظل احترام التعددية الطائفية[3].

4) الانفتاح على معطيات العصر، وتنمية الحوار الديمقراطي والشفافيّة بين الطوائف والأعراق، وتفعيل الثقافات المختلفة بين الشعوب، وكي لا يصبح التلقي هو إذعان لثقافات الغير. ولا بد من نشر قيم المحبة في مجتمع مفتوح، يقبل أفراده العيش المشترك، والحذر من التدين الزائد، حيث يصبح الفكر الأصولي أداة للتكفير والقتل والتطرف الذميم.

يقول الباحث المصري رشدي أحمد طعيمة «إن العالم هو قريتنا، فإذا اشتعلت النار في بيت، فإن جميع السقوف التي تظلل رؤوسنا سوف تتعرض للخطر، وإذا حاول أحدنا أن يبدأ في إعادة البناء، فإن جهوده سوف تكون فردية فجة، وينبغي أن يكون التماسك والتضامن هو هدفنا، وأن يتحمل كل واحد منا المسؤولية»[4].

إن الأقليات أو الطوائف التي كتبت عنها، لها وضع متميز في سورية العربية، وعوامل دمجها في عملية الانتماء الوطني سهلة نسبياً، لوجود المحبة، ولكن هذه لا تكفي ولا بد من المزيد من الحريات العامة، وهذا لا يتم إلا في نظام ديمقراطي.

إن العرق (الأثنوس) يقوم على وحدة اللغة والدين والتاريخ، وبذلك يصبح العرق مجموعة من الناس، يتكلمون لغة واحدة ويعترفون بأصلهم المشترك ويملكون جملة من العادات والتقاليد، ونمط حياة يعكس التقاليد[5] كالعرب والأرمن.

أما الطائفة، فهي جماعة تؤمن بدين أو مذهب، وما يولده ذلك الإيمان لدى الأفراد المنتمين إليه من شعور وسلوك ولباس يميزهم عن الآخرين. هل يمكن للسياسة أن تكون عنصر تفريق؟ نعم، فالعرب أبناء أمة واحدة، ذات دين ولغة وعادات ومصالح مشتركة، ولكنهم مقسمون في عدة دول تختلف سياسياً.

والسؤال الملح: هل يمكن أن تتحول الطائفة إلى عرق؟ نعم، إذا جهلت تاريخها. ولدينا مثال ملموس. استطاعت الكنيسة الرومانية، أن تشق الطائفة النسطورية عام 1553م إلى كنيستين.

الكنيسة الآشورية، ويرأسها الجاثليق مار شمعون (1528- 1551). في البداية قاوموا تلك التسمية ومع مرور الأيام صاروا يدّعون أنهم من جنس الآشوريين.

الكنيسة الكلدانية: أتباع البطريرك مارسولاقا (1553- 1555) فرح أتباعه بهذا الاسم، وصاروا يسمون أنفسهم كلدان، وجرى صراع بين أبناء العمومة في القرية الواحدة، لأن هذا آشوري وذاك سرياني. تم ذلك في سنة واحدة. وهم اليوم يرفضون نسبتهم إلى السريان، وصار دعاة النزعة القومية يقولون نحن أبناء (كلد آشور).

عاش أفراد المجتمع السوري في انتماء وطني واحد، إلى قيام الوحدة عام 1958، وصار الانتماء للعروبة، مما ولد لدى الأكراد نزعة للاعتزاز بقوميتهم. جرى ذلك في العراق في البداية، وصاروا يطالبون بأرض كردستان التاريخية، وعندما استلم الحكم البعثيون، واضطهدهم صدام حسين، بدأ الشحن العنصري لدى الأكراد، وصاروا يطالبون في حق تقرير مصيرهم، في أرض الآباء والأجداد. إن هذا الحق مشروع، وهو من الحقوق المسلم بها من الناحية النظرية، وينحصر الخلاف بشأنه في وسائل تنظيمه وشروط ممارسته فعلاً، وحق تقرير المصير لا يعني قيام دولة مستقلة بل يعني التحرر من التدخل الأجنبي[6].

مشكلة الأكراد في العراق:

طالب الأكراد في حق تقرير المصير فأخذوا الاستقلال الذاتي، وهم أكثر الطوائف والأعراق انقساماً، في اللغة والدين.

1) أكراد منطقة السوران (السليمانية) قرب الحدود الإيرانية، لغتهم السورانيّة أقرب إلى اللغة الفارسية، ويكتبون بالخط العربي، ومذهبهم الديني سني وطريقتهم صوفية قادرية، يترأسهم جلال الطالباني.

2)أكراد منطقة بهدنان (دهوك) على الحدود التركيَّة، ولغتهم الكرمانج وهي أقرب إلى التركية، ويكتبون كالأتراك بالحروف اللاتينيَّة، وهم سنة وطريقتهم نقشبنديَّة، يترأسهم مسعود البرازاني، وأصله عربي من عشيرة النعيم.

3)أكراد منطقة أربيل (تاريخياً وجغرافياً خارج حدود كردستان، وسكانها خليط من تركمان وسريان وعرب والغالبية أكراد يتحدثون بالسورانيَّة، التي يصعب على الكرمانج فهمها لأن اللغتين مختلفتان. والجميع متفقون على كره أكراد تركية لأنهم قزل باش (شيعة) كالظاظا وعلي الهي (علوية) وزعيمهم عبد الله أوجلان في منطقة ديار بكر وأورفا.

بعد سقوط الحكم في بغداد في 9 نيسان 2003م، تنبهت الطوائف في العراق إلى ضرورة معرفة تاريخها، ويستغرب المفكر سليم مطر، أنه لا الدولة ولا أي حزب من الأحزاب الثورية قد أنجز تاريخاً للطوائف والأعراق في العراق إلا الباحث الفلسطيني الأمريكي الجنسية حنا بطاطو، الذي يستحق أن يقام له تمثال وسط بغداد، لأنه كتب وأرخ للطوائف في العراق، ولأن من حق أبناء الوطن أن يعرفوا أنهم يشتركون بنفس الأرض والثقافة والميراث الوطني(7)، الذي هو على الأغلب الإسلام والمسيحيَّة.

مشكلة الأكراد في سورية

لا يوجد بين الأعراق والطوائف السورية من يثير حق تقرير المصير إلا الأكراد، وبما أن هذا الحق مشروط بالحق التاريخي، من هنا علينا تحديد ماهية الحدود التي تفصل الأكراد عن الشعب السوري.

كيف تسلل الأكراد إلى منطقة الجزيرة؟

منذ أن تسلم الأمير بدرخان إمارة جزيرة ابن عمر (إمارة بوتان) شن حرباً على القبائل السريانيَّة والآشوريَّة واليزيديَّة (1843- 1844) وهجَّرهم من جبال هكاري وطور عبدين ومن منطقة آمد وديار بكر وقام بمذابح وحشية، ساهمت بتغيير الخارطة الاثنية (العرقية) والطائفية للمنطقة، وقام بتكريد العرب والسريان الذين فضلوا البقاء في تلك المنطقة (كعشيرة المحلميَّة).

وعلى أثر معاهدة سايكس بيكو عام 1916 ووضع الحدود بين سورية وتركية نزح السريان إلى داخل الحدود السورية، وسكنوا جنوب مدينة نصيبين في قرية القامشلي، ليتقوا شر الأكراد عام 1925، وبعد ملاحقة قوات كمال أتاتورك للأكراد، هربوا ولاذوا بالحدود السورية، وسكنوا في القرى الحدودية. ولكن الأكراد لم يتركوا مطامعهم

وصاروا يتحرشون بالسريان لأنهم الحلقة الأضعف. ولكن سلطة الانتداب الفرنسي أوقفتهم ومنعتهم من التعدي.

أرسلت لجنة الدفاع العامة عن الجزيرة العليا برقية إلى دمشق بتاريخ 26 تموز 1937 يطلبون فيها حمايتهم من تعديات عشائر المرسينيّة بقيادة زعيمهم سعيد آغا الدقوري. ولما تأخر الرد، قام الأكراد وهاجموا المسيحيين في عامودا، ونهبوا محلاتهم وبيوتهم، وتركوا خلفهم حوالي خمس عشرة جثة في الخرائب، ولولا وقوف بعض الأغوات الأكراد وشيوخ طيء لكانت الخسارة أكبر، ولا زال السريان يذكرون بالخير والعرفان، عبدي آغا، ونواف آغا، وأحمد آغا وبيت حاجو آغا، وآل الحسو من شيوخ طي.

يدعي الأكراد أنهم في سورية حوالي 9٪ من تعداد السكان، وهذه نسبة مبالغ فيها، ليغطوا النزوح المستمر من تركيا. وهم يطالبون بحل ديمقراطي عادل لقضيتهم، والاعتراف بثقافتهم، ومعاملتهم كمواطنين كاملي الحقوق في إطار وحدة أراضي الوطن السوري، وإعطاء الجنسية لـــ 200 ألف كردي. وفي 12 آذار 2004م، حدثت اضطرابات بين الشباب في ملعب كرة القدم بالقامشلي، وتحول الموقف إلى اضطرابات مسلحة، وهاجموا المؤسسات والدوائر الرسمية، وحمل بعض من العوام الجهلة السلاح وهجموا على القرى العربية يريدون تحريرها من العرب.

سأل مذيع إحدى المحطات العربية بعض المسلحين عن سبب حمله للسلاح، قال: أريد تحرير أرض الأجداد، أرض ميدية!! فقال له: وأين هي أرض ميدية؟ قال: أرضنا هذه. فضحك المذيع وتركه.

هذه الإجابة تدل على جهل المواطن السوري، وله حق على مناهجنا الدراسية. أما المواطنة الحقوقية الكردية ماجدة بكداش المقيمة في سويسرا كتبت إلى جريدة القدس العربي عن مشكلة الأكراد في الجزيرة: «إن الأكراد موجودون في كل أنحاء سورية، وبين كل الطبقات الغنية والفقيرة، وفي كل أجهزة الدولة، من الجيش والمخابرات، وحتى في تيارات حزب البعث، وباقي الأحزاب السورية. وإننا والحمد لله، لم نعانِ من أية ممارسات عنصريَّة اجتماعيَّة من قبل أشقائنا في الوطن، حيث يتعايش الكردي والأرمني والسرياني والتركماني والشيشاني والعربي بصورة إنسانية وطيبة خالية من العنصرية والأحقاد، إلا ما يوجد في رؤوس بعض القوميين المتعصبين، وأود أن يعرف قراء (القدس العربي) الكرام، أن مشكلة أكراد سورية لا تختلف عن مشاكل باقي فئات الشعب السوري، المتمثلة في الحاجة إلى الديمقراطية وحرية التعبير».

كيف حصل هذا الوفاق الوطني في سورية؟ إنه حصل ولا شك في العيش المشترك وحسن الجوار بين الأكراد وبقية الطوائف والأعراق، ولقد كانت المناهج الدراسية (1946- 1958) تتضمن مادة التربية الوطنيَّة التي تعلم السلوك الديمقراطي الذي يلغي الخوف والتوجس ونبذ عقليَّة الهيمنة والاستحواذ الطائفي والقومي.

والمطلوب من مناهجنا الحديثة الانفتاح على معطيات العصر الثقافية، وسيادة الحوار الشفاف بين المواطنين والسلطة من أجل تكوين المواطن الصالح الذي يكون انتماؤه للوطن، لا للطائفة ولا للحزب، ويكون الدين لله والوطن للجميع.

قصارى القول:

تحدثت في كتابي عن تاريخ وثقافة الطوائف في سورية، تحدثت عن تسعة عروق وأجناس بشرية (العرب والسريان والأكراد والتركمان والشركس والأرمن واليهود والصُلبة (الصليب) والغجر).

ثم كتبت عن ثقافة كل طائفة أو مذهب ديني وكانت بحدود عشرين طائفة منهم (الإسلام) بطوائفه السنيَّة والشيعيَّة، و(المسيحية) من أرثوذكس وكاثوليك وبروتستانت ولاتين، و(اليهود) والأرمن والشركس والأكراد (سنة وشيعة. بينا كل ذلك بياناً مستفيضاً. وفي اعتقادي أن محاولتي هذه هي الأولى من نوعها، وتندرج تحت مشروع حوار الثقافات أو حوار الأديان والمذاهب داخل الوطن الواحد المستقل.

وحاولت أن أكتب بعبارة بسيطة، ومفهومة قدر الإمكان، وأرفقت بكل تاريخ طائفة بالمصادر والمراجع لتكون كتابتي أكثر مصداقيَّة.

وحاولت أن أكون حيادياً ومحباً لأبناء وطني كلهم، ولكن تلك المحبة لم تثنني عن قول الحقيقة، ورؤية الخطأ، وإن بدرت بعض الأخطاء فتلك هي قدرة الإنسان العاجزة عن بلوغ الكمال.

تم الكتاب بعون الله ومنته.

محمد عبد الحميد الحمد

الرقة منتصف حزيران 2005

مراجع المقدمة

1)جدل الهوية ص42، سليم مطر، المؤسسة العربية بيروت 2003م.

2)توصيات الدورة 45 لليونسكو، جنيف تشرين أول 1996م.

3)التعليم ذلك الكنز الكامن ص7، جاك ديلور ترجمة جابر عبد الحميد جابر، دار النهضة العربية القاهرة 1998م.


4)العولمة ومناهج التعليم ص57، رشدي طعيمة القاهرة 1999م.

5)الأثنوس والتاريخ ص9، بروملييه، ترجمة طارق معصراني. دار التقدم موسكو 1988.

6)حق تقرير المصير ص6 مهدي حافظ ومحمود الشرقاوي، كتب سياسية القاهرة 1957.

7)جدل الهويَّة ص32- 33.

8)المصدر السابق ص191.



الباب الأول

العرب والإسلام وطوائفهم



الفصل الأول

السنة والشيعة

دخول الإسلام إلى سورية

دخل الإسلام بلاد الشام منذ عام 639م عندما زار الخليفة عمر بن الخطاب إيلة (القدس الشريف) واستلم مفتاح المدينة من يد الأسقف صفورنيوس الدمشقي، وصلى في المسجد الأقصى، ووصل عمر إلى الجابية. جاء في تاريخ دمشف لابن عساكر الحادثة التالية: قال عبد الله بن الحارث الهاشمي: شهدت عمر بن الخطاب وهو يخطب بالجابية، فلما قال: من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، فنفض برقس الجاثليق جيب قميصه. فقال عمر: ما تقول يا عدو الله؟ قالوا: يقول يا أمير المؤمنين: إن الله يهدي ولا يضل! قال عمر: كذبت بل الله خلقك ثم أضلك، ثم يميتك ثم يدخلك النار – إن شاء الله – والله لولا عهدي لك، لضربت عنقك، إن الله لما خلق آدم، وبث ذريته فقال: هؤلاء أهل الجنة، وما كانوا عاملين لليمنى، وهؤلاء أهل النار وما كانوا عاملين للأخرى، وهؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه. قال الهاشمي: فافترق الناس وما يختلف في القدر اثنان»[1].

هذا الموقف مفتعل ولا يصح أن يصدر عن عمر بن الخطاب الخليفة الحكيم العاقل، فالجاثليق هو رأس الكنيسة النسطورية في العراق، وكان في زمن عمر هو الجاثليق ايشو عياب الحزي (605- 650م) قال الدكتور حسين عطوان: «جاهد علماء الكلام ضد القدرية، بافتعال الأحاديث التي تطعن في إسلامهم، وكان الوضع في الأحاديث أيسر من الوضع في التفسير، وأقوى في التعبير عن غايات الخلفاء ومقاصدهم، وضعوا لخلفاء بني أمية الأحاديث التي تنفر من القدرية أو ترميهم بالانحراف والكفر، ونسبوها إلى ثقات التابعين»[2]. إن موقف الجاثليق المفترض هو أقرب إلى منهج القرآن الكريم من دعاة الجبرية.

أصحاب القدر (المعتزلة)

في قصة عمر بن الخطاب والجاثليق، أول إشارة إلى دخول الإسلام في وسط ثقافي جديد، ومن هذه المثاقفة بين علماء الكلام وعلماء اللاهوت المسيحي ظهرت فرقة المعتزلة، التي نادت بحرية الإنسان واختيار أفعاله، ليحقق عدل الله في الآخرة.

على أثر مقتل الحسين (ع) سنة 63هـ ـ 683م، ظهر تياران:

المرجئة الذين قالوا: نرجأ الحكم على أعمال الإنسان المؤمن والكافر إلى اليوم الآخر وهناك يفصل الله بينهم. هذا الموقف السلبي، دعا إلى مهادنة بني أمية.

والقدريّة الذين قالوا: إن الإنسان يتحمل تبعات عمله، فمن شاء فليكفر ومن شاء فليؤمن، وصاروا يحرضون بالخفاء ضد السلطة.

وسمح خلفاء بني أميّة بالمناظرة بين علماء الكلام وعلماء اللاهوت المسيحي الخوض في الأمور الغيبيّة، مستخدمين بعض المصطلحات الفلسفيّة. ولكن وعّاظ السلطة شنوا حملة شعواء على القائلين بحرية الإنسان في اختياره لأفعاله، وقالوا: إن الإنسان مجبر على أفعاله فالله خلقه وما يصنع. قال تعالى }وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى{ ووضعوا الأحاديث التي تناصر أهل الجبر. روى أبو هريرة (المتوفى 58هـ ـ 678م) عن عمر بن الخطاب عن رسول الله (ص) قال: لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم[3].

وكثرت الأحاديث الموضوعة التي تناقض العقل، كالحديث المروي عن يزيد بن حبيب، قال: »إن رجلاً قال للنبي يا رسول الله، أيقدّر الله عليّ الشر ثم يعذبني؟ قال رسول الله: نعم وأنت أظلم«! ورووا عن عمر بن الخطاب أن رسول الله قال: «القدريّة مجوس هذه الأمة، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».

التابعي الحسن البصري (20هـ/ 110هـ)

وقف هذا الصحابي الجليل في وجه القائلين بالجبريّة، ونادى بحرية الإنسان.

فمن هو الحسن البصري؟

ولد الحسن البصري في المدينة المنورة سنة 20هـ ـ 641م، لأبوين من سبي دست ميسان (قرب البصرة) وكانا من أصل آرامي، كان اسم الأب يسار، وهو مولى للمغيرة بن شعبة، ثم ارتبط بالصحابي زيد بن ثابت الأنصاري يترجم بين يديه عن السريانيّة. أما أم الحسن البصري فهي حبرة كانت أمة لأم سلمة زوج رسول الله، وكانت تعلم نساء المدينة القرآن الكريم، وعندما ولدت الحسن حملته إلى عمر بن الخطاب الذي أعجب بجمال الطفل ودعا له بالخير.

درس الحسن البصري العربية والقرآن الكريم في المدينة، ثم انتقل إلى البصرة عام 36هـ/ 656م في ولاية عثمان بن حنيف على البصرة، واشترك بفتح كابول ثم انتقل إلى سجستان مع عبد الرحمن بن سمرة عام 43هـ/ 665م، ثم خدم كاتباً في ديوان الربيع بن زياد في خراسان ثم عاد إلى البصرة عام 51هـ/ 670م.

كان الحسن جيد التعليم، يحسن العربيّة والسريانيّة وبهما يقرأ، مما جعله ذلك يطلع على الثقافات الموجودة في محيط البصرة، وأصبح حجة في علم الكلام، كان يؤمن بالتقيّة ليتقي شر السلطة، قيل له بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان (661-680م) ما تقول في معاوية، قال: إنه لم يغمد سيفه إلا وقد أخذ ما يبتغي! فقيل له: ولكنك قلت في حياته غير ذلك! قال: تلك قولة حقنت بها دم عنقي!

كان الحسن البصري يميل لآل البيت، وكان يقلد الإمام علي (ع) في ترك شعر وجهه ولبسه للعمة السوداء. سأل الحجاج بن يوسف الثقفي (سنة 85هـ) ما تقول في عثمان وعلي؟ فقال: أقول ما قاله من هو خير مني، ما قاله موسى حين سأله فرعون: ما بال القرون الأولى؟ قال: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى علم عثمان وعلي عند الله. فقال الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد[4].

وعندما خرج عبد الرحمن بن الأشعث الكندي على الحجاج في دير الجماجم غرب الكوفة سنة 83هـ/ 703م، كان الحسن البصري قد نهاه عن الخروج، وخرج معه معبد الجهني وخطب الحسن في مسجد البصرة: «يا أيها الناس، والله ما سلط الله عليكم الحجاج، إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع» [5]. وعندما سمع الحجاج بخطبة الحسن، وسئل من أخطب الناس؟ قال الحجاج: إنه صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة[6].

قبض الحجاج على معبد الجهني وكان صديق الحسن وقتله سنة 84هـ/ 704م، وكان معبد يرى أن القدر لا يسلب الاختيار لدى الإنسان. سأل الحسن البصري رجل من أهل الشام: يا أبا سعيد، ماذا تقول في الفتن؟ قال: لا تكون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فرد عليه الشامي: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب الحسن وقال: نعم ولا مع أمير المؤمنين[7]!

أرسل الحسن البصري رسالة إلى عبد الملك بن مروان (685- 705) جاء فيها: «واعلم يا أمير المؤمنين أن الله لم يجعل الأمور حتماً على العباد، ولكن قال: إن فعلتم كذا، فعلت بكم كذا، وإنما يجازيهم الله بالأعمال!».

أما معبد الجهني كان أكثر وضوحاً من الحسن البصري، وعندما سئل عن ظلم الملوك الذين يسفكون الدماء ويأخذون الأموال ويفعلون ما يفعلون، ثم يقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله محتجين بالقدر، قال معبد: كذب أعداء الله[8].

ظلت شخصيَّة الحسن شخصيَّة إشكاليَّة في تاريخ الفرق والمذاهب الإسلاميَّة، حتى إن جاره التابعي الجليل محمد بن سيرين (المتوفى 120هـ) لم يخرج في جنازة الحسن، واعتبره شخصيَّة محيرة، يلتقي بأصحابه ويتحدث إليهم بمواجد قلبه، دون أن يطلع أحداً غيرهم عليها.

كان الحسن البصري شخصيَّة مرموقة في التاريخ الإسلامي، كان يقول بالقدر ويقول بعدم تخليد العصاة في النار، وإنما يجازي كل منهم حسب أعماله الصغيرة أو الكبيرة، وهذا رأي الفيلسوف المسيحي أوريجانيوس الإسكندري (185- 254م). كان الحسن البصري يعامل أهل الذمة بالحسنى، وقد عزَّى جاره النصراني وقال لأهله: «أثابكم الله على مصابكم، ثواب من أصيب بمثلها من أهل دينكم، وعليكم بالصبر فيما نزل بكم من المصائب»(9).

توفي الحسن البصري سنة (110هـ/ 729م) ودفن بالبصرة ولا زالت قبته موجودة وله تأثير كبير في الطرق الصوفيَّة وفي المذاهب الإسلاميَّة المغالية.

غيلان الدمشقي (المتوفى بعد عام 107هـ / 726م)

كان أصل غيلان بن مسلم من أقباط مصر. جاء إلى دمشق في ولاية عبد العزيز بن مروان وكانت تربطه بعمر بن عبد العزيز صداقة وزمالة طفولة. كان غيلان مسلماً، ولكنه لم ينسَ موروث أهله المسيحي، وهو القائل: «الإيمان هو معرفة الله والإقرار به وبرسله، والعمل بما يجوزه العقل، والعمل كله صادر عن الإيمان، والقدر خيره وشره صادران من العبد»(10).

عندما استلم عمر بن عبد العزيز الخلافة (99هـ) صار غيلان يوعظه ويرقق قلبه بما يحفظه من أقوال داود، وكان يقول له: أنت هو الإمام، فإن ضلَّ الإمام ضلُّوا وإن اهتدى اهتدوا. وسأل غيلان عمر بن عبد العزيز: إن أهل الشام تزعم أنك تقول في المعاصي، إنها بقضاء الله تعالى، فقال: «ويحك يا غيلان، أولست تراني أسمي مظالم بني مروان ظلماً؟»(11).

ولَّى عمر بن عبد العزيز غيلان على بيع خزان بني مروان، متاع عبد الملك والوليد، وكان ينادي المارة: هلموا إلى متاع الظلمة، مال هؤلاء لعنهم الله، ومرَّ هشام وسمعه فحقد عليه(12).

كان عمر يحب غيلان. نقل الشهرستاني عن أبي علي الرحبي أنه قال: «جاء البواب إلى عمر، وقال: غيلان بالباب وبيده كتاب، فدعا به عمر، وقرأ الكتاب حتى إذا وصل إلى قوله: إعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً أو رسماً عافياً، أُميتت

السنة، وظهرت البدعة، وأُخيف العالم فلم يعد يتكلم، ولا يفطن الجاهل فيسأل، وربما نجت الأمة بالإمام فانظر إلى الإمامين أنت؟ فهذا إمام هدى، والآخر يدعو إلى النار، فهذا مثل الذين خلوا من قبلكم، وموعظة للمتقين، واعلم أنه لا ينبغي للبصير أن ينقاد»[13].

بعد وفاة عمر بن عبد العزيز واستلام هشام بن عبد الملك الخلافة (105هـ/ 726م) عم القبائل السخط، وكوّن القدريّة حزباً، وكانوا يتراسلون ويتشاورون ويقال: وفد معبد الجهني من البصرة إلى دمشق ولقي غيلان وعرض عليه مقالته وحمّله القول بالقدر[14].

اشترك غيلان وصالح بن سويد في الجهاد بأرمينيّة، وعند عودته طلبه هشام لأنه كان أثناء الجهاد يحرض المسلمين ضد حكمه، استدعاه هشام وأجرى له مناظرة لكي يبرر قتله، ويقال إنه أسند المناظرة إلى صديقي غيلان ميمون بن مهران وعبد الرحمن الأوزاعي، وهناك روايتان للمناقشة أو المناظرة:

الرواية الأولى: تقول: جمع له هشام فقهاء الجزيرة والشام ودعاه ميمون بن مهران وقال له: سل، فإن أقوى ما تكونون، يا أهل القدر إذا سألتم. قال غيلان: أشاء الله أن يعصى؟ فقال ميمون: أفعصي كرهاً؟ فسكت غيلان. فقال له هشام: أجبه. فلم يجبه. وأمر بقتله.

الرواية الثانية: تقول: إن الأوزاعي تقدم لمناقشة غيلان وسأله:

هل علمت أن الله أعان على ما حرّم؟ أجاب غيلان: ما علمت. وهل علمت أن الله قضى على ما نهى؟ أجاب غيلان: ما لي بهذا علم. وهل علمت أن الله حال دون ما أمر به؟ قال غيلان: ما علمت. قال الأوزاعي: هذا مرتاب من أهل الزيغ. فأمر هشام بحبسه.

هذا الموقف المسرحي، جاء في كتب الأدب لكي تكون أقرب إلى المتعة والتسلية، ذكرها الأديب الأندلسي ابن عبد ربه، جعل محاكمته كالألغاز، ثم جاء بالأجوبة التي تدل على جهل غيلان الدمشقي. قال ابن عبد ربه (860- 940):

أما جواب السؤال الأول، كان يجب أن يكون: نعم. قضى ما نهى عنه، عندما نهى آدم عن أكل الشجرة، وقضى بأكلها.

وجواب السؤال الثاني، كان يجب أن يكون: نعم لقد حال دون ما أمر به إبليس بالسجود لآدم، وحال بينه وبين ذلك.

وجواب السؤال الثالث، كان يجب أن يكون: نعم، أعان على ما حرم أكل الميتة وأعان المضطر على أكلها[15].

حاول الجبريَّة والمشبِّهة في الإسلام تشويه صورة غيلان الدمشقي. أورد عبد الرحمن الجوزي الحنبلي (1116- 1200م) خبراً أسنده إلى حكيم بن عمر العنسي الحمصي قال: «قال عمر بن عبد العزيز تبغي لأهل القدر أن يتقدم إليهم فيما أحدثوه، فإن كفوا، وإلا استلت ألسنتهم من أقفيتهم استلالاً»[16].

لم يستطع المؤرخون، كتم ندم هشام بن عبد الملك في فعلته بغيلان، روى الوليد بن السائب أن رجاء بن حيوة، كتب إلى هشام ليصلح باله «بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من الندم على قتل غيلان وصالح وأقسم بالله يا أمير المؤمنين أن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم والترك»[17].

ما أهون حياة الناس عند هؤلاء الفقهاء ووعاظ السلاطين! وجاء في تاريخ دمشق، كتب نمير بن أوس الأشعري إلى هشام يقوِّي من عزيمته: «إن قتل هشام لغيلان أعظم من أعظم فتوح الله على هذه الأمة [18].

ألم ينصف غيلان أحد من المؤرخين؟ بل قال عنه الذهبي: «غيلان المقتول في القدر، ضال مسكين، ولكنه كان من بلغاء العرب». وقال عنه أيضاً: «حج هشام بالناس سنة (106هـــ) وكان ذلك في أول خلافته، وكان معه غيلان يفتي الناس ويحدثهم، وكان ذا عبارة وتألِه»[19]. كما قال عنه ابن حجر العسقلاني: «كان من بلغاء الكتاب»[20].

إذا كان معظم المؤرخين القدماء يهاجمون أهل القدر انطلاقاً من حب إرضاء السلطة وهؤلاء هم السلفيون (الحنابلة والأشاعرة) الذين قال عنهم المفكر المصري سمير أمين: «إن السلفي يرفض اعتبار الدين ظاهرة اجتماعية حيَّة، وهو لا يهتم بالأسباب التي تجعل الأشياء كما هي، فما يهمه هو معرفة إذا كانت الأمور متمشية مع المبادئ الإلهية أم لا»[21].

نلاحظ أن الصراع الفكري ارتبط بالتطور الاجتماعي وتغير الأحداث السياسيَّة، وذلك ما لم يعترف به الإسلام السنيّ الأصوليّ، واعترفت به المذاهب الإسلاميَّة الشيعيَّة التي سأتعرض لها لاحقاً.

الصراع المذهبي بين السنة والشيعة

على أثر وفاة الرسول (ص)، وفي المبايعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، جرى شرخ كبير في الإسلام طال الأنصار وقريش، وقد تولى الخلافة أبي بكر الذي خاطب الناس: «قد وليت عليكم ولست بأفضلكم» وقام بنو هاشم يطالبون بالخلافة، لأن الإمام علي (ع) هو الوصي، وظهرت في المدينة طائفتان:

طائفة تدعو لأهل البيت: وعلى رأسهم سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن عباس، وكان هؤلاء هم المستضعفون في الأرض.

والطائفة الثانية هم قريش: وهم السادة الذين هجّروا رسول الله من مكة، وإن كان بعضهم من المهاجرين الأبرار أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وبعد فتح مكة انضم إليهم بنو حرب ومنهم آل سفيان، الذين صار لهم شأن كبير فيما بعد.

المبايعة في يوم الغدير

يدعي أهل البيت ومن والاهم، أن الرسول أثناء عودته من حجة الوداع جمع المسلمين إليه في موضع غدير خم في 18 من شوال، وكان معه كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وقال لهم، وقد أمسك بيد علي: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». وشاع الخبر وعم البلاد، بعد أن بايع الصحابة علياً، ولكن قريشاً أنكرت وبايعت أبا بكر، ولكن الحنابلة أنكروا هذه الواقعة جملة وتفصيلاً، واعتبروا حديث الغدير من الأحاديث الكاذبة باتفاق من أهل المعرفة بالأحاديث الموضوعة[22] على الرغم من أن هذا الحديث من الأحاديث المتواترة، وكان المؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبري (المتوفى 310هـ) أكد هذا الحديث وجمع مصادر الواقعة من 134 راو وراوية، في مجلدين ضخمين، وقامت الحنابلة عليه ورموه بالكذب والكفر. يقول المؤرخ الحنبلي ابن كثير (700هـ - 762هـ): «لقد ظلمته الحنابلة، وقامت عليه عوامهم ورعاعهم ومنعوا دفنه نهاراً، ودفن في داره ليلاً، ونسبوه إلى الرفض بل من الجهلة منهم من رماه بالإلحاد - وحاشاه من ذلك - وسبب ذلك لأنه جمع في كتاب أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين»[23].

أهل السنة والجماعة

كان الصراع الديني يدور حول القدر والجبر في العصر الأموي، ومنذ بداية القرن الهجري الثاني صار الصراع بين السنة والشيعة، وتحول الخلاف إلى خلاف سياسي صريح وبدأ الدعاة يعتمدون على صنع الأحاديث الموضوعة، لدعم مواقفهم السياسية والفكرية وها هم الحنابلة ينسبون إلى الرسول قوله «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر» هذه هي رواية أحمد بن حنبل في مسنده وكذلك أبو داود الترمذي، والنص

باطل عند محمد بن جرير الطبري الذي لا يعتد بقوله عند الحنابلة[24]، لأن الطبري قال الأخذ بالقرآن الكريم في حال الاقتداء.

كان أهل السنة هم أهل الرأي والاجتهاد والذين يعتمدون على القياس، إن لم يجدوا نصاً في ذلك، وكان جل اعتمادهم على أبي هريرة الذي كذبته الصحابة أمثال عائشة وعلي، بل إن عمر بن الخطاب نهاه عن رواية الحديث وأمره بالخروج إلى بلاد الشام وجاء إلى حمص وإلى بلاط معاوية بن أبي سفيان وكان يروي الأحاديث إن أغدق له.

يكذب علماء الشيعة الأحاديث التي يرويها علماء السنة، ويذمون القول بالقياس، لأن القياس أدى بإبليس إلى الكفر، عندما رفض السجود إلا لله. ويعتمدون على الأحاديث التي حفظوها عن أهل بيت رسول الله.

وبما أن الإسلام دين حياة، والحياة لا تتوقف وهي تتطور باستمرار، **فهل للعقيدة أن تتطور؟** هنا يصادفنا جوابان:

-**فكر يدعو للتطور والأخذ بأسباب الحياة المتجددة باستمرار**، وحجته أن القرآن الكريم، لا ينطق بنفسه، ويحتاج إلى من ينطق به، وكما قال الإمام علي (ع) إن القرآن حمال أوجه، وقامت بعض الفرق الشيعية بالتأويل واستخدام الفكر العرفاني، وظهرت لنا المذاهب الشيعية التي اتهمت بالغلو، وما فعلته هذه الفرق هو استخدامها لموروثها السابق وما يحتويه من أساطير قديمة، يقول الدكتور طيب تيزيني: «إن الأسطورة هي الوعي الذاتي لشعوب العالم العربي القديم، القائم على أساسات علاقات مشاعية فردية»[25].

-**وفكر آخر يطلق على نفسه أهل السنة والجماعة ويعتبر نفسه أنه هو الفرقة الناجية والطائفة المنصورة**، وهؤلاء يدعون إلى المحافظة على كل ما جاء عن السلف الصالح وكل تأويل هو بدعة وكفر كتأويلات الباطنية، والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية، أو الاعتقاد بحلول الله في مخلوقاته أو الاتحاد به كل ذلك في نظرهم كفر مخرج من الملة.

يقول الدكتور محمد أركون: إن السلفية تمثل مجتمعاً قبلياً، وتنسب إلى نفسها التراث الإسلامي الصحيح، ولكن الإسلام العقلي يقف في وجه تلك الحركات معتبراً أنه لا توجد في الإسلام أصول أبدية ودائمة، وأن هناك أصول متغيرة تتناسب والمعطيات الثقافية لكل عصر مر به المسلمون. ويقترح الدكتور محمد أركون المنهج التحليلي للنصوص الأساسية لأصول الدين على ضوء معطيات العلم المعاصر، وفي العصر الحديث، لا بد من تفكيكها والدخول إليها بكل منهجية ودقة وأمان، ويتساءل:

لماذا يرفض الفكر السلفي مهمة التحليل في الوقت الحاضر؟ وكان قد حلّل ذلك لابن تيمية (المتوفى 728هـ ــ 1328م) لماذا يرفضون قبول فكرة أن الأرض كروية، وأنها تدور حول الشمس، ويقبلون أنها تشرق وتغرب في عين حمئة؟ لماذا يرفضون كل فكر علمي ويصرون على الاحتفاظ بالرؤية القرآنية القديمة، والحقيقة عندهم هي اتباع ما سلف، والشر عندهم هو اتباع من خلف.

ويخرج الفكر الأصولي بقاعدة هامة، كل من خرج عن الجماعة، وجب نصحه، ودعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وإقامة الحجة عليه، فإن تاب وإلا عوقب بما يستحق شرعاً، والفرق الخارجة عن الإسلام كفار في الجملة، وحكمهم حكم المرتدين، ولا تجوز الصلاة خلف من يظهر البدعة.

السؤال الملح: هل يجوز قتال أهل البدعة؟ نعم قتالهم واجب. وظهرت اليوم جماعات تطلق على نفسها أسماء مختلفة (جماعة التكفير والهجرة) وقد قتلوا الشيخ محمد حسين الذهبي صاحب كتاب (التفسير والمفسرون) يقول الشيخ شكري مصطفى المصري المتهم بالقتل «إن الإسلام ليس التلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل» من هنا كان المسلم الذي يفارق الجماعة المسلمة كافراً، والمسلم الكافر كل من خالفهم في التفكير، بمقتضى هذه الفتوى قتلوا الشيخ الذهبي العالم المسلم عام 1977[26].

كان السلفيون أو الأصوليون يعتمدون على تفسيرات هي من جانبهم حقيقة لا ينالها الباطل، وهي في الحقيقة مضللة، كتفسيرهم لقتل خصومهم بالآية الكريمة {قاتلوهم يعذبهم الله على أيديكم وينصركم عليهم، ويشفي صدور قوم مؤمنين}.

والسلفية دعوة للجهل، عندما دخلت قوات طالبان في مدينة كابول ومزار شريف في أفغانستان ألغت التعليم في كافة مراحله، واقتصروا على تعليم الأطفال في مدارس الكتاتيب. يقول الشيخ شكري مصطفى المصري أمام محكمة أمن الدولة العليا في القاهرة في القضية رقم (6) عام 1977: «الأمة الإسلامية المقبلة، أمة لا تكتب ولا تحسب إلا بقدر الحاجة، تماماً كما كانت أمة رسول الله، فقد كانت جماعة لا تتعلم لمجرد العلم، ولا تتعلم للدنيا، ولكن للعبادة» ومن هنا حرموا تعليم النساء وعملهن ودعوهن للمكوث في البيوت ولبس الحجاب.

رافق الفكر الأصولي القتل وسفك الدماء، فالمسلم الذي يرفع الشهادة لا يعصم دمه عندهم، بل هو كافر إن كان من فرق الشيعة أو من الأحزاب المخالفة بالتفكير، وهم الذين جلبوا للمسلمين والعرب الحروب والكوارث. يحرم الأصوليون ويكفرون النظام الديمقراطي لأنه يستند في حكمه على الشعب والحكم الصحيح عندهم هو الحكم

الذي يستند على الوحي الإلهي، ونظام الشورى والديمقراطية الحديثة هي حكم الطاغوت.

كتب الأستاذ سيد قطب كتابه (معالم على الطريق) وإذا به يدعو إلى مجتمع مسلح الجميع فيه مستعدون دائماً للجهاد والحرب، وقد أباحوا لأنفسهم خدعة الغير كي يضللوا عدو الله، بالكلام حتى يتمكنوا منه ثم قتله، وبعد نشر الكتاب اضطر المستشار حسن الهضيبي إلى إصدار كتاب آخر للرد عليه باسم (دعاة لا قضاة) إن الحياة في تطور مستمر، وهي لا تسمح للعودة إلى الوراء. فلا يمكننا اليوم رفع شعار الخلافة وإعلان الجهاد.

الإسلام وحوار الأديان

في كل مرحلة من مراحل التاريخ، هناك مناخ فكري، تفرزه تلك المرحلة. وبعد الثورة الفرنسية، نادى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1744- 1804) بضرورة قيام حكومة عالمية توفر للإنسان مفهوماً واضحاً عن مستقبله، حيث يعم السلام العالمي[27].

وعلى أثر الاعتداء على مركز التجارة العالمي في نيويورك في 11 أيلول 2001 أصدر المفكر الأمريكي هنتيجتون كتاباً باسم (صدام الحضارات) وافترض أن الثقافات والأديان المختلفة ستكون أساساً للحروب، ورشح من تلك الحضارات الثمانية أن الصراع والصدام سيحصل بين الحضارتين (الحضارة الغربية - المسيحية) و(الحضارة الإسلامية) التي أصولها الفكرية لا تحتمل الحوار مع الآخرين.

ولكن دعاة العقل المستنير في المسيحية والإسلام دعوا إلى حوار الأديان وقد دعا البابا يوحنا بولس الثاني (1978- 2005) إلى حوار الديانات لا سيما الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية، وأصدر الإسلام المستنير من سنة وشيعة كتابات تعتمد على القرآن الكريم }يا أيها الذين آمنوا، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا{(الحجرات 12)، معتمدين في الحوار على قوله تعالى }ادع إلى سبيل ربك بالحكمة وبالموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن{(النحل 125). لأن الأساس في الدين أن لا نقهر الآخرين. قال تعالى }لا إكراه في الدين{. أما الأصوليون فإنهم ينكرون ذلك على المستنيرين متذرعين بأن الرسول (ص) قال: «نصرت بالرعب على بعد مسيرة شهر». وهذا يخالف تاريخ الدعوة الإسلامية، فقريش هجرت الرسول وأصحابه، وانتصرت عليه في أحد، وقهرته في الطائف، والحديث المذكور هو من وضع الوضاعين.

الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (1849- 1902)

هو شخصية إسلامية مستنيرة الفكر، ظهر في سورية في أواخر القرن التاسع عشر. ولد في حلب عام 1849 في عائلة دينية تنتسب لآل البيت، فجد أبيه هو الشيخ محمد حسن الكواكبي (1609- 1684) مفتي حلب ونقيب الأشراف، صاحب كتاب الفرائد السنية المطبوع في بولاق، وأمه عفيفة بنت مسعود آل النقيب مفتي أنطاكية ونقيب أشرافها، وتوفيت وعبد الرحمن طفل، فكفلته خالته صفية، وعاش طفولته في أنطاكية في منزل جده، وتعلم القرآن، واللغة العربية، ورجع إلى حلب وهو في الثانية عشرة وتعلم في منزل والده وفي مدرسة الشيخ طاهر الكلزي، وتعلم العربية والتركية والفارسية. ثم رجع بعد سنتين إلى أنطاكية، وتعلم في مدرسة العلامة عبد الرحمن العلبي ودرس على الشيخ عبد القادر الحبال والشيخ محمد علي الأمين، وأفضل من درسه أستاذ الفارسية الأستاذ خورشيد وهو رجل مثقف، متحرر الفكر درس عليه التاريخ وعلم الاجتماع، وعرفه بابن خلدون، والفرابي وابن مسكويه، وابن رشد وغيرهم.

وفي عام 1875 صار الكواكبي محرراً لجريدة الفرات الرسمية، وصار يترجم من التركية والفارسية مواضيع ثقافية، وكتب مواضيع ضد الفساد والرشوة، وأسندت إليه إدارة حصر التبغ والتنباك ولكن سرعان ما عزل، فأصدر جريدة الشهباء عام 1876، وأصدر منها 16 عدداً ثم أغلقت، وأصدر جريدة الاعتدال في سنة 1883، وصار كاتباً للعدل، وفي تلك الأثناء قتل والي حلب المشير جميل باشا، فوجهت إليه تهمة التحريض على القتل لأن المشير كان مثال الفساد واستلم ولاية حلب عثمان باشا وكان مرتشياً وطالب بإعدام الكواكبي ولكن أهالي حلب طالبوا بمحاكمته في ولاية أخرى وإرسال مفتش جديد، فأرسل المفتش (صاحب بك) وأطلق سراح الكواكبي. ولكن الوالي عثمان دبّر له مؤامرة واتهمه بالتخاطب مع الأجنبي، وهاج الرأي العام في حلب وحوكم الكواكبي أمام محكمة استئناف حلب وأطلق سراحه، وعاد إلى حلب.

بدأ الكواكبي بجمع مقالاته، وكتب كتابين في السر هما (أم القرى، وطبائع الاستبداد)، وبدأت الشرطة السرية تراقب سلوكه في عهد السلطان عبد الحميد خان (1876- 1909) مما اضطر الكواكبي إلى الخروج للحج، إلى مكة المشرفة، وساح في زنجبار والحبشة ثم استقر في مصر، وفي القاهرة أخرج مسودات كتابيه، وصار ينشرها على شكل مقالات نالت إعجاب المفكرين المستنيرين أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا. والتقى مع عبد المسيح الأنطاكي والتاجر عبد القادر الدباغ وهما حلبيان، وكان صديقاً لمصطفى صادق الرافعي والشاعر حافظ إبراهيم والمحامي قاسم

أمين، وغيرهم من أحرار مصر. وفي عصر يوم 14 حزيران 1902 شرب فنجان قهوة في مقهى الباب العالي أو (مقهى استنبول) وشعر بالألم يقطّع أمعاءه، فحمله ولده كاظم إلى المنزل، وحضر في الحال صديقه التاجر الحلبي عبد القادر الدباغ، فقال له الشيخ عبد الرحمن «لقد سموني يا عبد القادر» وتوفي ودفن في القاهرة. ونشرت الصحف الخبر وهاجموا سياسة الدولة العلية، ورثاه حافظ إبراهيم ببيتين من الشعر نقشا على قبره:

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكب

كتاب (أم القرى): تعرض فيه الكواكبي للسياسة التركية وطالب بالحرية والعدالة للشعوب الإسلامية، وتخيل أن مؤتمراً يعقد في مكة أثناء الحج، وتم اختيار اثني عشر مندوباً يمثلون الأفكار الإسلامية، وكان شعارهم لا نعبد إلا الله. وألقى الكواكبي كلمته باسم السيد الفراتي، وذكر المثل العربي القائل ثلاث خلقن للجور والفساد، القمل والترك والجراد[28].

كتاب (طبائع الاستبداد): جاء في تعريفه «هي كلمات حق، وصيحة في واد إن ذهبت اليوم مع الريح، فقد تذهب غداً بالأوتاد».

وقسم الكتاب إلى عشرة فصول هي: المقدمة، ما هو الاستبداد؟ والاستبداد والدين، والاستبداد والعلم، والاستبداد والمجد، والاستبداد والمال، والاستبداد والاحتلال، والاستبداد والتربية، والاستبداد والترقي، وأخيراً الاستبداد والتخلص منه.

يبين لنا الكواكبي أن الاستبداد ليس هو من طبيعة العمران، وإنما هو مفسد له، والمستبد هو عدو الحرية وقاتلها، والحق أب البشرية والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم أخوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبّوا، وإن دعوهم لبّوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت. وقد تضافرت آراء العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان، على أن الاستبداد السياسي يتولد من الاستبداد الديني[29].

مراجع الفصل: العرب والإسلام

(1)تهذيب ابن عساكر ج7، ص350.

(2)الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي ص62، حسين عطوان، دار الجيل بيروت.

(3)العقد الفريد ج2، ص381، ابن عبد ربه، المطبعة المصرية.

(4)آثار البلاد وأخبار العباد ص311، القزويني، مطبعة بولاق، 1258هـ.

(5)الحسن البصري ص37، مصلح سيد بيومي، القاهرة 1980.

(6)المصدر السابق ص175.

(7)الطبقات الكبرى ج7 ص119، ابن سعد مكتبة صادر بيروت، 1965.

(8)المعارف ص441، ابن قتيبة تحقيق ثروة عكاشة، القاهرة 1965.

(9)الحسن البصري ص187.

(10)الملل والنحل ج1 ص12 الشهرستاني تحقيق محمد عبد العزيز الوكيل القاهرة 1968.

(11)فضل الاعتزال ص339 القاضي عبد الجبار بيروت 1928.

(12)أنساب الأشراف ج2 ص246، البلاذري، المكتبة المصرية القاهرة 1948.

(13)الملل والنحل ج1 ص127.

(14)البداية والنهاية ج9 ص34 ابن كثير مكتبة المعارف بيروت 1977.

(15)العقد الفريد ج2 ص377.

(16)سيرة عمر بن عبد العزيز ص54 عبد الرحمن بن الجوزي، القاهرة 1234هـ.

(17)حلية الأولياء ج5 ص171 أبو نعيم الأصبهاني القاهرة مطبعة السعادة.

(18)تاريخ دمشق لابن عساكر ج14 ص97.

(19)تاريخ الإسلام ج4 ص290 الذهبي المكتبة السلفية.

(20)ميزان الاعتدال ص338، الذهبي، تحقيق محب الدين الخطيب المكتبة السلفية.

(21)مجلة الوحدة العدد 60 ص102، سمير أمين أيلول 1989.

(22)كتاب المنتقى ص443 الذهبي، المكتبة السلفية دمشق 1374.

(23)البداية والنهاية ج11 ص147 .

(24)المنتقى ص576 للذهبي.

(25)الفكر العربي في بواكيره ج2، ص193 طيب تيزيني دمشق 1982 .

(26)التأسلم فكر مسلح ص52 رفعت السعيد دار الطليعة الجديدة دمشق 1996 .

(27)العولمة ص140، ماجد شدود دمشق 1998 .

(28)سلسلة قضايا وحوارات عصر النهضة ص319 إعداد محمد كامل الخطيب، وزارة الثقافة دمشق 1992 .

(29)طبائع الاستبداد ص25 و29 الرحالة ك (الكواكبي) من روائع الفكر السياسي دمشق 1973 .

الفصل الثاني: الطائفة العلويّة

- تاريخ العلويين
- أهم شخصياتهم
- العلويون في العصر الحديث

تاريخ العلويين

العلويون هم أكبر طائفة شيعية في سورية، وهم ينتمون إلى الإمام علي (ع) انتماء دينياً لا انتماء نسب. والعلويون كلهم عرب لا خليط بينهم. سئل الدكتور العلامة أسعد علي: «هل يمكن اعتبار المذهب العلوي مذهباً دينياً؟ فأجاب: ليس هناك شيء اسمه مذهب علوي، وإنما يوجد مذهب لآل البيت، وكل الفرق الشيعية تنتمي إلى علي بهذا المعنى، والعلويون ينتسبون إلى علي، وأما عن تاريخ ظهورهم فقد ظهروا مذ كان علي (ع) حياً»[1].

في اعتقادي أن الإجابة تدلنا على البداية الصحيحة للمذهب العلوي، فالبداية كانت قبل وفاة الرسول (ص)، منذ يوم الغدير (غدير خم). ومنذ أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، دخلت أعراق جديدة إلى مجتمع المدينة، وحدث تفاعل حضاري، وحدث تناقض لاهوتي حول القرآن الكريم. يروى أن الإمام علي (ع) مر على قصاص فقال له: هل تعرف الخاص والعام؟ قال: لا! فقال الإمام: هلكت وأهلكت، لأن في القرآن ناسخ ومنسوخ. نعم إن القرآن الكريم جاء به الصادق الأمين، إلا أنه قابل للتأويل والتفسير العقلي.

دعت حاجة الأمة إلى تدوين القرآن وتعددت الجهات التي قامت بجمعه، فالإمام علي جمعه وأودعه عند فاطمة (وسمي مصحف فاطمة)، كما جمعه عبد الله بن مسعود وسمي (مصحف عبد الله بن مسعود) وجمع أيام عمر بن الخطاب وأدوع عند حفصة زوجة رسول الله وعن مصحف حفص دوّن زيد بن ثابت الأنصاري القرآن بأمر من الخليفة عثمان بن عفان، ثم أحرقت الجذاذات الزائدة باطلاع الصحابة وعلمهم.

وبدأت في المدينة مرحلة ثقافية هامة أيام عثمان بن عفان، وظهرت حلقتان لكل منهما طريقة في التفسير أو التأويل:

الحلقة الأولى: اجتمعت حول بيت رسول الله والإمام علي (ع) لم تكتف بالتفسير الظاهري بل أخذت بالتأويل، وتبحث عن المعنى الباطن للنص، لأن نصوص القرآن تحتمل عدة أوجه، وعلينا ألا نركن إلى قراءة التلقي فقط، إذ لا بد من دراسة النص، والبحث عن أسراره، وكان يترأس الحلقة سلمان الفارسي صاحب الدراية بالكتب السماوية السابقة.

الحلقة الثانية: اكتفت بتفسير القرآن الكريم تفسيراً ظاهرياً، واعتمدت على الخطاب الظاهري للنص، واعتمدت على فقهاء الدين الذين كان على رأسهم كعب الأحبار، ومعه عبد الله بن عباس الذي اعتمد على قصص التوراة فلقب بترجمان القرآن، وحبر الأمة.

عندما انتقل الإمام علي إلى الكوفة، دخل الإسلام وسطاً ثقافياً جديداً، وحمل آل البيت معهم موروثهم الديني، وتولى الإمام محمد الباقر (ع) التفسير. وجمع الأحاديث، فلقب بالإمام الباقر لأنه بقر إيهاب العلم، ثم ورثه ولده الإمام جعفر الصادق (ع) وصار هو مخزن علم أهل البيت، وانتظمت حوله مدرسة فقهية لها أصولها، وبدأ بابه جابر بن يزيد الجعفي يظهر للخاصة أسراراً لا يظهرها للعامة، وعندما انتقل الإمام الحسن العسكري (848- 874) إلى سامراء كان الباب عنده أبو شعيب محمد بن نصير النميري البصري، وعندما اختفى الإمام الحجة محمد المهدي، في سرداب سامراء قام محمد بن نصير برعايته وصار بابه ولكن عمه جعفر ادعى أمام الخليفة المعتضد أنه هو الباب. وهنا جرى أول انقسام بين العلويين، ومن هنا بدأ المذهب النصيري، وبعد وفاة محمد بن نصير جرى انقسام وادعى أبو يعقوب النخعي (الملقب بالأحمر) أنه هو الباب بعد محمد بن نصير فقاومه محمد بن جندب وقام بوظيفة الباب للمذهب النصيري.

من هنا بدأت الانقسامات والصراعات بين المذهب الاثني عشري والمذهب النصيري. وقامت الشيعة الاثنا عشرية بشن حملة من التشهير فاتهموا محمد بن نصير أنه فارسي الأصل، وأنه يدعو للإباحية، فهذا الداعية سعد بن عبد الله القمي (المتوفى 301هـ/ 914م) يذكر أن محمد بن نصير أرسله علي بن محمد العسكري وكان يغلو في أبي الحسن علي، ويقول فيه بالربوبية، ويحلل نكاح المحارم، وأن الوزير محمد بن الحسن بن الفرات كان يقوي أسبابه ويعضده[2]، هذا افتراء عليه. كان أهل عصره يلقبونه بالزاهد، وكان صوفياً يقول بوحدة الوجود، ومن بعد محمد بن جندب، قام بأعباء الدعوة عبد الله بن محمد الجنان الحنبلاني (235- 287هـ) وكان صوفياً وله طريقة هي الطريقة الحنبلانية، تقول بالحلول وتعرف على شاب عربي من بني تغلب في بلدة أبي الخصيب قرب البصرة هو **الحسين بن حمدان الخصيبي** (260- 346هـ)، تحت ضغط الشيعة الاثنا عشرية انتقل إلى حران عام (320) وفي حران اطلع على الفكر العرفاني (الهرمسي) واطلع على أسرار الصابئة الحرانية وأطلعه آل شعبة الحراني على رسائل إخوان الصفا، وتحت تأثيرهم كتب عدة كتب ورسائل منها كتاب الأنوار والحجب وكتاب المعاني في معرفة المثاني، وهو أول كتاب

يفسر القرآن الكريم بطريقة التأويل المعتمد على تعاليم جعفر الصادق (ع). وعندما جاء سيف الدولة إلى حلب عام (334هـ/ 946م) انتقل الحسين بن حمدان إلا بلاطه، لا سيما وأنه تجمعهما وحدة النسب والعقيدة، وصار الحسين هو القدوة لسيف الدولة، يؤمه في الصلاة حتى لقب بالشيخ القدوة، وتعرف الحسين بن حمدان بفكر الفارابي (محمد بن محمد بن طرخان) (المتوفى 339هـ/ 951م).

كان على الحسين بن حمدان أن يعيد إنتاجه الفكري في هذا الوسط المتعدد الثقافات في حلب، وصارت نظرته للحياة ولأمور الدين أكثر عمقاً، وأبدع كتابات تتفق ومعطيات المجتمع الجديد. وهنا بدأت مرحلة جديدة هي: **مرحلة التأسيس والتأصيل** (235- 246هـ).

بدا للجسين بن حمدان الخصيبي أن الإسلام لا يتناقض والفلسفة اليونانية وأن في قول أفلاطون الحق (أن النفس موجودة قبل البدن، وأنها تنتقل من جسم إلى آخر بالتناسخ (التقمص) وأنها خالدة، وأن النفس العارفة للباري سبحانه بعد موتها تصير إلى باريها وتظفر بالسعادة الأبدية، وأن النفس الجاهلة تظل بعد الموت تبدل أجسادها، حتى تتطهر).

كما أخذ الحسين بن حمدان بنظرية أرسطو (بأن النفس هي كمال الجسد الإنساني وأنها تفيض عن واهب الصور (الله) عند تلقيح البويضة، ويصبح الجسد في الرحم قابلاً للحياة). ورفض الحسين أن النفس تفنى بفناء الجسد كما يقول أرسطو.

ناقش الحسين أبا نصر الفارابي في أمور كثيرة، وعلى ضوء فلسفته كتب كتابه (المرشد لسيف الدولة) وضَّح فيه معاني النبوة والإمامة، وأودعه علم الإمام جعفر الصادق (ع) من هنا صار يقال للنصيرية إنهم جعفريون.

وللحسين بن حمدان مساهمة أفلوطينية واضحة في رسالته المراتب والدرج عند حدوث الظهور الإلهي، وهنا يتطابق اللاهوت المسيحي ونظرية الحسين، وذلك أن الملائكة خلقوا قبل هذا العالم، وكانوا أجساماً نورانية، بينما هم عند علماء المسلمين السنة أنهم خلقوا بعد خلق السموات والأرض وأن الأجسام النورانية - عند الحسين - يمكن أن تتجلى بالجسدانية، وضرب مثالاً على ذلك تجلي جبريل بصورة دحية الكلبي، وكما تجلى الإله في الإمام علي أثناء حصار خيبر، وحمله باب القلعة لوحده. والحسين بن حمدان هو الذي أطلق على الإمام علي لقب أمير النحل، وهو اللقب الذي أطلقه أهل حران على فيثاغورس، جاء في رسائل أخوان الصفا، قال فيثاغورس لتلميذه ديوجانس «إذا فارقت هذا البدن فإنك تصير نحلاً في الجو، وتكون حينئذ سائحاً، في عالم الأفلاك غير عائد إلى الأنسية»[3].

قال المنتجب العاني:

فصاح فيهم أمير النحل من غضب　　　أنا عليٌّ فلم تحملهم الركب

أبو الحسن محمد بن علي الجلّي (346هـ - 385هـ)

ولد في أنطاكية وتعلم فيها علوم الأوائل، وسمع من علماء النصارى، ثم جاء إلى حلب ودرس على الحسين بن حمدان الخصيبي، وتروض بالمعارف الفلسفية، وسمت به تصوراته إلى ما وراء الحواس بالرياضة الروحية، ووصل إلى الخالق المبدع وتبين له أن الله مفارق للمادة، إلا أنه تأنس في شخصية المسيح، وأن محمداً هو الإنسان الكامل إنه النور الذي تخطّى الحدود البشرية.

في هذه المرحلة صار للدعوة النصيرية مركزان: **المركز الأول** في بغداد يشرف عليه الداعية علي الجسري، ولكن هذا المركز ظل فقيراً في إنتاجه الفكري.

أما **المركز الثاني** فهو مركز حلب واللاذقية وهذا المركز غني في معارفه الفلسفية، العرفانية. يقول لويس ماسينيون: «إن الثالوث المقدس عند الجلّي هو الثالوث المقدس عند صابئة حران، وفيه رمز للشمس بمحمد، وبالقمر إلى علي وبالسماء إلى سلمان ستر الإمام»[4].

أبو الفضل المنتجب العاني (330- 400هـ)

ولد محمد بن الحسن النميري في عانة عام (330هـ/ 942م) وهو من عشيرة أبي شعيب محمد بن نصير، درس القرآن وتعلم اللغة في عانة، ثم انتقل إلى الرقة وتعلم الحديث، ثم انتقل إلى حران واطلع على الحكمة العرفانية، ثم توجه إلى حلب، واتصل ببلاط سيف الدولة، وفي حلب درس الفقه الجعفري على الشيخ أبو الحسن محمد بن علي الجلّي، الذي أدخله في الطريقة الجنبلانية وهي طريقة صوفية ذات جانب عرفاني، وأطلعه على أسرارها، وكان كفيله جمال الدين محمود بن طرخان الدهان، يقول المنتجب:

فمن كالعفيف سراج الظلم؟　　　أخو همة فوق الهمم

سقاني بكاس يروي الظمأ　　　فنلت به الرشد بعد العمى

ودرس في حلب فلسفة الفارابي (أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان) المتوفى 339هـ، ويشير المنتجب إلى تلك الدروس التي حصل فيها الحكمة. قال:

إني حلبت الناس أبغي الوفا　　　فضح لي من حلب الحلب

عاش المنتجب فترة طويلة في حلب، وتعرف على الشيخ علي بن بدران الخديجي النميري، وصار من أحب أقرانه في الدراسة وفي المذهب الصوفي العرفاني حتى قال عنه:

حتى إذا ما أكمل الخصال   وتمـــم الله له الجـــلالا
وعم إخوان الصفا أفضال   ونال من كسب العلا ما نالا
راح يؤم العالم القدسيا

بلغ المنتجب مكانة عالية في الطريقة الجنبلانية، وألزم نفسه بالرياضة والمجاهدة الروحية، وقد عبر عن ذلك بقوله:

قوم يبلغ الراجي بهم المنى   يسمو إلى كل علوي ونوراني
هم في اليقين أحبابي وهم عددي   على الخطوب وهم في الدين إخواني

صار الشعر يتدفق من فمه الذهبي، إلا أنه أقسم على كتمان السر ووفى، ولكنه عبر عن الحقيقة المحمدية التي هي نور أزلي، سرى نوره من آدم إلى محمد واستقر في علي، ألم يقل في تجليه الأول: ألست بربكم؟

قال المنتجب:

وقد كان أبداً الميم من نور ذاته   فخرت له الأفلاك من قبل سجدا
دعاه العلي الشأن فينا محمداً   وكان دعاه في السموات أحمد
هو البيت والعرش المكين لعارف   وأول نور كان لله وحدا

وأما عن الذات الإلهية التي هي المعنى الجامع والسر الخفي، قال:

دعاني الإله فلبيته   ويوم الأظلة ناجيته
وفي السر أخفيته   فهذا الذي كنت عانيته
به أتقي غاسقاً إذا وقب

تعمق المنتجب في دراسة فلسفة أفلوطين (205 - 270م) من خلال دراسته لكتب الفارابي ثم انتقل إلى أنطاكية، وعاشر الرهبان، واطلع على اللاهوت المسيحي وكون رؤية دينية كونية متسامحة مع جميع المذاهب والديانات، أقامها على المحبة، فهو بذلك سبق في دعوته الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي، الذي تعلم منه عدم التعصب وعدم إلغاء الآخرين، إذا لم تكن ديانتهم إلى دينه دان، وصار ساقيه الشيخ علي بن بدران، الذي شرب من كأسه المحبة، فارتفع فوق كل الديانات وقال في حالة سكره الإلهي:

وموســـوي مســـيحي أنـــا وإلـــى   محمد رحت عن قصدي ببرهان
فسـمني وادعني في كل منزلة   بمســـلم ويـــهودي ونصرانـــي

وخلني وبغيتي في أبي حسن فليس شأنك في حكم الهوى شأني
حظيت منه بكنز لا يد كما بليت يا عاذلي منه بحرمان
وزر علي بن بدران تجد رجلاً مهذب النفس في علم وعرفان
واسأله عن باطن الأمر الخفي وخذ منه هدى لا يغيره الجديدان

وبعد وصوله إلى مرحلة السكر الإلهي، صار الله سبحانه وتعالى هو بغيته، يراه في كل كائن يصادفه، قال في ذلك:

وباطن ظاهر إن غاب عن بصري فإن معناه باق غير مفقود
أبرأ إلى الله من ضد يعاندكم أو منكر عن جناب الحق مطرود

كان شعر المنتجب الصوفي مثقلاً بالرموز والإشارات الإلهية اللطيفة، حتى صار شعره من غرر الأدب العربي، وكل ما يرجوه من شعره النجاة، وركوب شفينة محمد وعلي وسلمان وبدت له الظهورات الإلهية السبعة في هابيل وشيث ويوسف وآصف وشمعون وعلي، وكل هذه الظهورات ذاتية، يتجلى فيها الإله حيناً ويغيب حيناً آخر عن الأبصار، وهو يأمل بظهور المولى على أسد من عين الشمس، والذي سيراه كل محب، صفت نفسه من كل كدر، وهاجر إلى حلب طلباً في محبتهم[5]، التي هي سفينة النجاة، وأداة معرفة الباطن، وبلوغ معانيه السامية، فالصوم له ظاهر هو الامتناع عن الأكل والشرب وله معنى باطناً، يقول المنتجب:

فظاهر الصوم إمساك وباطنه معنى يخلّص واعيه وينجبه
فكل يوم بشخص كالقشور على لب وفي اللب ما يغني لراجيه
وها أنذا أذكر الأشخاص عن كتب وكل شخص بما يدعى أسميه
هذا لعمرك شهر الصوم قد ذكرت أشخاص أيامه فاطلب لياليه

وهو لا يفصح أحياناً عن أشياخه خوفاً عليهم من وشاية الأعداء، وإنما يذكرهم باسماء ملغزة، كما نصح ثابت بن قرة الحراني، في رسالته المسماة (لم يلغز الناس في كلامهم؟) يذكر العلامة أسعد علي، أن المنتجب حين يمدح أشياخه في قصيدته عرائس يسمي إمامه (هالت) وكفيله باليتم، وشيخه بالباب وهو يدرك ويعي أسماءهم في سره ويناجيهم دائماً وأبداً، يقول:

عليهم سلام طيب النشر ما بدا صباح وما غنى الحمام وغردا

إلا أن الدكتور أسعد علي يفصح لنا عن سر انتساب المنتجب إلى الخصيبي في صوابه، وهو نصيري في يقينه، مقر بسر المعنى الإلهي، وحقيقة النور المحمدي، ولطف الضياء البابي، يذكر العلي في نشأته الأولى: حين دعاهم ألست بربكم؟ فلباه بالاعتراف له بالألوهية، وناجاه يوم الأظلة، وأخفى تلك المعرفة في سره، وعلى ضوء هذه المعرفة الأزلية يتمسك بالحق ويدعو له في كل جيل، هذه هي الحقيقة الأولى، وعندما دعا إليه محمد بن عبد الله في رسالة الإسلام. والحقيقة الثانية حقيقة (الميم) ويعني به محمداً. أما الحقيقة الثالثة فهي حقيقة (السين) ويعني به سلماناً، وهو استمرار للحقيقة الثانية التي فاضت عن نور الحقيقة المحمدية، التي فاضت من قبل عن نور الحقيقة الأحدية الجليلة عن صاحب يوم الغدير[6].

نظرية الفيض هذه هي نظرية أفلوطين المصري، الذي أثر في كل المذاهب الباطنية الإسلامية.

عاد المنتجب إلى عانة بعد عام 385هـ، ودعا للحق وكثر أتباعه في حديثة وهيت وبغداد والرقة، وتوفي سنة (400هـ/ 1010م) ودفن في عانة بجانب الطريق، وفي عام 1979 في شهر شباط زرت قبره قبل بناء سد عانة، وسألت عن مصير القبر فقالوا لي: نرفعه إلى أعلى الجرف العالي.

خلَّف المنتجب رسائل وكتابات نثرية، وديوان شعر هو سفر العقيدة الجنبلانية، فيه وصف للأعياد الدينية، والأعياد لدى العلوية كالمشاهد لدى الاثني عشرية. وكانت الأعياد في زمانه تلعب دوراً في عقائد العوام. ذكر صاحب الأغاني «كان أحد الشعانين يوم عيد عند العامة، وهو عيد الأشجار، وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين، يظهرن في قصر الخلافة في بغداد متزينات في ثياب جميلة غالية وفي أعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون»[7].

وكان المسلمون والمسيحيون يعيدون في أعياد الميلاد والفصح والشعانين، والمسلمون الشيعة يعيدون في عيد الغدير، وعاشوراء في ذكرى قتل الحسين (ع). وتعيد السنة في أعياد رمضان والأضحى والشعانين والنيروز والمهرجان، أما العلويون فكانوا يعيدون في كل تلك الأعياد، وقد وصفها المنتجب بقوله:

فجماعة الأعياد عندي تسعة	وثلاثة للمرء في حسبانه
منها ثمانية أتت عربية	نقلاً يقوم الحق في برهانه
وبالفاسية أربع مبثوثة	لمحقق للنقل في ديوانه
نأتي بذكر المهرجان وإنه	عيد يقوم الوقت في ميزانه
من بعده الميلاد وهو مشرّف	فتنعم اللذات في إحسانه

فيــه ظــهر لنــا المســيح مخلّصــاً ومبشّــراً يدعــو إليــه ديانــه
يتلـــوه آذار وســـابع عشـــرة فـــتركض الأفـــراح فـــي ميدانـــه
وقرينـــه ميقـــات أنـــس حـــده فـــي الرابـــع الميمـــون مـــن نيســـانه
يضحـي أخـو التحقيـق نشـواناً بــه وأكلـــه الزيتـــون تيجانـــه
واشــكر مــن أولاكــها مــن نعمــة واعمــل بمــا ترجــوه مــن غفرانــه

أبو سعيد القاسم بن ميمون الطبراني (358- 426هـ)

يعتبر هذا الإمام أكبر كاتب علوي. ولد في منطقة طبرية بفلسطين، ودرس في بانياس الجولان، ثم في حلب، على المنتجب العاني، وذهب إلى مصر وقابل دعاة الإسماعيلية ودرس مؤلفات الداعية محمد بن أحمد النسفي (المتوفى 331هـ/ 943م) مثل كتابه المحصول، وأثارت فكره قوله: إن كل الشرائع بحاجة إلى شريعة ظاهرة منزلة في غياب الإمام المنتظر[9]. وفي القاهرة اطلع على كتاب أبي يعقوب اسحق بن أحمد (271- 331هـ) (إثبات النبوة) الذي جاء فيه أن الفكر العرفاني واضحاً لا لبس فيه، يقول «إن العقيدة الأصلية لمؤسس الدين الصابئي، قد تعرضت للتشويه إبان الفترة المؤقتة، لدور الناطق الخامس المسيح (ع) على يد الخصوم أمثال ماني وابن ديصان ومرقيون، وهم الذين أساؤوا تفسير العقيدة، وإن الخلفاء والأئمة الذين ستبقى ذريتهم إلى يوم القيامة، لن يقدموا على إلغاء الفرائض من الشريعة، دفعة واحدة، إلا أنها ستلغى تدريجياً من قبل الأمة، وإنه لن يبقى منها أثر بحلول زمن القائم صاحب الزمان، وأن النبي محمد ألف القرآن بما استفاده من العالم الروحاني»[10].

لم يقبل أبو سعيد هذه الآراء، فالدين لا بد له من ظاهر وباطن، ولا بد له من الشريعة وأن القرآن الكريم من وحي العلي العليم، ورد عليه ومن تلك الكتب كتاب (المجموع) (مجموع الأعياد) فسر فيه ما جاء في قصيدة المنتجب العاني ورتبه على شكل سور وأدعية. ففي السورة رقم (5) يقول: أشهد أن سيدي أمير النحل علي، أبدع محمداً من نور ذاته، وسماه اسمه ونفسه وعرشه وكرسيه وصفاته، وهو متصل به بالنور، ومنفصل عنه بمشاهدة الظهور، فهو كشعاع من القرص أو كالحركة من السكون.

وفي السورة رقم (6) يقول: أشهد أن الصورة المرئية التي ظهرت في البشرية هي الغاية الكلية، وهي الظاهرة النورانية، وليس له سواها، وهي الاسم العظيم والمعنى

القديم، وقال أبو عبد الله محمد بن شعبة الحراني في تفسير هذه السورة في كتابه المخطوط الأصيغر «عدلاً منه وإنصافاً، لئلا يكون على الله حجة بعد الرسول، أنطق البشر وأظهر المعجزات والقدرة، ليدلهم على ذاته، فكان ظهوره قدرة، ونطقه حكمة، ودلالته على ذاته رحمة وغيبته عظمة»(11).

تأثر أبو سعيد الطبراني بالدعوة الإسماعيلية، والقسم الذي يقوله الشاب عند بلوغه التاسعة عشر، وإن أراد الدخول في الدعوة «وحق العلي الأعلى، وما أعتقده في المظهر الأسنى، وحق النور وما نشأ منه، والسحاب الساكنة، وإلا برئت من مولاي العلي العظيم، وولائي له، وكشفت حجاب سلمان بغير إذن، وبرئت من دعوة الحجة، وخضت مع الخائضين، في لعن ابن ملجم، وكفرت بالخطاب، وأذعت السر المصون، وأنكرت دعوى أهل الحق، وكنت مع قابيل على هابيل، ومع النمرود على إبراهيم، ومع كل فرعون قام على صاحبه إلى أن ألقى العلي العظيم، وهو علي ساخط».

قام أبو سعيد بمحاربة الضد إسماعيل بن خلاد الذي نازعه في زعامة المذهب، واستطاع الانتصار عليه، بل قتله، وقبره اليوم في مدينة اللاذقية يعرف بالشيخ قرعوش، توفي أبو سعيد عام (403هـ/ 1013م).

الأمير حسن بن يوسف المكزون السنجاري (583- 638هـ)

ولد في سنجار عام (583هـ/ 1188م) وتعلم القرآن الكريم والعربية وعلوم الدين، ثم هاجر بقومه إلى الساحل وسكن منطقة سيانو (قرب جبلة) عام 617هـ، وعاش زاهداً، وكان صوفياً، اعتمد على فلسفة إخوان الصفا، وكان شعره يعكس تعاليمه، ونفسه المتطلعة دائماً للاتحاد بالله، النعيم الدائم، قال:

تجرد وجدي فيك عن كل صورة   وعدت بها الزهاد في جنة الخلد
فأصبحت في قصدي إليك موحداً   لحسنك لما كان في غير زهدي

كان الأمير حسن لا يفصل بين الشريعة والطريقة، وله رسالة سماها (تزكية النفس في معرفة مواطن العبادات الخمس) كتبها في رمضان سنة (628هـ/ 1231م) على أثر مناظرة جرت بينه وبين الفقيه الشافعي الموفق بن مكة في الجامع الأموي الذي اتهم العلويين بترك العبادات، ورد عليه الأمير بهذه الرسالة التي تعكس اعتقاد العلويين الحق، قال:

الصلاة: فرضها الله ليزيل بها مقت الكبر، من رؤوس المتكبرين في السجود لله والخضوع بين يديه.

الصيام: وفرض الصيام امتحاناً للنفوس بالصبر عن اللذات الحسية، وتقويتها لقبول الملذات القدسية، ولترق بالصيام القلوب، وينقمع به سلطان الشر، وتلين قلوب الأغنياء للفقراء بالآلام الداخلة على نفوسهم من قبل الجوع.

الحج: وفرض الحج ابتلاء للنفوس بالطاعة في التوجه إلى البيت الموضوع ببكة ليميز بين الطائعين من العاصين، وتنبيهاً على مقابلة شعائر العارفين.

الزكاة: فرضها الله ليواسي بها الأغنياء الفقراء مما أفاض الله عليهم من فضله فيصلح بذلك معائشهم.

الجهاد: وفرض الجهاد لقطع دابر الفساد من المارقين.

هذه حكمة الله الظاهرة فيما شرع لعباده. أما حكمته الباطنة، ففيها النعمة الشاملة، واللذة الكاملة، والدرجة العليا، والمعرفة العظمى وقد قرن الله سبحانه وتعالى الثواب والعقاب بتركها.

حسين بن حمزة الشيرازي (المتوفى 766هـ/ 1370م)

ولد في شيراز، وساح في الأرض، وحج إلى مكة وزار المغرب، ثم عاد إلى دمشق وعرج على الجامع الأموي، وقال في دعائه (الويل من قتل آل محمد) فعرفه الحافظ المؤرخ الحافظ ابن كثير، ودل عليه بأنه رافضي، وقبض عليه وطلب منه أن يكتب شهادة باعتقاده، وأودع السجن.

كان المناخ الفكري في ذلك الزمن تسيطر عليه نزعة التكفير لكل من لا يتفق مع فكر ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم الحراني المتوفى 728هـ 1328م) وكانت له مجادلات كفَّر فيها العلامة الحسن بن المطهَّر الحلي (المتوفى 726هـ/ 1326م) كان اعتقاد بن تيمية بالشيعة أنهم شابهوا اليهود بالخبث والهوى، وشابهوا النصارى في الغلو والجهل، وهم معروفون بالكذب والوضع، فرد عليه ابن المطهر الحلي بكل أدب قائلاً[12]:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى طراً لصرت صديق كل عالم
لكن جهلت فقلت إن جميع من يهوى خلاف هواك ليس بعالم

كتب الشيرازي في السجن رسالة التنبيه، قال فيها: «كتبتها لإثبات الباري سبحانه والتأييد والتسديد المتجلي لهم في ذاته وأفعاله، بمحاسن أوصافه، المعرف لهم في ذاته، إنه واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، هو الأول والآخر، والباطن والظاهر، وهو بكل شيء عليم».

وقدم للمحاكمة بعد أربعين يوماً وحكم عليه في شوال سنة (766هـ/ 1367م) بالموت بموجب فتوى ابن تيمية في حق النصيرية «النصيرية كفار باتفاق المسلمين، لا يحل أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرون بالجزية، وأنهم مرتدون عن دين الإسلام، وليسوا مسلمين ولا يهود ولا نصارى، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، ولا وجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما»[13].

وضع الطائفة العلوية في عصر الانحطاط

تعرض العلويون (النصيرية) للاضطهاد، من قبل السنة، ولأعطيك صورة عما تعرضوا له أذكر لك بعض الحوادث التاريخية. في سنة (705هـ/ 1306م) جرد عليهم الشيخ ابن تيمية حملة دمر قراهم في الجبل، وأباد منهم خلقاً كثيراً بحجة أنهم من الفرق الضالة[14]. وامتد تحريض ابن تيمية ضدهم، فهذا تلميذه ابن كثير يزوّر ويتصور أحداثاً باعتقادي لم تقع وإنما ذكرها، ولم يذكرها غيره ليشفي غليله، قال: خرج المهدي الضال محمد بن الحسن (الحجة المنتظر) بأرض جبلة سنة (717هـ/ 1318م) وادعى أن علي بن أبي طالب هو فاطر السموات والأرض، وأن محمداً بن عبد الله صاحب البلاد، خرج يكفر المسلمين وأن النصيرية على حق، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقاً من أهلها، وخرجوا يقولون: لا إله إلا علي ولا حجاب إلا محمد ولا باب إلا سلمان، وسبُّوا الشيخين، وصاح أهل جبلة مستغيثين (واإسلاماه) فلم يكن لهم ناصر ولا منجد، ونودي في تلك البلاد أن المقاسمة في العشر لا غير ليرغب الناس بالنصيرية الذين أمروا بخراب المساجد، واتخاذها خمارات وكانوا يقولون لمن أسروه: قل لا إله إلا علي، واسجد لإلهك الذي يحيي ويميت، حتى يحقن دمك. فجردت إليهم العساكر فهزموا وقتلوا وقتل المهدي أضلهم، وسيكون يوم القيامة مقدمهم إلى عذاب السعير[15].

هذه واقعة لم يروها أحد من المؤرخين، فالإمام الحجة محمد بن الإمام الحسن الجواد لا يقول العلويين برجعته، وأما محمد بن عبد الله (ص) فهو النبي وليس بصاحب البلاد، ولم يحكم جبلة حاكم اسمه محمد بن عبد الله، وهذه التهمة التي لا صحة لها لاحقت كل الفرق الشيعية المغالية (النصيرية والإسماعيلية والموحدين الدروز) الذين يعتبرهم ابن خلدون من الغلاة وهم «الذين تجاوزا العقل والإيمان في القول بألوهية الأئمة. إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاتهم البشرية»[16].

كان ابن تيمية من الحشويَّة الذين يجسِّدون الله سبحانه وتعالى بجسد وقد وصفه ابن بطوطة عندما زار دمشق وحضر له خطبة الجمعة، قال إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، كنزولي هذا، ونزل من درجات المنبر، وأنه يتكلم بحروف وصوت، فقدم للحاكمة في شهر رمضان سنة (706هـ/ 1307م)، وسأله القاضي الشمس بن عدنان في مسألة العرش ومسألة الكلام وفي مسألة نزول الله. وطلب منه الجواب. فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه، وصار يخطب فقيل له: ما جئنا بك لتخطب؟ فقال: ومن الحاكم فيّ؟ فقيل له القاضي المالكي ابن مخلوف. فقال: كيف تحكم فيّ وأنت خصمي؟ فغضب القاضي غضباً شديداً وأمر بحبسه في البرج، ثم نقل ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب[17].

وهكذا أودع ابن تيمية في الحفرة التي حفرها لغيره، وحكم عليه وأدين بما كان يقول ويظلم ويدهر على خصومه، وكان خصمه الشيخ محمد بن أبي بكر أبي القاسم الهمداني (635- 721هـ) يرد عليه ويدافع عن الفرق الإسلامية وغيرها. وظهر له كتاب بعد موته يدافع فيه عما يحدث لليهود والنصارى وأهل الأديان الفاسدة، وكان رحيماً في حكمه على الشيعة ويعدهم من الفرق الناجية[18].

هذا الكلام يورده ابن كثير تلميذ ابن تيمية.

وعندما جاء السلطان سليم إلى سورية عام 1516، اضطهد العلويين في حلب ومرعش ومرسين وأنطاكية وجبلة وكل مدن الساحل، فانكفؤوا إلى الجبال. والسؤال الملح: ماذا فعلت العزلة بالعلويين؟

عاشوا تحت إرهاب الدولة، وصاروا يجترون موروثهم الديني والثقافي، وزاد جهلهم، وكثرت الخرافات بينهم، وصارت كل قرية تنقاد لشيخ خاص، وظهرت زعامات ملهمة دينياً إلى جانب الزعامات العشائرية، وظهرت لديهم طائفتان مستتيرتان هما:

الطائفة الحيدرية: حول أنطاكية وشمال اللاذقية، تميز شيوخهم بإطلاق لحاهم، وصاروا يرون الإمام علي في القمر.

الطائفة الكلازية: وهم قوم حليقي اللحى، وهم يرون الإمام علي في الشمس، وكانت كلتا الطائفتين تفسران العقيدة بما لديهم من مخطوطات وكتابات سرية، وبما أن أفكارنا حول العالم وسيرورته تابعة لحياتنا المعاشة، ولعلاقاتنا الاجتماعية، فقد تولدت أنماط جديدة من المحرمات والمقدسات، وأصبح الدين له وظيفة أساسية هي تقوية الأواصر والروابط التي تضم الفرد إلى الجماعة.

وظهرت لدى الطائفة العلوية فكرة محورية أن علياً كان موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، وينسبون إليه قولاً «كنا أظلة عن يمين العرش، فسبحنا فسبحت

الملائكة بتسبيحنا، فتلك الظلال والصور التي تنبئ عن الظلال هي حقيقة، وهي مشرقة بنور الرب إشراقاً لا ينفصل عنها، سواء كانت في هذا العالم أو في ذلك العالم» وينسبون إلى الإمام علي «أنا من أحمد كالضوء من الضوء».

هذه النظرة الأفلوطينية مستمدة من الموروث الذي وجدوه في المنطقة. يقول المستشرق المجري جولدتسيهر (1850- 1921) «بقيت الوثنية القديمة في أودية لبنان والساحل السوري، وشكلت ظاهرة توضعت في الفرقة النصيرية، التي تسكن في المناطق الواقعة بين طرابلس وأنطاكية، والتي يغلب على مذهبها المذهب الاثني عشري، وأفكار وعقائد أخرى، مع ملاحظة أن المسيحية ذاتها، لم يثبت لها قدم إلا بعد وقت طويل»[19].

اهتم المستشرقون بالمذهب العلوي، ونشر المستشرق الألماني وولف سنة 1849م مخطوطة (تعليم ديانة النصيرية) في لايبزيج، وتلاه المستشرق الفرنسي دوسو وكتب كتاباً بعنوان النصيرية من مصادرها طبع في باريس 1900م.

وعندما اطلع المستشرق لويس ماسينيون (1883- 1962) على الديانة العلوية في عام 1937 وعلى كتابات أبي سعيد الطبراني لاحظ أن الظهورات الإلهية السبع ربطها بالعقائد الهرمسية وقال: «كانت نفوس النصيرية في البدء كواكباً وستعود كواكباً، ولكن أبا سعيد الطبراني عدّل في الصورة مضيفاً إليها، أن البشر كانوا في البدء أجساماً نورانية غير حية، وانعشت منها الحياة بمجرد أن نزلت عليها نقطة مطر فتوهب لها نفساً»[20].

لقد أنصف الكثيرون الفكر العلوي بعد اطلاعهم على ما لدى الطائفة من كنوز فلسفية، مثل كتابات الشيخ أحمد بن جابر الغساني (المدفون في قرفيص) وكتابات الشيخ المنتجب العاني (المدفون في عانة) والأمير المكزون السنجاري (المدفون في كفرسوسة) تبين لهم أن العلويين مذهب جعفري خالص معبر عنه بصورة صوفية. يقول المنتجب العاني:

مولى إذا قلت أني عبد طاعته	أطاعني الكون من أقصى نواصيه
عرفته حين كون الدر منبسطاً	يزداد من نور باريه تلاليه
ونلت من حضرة اللاهوت كأس	هدى منزهاً عن قذى شك وتمويه
صهباء كانت ونون الكاف ما برزت	والشيء مندمج في علم باريه
ختمت سمعي وطرفي في هواه فلم	انظر سواه ولا أصغي لواشيه

ليت كل نوايا المستشرقين صافية، لقد استمال المبشرون البروتستانت في أضنة أحد أبناء الطائفة العلوية المدعو سليمان الأدني، وكتب كتاباً باسم (الباكورة السليمانية) طبع الكتاب في بيروت 1863، حشي الكتاب بأكاذيب وخرافات وحقائق، ليسهل قبوله ويصدق من قبل الدولة العثمانية.

العلويون في العصر الحديث

عندما صدر الأمر السلطاني بحرية الأديان في عام 1856م، بدأ العلويون ينزلون من جبالهم باتجاه المدن الساحلية وإلى السهول في الجانب الشرقي لجبالهم، ولم تعد الحملات الظالمة تجتاح المدن مثل حملة والي طرابلس مصطفى بربر آغا عام 1816م، عندما هدم المساجد في كافة القرى حول جبلة، وقد هدم المآذن بحجة أنها تستخدم للمراقبة.

وفي عام 1918 احتلت فرنسا الساحل السوري، فنهض أبناء الجبل يدافعون عن حرية الوطن وانطلقت من قرية الشيخ بدر إحدى قرى طرطوس بقيادة الشيخ صالح العلي (1919- 1921) وكبّد الثوار المستعمرين الفرنسيين الخسائر الكبيرة، وكانت ثورة الجبل أساس الثورات السورية، قال الشيخ سليمان الأحمد مادحاً الشيخ صالح العلي:

والصالح الأفعال ما برحت لنا	تروي رواة الخير من أفعاله
العالم التحرير والفطن الذي	غنت طيور العفة تحت ظلاله
كالي عرين الدين الوثيق وحافظاً	عقد العهود وتلك بعض خلاله

دخلت مظاهر الحضارة إلى قرى جبل العلويين، وظهر عندهم علماء دين وفكر وشعراء، يحضونهم على فعل الخير والصلاح والتقدم وعلى رأس هؤلاء:

الشيخ سليمان الأحمد (1866- 1942)

ولد في قرية الصلالة، وتعمل القرآن على والده، وانتقل إلى منزل الشيخ إبراهيم صارم كبير العائلة، وعم والده يتعلم الفقه واللغة والحكمة، يقول الشيخ سليمان: وكنت مولعاً بالقراءة في صغري، وما كانت تجاب طلباتي إلا عند العم المقدس المرحوم إبراهيم صارم كبير عائلتنا، وكان يشرح لي من الكتاب الذي كان عليّ درسه، بشرط أن لا أخرج به من البيت، وما أنسى لا أنسى مرة، اغتنمت الفرصة، وانسللت من البيت

سراً لأجتمع عنده بكتاب إخوان الصفا. وكان العم يدرسه لنا، ويتدرج بنا من السهل إلى الصعب، كصعود جبالنا، هضبة بعد هضبة، ويستشهد لنا بقول حكيم المعرة:

لعمراك ما غادرت مطلع هضبة   من الفكر إلا وارتقيت هضابها

كما درس عليه ديوان المكزون السنجاري، ورسائل الشيخ القدوة الحسين بن حمدان الخصيبي، وشعر المنتجب العاني، والشيخ الحكيم أبي سعيد الطبراني ورسائل الشيرازي خصوصاً كتابه التنبيه ورسائل وكتابات أحمد بن جابر الغساني، ورسائل محمد وأحمد أولاد شعبة الحراني، وديوان المتنبي وأبي فراس الحمداني، وكتب الفقه الجعفري. قال الشيخ:

نشأت على الدين الحنيف على يدي   أب من كرام أنجبوا وكرائم

لقنني بالقول والفعل هديه   فأشرب قلبي حب أبناء فاطم

وقد كان حر القول مبلغ علمه   وفي الله لم تأخذه لومة لائم

وفي عام 1896 عندما صار سنجق اللاذقية، أحد السناجق الخمسة التي تتألف منها ولاية بيروت (أنطاكية وعكار وطرابلس واللاذقية ونابلس) وسافر الشيخ سليمان الأحمد إلى أنطاكية، وبعدها إلى طرابلس، واطلع على الثقافة الحديثة، وعلى علوم العربية، مثل ديوان اليازجي، واطلع على كتابات محمد عبده ومحمد رشيد رضا، وجمال الدين الأفغاني، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي، صار يقرض الشعر، ويكتب في الأدب، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية، وعندما زاره لويس ماسينيون عام 1935 في قرية السلاطة نال إعجاب الشيخ الذي قال عنه: «الذي فهمت من شرح حاله، أنه متدين جداً، ويدين بدين الإنسانية، والله المتولي سرائر العباد وإليه المرجع والمعاد». واطلع ماسينيون على حقيقة المذهب العلوي من الشيخ سليمان الأحمد، كتب ماسينيون عن عقيدة النصيرية، واعتبر المذهب أهم ثورة روحية في الإسلام ونقل عن الشيخ سليمان الأبيات التالية:

أين الفناء بذات الله مرتبة   تشرف الواصلين أي تشريف

قد عرّفوها بألفاظ يؤوّلها   كل لمعنى بتصحيف وتحريف

وحدها إنها إخلاص حبكم   لله يا عترة الهادي بتعريفي

وعندما قسّم الفرنسيون دولة سورية إلى خمسة دويلات، وجعلوا اللاذقية مركز دولة العلويين سعى الشيخ سليمان الأحمد للوحدة وعقد العلويون مؤتمراً وأرسلوا

مذكرة إلى وزارة الخارجية في شهر تموز 1936 جاء فيها: «إن العلويين ليسوا سوى أنصار الإمام علي (ع) وصهر رسول الله (ص) ووصيه، فليس الكاثوليكي والأرثوذكسي والبروتستانتي سوى مسيحيين، كذلك العلوي والسني ليسوا سوى مسلمين، وإن القرآن الكريم كتاب العلويين، سواء أكانوا طلاب وحدة أم طلاب انفصال، ومن كان القرآن كتابه فهو مسلم أحب أم كره، إلا أن يرتد عن الإسلام، وإننا نرفض دولة العلويين».

حث الشيخ سليمان الأحمد الشباب العلوي على التعلم، فكان الطالب وهو ينكش تحت شجراته أو يسوق البقرات إلى المرعى، يرافقه الكتاب، وكان هذا دأب الفتيان والفتيات.

وكان ابنه الكبير بدوي الجبل قال في حق والده في يوبيله الذهبي الذي كرمه فيه أهل اللاذقية في 14 تشرين الأول عام 1938، قال بدوي الجبل:

إذا ملكوا الدنيا على الحر عنوة مضى نفسه دنيا هي العزّ والكبر
وإن حجبوا عن عينيه الكون ضاحكاً أضاء له كون بعيد هو الفكر

الأديب والشاعر ممدوح عدوان (1941- 2005)

قال الدكتور محمود السيد وزير الثقافة في رثائه «حمل بين جنبيه نفساً وثابة، وتواقة إلى النجوم، فحملها على الخطر العظيم، انطلاقاً من إرادة وتصميم وصبر ومثابرة، فعبر الطريق مخلفاً وراءه قريته الوادعة (قيرون) إلى صخب المدينة (دمشق) وضغوط الحياة فيها»[21].

وأطلق عليه الدكتور علي القيم لقب (زوربا العرب) وقال في رثائه: «كانت حياتك مترعة بالأماني، ويألف نشيد ونشيد، وها هي الحياة تعبر سريعة، كأن الأيام لحظات سلكت الدروب، وسافرت إلى المدن البعيدة، تحمل على كتفك، صخرة سيزيف وقلق جلجامش، تقف في حيرة تتكرر هنا وهناك تنتظر الكون الأخضر ويكون الأحمر هو الثابت ويستقبلك الزمن بمسافات»[22].

كان ممدوح عدوان سليل أسرة عربية بدوية الأصل، كان اسم أمه وضحة وجده لأبيه عدوان، على اسم قبيلة عدوان القيسية، نمر بن عدوان صاحب الملحمة الشعبية «نمر بن عدوان ووضحة ست النسوان» وكان اسم أخيه الأكبر نمر.

ولد ممدوح في قرية قيرون قرب مصياف، في 23 تشرين أول 1941، تلقى تعليمه الابتدائي في القرية، أما الإعدادي والثانوي فكان في مدرسة (إعدادية أبي ذر الغفاري) في مصياف عام 1960، ثم انتقل إلى دمشق وانتسب إلى كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية. وتخرج منها عام 1965.

يقول الأديب والصحفي ولبيد معماري «تعرفت لأول مرة على ممدوح عدوان في منتصف عام 1964 في اجتماع اتحاد الطلبة، بجامعة دمشق، حيث كنا طالبين في كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية (وكان بعثياً) وأنا في قسم الفلسفة (وكنت شيوعياً) وتصادمنا وجهاً لوجه، وبدوت مثل بدوي قادم من أقاصي الصحراء، بينما هو مثل قرصان قادم من لجج البحر. ثم سرعان ما حول ممدوح بوصلته نحو الاتجاه الصحيح، وراح يسابقنا في مضمار الثقافة والفكر، ثم سبقنا بأشواط لا ينكر أحد مداها».

كان ممدوح عدوان من عائلة فلاحية فقيرة، ومن أصول علوية، والأسرة هي المؤسسة الأولى التي تعطي الفرد لغته ودينه وقيمه الأولية. وكان ممدوح عدوان كما تروي الكاتبة عبلة الرويني «كان يحكي عن أهل بلدته قيرون، وعن الطفولة، والصبا وعن أخواله وأعمامه، ورجال الدين، وعلوم الباطن، وعن خروجه عليهم إلى علوم الظاهر، لكنه يتوقف دائماً في درس بيئته الباطنية الأولى، ويقصد به ثنائية المعنى، أو مفتاح المجاز الذي هو الباب الحقيقي للأدب، تلك الثنائية التي ضاعفت العمر والشخصية والحياة بهجة وفجيعة»[23].

كان ممدوح عدوان مثقفاً موسوعياً، وذا مواهب متعددة، شاعراً وقصيباً ومسرحياً، وناقداً، وفوق هذا وذاك كان ذا نزعة وطنية جريئاً وحراً، تولى إصدار ملحق الثورة الثقافي عام 1969، وقد وصفه صديقه وزميله الصحفي طالب أبو عابد رئيس مجلة العروبة الحمصية عام 1970، قال عنه: «كان ممدوح في عمله الصحفي برقاً وعاصفة بآن واحد، قد تدوم العاصفة ساعة أو بعض الساعة، ويوشك البرق ألا يمسك به الثانية أو بعض الثانية، أما عنده وفيه يمكنك أن تلمح برقاً وعاصفة اتحدا في حدقتي عينيه، وهما تتأهبان دائماً للإقلاع»[24]. وعن جرأته الصحفية يقول الأستاذ عادل أبو شنب: «دعينا إلى حوار ساخن مع الأستاذ محمود الأيوبي، على مدرج جامعة دمشق عام 1979، ودار الحوار، وإذا بممدوح عدوان يهاجم جزءاً من السلطة وقتئذ سرايا الدفاع ورئيسها (الدكتور رفعت الأسد) هاجمها بجرأة منقطعة النظير غير هياب بما يصيبه من جراء هذا الهجوم»[25].

التحق ممدوح عدوان بخدمة العلم عام 1969 وخدم في التوجيه المعنوي وصار محرراً في مجلة جيش الشعب وكان يراسل المجلة في حرب تشرين عام 1973. واشترك في حرب أيلول الأسود في معركة الكرامة، ونجا من الموت بأعجوبة، وأخرج بعدها مسرحية هاملت لشكسبير، وبعد تسريحه من الجيش تزوج من الفتاة ألهام ورزق بولده زياد.

كان ممدوح عدوان شاعراً وطنياً كتب قصيدة روى عن الخنساء «تبح حناجر النداب، عن ندم بعاشوراء، يهيم النهر كالمجنون، والتمساح يسكب فيه أدمعه، ويملأ جوفه المسعور بالحمأ، لكن القتيل بكربلاء يموت وسط النهر من ظمأ، وآلاف الحناجر كل يوم تتخم الدنيا تؤذن للصلاة والفلاح، ولا يمر الصوت في الصحراء، لينبه غافلاً لا يدري بأن القدر في الملأ. مر جنود هولاكو على أهل القصور وخلفوا جيلاً من اللقطاء جميع رجالنا ماتوا وهم يتلون آيات من الإسراء».

وعندما مات ممدوح عدوان صُعقت الحركة الثقافية العربية، ورثاه عشرات الشعراء، أذكر منهم الشاعر عبد الكريم الناعم صديق ممدوح وهو مثله علوي الهوى فجاءت قصيدته مملوءة بالرموز العلوية، قال:

«هذا الطريق، الذي لم تجد قافلة إلا إليه،
وإن أقوت مرابعه،
عزاؤنا فيه أنّا تلو خطواته
أبا زياد على الجلي نبايعه
وإن أغلقوه على الماضي مكابره،
قد يفتح الباب للآتي مصارعه
إن كان أعيا وصول الطير رحلته
إلى الموانئ، فما أعيت ذرائعه»

وإن كان يحق للإنسان أن يرثي نفسه، فإن ممدوح قال:

أموت، وقد نزفت مخاوفي
ولم يبق مني غير جلد فارغ
قد صار كيساً فيه بعض عظام
فصائغ بأسي المقدور فرغني من الأحلام».

السؤال المطروح: هل يستحق عدوان كل هذا التقدير؟ نعم، لقد كان ممدوح مفكراً حراً، مبدعاً وموسوعياً، خلف أكثر من ثمانين مؤلفاً، توزعت على مختلف النواحي الأدبية: 18 مجموعة شعرية، و29 مسرحية نثرية، و25 كتاباً مترجماً عن الإنكليزية، و16 مسلسلاً للتلفزيون وروايتان، ومن هذه الأعمال: الظل الأخضر ديوان شعر 1967، وتلويحة الأيدي المتعبة شعر 1970، ومحاكمة الرجل الذي لم يحارب مسرحية 1970، والدماء تتدفق من النوافذ 1974، ومسرحية ليل العبيد 1977، وأقبل الزمن المستحيل شعر 1974، وهاملت يستيقظ متأخراً 1977، ومسرحية لو كنت فلسطينياً، وترجم مذكرات كازانتزاكيس (1980- 1983). ومسرحية القناع 1992، وأعدائي

رواية عام 2000، ومسرحية زنوبيا تندحر غداً، والمخاض مسرحية شعرية، والأبتر قصة عام 1970. وقد كرمته محافظة حماة قبل أربعة أيام من وفاته في المركز الثقافي العربي في مصياف بمبادرة من الأستاذ رفعت عطفة صديقه القديم. ومن الشخصيات العلوية النخبة.

قصارى القول

أرسل النجف الأشرف الشيخ محمد رضا شمس الدين في عام 1956م، إلى اللاذقية، وزار القرى والجبال وتعرف على أحوال الطائفة العلوية، وكتب كتاباً (العلويون في سورية) وقد أثنى عليهم ووجدهم يصلون ويصومون، إلا أن ذهابهم للحج قليل، وحدّثه الدكتور حسن الحسن في طرطوس عن رجل قد حج منذ خمسين سنة وبنى مسجداً في قريته. وذكر أن العلويين يؤمنون بالتقمص، وهي الفكرة التي أنكرها عليهم علماء الشيعة والمسلمين السنة[26].

ومن أبناء الطائفة العلوية اليوم، وهم الطليعة، فيهم العلماء والمفكرون والمؤرخون والشعراء، والقصاصون، وعلى رأس الجميع الرئيس الراحل حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية (1971- 2000م) والرئيس الحالي الدكتور بشار الأسد منذ عام 2000م هو رئيس الجمهورية العربية السورية.

أذكر من شخصياتهم العلمية والفكرية، الشاعر والمفكر أدونيس (علي أحمد سعيد إسبر)، والعلامة أسعد علي والدكتور مسعود بوبو، والدكتور محمد سلمان وزير الإعلام السابق، والدكتور محمود السيد وزير الثقافة، والدكتور محمد علي غفر، والدكتور حسين إبراهيم صارم، والدكتور إبراهيم حيدر، والدكتور محمد الحاج صالح، والروائي حيدر حيدر، والمسرحي المرحوم سعد الله ونوس، والمرحوم الشاعر ممدوح عدوان، والكاتب الروائي محمد إبراهيم العلي، والأديب عبد اللطيف اليونس، والشيخ كامل حاتم، والدكتور المؤرخ شاكر مصطفى، والقصاص زكريا تامر، والشاعر عبد اللطيف محرز، والفنان أسعد فضة، والمخرج السينمائي عبد اللطيف عبد الحميد، والدكتور أحمد درغام (دكتوراه بالفلسفة) والدكتور الفنان أحمد معلا (فنان تشكيلي) والدكتور حامد خليل (فلسفة) والأستاذ أحمد حيدر (فلسفة) والدكتور محمد الفاضل (حقوقي وأستاذ جامعي) والشاعر والصحفي يوسف المحمود والشاعر نديم محمد، والمفكر بوعلي ياسين، والشاعر والمترجم أسامة إسبر، والقاضي صديق خيربك، والأديب جابر خيربك والأديبة مريم خيربك، والأديب عبد الكريم ناصيف، والشاعر عبد الكريم الناعم.



مراجع: الطائفة العلوية

(1)مجلة سومر العدد 3 ص8، اسعد علي دمشق 1991.

(2)المقالات والفرق ص100، القمي تحقيق محمد جواد مشكور، مطبعة حيدري طهران 1963.

(3)رسائل إخوان الصفا ج1، ص35، تحقيق بطرس البستاني القاهرة 1928.

(4)عقيدة النصيرية ص60، أبحاث الندورة الفكرية جامعة بغداد 1985.

(5)فن المنتجب العاني ص145، أسعد علي دار السؤال للنشر دمشق 2005.

(6)المصدر السابق ص167.

(7)كتاب الأغاني ج19 ص138، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة 1938.

(8)فن المنتجب العاني ص106.

(9)الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ج2، ص117، فرهاد دفتري ترجمة سيف الدين القصير دار الينابيع دمشق 1995.

(10)إثبات النبوة ص157، السجستاني المطبعة الكاثوليكية بيروت 1966.

(11)مذاهب الإسلاميين ج2 ص492 عبد الرحمن بدوي دار العلم للملايين بيروت 1973.

(12)المنتقى ص22، الذهبي نشر محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية دمشق.

(13)مجموع الفتاوى الكبرى، ج14، ص161، الرياض، مطبعة الدولة 1386هـ.

(14)البداية والنهاية ج14، ص35، ابن كثير دار المعارف بيروت 1977.

(15)المصدر السابق ج14 ص83- 84.

(16)مقدمة ابن خلدون ص832، طبعة بيروت 1906.

(17)البداية والنهاية ج14 ص38.

(18)المصدر السابق ج14 ص101.

(19)العقيدة والشريعة ص220، جولدتسيهر ترجمة محمد يوسف موسى، دار الكتاب المصري القاهرة 1946.

(20)العقيدة النصيرية ص60.

(21)كتاب زوريا العرب ص5-6، إعداد وتوثيق علي القيم وزارة الثقافة بدمشق 2005.

(22)المصدر السابق ص12.

(23)المصدر السابق ص24.

(24)المصدر السابق ص114.

(25)المصدر السابق ص47.

(26)العلويون في سورية ص53 محمد رضا شمس الدين مطبعة الإنصاف بيروت 1956.

الفصل الثالث: الطائفة الإسماعيلية

- المدخل: من هم الإسماعيليون؟ وما حقيقة دعوتهم؟
- تاريخ الدعوة النزارية في آلموت
- تاريخ الدعوة في سورية
- تاريخ الدعوة في فارس والهند
- الأمير كريم آغاخان الرابع



المدخل للبحث: من هم الإسماعيليون؟ وما حقيقة دعوتهم؟

الدعوة الإسماعيلية، هي جزء من الدعوة العلوية، تلك الدعوة المتعددة الأطياف والمذاهب، وهم عند الباحثين من السنة والشيعة، هم من الغلاة، بدأوا بالمذهب القرمطي وانتهوا بالمذهب الإسماعيلي النزاري، والسؤال المطروح: **من هم الإسماعيليون؟**

هم عرب مسلمون، ينتسبون إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق عليهما السلام، ينتسبون إليهما بالولاء. أما الأئمة فهم ينتسبون بالنسب الصريح المتواتر. ولد الإمام إسماعيل (ع) في المدينة، وتعلم في حجر والده جعفر الصادق (ع) تعلم الفقه وألم بعلوم الباطن وحفظ أحاديث أهل البيت. أوصى الإمام جعفر لولده إسماعيل بالإمامة بالنص الصريح المكتوب الذي لا رجعة عنه، وقيل إن الإمام إسماعيل توفي في حياة والده، وكان قد أوصى قبل وفاته بالإمامة لولده محمد بن إسماعيل الإمام السابع، وهرب إلى سلمية خوفاً من الخليفة المنصور، وعاش متخفياً، ودخل هو وأبناؤه دور الستر.

في سنة 296هـ، 902م، هاجر عبيد الله المهدي إلى المغرب، وأعلن الدعوة الفاطمية الدعوة (الهادية المهدية). وفي زمن العز لدين الله أرسل قائده جوهر الصقلي إلى مصر، واستولى عليها وبنى مدينة القاهرة سنة 969م، وحكم من بعده ولده العزيز بالله، وبنى الجامع الأزهر الشريف منارة العلم في العالم الإسلامي، وبلغت الدعوة الفاطمية (الإسماعيلية) ذروتها في أيام الحاكم بأمر الله (996- 1021) وفي عهده ظهرت الدعوة الحاكمية (التوحيد الدرزي) فكان هذا أول انشقاق في المذهب الإسماعيلي. أما الانشقاق الثاني فقد حدث في عهد أبي القاسم أحمد المستعلي، جرى انقسام بينه وبين أخوه نزار وصار أصحاب المستعلي يطلق عليهم الطيبون أو البهرة وصار مقرهم في اليمن والهند، وعرف أصحاب نزار بالحشيشة وانتقلوا إلى قلعة آلموت (عش الغراب) في شمال إيران.

تاريخ الدعوة النزارية في آلموت

ارتبطت الدعوة النزارية باسم الداعية حسن بن محمد الصباح، ولد في الكوفة عام (447هـ/ 1506م) كان من أسرة يمانية هاجر والده إلى الكوفة ثم إلى قم، وتعلم الحسن على والده القرآن الكريم والفقه، ويحتفظ الإسماعيلية بسيرة للحسن

باللغة الفارسية (سرغوداشت- سيدنا) أي سيرة سيدنا كتبها الحسن نفسه، بين فيها مساره الثقافي، وبين حبه لعلوم الأوائل، الفلسفة والمنطق وعلم الفلك والرياضيات، والتقى بالداعية الإسماعيلي عميرة ضراب، وانضم إلى المذهب الفاطمي، وقرأ رسائل إخوان الصفا، وفلسفة الفارابي وابن سينا ويحيى النحوي. واطلع على ما كان يجري من دسائس وصراعات بين الدعاة، وعرف نية قائد الجيش بدر الدين الجمالي (الأرمني الأصل) أنه يريد أن يكون ابن أخته المستعلي هو الخليفة، هرب نزار وابنه منصور إلى الإسكندرية فقبض عليهما وقتلا، وقام الحسن بأخذ ولد نزار الهادي وغادر مصر متخفياً عام 1081. وصل إلى حلب ومنها ذهب إلى أصفهان وفي أيلول (384هـ/ 1090م) دخل قلعة آلموت بواسطة داعي القلعة وقضى فيها حياته.

كيف عاش الحسن بقية حياته؟ قضاها في العبادة، والقراءة والتأليف وكان زاهداً في مأكله وملبسه. قيل استمر في ذلك 35 عاماً لم يبرح حجرته إلا مرتين خرج فيهما إلى سطح القلعة ومرة إلى خارج الأسوار.

نظّم الحسن الدعاة تنظيماً سرياً، وحصن القلعة، وظهر نشاطه في شمال إيران، مما أثار حفيظة الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، فأرسل إليه الحسن من يغتاله وكان ذلك يوم الجمعة في 16 تشرين الأول سنة (485هـ/ 1092م) وعندما جاء الخبر إلى الحسن قال: إن مقتل هذا الشيطان بداية الغفران.

وفي سنة (489هـ/ 1096) توفي داعي دعاة الإسماعيلية عبد الملك بن عطاش وتولى أمر الدعوة ولده أحمد، وطلب منه الملك السلجوقي سنجر حجة إيمانه، فأبى، فحاصر قلعة شاه دز وقبض على الداعية أحمد وسلخه حياً. كان الإسماعيلية يعلنون حجة إيمانهم بأنهم مسلمون، يقرون بالشهادة وبالقرآن الكريم ولا يختلفون عن المسلمين الشيعة في تفريقهم بين الولاية والنبوة، والإمام الولي هو قلب الباطن فيه صفة الله الروحية، وعلمه يعتمد على الكشف والإلهام، وولاية الإمام المعصوم مطلوبة في الباطن ونبوة الرسول مطلوبة في الظاهر (الشريعة).

وفي سنة (500هـ/ 1107م) وصلت قوة عسكرية وحاصرت قلعة آلموت بقيادة الوزير أحمد بن نظام الملك، فصمدت قوات الحسن أمامه ولم تسقط القلعة ورجع خائباً.

استطاع دعاة الحسن قتل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الدين الجمالي في القاهرة، وصارت الدعوة النزارية مرهوبة الجانب في مصر وسورية، وصارت قلعة آلموت مركزاً لتعليم الدعاة، وكان الحسن يعلّم الفلسفة والرياضيات والفلك إلى جانب تعليمه الفقه، وأسس مكتبة كبيرة عامرة بالكتب، يقصدها العلماء من كافة الأقطار، وشاعت كتب الحسن المتأثرة بالفكر الأفلاطوني. يقول برنارد لويس: «غدت هذه

العقيدة بإلحاحها على رفض العالم والإخلاص والطاعة للإمام سلاحاً فعالاً بيد المعارضة السرية. وأصبح الواقع المؤلم للخلافة الفاطمية في مصر محرجاً للدعوة الإسماعيلية الجديدة، مما دعا الحسن الصباح للانفصال عن القاهرة وتحويل الطاعة إلى إمام خفي هو نزار بن المستنصر، مما حرر الدعوة المكبلة فبعثها من هجعتها»[1].

كان الإمام الحسن قد نظم الدعوة على أساس فكري مغاير للفكر الفاطمي، فالإمام لا بد منه في كل عصر، وهو معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر، وحل الإشكالات الواردة في الأخبار والمنقولات، والإمام جارٍ نسبه الذي لا ينقطع لقول رسول الله «كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي». ولا يجوز أن يكون في زمان واحد إمامان، ولا بد لكل إمام زمان من اثنتي عشرة حجة، يتفرقون في الأمصار. ولا بد لكل حجة من معاونين يأتمرون بأمره، ولا بد للدعاة من رسل بينهم وبين الإمام، يرفعون إليه الأحوال ويصدرون عنه الأوامر، واسم هذا الرسول (الجناح). ولا بد للداعي أن يكون بالغاً في العلم، والمأذون بالمكاسرة والمكاشفة أن يكون عالماً على الجملة.

وقع الحسن الصباح مريضاً في ليلة الأربعاء في 23 أيار 1124 وتوفي ودفن داخل قلعة آلموت. قال المقريزي عنه: «كان الحسن رجلاً شهماً، عالماً في الهندسة والحساب وعلم النجوم» وقال عنه برنارد لويس «وكان مفكراً ورجل علم». حتى أعداؤه شهدوا بعلمه، قال أبو حامد الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية) وفيه رد على كتابات الحسن الصباح: «فكم من طوائف رأيتهم اعتقدوا محض الكفر، تقليداً لأفلاطون وأرسطوطاليس وجماعة من الحكماء اشتهروا بالفضل»[2].

إذا كان الحسن الصباح بهذا العلم الواسع، فأين كتبه؟ كل كتبه كانت داخل قلعة آلموت، التي دمرها المغول حين احتلالهم لها عام 1256م. وما بقي منها هي المقتطفات التي حفظها العلماء في الرد عليها.

كان الحسن الصباح قد أخذ الإمام علي الملقب بالهادي ولد نزر إلى قلعة آلموت ورباه وكان الحسن يعمل للزوم الهادي، وكان يسمي نفسه تابع الإمام المخلص، وخلف الحسن كيابزرك اميده من ولد الهادي، وهو الذي علم راشد سنان الدين وأرسله إلى بلاد الشام.

تاريخ الدعوة في سورية

في سنة (545هـ/ 1148م) فتح نور الدين محمود زنكي حصن أفامية الذي كان تحت سيطرة الداعي الإسماعيلي خلف بن ملاعب، بينما كان حصن القدموس بيد الإسماعيلية النزارية اشتروه من أمير مسلم سني في سنة 1137، كما انتزعوا حصن

الخربية من يد الفرنجة، ثم استولوا على مصياف سنة 1140م، ومن بعدها حصلوا على قلعة الكهف، التي حكمها شيخ الجبل راشد سنان الدين. فمن هو سنان؟

هو سنان بن سليمان بن محمد ولد (518هـ/ 1124م) في قرية عقر السودان قرب البصرة، وكان والده معلم صبيان ومقدماً في الدعوة الإسماعيلية (النزارية). تعلم سنان على والده القرآن الكريم والفقه الإسماعيلي، وهاجر باتجاه قلعة آلموت، ودخلها وكان فيها الكيا محمد وله ولدان الحسن والحسين، ووضعه معهما في المدرسة، وصار يبر سنان كولديه، لأنه وجد فيه النجابة والإخلاص للدعوة. وبعد موت الكيا محمد تولى الإمامة ولده الحسن على ذكره السلام، فأنفذ رفيق صباه سنان إلى بلاد الشام وزوده برسائل ممهورة بختمه، وأوصاه ألا يثير ريبة الحكام.

خرج سنان من قلعة آلموت بلا زاد ولا مركوب كي لا يثير الريبة، فدخل الموصل وأقام في مسجد النجارين، وأقام عدة أيام ثم خرج باتجاه نصيبين وحران، ومكث فيهما مدة من الزمن، ثم وصل إلى الرقة، وكانت الرقة من أكبر مراكز الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام. واطلع الداعية على رسالة الإمام، فزوده بزاد واكترى له بهيمة وأرسله إلى حلب مع رسالة توصية، ومكث في حلب فترة وحمل معه رسالة من داعيها واكترى له بهيمة وأنفذه إلى قلعة الكهف، وكان فيها الداعي أبو محمد وهو شيخ صالح، قرب إليه الشاب راشد سنان الدين، وجعله يعلم الصبيان ويطبب الناس، ولما اشتد المرض على أبي محمد أظهر سنان له الرسالة التي أتى بها من قلعة آلموت وتوفي سنة (544هـ/ 1150م) وكان الخوجة علي بن مسعود على القلعة بدون نص مكتوب من قلعة آلموت، ولكن الرئيس أبا منصور ابن أخت الشيخ أبي محمد والرئيس فهد لما علما بالنص المكتوب الذي يحمله سنان دبرا أمر قتل علي بن مسعود عند خروجه للوضوء من الطهارة، وقبض على القتلة ولكن الأمر جاء من قلعة آلموت بإطلاق صراحهما، ومع الرسول رسالة تنص باستلام سنان راشد الدين أمر الدعوة، وصار سنان داعي الدعاة في القلاع العشر. واستولى على حصن العليقة، وأسس في حصن مصياف مكتبة كبيرة تضاهي مكتبة آلموت، وشجع على المطالعة والبحث، وكان هو نفسه يدرّس ويعلّم رسائل إخوان الصفا، وينسخ الكتب بخطه الجميل ويرسلها إلى دعاته[3].

خبر إعلان يوم القيامة في 8 آب 1164

كان الإمام الحسن على ذكره السلام فيلسوفاً متبحراً في الفلسفة وفي علم التأويل، وله اطلاع على الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، وكما أعلن المسيح يوم الدينونة (موعظة الجبل) وفيها ألغى شريعة موسى، كذلك ألغى الحسن فرائض وحدود

الشريعة الإسلامية في يوم الجمعة في 17 رمضان سنة 559هـ/ الموافق 8 آب 1164م. وألقى خطبة بليغة قال فيها: مولانا هو قائم القيامة، ومولى الكائنات، وهو الوجود المطلق، المنزه عن كل التعريفات والتحديدات الوجودية كلها، لأنه يتعالى عليها كلها، يفتح باب الرحمة، ويجعل بنور معرفته من كل كائن ناظراً أو سامعاً، ومتكلماً إلى الأبد، يمر الأنبياء ويتغيرون، أما نحن الأئمة فباقون، لأن النور الذي يشع عن المصباح ليس هو المصباح نفسه، ولكن إذا لم نجد النور فكيف نعلم ما هو المصباح؟ أو نعرف المصباح موجوداً أصلاً، بل وأين هو؟ إن أولياء الله ليسوا نفسه ولكنهم لا ينفصلون عنه[4]. الإمام الناطق هو المظهر الإلهي في الدعوة الإسماعيلية، وهو الذي يحاسب يوم القيامة.

عندما ألغى الإمام الحسن على ذكره السلام الشريعة، وحدثت اضطرابات لدى الإسماعيليين كتب الإمام أعلا محمد عام 1168 رسالة وضح فيها عقيدة القيامة، معللاً السبب الذي من أجله أعلنت القيامة، ولنفي لقب الملاحدة عن المؤمنين أعاد العمل بالشريعة.

ماذا حدث للإسماعيليين في سورية؟

أظهرت جماعة من أهل حلب الفسوق وشرب الخمر جهاراً، وسموا أنفسهم أهل الصفوة، وتبعهم جماعة من أهل جبل السماق في إظهار الخلاعة سنة (572هـ/ 1176م). ولكن الشيخ راشد سنان الدين وقف في وجههم ومنعهم من إظهار الفجور وقتل بعض العاصين، وتآمروا على قتله ولكنهم لم يفلحوا وقبض على المتآمرين.

نظم الشيخ راشد سنان الدين القلاع العشر، بعد الأحداث في تنظيم سري عليه طابع عسكري، وأعاد الفداوية كما كانت في آلموت، وصارت تأتيه الأخبار القريبة بواسطة العسس، والأخبار البعيدة بواسطة الحمام الزاجل، فأرهب الأعداء من الداخل والخارج، حيث كانت هناك قوتان تترصدانه قوة الأيوبيين وقوة الصليبيين. ذكر الأسقف وليم الصوري، مؤرخ الحروب الصليبية: أنه هناك طائفة من المتعصبين يعيشون في ولاية طرابلس، قرب طرطوس، يبلغ عددهم حوالي 60 ألفاً، يملكون عشر قلاع مع القرى المحيطة، وشيخهم يدعى سنان راشد الدين، لم يتم اختياره بالوراثة، يدعونهم المسيحيون والمسلمون (بالحشيشية) وأصل هذه الكلمة مجهول[5].

وعندما زارهم الرحالة الأندلسي اليهودي بنيامين التطيلي عام 1168، ورأى حصونهم المنيعة، قال: إن في حصن القدموس أناس يقال لهم الحشاشون، كانوا مصدر رعب لجيرانهم، يقتلون حتى الموت مضحين بأنفسهم، لا يتبعون الإسلام، ولكن يتبعون

شيخهم الذي يعدونه نبياً لهم، وينفذون كل ما يطلبه منهم، ويسميه جيرانهم (شيخ الحشاشين) أما هم فإنهم لا يذهبون ولا يخرجون إلا بأمره[6].

كان صلاح الدين الأيوبي يرهب رجال الشيخ راشد سنان الدين، وأراد حصار قلعة مصياف في آب 1176، وأشعل النيران حول القلعة، ولكنه فك الحصار بوساطة والي حلب، بعد أن حاول أحد أفراد الحرس اغتيال صلاح الدين في مجلسه فجرح وجهه، وأرسل له راشد سنان الدين بعض أبيات من الشعر:

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا	لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قد قام الحمام إلى البازي يروّعه	واستيقظت في ظل الأسد أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه	يكفيه ما قد تلاقي منه أصبعه
لو أن عمرك حبلاً أنت ماسكه	فسوف تعلم يوماً كيف نقطعه
إنا منحناك ثوباً للحياة فإن	كنت الشكور وإلا سوف نخلعه

كان الشيخ راشد سنان الدين يملك صفات متناقضة فهو وقور وزاهد وحليم وهو أيضاً داهية ذو قلب قاس، إلى جانب اتصافه بالعلم، له كتب ومخطوطات لا زالت محفوظة لدى أتباعه يقول عنه فلاديمير إيفانوف (1886- 1970) الذي درس مخطوطات الإسماعيلية في بومباي قرابة أربعين عاماً: «امتاز بمعرفة الأدب والشعر وعلم النجوم، وكان مقداماً على جانب عظيم من الذكاء» ويصفه المستشرق الفرنسي غوي دي بلو «بأنه كان أديباً فاضلاً عارفاً بالفلسفة وعلم المنطق وله شعر حسن وكلام منثور، فانقاد له السوريون، لشخصيته الجذابة والساحرة» في سنة (588هـ/ 1193م) مات شيخ الجبل الثالث وكان ضمير عصره القلق.

وطد الشيخ راشد سنان الدين الدعوة الإسماعيلية في منطقة مصياف والقدموس، وفي سلمية والقرى المحيطة بها. وصار أهل سلمية قدوة لأهل القرى المجاورة لهم من حضر وبدو.

تاريخ الدعوة في إيران والهند

تولى الإمامة جلال الدين حسن الثالث (1210- 1221) في قلعة آلموت، وأراد أن يتخلص من لقب الملاحدة، فأعلن إسلامه، وقرن الشريعة بالطريقة، وأمر ببناء الجوامع ورد الأمر لما كان عليه قبل إعلان يوم القيامة، ولكن عندما استلم الإمامة أعلا محمد (1221- 1255) عاد بالجماعة إلى مسيرة جده حسن الثاني، وجعل الإيمان بالقلب، وأبطل عمل الجوارح، وأدخل التوسل الأفلاطوني بدلاً من الصلاة العادية.

لم يطل الأمر، ولم تصف الحياة لأهل قلعة آلموت في زمن الإمام ركن الدين خورشاه (1255- 1257) عندما فتح هولاكو القلعة، وحمل ركن الدين إلى همذان، وزوجه أميرة مغولية، وفي 19 آذار 1257 غدر به هولاكو وقتله وأرسل ابنه شمس الدين إلى أذربيجان، واستمر حبل الإمامة عن طريق ذلك الطفل وأصبح يطلق على الإمام اسم (خوجه). ودخل الأئمة دور الستر ثانية، وعمل الإمام بالتطريز ليخفي نفسه عن أعين الناس، وبقي معه حرسه ورسله، وكان للإمام شمس الدين ولدان الأكبر يدعى قاسم شاه، والولد الأصغر يدعى مؤمن شاه وأرسلوا دعاتهما إلى سورية وتكونت في القدموس وسلمية فرقتان:

-اتباع قاسم شاه، كانوا في سلمية ومنهم الآغاخان الحالي.

-وأتباع مؤمن شاه، في القدموس ولكن نسبهم انقطع بعد وفاة طاهر شاه الثالث المعروف بالدكني (95-هـــ/ 1544م).

أما فرع قاسم شاه الذين شاه محمد ظاهر الذي تولى بنفسه الوعظ والدعاية في بلاط الصفويين، وبواسطته اعتنق الوزير ميرزه حسين الصفوي المذهب الإسماعيلي وانتقل الإمام شاه محمد ظاهر إلى الهند، إلى مدينة بيجابور وذاعت شهرته في بلاط الملك المغولي برهان نظام شاه الذي دعاه إلى بلدة (أحمدناوكار) وعاش في بلاطه وتزوج الإمام شاه أبوذر علي أميرة صفوية. ودخل ولده الإمام مراد ميرزه الجيش الإيراني واستطاع إخماد ثورة الأوزبك. وعندما استلم القاجاريون الحكم قربوا إليهم الإمام خليل الله الثاني، وكان هذا الإمام يقرن الشريعة بالحقيقة وكان زاهداً وعالماً، مما دعا حاكم إيران فاتح علي شاه (1798- 1848) المبالغة في إكرامه.

تولى الإمام حسن علي شاه (1817- 1881) حكم مقاطعتي كوم ومهلات في إيران ولكنه تركهما وذهب إلى بومباي، وحصل على قلب (آغاخان).

استلم الإمامة سلطان محمد شاه الحسيني الآغاخان الثالث (1885- 1957) الذي نال شهرة واسعة واشترك في السياسة وتولى رئاسة عصبة الأمم، وساعد العرب والمسلمين، وعاش معظم حياته في مصر، وتوفي في القاهرة ودفن في أسوان، وقبره اليوم مزار.

الإمام الحالي كريم آغاخان الرابع

البرنس كريم هو إمام ناطق رقمه (49) ولد في نيروبي عام 1936، واستلم الإمامة في تموز 1957، ثم التحق بمدرسة روزي في سويسره حيث درس لمدة تسع سنوات، ثم التحق بجامعة هارفارد سنة 1959 بإنكلتره، حيث حصل على ليسانس في

الآداب والتاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى، وفي سنة 1969 تزوج من البيجوم سالمة التي ولدت في نيودلهي من أبوين إنكليزيين وعاشت في الهند، وأنجبت للبرنس كريم ثلاثة أولاد (زهرة 1970، ورحيم 1971، وحسن 1074). والإمام كريم اليوم متزوج من البيجوم إنارة وهي أميرة ألمانية.

لم يمارس البرنس كريم السياسة كجده وإنما اكتفى بأنشطة ثقافية واجتماعية، ويشرف على أمور الطائفة الممتدة في أطراف الدنيا، في سورية والهند والباكستان وإيران، وكينيا وأوغنده وأفريقية الجنوبية وأمريكا.

وله مؤسسة معمارية تشرف على 427 مشروعاً تراثياً ولها جوائز تقدم كل ثلاث سنوات بقيمة 500 ألف دولار. ومن تلك المشاريع إعادة بناء قلعة مصياف وترميم قلعة حلب وإعادة بناء وترميم آثار هامة في الهند وإيران وأذربيجان[8].

ومن هذه الطائفة الكريمة الأستاذ أحمد الجندي، والدكتور سامي الجندي، والشاعر علي الجندي، والدكتور مصطفى غالب، والدكتور عارف تامر، والدكتور إبراهيم فاضل، والدكتور خالد الماغوط (دكتوراه في الرياضيات) والأديب والشاعر محمد الماغوط، والأستاذ رفعة عطفة (كاتب ومترجم عن الإسبانية) والمفكر أنعام الجندب. والأستاذ سيف الدين القصير (مترجم عن الإنكليزية). والشيخ علي عيدو وولده الأستاذ علي عيدو (نقيب المحامين في سورية) والشيخ حسن السليمان الشيخ حسن ومحمد الشيخ حسن، وأحمد ناصر ومحمد ناصر وموسى وردة، ومصطفى عباس، وخضر عباس، وسليمان الضحاك، ومحمد حسن الضحاك، والصحفي عبد الرحمن الضحاك. وخالد الجندي (رئيس اتحاد عمال سورية) والأستاذ مصطفى رستم (عضو القيادة القطرية عام 1966) والشاعر سليمان عواد والمحامي إسماعيل عواد (يقيم في الرقة) والمحامي محمد عجوب والأستاذ سامي عطفة، والدكتور محمد الحاج حسين (دكتوراه في اللغة العربية) والأستاذ سليمان الخش والأستاذ إسماعيل عذره، الأديب حسين حموي والشاعر فايز خضور والشاعر نايف أحمد غالية.

والأمراء في سلمية:

مصطفى تامر وولده تامر بن مصطفى والأستاذ عبد الله تامر (قائمقام الرقة 1948) ومصطفى ميرزا وأحمد ميرزا والمير سليمان والعميد أحمد المير قائد الجبهة السورية في عام 1967 والمير محمد الملحم.

مراجع: الطائفة الإسماعيلية

1)الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص77، برنارد لويس ترجمة سهيل زكار. دار الفكر بيروت 1971.

2)فضائح الباطنية ص143 أبو حامد الغزالي تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار القومية القاهرة 1964.

3)خرافات الحشاشين ص73، فرهاد دفتري ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى دمشق 1996.

4)الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ص19، فرهاد دفتري ترجمة سيف الدين القصير دار الينابيع دمشق 1994.

5)الإسماعيليون ص99 ميشيل لباد مطبعة الاتحاد دمشق 1962.

6)رحلة بنيامين التطيلي ص188 ترجمة عزرا حداد المطبعة الشرقية بغداد 1945.

7)الإسماعيليون ص100.

8)مجلة النقاد العدد 84 رياض نجيب الريس تشرين ثاني 2001م.



الفصل الرابع : الطائفة الدرزية

- الموحدون التاريخ والعقيدة
- أهم شخصياتهم التاريخية
- الموحدون في العصر الحديث

التاريخ والعقيدة

الدروز ينتمون إلى قبائل عربية واضحة الأصول والنسب، وهم مسلمون شيعة ولكن أعداءهم ينسبونهم إلى الغلاة في الدين، بل يخرجونهم أحياناً من حظيرة الإسلام، وقد تعرضوا للاضطهاد من المسلمين السنة. يذكر ابن كثير في مستهل ذي الحجة سنة (704هـ/ 1305) ركب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف تقي الدين ابن عدنان، فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً[1].

لم تكن تلك التجريدة هي الوحيدة بل تلتها حملات. ففي شهر المحرم من سنة (766هـ/ 1365م) رسم نائب السلطان سيف الدين منكلي بغا، بتخريب قريتين من وادي التيم وهما مشغرا وتلبتاثا، وسبب ذلك أنهما عاصيتان، وأهلهما مفسدون في الأرض، وهما حصينتان، لا يصل إليهما إلا فارس فارس، فخربتا وعمر بدلاً منهما في أسفل الوادي، وقد عمل بهما ألف عامل، ونقل نقضهما خمسمائة حمار عدة أيام[2].

كان الفكر السلفي ذا أحكام ثابتة لا تتغير، فكل من يخالفهم في التفكير يتهم بالغلو والكفر والفساد، وهذا الفكر لا زال يحمل الروح العدوانية وهو الذي جلب للأمة الويلات والكوارث.

توجهت جريدة الأهرام المصرية في عددها الصادر بتاريخ 28/9/ 1991 بسؤال من المحرر أحمد صري إلى سماحة مفتي الديار المصرية محمد سيد طنطاوي، بسؤال عن حكم الإسلام بثلاثة طوائف تقطن في سورية (الدروز والإسماعيلية والنصيرية) فأعاد سماحته فتوى الشيخ ابن تيمية دون أن ينظر إلى حقيقة اعتقاد هذه الطوائف، ودون أن ينظر إلى تغير الأزمان والمصالح، وأفتى بكل بساطة بتكفيرهم، وسلب أموالهم، وسبي نسائهم، وتحريم مؤاكلتهم والتزاوج معهم، كانت الفتوى صادرة من أعماق عصر الانحطاط وعندما اعترضت عليه الصحافة السورية، بأن هؤلاء القوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تراجع الشيخ الطنطاوي واعتذر عن فتواه.

والسؤال الملح طرحه اليوم: من هم الموحدون الدروز؟ وما هي حقيقة عقيدتهم؟

كتب الأستاذ جميل أبو ترابي، وهو من مثقفي الطائفة الدرزية، كتاباً بهذا المعنى بين لنا شيئاً من تاريخ الطائفة النضالي، وكشف لنا حقيقة عقيدتهم من خلال إيمان بعض الشخصيات الدينية، ولكنه لم يفصح لنا عن تاريخ المذهب، وحقيقة الدعوة.

الموحدون الدروز، طائفة مسلمة، لهم تفسيرهم الخاص للقرآن الكريم توارثوه من العصر الفاطمي، ومزجوا تعاليمهم بالتعاليم العرفانية. وإن كلمة دروز حملوها زوراً وبهتاناً، وهو لقب الداعية الدخيل عليهم محمد بن إسماعيل نشتكين الدرزي المتوفى (410هـ/ 1020م) قتله إمامهم حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، داعية الخليفة الحاكم بأمر الله، ومع ذلك يظل الدروز موضع نقاش لدى الباحثين، لأن صورتهم قد شوهت من قبل المؤرخين السنة والشيعة معاً. وقد حكموا عليهم بالكفر، وهذا الحكم الصعب لا يحق لأي إنسان مسلم أن يكفر مسلماً آخر. قال الإمام الطحاوي وهو من كبار علماء الحنفية «لا يفتى بتكفير مسلم، أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان كفره مسألة فيها خلاف، ولو برواية ضعيفة»[3].

يدور المذهب الدرزي حول شخصية الحاكم بأمر الله، وهو حفيد الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي. وعندما جاء إلى مصر دخل عليه الشاعر ابن هانئ الأندلسي وخاطبه بقوله[4]:

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ريح

كان تأليه الأئمة أمر وارد عند كثير من المسلمين ولا يوجد اعتراض إلا من الفكر السلفي. وهذا الحلاج (الحسين بن منصور) المقتول (309هـ/ 921م) يقول في حق النبي محمد (ص) في كتابه الطواسين «أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، همته سبقت الهمم، وجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم، وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد، ونعته أوحد كان مشهوراً قبل الحوادث والكواين والأكوان، هو الذي جلى الصدأ عن الصدر المغلول، هو أتى بكلام قديم لا محدث ولا مقول، فوقه غمامة برقت، وأشرقت وأمطرت وأثمرت العلوم كلها من بحره، الحكمة كلها غرفة من نهره، والأزمان كلها ساعة من دهره، هو الأول في الوصلة، هو الآخر في النبوة، بالظاهر بالمعرفة خرج عن (ميم) محمد، وما وصل في (حائه) أحد»[5].

هذه الصورة التي رسمها أبو منصور الحلاج للنبي محمد، هي نفس الصورة التي يصورها اللاهوت المسيحي للمسيح، فالله قد تأنس في ناسوت المسيح، وفيه تجلى حسب علم الكلام الإسلامي والفكر الإسماعيلي، يذكر أن الإله قد تجلى في الأئمة،

وأعلن أحد دعاة الحاكم، هو الحسين ابن حيدرة الفرغاني الملقب بالأخرم، أعلن في سنة (405هـ/ 1010) تأليه الحاكم وخرج مع خمسين رجلاً من أصحابه، ودخل جامع الفتح، وسلم القاضي أحمد بن العوام كتاباً مصدراً (بسم الحاكم الرحمن الرحيم) فلما قرأها القاضي ورفع صوته ثار الناس وقتلوا بعض أصحاب الأخرم، ولكنه هرب، ولكن الحاكم قتله، وصار الناس يتعرضون للحاكم ويسلمون عليه قائلين يا واحد، يا أحد، يا محيي يا مميت، وأظهر الحاكم النسك وخطب في الناس يوم الجمعة، وحرم على الناس أن يخاطبوه بمولانا، أو بتقبيل الأرض بين يديه[6].

استدعى الحاكم حجة العراقين أحمد بن حميد الكرماني (المتوفى 1022م) إلى القاهرة ووصلها، وكتب رسالتين سمى إحداهما (مباسم البشارات) قال فيها: «فإني لما وردت الحضرة النبوية مهاجراً وللسدرة العلوية زائراً، رأيت السماء قد أظلمت بسحاب عظيم، والناس تحتها ابتلاء حميم، والعهد في الرسوم السالفة قد نقض، والرسم في مجلس الحكمة قد رفض، فصار البعض منهم في الغلو مرتفعين إلى ذراه والبعض على أعقابهم تاركين عصمة الدين وعراه».

والرسالة الثانية سماها (الرسالة الواعظة) رد فيها على أوهام الأخرم، وأباطيله مبيناً فيها أن الحاكم بأمر الله هو إمام الزمان الشرعي الوحيد الذي فيه نفس إلهي كأسلافه، ولم يكن هو نفسه بإله، واتهم الأخرم ومن شايعه بالغلو والمروق من الدين، كما أنكر القول بأن القيامة قد حدثت مع ظهور الحاكم وأن دور الشريعة الظاهر قد انتهى[7].

اختفى الحاكم في ظروف غامضة، في يوم الثلاثاء 27 من شوال عام (411هـ/ 1021م) وكثرت الأقاويل والإشاعات حول اختفائه، بعضهم قال قتل على جبل المقطم، والبعض قال اختفى في قصره، وعلى كل حال قال أتباعه، إن سبب غيابه غضبه على الخلق ما عدا الموحدين، وأنه أغلق باب دعوته، وقضى رحمته، ولم يقبل منهم أحد، فغاب في السرداب إلى داخل السور الذي يسمى بسد الإسكندر ليبقى هناك إلى أن يشاء أن يظهر، (هذا ما جاء في رسالة الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار).

وقال إنه سيعود عما قريب، وحدد زمن ظهوره إسماعيل بن محمد التميمي أحد الحدود الخمسة، قال إن ظهوره سيكون بعد سبع سنوات من اختفائه، وسيكون ظهوره القادم في مصر في شهر رجب (418هـ/ 1028م) والصورة التي سيظهر فيها تسمى الصورة الانبعاثية الروحانية[8]. ولا زال أتباعه ينتظرون عودته.

الفرقة الحاكمية

جاء أتباع الداعية حمزة بن علي الزوزني، إلى وادي التيم وصفد بعد إغلاق باب الدعوة في مصر حوالي عام (425هـ/ 1044م) وكان محمد بن إسماعيل الدرزي قد سبقهم، فدعوهم بالدروز، ولقوا من الداعية الدرزي أبو منصور البرذعي مقاومة. قال الدكتور إحسان ظهير إلهي «اختلف الدروز والحاكمية فيما بينهم على غنيمة ألوهية الحاكم، وثمرتها وهي النبوة، وأراد كل منهما أن يكون النبي للحاكم (نشتكين أو حمزة) وكفر كل منهما الآخر، على الرغم من أن دعوتهما واحدة وهي تأليه الحاكم»(9). نظم حمزة بن علي أركان الدعوة وعين الحدود الخمسة (العقل والإرادة والكلمة والسابق والتالي) وهذه الرموز تقابل أشخاصاً هم:

الحد الأول: (العقل) حمزة بن علي الزوزني:

هو الإمام الهادي إلى طاعة الرحمن، كان فيلسوفاً يدرِّس في قصر الحاكم رسائل إخوان الصفا، وفلسفة يحيى النحوي، وعلى يديه استجاب نشتكين الدرزي ولكنه نازع الإمام وأصبح الضد (إبليس) قال حمزة بن علي: «إن أبا جعفر علي بن أحمد الحبال، كان مأذوناً لي وعلى يديه استجاب نشتكين الدرزي». وقال حمزة بن علي عن نفسه: «أنا السيد الهادي، وقد غره المال - يقصد نشتكين- لأنه كان على بيت المال لدى الحاكم جل ذكره. وطلب الرئاسة وساعده أبو منصور البرذعي (فرعون) ومعه داعي وقته علي بن أحمد الحبال (هامان) وهما اللذان فتحا لنشتكين باب المعصية، وساعدهما صاحب مجلس السبت في دار الحكمة (علي بن عبد الله اللواتي) والداعي صاحب مجلس الخميس (علي بن مبارك) وقالوا: إن الكلمة هو السابق، والسابق هو الكلمة، ولا فرق بينهما، وإن السابق هو الغاية والنهاية والخدمة له وحده دون غيره، وجعلوا عالم العدم الذي لا يرى هو السابق على عالم الوجود».

ويستدرك أصحاب حمزة بن علي على نشتكين صاحب عصبة الفسق التي انتهت في يوم الصيحة الكائنة في يوم الخميس الأول من شعبان سنة (410هـ/ 1020م) وقتل نشتكين في يوم الخميس الثاني من شعبان.

الحد الثاني: (النفس أو الإرادة) إسماعيل بن محمد التميمي

كان أحد قادة الجيش عند الحاكم، وكان يرافقه في التدريس، وكان صهر حمزة بن علي الزوزني، وكان فيلسوفاً لذا لقبوه بهرمس الهرامسة، لقدرته الفائقة في التأويل وتفسير النصوص الفلسفية (الأفلاطونية المحدثة) لقبه حمزة بن عي بالنفس الكلية وهو سفير القدرة والرسول بين حمزة والجماعة، وهو كبير النقباء، وينوب عن الإمام في غيبته. وفي الأدب الموحدي أن سلمان الفارسي هو جبريل وسفير القدرة.

الحد الثالث: (الكلمة) محمد بن وهب القرشي

هاجر من مصر، وعاش قرب صيدا (في البستان) وعرف أحفاده في لبنان بأبناء الشيخ، وكان فخر الموحدين، بعلمه وزهده، وصدقه وكان سند الموحدين في بيان الوحي والتنزيل، عالم بالشريعة الظاهرة حافظ للقرآن الكريم والحديث الشريف، جعله حمزة بن علي مقدماً على كل الدعاة في شهر شوال سنة (410هـ/ 1020م) ولقبه بسفير القدرة، وكان يرفع له أخبار القاهرة ومصر وأعمالها وألزمه بالبقاء بمصر، وكان له الحق في تأويل الكتاب وفصل الخطاب، وظل يزاول عمله حتى وفاته في حدود سنة (421هـ/ 1030م).

الحد الرابع: (السابق أو الجناح الأيمن) سلامة بن عبد الوهاب السمَّري

كان رجلاً شجاعاً، مسموع الكلمة في وادي التيم وصفد، قال عنه حمزة بن علي (الشيخ المصطفى نظام المستجيبين وعز الموحدين، أعزه المولى وأسعده) وهو الذي قاتل أبا سعيد الطبراني النصيري، وانضم إلى صف إسماعيل بن خلاد، ولا زال أتباع أبي الخير السمَّري يعيشون في الجولان، قرب بانياس.

الحد الخامس: (التالي أو الجناح الأيسر) علي بن أحمد السمّوقي

عاش في القاهرة ثم انتقل إلى الصعيد إلى بلدة الأنصا، لقَّبه حمزة بن علي ببهاء الدين وكتب إليه بخطه في يوم الجمعة في 13 شعبان سنة (411هـ/ 1021م) كتاب العهد، «إلى الشيخ المقتنى بهاء الدين، ولسان الموحدين، وسند المؤمنين أبي الحسن علي بن أحمد السموقي، المعروف بالضيف، وفقه المولى وأسعده» في شهر رمضان سنة (435هـ/ 1044م) وفي هذا التاريخ أقفل باب الدعوة، وجاء إلى بلاد الشام، وكتب لأهل جبل السماق، لشيخهم الطاهر أبي المعالي عن اقتراب موعد ظهور الحاكم وعبده قائم الزمان حمزة بن علي، فلا يقولن قائل منكم: «هذا قولكم في كل وقت وعام». وودع المؤمنين وأوصاهم بحفظ معالم التوحيد وميثاق ولي الزمان وأغلق باب الدعوة وتوفي في أواخر سنة (435هـ/ 1044م).

ميثاق ولي الزمان

كتبه حمزة بن علي وأودعه لدى المقتنى، ليبلغه للموحدين، ليكون حجة عليهم، في بلاد الشام، ونص الميثاق: «توكلت على مولانا الحاكم، الأحد الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد (أنا فلان بن فلان) إقراراً أوجبه على نفسي وأشهد به على روحي في صحة من عقلي وبدني، بجواز أمره طوعاً غير مكره، ولا مجبر أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات، والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافها، أني لا أعترف

بأي شخص غير طاعة مولانا الحاكم - جل ذكره - وأني أقر أنه ليس لي في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم - جل ذكره - وأني من الموحدين الفائزين». هذه الحجة تؤخذ على الموحد حين وقوفه على أسرار دينه، وانضمامه إلى عقلاء ملته.

طبقات الموحدين

ينقسم الموحدون إلى طبقتين هما:

أولاً: طبقة العقال: وهؤلاء على درجات:

أولهم شيوخ العقل، الذين يشرفون على أمور الطائفة. وهم أفراد زاهدون في مأكلهم وملبسهم، ويحضون على مكارم الأخلاق، حافظون لفروجهم، وبطونهم من الحرام، ومن مهامهم أن يسوسوا (العقال والمتنسكين والأجاويد) في المجالس الدينية، ويتميزون بقلة الطعام ولا يشربون الخمر والدخان، ولا يأكلون من أموال الدولة، ويتعممون بعمامة بيضاء على طربوش أحمر، ويلبسون العباءة العربية والشروال الأسود، ويطلقون لحاهم.

طبقة المتنسكين:

وهم العباد الزاهدون في الدنيا ويعيشون في الخلوات، منصرفين للعبادة والعلم فهم كالرهبان، يقضون حياتهم في دراسة رسائل الحكمة وتفسيرها ورسائل إخوان الصفا، وبعض الرسائل والمخطوطات السرية، ويعملون في الزراعة، ولكنهم لا يتزوجون ولباسهم وطعامهم بسيطان، لا يشربون الخمر ولا يأكلون اللحم، ويحفظون فروجهم وألسنتهم عن الخنا والكلام البذيء.

ولباسهم عمامة بيضاء على طربوش أحمر، ويكتسون بقميص وشروال من الخام الأسود أو الكحلي، ويحلقون رؤوسهم ويتركون شواربهم.

طبقة الأجاويد:

هم عامة الموحدين الذين أخذوا دينهم، وتعهدوا على أنفسهم الحجة، وأخلاقهم وصفاتهم حميدة، ولكن علمهم بسيط، وهم عفيفو الفروج واللسان ولا يدخنون، ويضعون على رؤوسهم كوفية بيضاء، ويحلقون لحاهم ويتركون شواربهم.

ثانياً: طبقة الجهال:

هؤلاء لم يأخذوا دينهم بعد، ولا يعرفون أمور دينهم، إلا فكرة بسيطة عن توحيد مولانا الحاكم، ومعرفة أسماء الحدود، ولا يسمح لهم بحضور المجالس الدينية إلا في

عيد الأضحى وبعض الأعياد الخاصة، وهم يعيشون كبقية الناس، يشربون الخمر ويدخنون ولا قيود على لباسهم.

من أركان العقيدة

وصية حمزة للموحدين، عليكم بصدق اللسان، وحفظ الإخوان والتبرؤ من عبادة العدم والبهتان، والبراءة من الأبالسة والطغيان، وتوحيد الخالق في كل عصر وزمان، والرضى والتسليم بالقضاء، والعفة بين الإخوان، ولا تكن كالنصيري لا تحفظ الأخت فرجها عن أخيها. لأن المرأة والرجل كلاهما مخلوقان متساويان في دين الرحمن، فالمرأة أخت الرجل في الدين، وعونه في الدنيا، وأن حياتها مع الرجل هي شركة عليهما بالخير دنيا ودين.

التقمص

يؤمن الموحدون بخلود الروح، وبتجسيد الأرواح أو النفوس وانتقالها بعد الموت من جسد إلى آخر، حتى تتطهر وتتحد بباريها، وهذا التبديل للأجساد يعرف بالتقمص، وهذه الفكرة موجودة في معظم الديانات.

والإيمان بيوم الحساب (يوم القيامة والبعث) فيه يحاسب الناس، وكل ينال جزاءه من خير وشر، والإيمان بإله واحد منزه عن الازدواجية والعدد ويتجلى لعباده من دور إلى دور تذكرة وتأنيساً لهم، ويلقي مهمة تدبير الخلق ورعايتهم ومحاسبتهم على أعمالهم إلى وليه وصفيه العقل المهيمن[10]، أي حمزة بن علي.

ويعتقد الموحدون أن المولى لا يدرك لاهوته، وإن كانوا قد أدركوا ناسوته وظاهر صورته، التي استدرجهم إلى معرفته بلطيف حكمته، ورؤية الباري سبحانه رؤية عقلية لا رؤية حسية[11].

يقول الشاعر والروائي عقبة زيدان في روايته (تعاويذ): «في هذه اللحظات الحرجة والتعيسة من حياتي، تقدَّمَ الأنا السابق، وصار يصرخ بقوة. كنت أتلاشى أمام جبروته وقوته ككائن آني يطغى عليّ، ويطلق صوته كالرعد في وجهي: مم أنت خائف؟ لقد جربتَ القتل سابقاً ومتّ. ألم يعلمكَ هذا بأن الموت هو هدف ويجب أن نسعى لتحقيقه، ولكن بأجمل وأجلّ شكل؟» (رواية تعاويذ، صفحة 85، دار حوران بدمشق).

الموحدون الدروز هم خليط من قبائل عربية، يعودون إلى تحالف قبلي تكوّن قبيل الإسلام، يدعى بالتحالف التنوخي، وكانت عاصمتهم الحيرة، وآمن أميرهم النعمان بن المنذر بالدين المسيحي وترك الحكم وساح في البلاد وجاء إلى معرة النعمان وتوفي هناك سنة 411م. وبني له دير. وجاءت بعض القبائل التنوخية إلى جواره، ويقال إن أحد الضباط الرومان أعجب بفتاة تنوخية، وأراد الزواج بها، فقتله أهلها وهربوا إلى جبال لبنان، إلى كسروان والمتن، وهرب الآخرون وسكنوا الجبل الأعلى حول مدينة أريحا وإدلب، وهناك تكاثروا.

وفي أيام أبي جعفر المنصور عام (772م) بلغه خروج المردة عن طاعة الدولة، ووصلت غاراتهم إلى بلاد حمص وحماة والجبال المحيطة بهما، فأرسل الأميرين اللخميين حسان بن المنذر وعبد الله بن أرسلان، وأقطعهما بعض القرى في جبال لبنان في الشوف والمتن، واستقل الأمير حسان، وسكن الأمير فوارس بن الأمير عبد الملك عبية، واستقل الأمير منذر بن مالك في حصن سرحمور (سوق الغرب) بينما استقر الأمير مسعود بن أرسلان في (سن الفيل) وجرت بين هذه القبائل معارك من أشهرها معركة نهر الموت عام (791م) بينهم وبين المردة، وجاءت في عام (820م) عدة قبائل يمنية وقيسية منها بنو فراس وبنو عزام، وبنو عبد الله، وبنو عطير، وبنو خضر، وبنو هلال، وبنو كاسب، وبنو شجاع، وبنو نمر وبنو شرارة، ونزلوا حول عين دارة، واستقر آل عبد الملك ومعهم بعض القبائل إلى جوار عين نبع الصفا[12].

انتشرت الدعوة القرمطية بين هذه القبائل، ودعّم دعاة الإسماعيلية المذهب الإسماعيلي (الفاطمي). وفي حوالي عام 1025م جاء دعاة المذهب الدرزي ثم تلاه المذهب الحاكمي الذي طرد الدعاة الدروز سنة 1038م تصدى لهم أبو الفوارس معضاد بن يوسف وانتقم لأبي اليقظان عمار بن الشيخ وانتشرت الدعوة من الشويفات والمتن وفي سهل البقاع ووادي التيم وحول بانياس وصفد، وسيطر أمراء العرب من آل الجراح وعضدوا أهل قرية فلجين مقر أبي الفوارس معضاد بن يوسف وكان من قبل من أنصار سكين، وعضدوا آل عبد الله في جبل لبنان.

واشترك الموحدون في معركة حطين عام 1189م، بقيادة زعيمهم الأمير جمال الدين حجي بن كرامة التنوخي، وثبته صلاح الدين الأيوبي في ملك أجداده في قرى سرحمور وعين كسور ورمطون وطرولا وعين دارفيل وما حولها لمناصحتهم للسلطان صلاح الدين، وحسن خدمتهم للدولة، ووقوفهم في وجه العدو الصليبي[13].

وللموحدين مآثر في معركة عين جالوت 1260 عندما وقفوا في وجه المغول تحت قيادة أميرهم زين الدين صالح بن علي بن بحتر، ويقال إن السلطان قطز أعجب برمي الدروز وكان الجيش المملوكي يحضر لهم السهام وهم يرمون فردوا العدو على أعقابه في أول معركة يخسرها المغول الذين انطلقوا من الصين باتجاه الغرب، ولم يخسروا أي معركة حتى عين جالوت.

وظل الأمراء البحتريون شيوخ جبل لبنان حتى دخول السلطان سليم الأول 1516م، فقاومه البحتريون وناصره الأمراء المعنيون، الذين حلوا محل المعنيين. وفي زمن فخر الدين المعني الثاني (1572- 1635) قاوم الدولة العثمانية، فحل محله أبن أخته الأمير بشير الشهابي (1798- 1840) الذي التحق بالدعوة الدرزية وفي المذهب الماروني، وظل في الظاهر مسلماً، وكان ظالماً فقاومه آل جنبلاط ولكنه انتصر عليهم ووزع أملاكهم في المختارة على أبنائه.

وفي هذه الفترة ظهر علماء عند الموحدين الدروز أمثال الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين (1459- 1558) كان يحافظ على ظاهر الشريعة من صلاة وصوم وزكاة ومثله الشيخ الفاضل محمد أبو هلال المشهور بالشيخ الفاضل (1578- 1640) كان متواضعاً وزاهداً في الدنيا، وكان عالماً في الحديث والفقه وفي تفسير القرآن الكريم.

الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي (1392- 1479)

ولد الأمير عبد الله في بلدة عبية، وهو سليل الأمراء التنوخيين، توفي والده وهو صغير، فأشرفت على تربيته المرأة الفاضلة ريمة بنت الأمير شهاب الدين أحمد بن صالح بن الحسين بن خضر، وأرسلته إلى دمشق لمتابعة علومه الدينية، وقضى هناك اثنتي عشرة عاماً يتلقى العلم في الجامع الأموي، ودرس مختلف العلوم من فقه وحديث وعلم كلام وتفسير، وهو إلى جانب ذلك كان عابداً زاهداً. وذاع صيته باسم (الأمير سيد قد) ووصفه أحد مؤرخي عصره «كان يديم الجلوس والاحتشام، كثير اليقظة، عذب المنطق، فصيح اللسان، وقور في مجالسه التعليمية، قليل الكلام في غير الحكمة، لا يرى بهجة إلا لربه، ولا يبذل مسعاه إلا لقربه، صحيح العقل، سليم القلب، قليل الهفوات»[14]. عندما عاد الأمير السيد قد إلى بلدة عبية، أمر ببناء المساجد فيها وفي القرى المجاورة وثبت معلمي القرآن فيها يعلمون الأطفال.

كتب الأمير عدة كتب لا زالت محفوظة، وهي متعددة الأغراض من لغة وفقه وتاريخ أذكر منها كتاب سياسة الأخيار، وكمالات النبي المختار، وكتاب اللغة العرباء.

وخلف أربعة أولاد لم يعش منهم إلا الأمير سيف الدين عبد الخالق أعاد سيرة والده في التمسك بالرضى والتسليم وكان قوي اليقين، ومن أقواله: «الدنيا ميدان، والأجسام خيل، والنفوس فرسان، والسباق هو نحو الله»[15].

الدروز في العصر الحديث

في سنة 1680م عينت الدولة العثمانية أحد أمراء أسرة علم الدين التنوخية أميراً على الجبل (المتن) فطرد حزب القيسيين المعادي له وأجلاهم عن قراهم، وبين أعوام (1789- 1800) هربت عدة عائلات من ظلم الأمير بشير الشهابي (1789- 1840) الذي أثقل على سكان الجبل المظالم والغرامات، جاؤوا إلى جبل حوران بقيادة آل حمدان وسكنوا حوالي ثلاثين قرية في جبل حوران واللجاة ومن تلك القرى قرية عرى سكنها آل حمدان وآل الأطرش، وقرية نجران سكنها آل أبو فخر، وشهبا آل عامر، والمجدل آل هنيدي، والقريَّة آل الأطرش، والثعلة آل عز الدين الحلبي، وعريقة وشقا آل عزام وآل عساف، وتوزعت بقية العائلات على قرى الجبل التي بلغت في القرن العشرين حوالي خمسين قرية.

تغير اسم جبل حوران إلى جبل العرب، ومارسوا الزراعة، ولكنهم عانوا من هجوم البدو والأوبئة كالجدري والحمى والطاعون، واجتياحات الجراد. بدأ كفاح الموحدين الوطني عندما دخل إبراهيم باشا المصري (1832- 1840) إلى الجبل، وفي سنة 1837 استدعى إبراهيم باشا شيخ الجبل يحيى آل حمدان إلى دمشق وطلب منه 72 مجنداً فرفض، وعاد الشيخ يحيى ومعه حملة من المصريين حوالي 400 خيال، وتوزعوا على بيوت الجبل فقام عليهم آل معروف وقتلوهم ولم ينج منهم سوى 40 شخصاً، نقلوا إلى إبراهيم باشا ما حل بهم، فقاد حملة غاشمة على جبل العرب وسمم الآبار والبرك ونكل بالمشايخ وغرم الأهالي.

وكان الصراع يقوم بين أبناء الطائفة لأسباب تافهة، في عام 1860 هربت بعض العائلات من آل عماد من لبنان ولاذوا بحمى جبل العرب واستقبلهم الشيخ إبراهيم أبو فخر في قرية نجران، وأعطاهم قطعة أرض وبعد عشر سنوات عادوا إلى لبنان و باعوا الأرض لآل عزام مما أحدث شقاقاً بين العائلتين.

وفي عام 1890 هاجمت قوات والي دمشق ممدوح باشا بعض قرى الجبل، وهجروا أهلها إلى البادية الشرقية، وأعدم الشيخ ذوقان الأطرش والد سلطان، ونفي شبلي الأطرش وكان شاعراً فقال:

صـارت معركـة صـدق مهولـة   عجيبـة مثـل يـوم القادسـية
بقـي حـس المدافـع والبنـادق   رعـود قاطعـة تسـمع دويـة

عاشت البلاد في العهد العثماني في حالة تخلف، وفي عام 1909 سنّ الدستور وانتخب نواب المجلس المبعوثان وقد مثل جبل حوران الأمير شكيب أرسلان، وفتحت المدارس وبدأت الحياة الثقافية تهب على الجبل. وفي عام 1918 تحررت سورية وبلاد الشام في الثورة العربية الكبرى، وفي عام 1920 صارت سورية تحت الانتداب الفرنسي.

سلطان باشا الأطرش (1881 - 1982)

ولد في القريا عام 1881، وشاهد مظالم العهد العثماني ومقتل والده، فحقد على الظلم وأحب الحرية، واشترك بالثورة العربية الكبرى ومنح لقب باشا عام 1916، ورفع العلم العربي على دار الحكومة في السويداء في 30 أيلول عام 1916.

وقال الشاعر الشعبي معذى المغوش:

عـرش المظـالم انـهدم   والعـز طـبّ بلادنـا
راحـت عليكـم يـا عجـم   خـوض المعـارك دابنـا
حنـا حمـاتك يـا علـم   بأرواحنـا واكبادنـا

وعندما جاءت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو وجرت معركة ميسلون في 24 حزيران 1920، بقيادة يوسف العظمة، واستشهد البطل يوسف العظمة وقامت الثورات في سورية، وجرت المعارك الكبرى في عام 1925، التهب الجبل وجرت عدة معارك حاسمة بقيادة سلطان باشا الأطرش، منها معركة الكفر في 23 تموز ومعركة المزرعة في أول آب 1925، ومعركة المسيفرة في 6 أيلول 1925. قدم أبناء الجبل عشرات الشهداء، وكبدوا العدو مئات القتلى.

بعد الثورة الكبرى تمرس أبناء الجبل على النضال السياسي، واشتركوا في انتخاب أول برلمان عام 1931، وانتخب أول رئيس جمهورية محمد علي العابد (1932) وكان أبناء الجبل قد رفضوا دولة جبل الدروز وانضموا إلى سورية، وطالبوا بالاستقلال الناجز لسورية وتم الاستقلال في 17 نيسان 1946، وفرح به أهل الجبل، وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر أيدها أبناء الجبل وكان منهم الوزير جادو عز الدين. وعندما قامت ثورة الثامن من آذار عام 1963 كان من قادتها الأستاذ منصور بن

سلطان باشا الأطرش، ومعه ثلة من الرفاق البعثيين. وتوفي سلطان باشا عام 1982، وشيعته كل الجماهير السورية وعلى رأسهم الرئيس حافظ الأسد.

الأمير شكيب أرسلان (1869- 1946)

ولد الطفل شكيب في بيت الأمير حمود بن حسن بن يونس بن فخر الدين بن سلمان مالك المنذري ويمضي نسبه إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي، وقد اشترك جده الأمير أرسلان (المتوفى 171هـ/ 878م) مع الخليفة هارون الرشيد في غزو بلاد الروم. رأت عينا شكيب النور في قرية الشويفات في ليلة الاثنين الأول من رمضان سنة 1286هـ الموافق 25 كانون أول 1869م.

ولد الطفل شكيب وعاش في عصر كان للدين تأثير على حياة البشر، وكانت الأسرة وما تتوقعه من طفلها تعطينا بعض التنبؤات المستقبلية عن حياة الفرد. من هنا نشأ الأمير شكيب في أسرة متدينة، وتمثل ما في الأسرة من موروث ديني. كانت أمه سيدة فاضلة من أسرة شركسية من عشيرة الحاتقواه. وفي السادسة من عمره أحضر والده له ولأخيه نسيب معلم القرية مرعي شاهين سلمان، فعلمهما القراءة والكتابة، وفي كل صيف يرسله والده إلى قرية (عين عنوب) لدراسة القرآن عند الشيخ أسعد فيصل. وفي الثامنة من عمره ذهب شكيب إلى المدرسة الأمريكية، وتلقى فيها العلوم العصرية. وفي عام 1879 دخل مدرسة الحكمة المارونية وتعلم فيها اللغتين الفرنسية والعربية، وكان معلمه الشيخ عبد الله البستاني الأديب واللغوي الماروني المشهور (1854- 1930) صاحب معجم البستان.

زار الشيخ محمد عبده مدرسة الحكمة فلفت انتباهه ذكاء الطالب شكيب أرسلان وأحب أن يزور والده الأمير حمود أرسلان، وأثنى على الطفل شكيب. وبعد أن تخرج من مدرسة الحكمة دخل في سنة 1887 المدرسة السلطانية في بيروت ودرس على الشيخ محمد عبده الفقه والتوحيد والمنطق، وتوطدت عرى الصداقة بينهما.

وفي صيف سنة 1890 زار شكيب مصر واجتمع بالشيخ محمد عبده، وفي مجلسه تعرف على صفوة علماء مصر. قال الشيخ محمد عبده لأصدقائه معرفاً بالأمير شكيب وأصله: «الدروز قوم خلو من العلوم بالمرة، سذج كأنهم في بدايات البداوة، لكنهم أذكياء بجودة الفطرة ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر، وإنما الخوف على أبنائهم من ذلك، وعلى كبارهم من الانقياد السياسي إلى دولة الإنكليز وهم يقولون برجعة الحاكم وألوهيته»[16]. فرد عليه شكيب بلباقة: «إن الدروز من الشيعة الفاطمية، وأصلهم من الإسماعيلية، وهؤلاء من جملة المسلمين،

وهذا لا يخفى على الشيخ، والدروز يقولون عن أنفسهم: إنهم مسلمون، ويقيمون جميع شعائر المسلمين، ويقولون: إن من خرج عن ذلك فليس بمسلم! وقد قال تعالى }ولا تقولوا: لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً يبتغون عرض الحياة الدنيا{. ورد عليه الإمام محمد عبده موجهاً الحديث إلى جلسائه «قد وجد في الإسلام أئمة كبار يرضون عنهم، ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل، وهم يقولون بوحدة الوجود، فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة؟ وهل أخرج المسلمون من يقول بوحدة الوجود من الإسلام؟ كلا. وقال الأمير شكيب: إن الموحدين الدروز في سورية حوالي 150 ألف نسمة، والمسلمون يزيدون عن المليونين..!!

والتفت الإمام محمد عبده وقال للعلامة الأمريكي فانديك: تعاشر الدروز خمسين سنة فلا تسمع منهم ولا مرة لفظة سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة، حتى العوام منهم»[17].

في سنة 1892 سافر الأمير شكيب إلى فرنسا، والتقى هناك بأمير الشعراء أحمد شوقي وصارا كأخوين، ومكث الأمير شكيب يدرس في الجامعات حتى عام 1908. وجاء إلى لبنان وعين قائمقام على الشويفات. وفي سنة 1909 اختير ليكون نائباً عن جبل حوران (جبل العرب). وعندما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب عام 1911 دبج الأمير شكيب المقالات والرسائل لنصرة الشعب العربي في ليبيا، مما أثار إعجاب السلطان العثماني محمد رشاد وأركان الدولة خصوصاً وزير الدفاع أنور باشا.

اشتهر الأمير شكيب بأمير لبنان، وصار مشهوراً في دنيا الإسلام والشرق كله، وفي سنة 1912 سافر الأمير شكيب إلى طرابلس ممثلاً لبعثات الهلال الأحمر، والتقى بالشيخ عمر المختار. وفي سنة 1914 سافر إلى المدينة المنورة لإنشاء مدرسة فيها، وحج في تلك السنة وجرى نقاش بينه وبين بعض المتزمتين حول الخلافة الإسلامية، وقال بعضهم: يجب أن يكون الأئمة من قريش. فرد عليهم الأمير: نعم، هذا إن هم حافظوا على الدين ومصالح المسلمين، ألم يقل عمر بن الخطاب «لو كان سالماً مولى أبي حذيفة حياً لوليته الخلافة، لأن الخلافة حق لكل مسلم حر عاقل» [18].

كانت الدولة العثمانية راضية عن سلوك الأمير شكيب أرسلان، إلا جمال باشا السفاح لم يرض عنه لتدخله في شؤونه. أراد الطاغية أن يبطش ببطريرك الموارنة الياس الحويك (1843- 1931م) لولا تدخل الأمير وحال بينه وبين البطش بالبطريرك، قال جمال باشا السفاح: «إن الجماعة التي تشفع لهم لدي منهم أناس كانوا يريدون قتلك!».

حاول السفاح البطش بالأمير ولكنه كان يخشى من وزير الدفاع أنور باشا، وسافر الأمير إلى استنبول في سنة 1916، لإلغاء الديوان العرفي في عالية قبل يوم 6 أيار،

وعندما سمع السفاح بنية الأمير، أسرّ لأحد مرافقيه: «إني حاولت أن أطوق رقبة شكيب بحبل المشنقة فلم أجد حبلاً يحيط بعنقه». وسارع جمال باشا بإعدام الشهداء.

وفي استنبول تزوج الأمير بالفتاة الشركسية سليمى الخاص بك حاتوغو قريبة والدته وأنجبت له ثلاثة أولاد (غالب ومي وفاطمة). وعندما قابل الأمير شكيب الملك فيصل في دمشق قال له الملك: أشهد أنك أول عربي تكلم معي في الوحدة العربية. وأردت لها أن تكون وحدة عملية، مكونة من بلاد الشام»[19].

وفي سنة 1924 أسس الأمير شكيب جمعية (هيئة الشعائر الإسلامية) في برلين، وكان أعضاؤها يمثلون جميع الشعوب الإسلامية. وفي عام 1929 حج الأمير شكيب ثانية إلى بيت الله الحرام، والتقى بالملك عبد العزيز بن سعود (1918- 1952) وقدم له كتاباً باسم (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف).

ثم زار الأمير شكيب إسبانيا عام 1930 وعلى أثر الزيارة أصدر كتابه الجليل (الحلل السندسية والأخبار الأندلسية) في مجلدين. وعاش الأمير مجاهداً في سبيل حرية العرب والمسلمين. وعندما زار سورية في صيف 1937 استقبل في دمشق استقبالاً رائعاً، وأسندت إليه رئاسة المجمع العلمي العربي ولكنه اعتذر. وزار مصر في صيف 1939، وصار أمير البيان في عصره أسطورة العالم الإسلامي، وكان الأمير يجيد العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية والألمانية، وكان مثالاً للتهذيب الديني مواظباً على الصلاة والصوم، ولا يشرب سوى القهوة المرة التي قال فيها[20]:

قهوة البن حلال وإن نهى الناهون عنها
كيف تدعى بحرام وأنا أشرب منها

كتب أمير البيان عدة كتب حوالي الخمسين كتاباً، من أجلها لقب بكاتب الشرق الأكبر عام 1929 خصوصاً على أثر كتابه (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟).

كان الأمير معتدلاً في آرائه، يحب الآخرين. كتب مرة: «والله لو علمت أن مسلمي نابلس أرادوا أن يضطهدوا المائتي سامري (اليهود) الذين عندهم، والذين هم بقية كل من بقي من السمرة على وجه الأرض، وذلك في شيء عائد إلى شعائرهم الدينية، أو أرادوا مثلاً أن يجبروهم على الصلاة بالعربي، لكنت أول من يعترض ويدافع عن السمرة، وأقمت القيامة من أجل حريتهم الدينية»[21].

ولأعطيك فكرة عن فيلسوف الشرق الأكبر، أقامت مجلة الضياء الهندية التي تصدرها ندوة العلماء في (لكنوه) نشرت عن اجتماع عقد في سنة 1935 وبحث في الندوة، أي الرجال يستحق التقدير في حاضر العالم الإسلامي، وكان حاضراً

الفيلسوف والشاعر محمد أقبال والشيخ سليمان الندوي، ومولانا محمد علي والشيخ حسين أحمد المهتدي، وسيف الرحمن وعبيد الله السندي، وذكروا أمير البيان شكيب أرسلان، والسيد رشيد رضا، وغيرهم، وكانت نتيجة الاقتراع فوز الأمير شكيب بأكثرية الأصوات، وهو غائب[22].

اشتد المرض على الأمير شكيب في سويسره وعادوا به إلى بيروت وتوفي أول سنة 1946م، وصلوا عليه في الجامع العمري في بيروت ثم نقلوا جثمانه إلى الشويفات.

الأديب نعمان حرب (1916- 2004م)

ولد في قرية المجيمر في جبل العرب عام 1916 في زمن عصيب. كان الجوع والمرض والقهر تسود، ولكن انفصال سورية عن الدولة العثمانية، وقيام الثورة العربية الكبرى أدخل الأمل على قلوب الناس.

قال الباحث محمد طربيه، من الإنصاف أن نضع المرحوم نعمان حرب ضمن إطاره التاريخي والثقافي المحدد ثم نحكم على سيرته وآثاره.

يروي نعمان عن طفولته، واشتراك أسرته في معارك الجبل، ومنها معركة الكفر 1925، يقول: «سرق أخي نجيب بندقية أخي حسن من الدار، والتحق بالمعركة، واستولى على بندقية أحد الجنود الفرنسيين مع بغلته المحملة بالذخيرة، وعاد إلى القرية، وأعطى لأخي حسن بندقيته، وصارت البغلة ركيزة في نزوحنا عن القرية، وواسطة لنقل مؤونتنا وصغارنا إلى سفوح التلال، وكنا نقتات من فتات خبز الشعير أو من ثمر البلوط والحشائش. وكان والدي لا يستطيع المشي على قدمه اليمنى، وشقيقي الأكبر حسن يعاني من جرح أصيب به في معركة المسيفرة، وانتقلت والدتي إلى رحمة الله، أثناء نزوحنا».

درس الطفل نعمان في السويداء المرحلتين الابتدائية والثانوية التي لم يكمل الدراسة فيها، كما يقول الباحث محمد رضوان لأسباب مادية، ولكن نعمان كان مجلياً في دروس اللغة العربية، وعندما أنشأ أخوه نجيب جريدة باسم الجبل عام 1924، صار نعمان ينقلها من قرية إلى قرية على ظهور الدواب. ويحاول الكتابة في الجريدة مما أعطاه المهارة في الكتابة في سن مبكرة، وظلت الجريدة تصدر حتى تأميم الصحافة عام 1958م.

كان نعمان يشارك في المظاهرات الوطنية، ويقودها أحياناً كما في مظاهرات عام 1936 ومارس التعليم الابتدائي ثم أصبح موظفاً في المحكمة العدلية وظل في هذه الوظيفة حتى إحالته على التقاعد عام 1976.

قام نعمان حرب برحلة طويلة إلى الأرجنتين والبرازيل وفنزويلا، واطلع على الجيل الثاني من المهاجرين، وكتب عنهم. يقول الأستاذ سلمان عزام: عاش نعمان من أجل الكلمة الصادقة، وكرس حياته للأدب والأدباء في المهجر، وكان يملك العزيمة الشفافة والبيان الغزير والثقافة، وكان أسلوبه يستقيم عند البحث وتوازن الأفكار وتخرج العبارات من قلمه مرصوفة فكأنها سكبت في قالب من ذهب بهذه الكلمات الموجزة وصف الأديب وهيب سراي الدين أسلوب نعمان حرب.

أصدر نعمان حرب عشر مجموعات عن الأدب المهجري سماها (قبسات مهجرية) وهي حسب رأي الأستاذ إسماعيل ملحم عشرة، وخمسة عشر كتاباً حسب رأي الأستاذ محمد رضوان. قدم الأديب والشاعر عبد المعين الملوحي المجموعة الرابعة، وجاء في مقدمتها: «إن الأخ الأديب نعمان حرب في إصداره هذه السلسلة يقوم بعمل أدبي وقومي في آن واحد:

أما أنه عمل أدبي: حين يطل علينا بآثار أدبائنا العرب الذين رحلوا عن بلادنا جسدياً وظلوا يقطنوننا روحياً، والذين ما زالوا يرون في لغتنا العربية المجيدة، أداة للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم وأحاسيسهم والذين ما يزالون رسلنا الأوفياء إلى بلاد العالم رغم ما يعانونه من حرمان.

وأما أنه عمل قومي: لأنه يعيد لنا ارتباط هؤلاء الأدباء بأوطانهم، ويرسخ علاقاتهم بها، ويذكر أوطانهم بهم. ويحمل إلينا أرجاً من أنفاسهم الطاهرة.

لقد فصل الأستاذ إسماعيل ملحم عن الإصدارات العشر التي بدأت عام 1980 وانتهت عام 1988 وعما كتبه عن المجاهدين الذين استشهدوا في عام 1925، وظهر كتابه عام 1993. كما كتب عن الرابطة الأدبية (رابطة إحياء التراث العربي) في أستراليا وقد منحته الرابطة جائزة جبران العالمية 1987. وحياه الشاعر شفيق عبد الخالق بقصيدة:

يمم ربى المجد وانزل واحة الغضب   واحمل لنعمان شكر الشعر والأدب
واحمل إلى الجبل العالي وثورته   ما يطرب الروح من أشواق مغترب
نعمان ما زلت للآداب منتجعاً   ونجمة في مغاني عصبة الأدب

ما الأديب في نظر نعمان حرب؟ يقول عنه: «الأديب جدول رقراق، لا تبتهج له النفس إلا إذا تدفق من عل، ولا ينتفع الناس به، إلا إذا شق لنفسه مساراً صحيحاً، ليتمكن الجميع أن يعبوا من معينه، ويستفيدوا من عطائه، وإلى هذا أشار رواد الأدب

فقالوا: لا يحركنا الكلام، ما لم يعجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه وعليه يجب أن لا تقعدنا العبارة عن الفحوى، ولا يثنينا جمال اللفظ عن المعنى» انتهى.

من هذا النص ترى صدق تقييم الأستاذ محمد راتب حلاق لأسلوب نعمان حرب، الحامل بالألفاظ التي تشير إلى الأشياء الحسية الجميلة، كالورود والأزهار والرياحين، والاحتفاء بالتراكم الملفوظي وبالمترادفات والعناية بعطف الجمل ذات المدلولات المتطابقة والمتقاربة مع بعضها، وهو من المولعين بالجرس الموسيقي.

أما الأستاذ فوزي معروف فيعلل أسلوب نعمان حرب بقوله: «بقدر ما كان نعمان حرب واقعياً خارج الكتابة في حياته، وفي تعامله مع الآخرين، بقدر ما كان رومانسياً وعاطفياً داخل الكتابة، ومهما كتب نعمان حرب من نصوص أدبية تبقى حياته الشخصية هي النص الأكثر سطوعاً بين نصوصه على كثرتها، وهذه الخطابية والنزعة الإنشائية هي في رأي الأستاذ محمد طربيه دليل على الضعف في الجانب التحليلي والنقدي للأشعار جميعاً والملحقة بكل عدد من أعداد القبسات المهجرية، كما يتسم أسلوبه بنوع من المبالغة والتجوز لا سيما في تسميته ذلك الأدب مهجرياً، إذ البون شاسع بين ما عرف من أدب مهجري في مطلع القرن العشرين، وما يعرض اليوم على أنه أدب مهجري من الناحيتين الفنية والفكرية على السواء».

إن الأستاذ فوزي معروف يؤكد أن الأدب المهجري الحديث يتسم بخفوت إن لم نقل اضمحلال الجانب التأملي الإنساني الذي كان أبرز ما يميز أدب المهجريين الأوائل، مدعماً رأيه بقول للدكتور محمد مندور، شيخ النقاد العرب: «إنهم قوم مثقفون، أمعنوا النظر في الثقافات الغربية، وعرفوا كيف يستفيدون منها، بعد أن هضموها بلغاتها الأصلية، لذلك استطاع أدباء المهجر الجدد إيجاد ما لم يستطعه غيرهم».

وأما نزعة نعمان حرب الوطنية يذكرها الأستاذ عبد الغفار نصر بقوله: «كان دوماً يلح على الوحدة الدينية لأبناء الوطن كلهم، ويؤكد على أهمية تنقيته من أفواه الساسة، ومن رائحة أنفاسهم النجسة، لأن الدين أخلاق، والسياسة كذب ونفاق، وكان مؤمناً بالعلمانية. وكان مذهبه في الحياة أنه لا تتحقق الديمقراطية إلا باحترام الدين وفصله عن السياسة. ويؤكد الأستاذ موفق نادر على أهمية الشهادة والشهداء عند نعمان حرب، وما كتابته عن الشهداء إلا ليكونوا أحياء في ذاكرة الأجيال، لأن الحي أبقى من الميت.

كان المدح والثناء ينهالان على نعمان حرب في حياته، خاطبه الشاعر إبراهيم سلمان:

تفتح الورد والأكمام ضاحكة   والروض طاب سجع وتغريد

نعمـــان درّك كـــم تـــزدان بهجتـــه   كـالعقد يـزدان فيـه النحـر والجيـد

وخاطبه الشيخ شكيب تقي الدين رئيس عصبة الأدب العربي في البرازيل بقوله:

لنـا فيـك يـا قلـب العروبـة شـافع   ومجـــد وتـــاريخ وحلـــم واقـــع
أجيبـــي نـــداء واســـتردي كرامـــة   وحقـــك ســـورية فدتـــك المجـــامع

ومن الشعراء الذين أسهبوا في الثناء على نعمـان حـرب صديقـه الشاعر حسن عساف، قال:

يـــا رائـــد الأدب الرقيـــق تحيـــة   بوركـــت مـــن حـــس رهيـــف مؤنـــق
بوركـــت مـــن قلـــب وروح حـــرة   يـا دوحـة الأخـلاق والقلـب النقـي
أرض الســـويداء التـــي حضنتـــها   تغفـــو البطولـــة والكرامـــة ترتقـــي
للـــه درّك يـــا ابـــن حـــرب ثـــاقلاً   أدب المـــهاجر دون أجـــر مغـــدق
أكـــرم بمثلـــك منـــبراً متنقـــلاً   فـوق الـدروب وكـل عطفـة معـرق
فيـها عرفـت أخـاً وفيـاً مخلصـاً   عـبر الثقافـة مـن شـآم المشـرق

وفي حفل تكريم الأديب نعمان حرب من قبل اتحاد الكتاب العرب، ألقى الأديب والشاعر ميخائيل عيد كلمة جاء فيها: «لقد عشنا زمناً بغير الجسور، ولا نفكر بها، ما كنا نسأل أنفسنا كيف كان حالنا لولاها؟ كانت غفلة منا، نأخذ ما أعطوا، وننسى أن نقول شكراً».

فشكراً لأبناء السويداء الذين كرموا نعمان حرب في حياته وبعد مماته، لقد دعونا إلى السويداء للسلام عليه، ولا أنسى قامته المديدة وجسده النحيل ووجهه البشوش، وعذوبة كلامه الهامس، رحمة الله على نعمان حرب، بعد أن توقف قلبه عن الخفقان في ليلة 20/ 12/ 2002م. وكما قال الأستاذ جبر الشوفي بحقه: نعمان حرب سنديانة جبلية شامخة لم تلوه الريح، ولا فلّت عزمه السنون الثقال. بل جلت معدنه محكات النضال الوطني، والقومي.

ومن الشخصيات الدرزية المعروفة:

السادة شيوخ العقل، الشيخ أحمد الهجري والشيخ حسين الهجري، والشيخ يحيى الحناوي والشيخ شبلي الحناوي، والشيخ أحمد جربوع والشيخ حسن جربوع، والشيخ حسين أبو فخر.

والشخصيات البارزة في الجبل: سلطان باشا الأطرش، والأمير حسن الأطرش، والأستاذ منصور الأطرش (عضو القيادة القطرية) والمهندس هلال الأطرش وزير الإدارة المحلية، والأستاذ عبد الله الأطرش (عضو مجلس الشعب). والباشا عبد الغفار عامر، رئيس أول دولة في الجبل، ومنهم الدكتور كمال عامر أخصائي في القلب، والدكتور بسام جانبيه (عضو القيادة القطرية 2005. والسيد جادو عز الدين الحلبي، والدكتور فايز عز الدين (دكتوراه في الفلسفة)، والسيد نايف جربوع، والسيد محسن جربوع، والدكتور فندي أبو فخر (تاريخ) والشاعر علي عبيد والأديب سلامة عبيد، واللواء حمد عبيد (وزير الدفاع السابق) والعقيد فهد الشاعر قائد قوات اليرموك التي قاتلت في شمال العراق، واللواء عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش الشمالي أيام الوحدة، والفنان فهد بلان، والدكتور كمال بلان (دكتوراه في التربية) والدكتور كمال شرف (وزير الاقتصاد والسفير) والأستاذ سلام الياسين عضو القيادة القطرية (2000- 2005) والأستاذ إسماعيل ملحم (باحث وكاتب) والأستاذ عبد الغفار نصر (كاتب وباحث) والأستاذ نبيل نوفل (كاتب) والأستاذ جميل أبو ترابي (كاتب ومؤرخ) والأستاذ نبيه محمود السعدي (مؤرخ) والأستاذ فوزي معروف (كاتب). والمؤرخ الشهير يوسف الدبيسي، والدكتور ماجد علاء الدين (صاحب دار النشر المعروفة) والدكتور ماجد أبو حمدان (علم اجتماع) والسيد نسيب رحروح أبو جمال (ضابط متقاعد)، والرائد سليم حاطوم، والقاضي غسان رحروح عضو محكمة النقض، والباحث سيف الدين القنطار، والدكتور صابر فلحوط رئيس اتحاد الصحفيين، والروائي والشاعر عقبة زيدان، والأديب ممدوح عزام، والصحفي نزيه الشوفي، والدكتور الخيِّر إحسان عز الدين.



مراجع: الطائفة الدرزية

1)البداية والنهاية ج14 ص35 ابن كثير مكتبة المعارف بيروت 1966.

2)المصدر السابق ج14 ص309.

3)كتاب تنوير الأبصار ص479 الطحاوي، طبعة بولاق القاهرة 1254م.

4)الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج2 ص16 آدم متز ترجمة محمد أبو ريدة دار النشر والترجمة القاهرة 1957.

5)كتاب الطواسين ص9-14 الحلاج نشر لويس ماسينيون باريس 1923.

6)النجوم الزاهرة ج4 ص222، ابن تغري بردي المطبعة الأميرية القاهرة 1929.

7)الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ج2 ص72، فرهاد قتري ترجمة سيف الدين القصير دار الينابيع دمشق 1995.

8)دار معارف البستاني ج7 ص189 بيروت 1935.

9)الإسماعيلية تاريخ وعقيدة ص730، إحسان إلهي ظهير الرياض 1986.

10)من هم الموحدون الدروز ص14 جميل أبو ترابي دار علاء الدين دمشق 1998.

11)المصدر السابق ص15.

12)أخبار الأعيان ج2 ص279، طنوس الشدياق منشورات الجامعة اللبنانية 1970.

13)تاريخ بيروت ص51 صالح بن يحيى التنوخي نشر الأب لويس شيخو اليسوعي بيروت 1927.

14)مخطوطة صدق الأخبار ص188.

15)من هم الموحدون الدروز؟ ص188.

16)شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ص17، الشيخ أحمد الشرباصي أعلام العرب القاهرة 1963.

(17)المصدر السابق ص21- 22.

18)حاضر العالم الإسلامي ج1 ص249، شكيب أرسلان القاهرة 1929.

19)ديوان الأمير شكيب أرسلان ص161، مع مقدمة محمد رشيد رضا مطبعة المنار القاهرة 1935.

20)مجلة الشورى ص25 آب 1927 القاهرة.

21)مجلة الفتح السنة الثامنة في 13 ذي القعدة القاهرة 1351هـ.

22)شكيب أرسلان ص232.

الباب الثاني

العرب المسيحيون والسريان

الفصل الأول: الروم الملكيَّة

الفصل الثاني: السريان وطوائفهم

الفصل الثالث: الكنيسة النسطوريَّة

الفصل الرابع: الكنيسة المورانيَّة

الفصل الأول: كنيسة الروم الملكيين في سورية

- المدخل للبحث: صورة اعتقاد الكنيسة الملكية
- الكنيسة الملكية تحت الحكم العربي
- الكرسي الأنطاكي للروم الملكيين
- انقسام الكرسي الأنطاكي في العهد العثماني
- الكنيسة اللاتينية في سورية
- الكنائس الإنجيلية الوطنية

المدخل للبحث: صورة اعتقاد الكنيسة الملكية

إن صورة اعتقاد الكنيسة الملكية، قد تم إنجازه في المجمع المسكوني الرابع (المجمع الخلقيدوني) 451م. وعلى أثر هذا المجمع انفصلت الكنائس (أصحاب الطبيعة الواحدة، ثم تلتها الكنائس النسطورية والأرمنية) وصار لكل كنيسة طقوسها الخاصة.

صارت كنيسة الروم الملكيين (باسيلكوس) تستخدم اللغة اليونانية في طقوسها. وعلى أثر الفتح العربي لسورية وسقوط الحكم البيزنطي، اعتبر العرب الروم الملكية أتباع للروم وجواسيسهم، مؤثرين عليهم اليعاقبة (القائلين بالطبيعة الواحدة) لأنهم ساعدوهم في الفتح، ولكن لأن المسيحيين كانوا هم الأكثرية ومعظمهم من العرب والسريان كانت الطوائف المسيحية المختلفة تنعم باعتراف شرعي واستقلالية إدارية داخلية في كل ما له صلة بالأحوال الشخصية، بموجب قوانينها الخاصة. وفي رعاية البطاركة القيمين عليها والمعترف بهم رسمياً بأمر من الخليفة[1].

إذا اعتبرنا أن الكنيسة الملكية عربية، فالسؤال المطروح: **هل يمكن كتابة تاريخ الكنيسة حسب معطيات التاريخ العربي؟** نعم يمكننا ذلك حسب قول البطريرك مكسيموس صايغ الذي قال: «كان لقب الملكيين في الإسلام يردف باسم الروم، لأنهم أتباع الطقس البيزنطي، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك، فهم يتألفون من عناصر بلدية عربية وأجنبية». وكان العرب يعتبرونهم أعواناً للعدو الخارجي، وهم الذين يفضون إليهم بأخبار العرب، وصار أعداؤهم من أتباع الكنيستين اليعقوبية والنسطورية يعدونهم خونة. يقول الأستاذ حبيب الزيات «وكان أعوان السلطان ورجال العامة، إذا بلغهم خبر انتصار للروم، أو مفاجأة لهم بالغارة على ديار الإسلام، طمحوا إلى ما في أيدي الملكيين من الأموال والأرزاق»[2].

ونتيجة هذا العداء للروم خلا الكرسي الأنطاكي الملكي، وانقطعت أخبارهم لأن أنطاكية كانت تابعة للحكم البيزنطي وإن ظل رجال الدين يمارسون طقوسهم الكنسية بحرية تامة خصوصاً في العصر الأموي لأن أتباع المذهب الخلقيدوني كانوا من الغساسنة وعرب حوران وصار تاريخ الكنيسة جزءاً من كتب التاريخ والتراجم العربية.

كان المؤرخون العرب يذكرون ما تعاقبت على القبائل المسيحية من أحوال بؤس ورخاء ولهم دراية ومعرفة بمذاهبهم وطوائفهم. يقول أبو الريحان البيروني: «النصارى

مفترقون فرقاً، فالأولى منهم الملكانية، وهم الروم، وإنما سموا بذلك لأن ملك الروم على قولهم، وليس في بلاد الروم سواهم»[3].

وقد بيّن ابن خلدون في تاريخه (كتاب العبر) أن تاريخ الملكية يبدأ من المجمع الخلقيدوني الذي من بعده افترقوا إلى الكنائس والأساقفة الثلاث (اليعقوبية والملكية والنسطورية). فاليعقوبية أهل مذهب ديسقورس الإسكندري، والملكية أهل الأمانة التي قررها مجمع نيقية (325م) والمجمع الخلقيدوني (451م) ومن بعدهم وعليها جمهور النصرانية والنسطورية، أهل المجمع الثالث أفسس (431م) وأكثرهم من أهل المشرق»[4].

ولكن أفضل المؤرخين العرب هوالرحالة المسعودي الذي تجول في ديار الإسلام والتقى وشاهد كنائس النصارى وجادل الأساقفة وكان لديه قبول للآخر الذي يخالفه في الدين، قال: «إنه اجتمع بأبي زكريا دنحا من علماء اليعاقبة، وناظره في الثالوث وغيره في قطيعة أم جعفر في بغداد، وفي تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء»[5]. وقال ايضاً: «إن الملكية هم الأصل الذي تفرعت منه بقية النصارى، وهم عمدة النصرانية وقطبها، لأن المشارقة وهم العباد الملقبون بالنسطورية، واليعاقبة عن هؤلاء تفرعوا ومنهم تبددوا»[6].

كان أسقف القدس صفرونيوس الدمشقي الذي سلم مفاتيح القدس للخليفة عمر بن الخطاب من أتباع الكنيسة الملكية، ومن بعده انقطعت سلسلة التواصل لدى الملكية.

كيف كان حال الملكيين الروم في العهد الأموي؟

كان المسيحيون يمارسون عبادتهم بكل حرية، وإن كان الخلفاء ينظرون إلى الأساقفة الروم بحذر وريبة، كان هشام بن عبد الملك قد أعطى لأسطفانس الأنطاكي عهداً بعد انقضاء قرن من فراغ الكرسي، وكتب للبطريرك قزما الأورشليمي أن لا يؤدي إليه أحد من الغرباء والقادمين من بلاد الروم، تكون فيه ريبة ولا يكتم ما طلع عليه، ولا يخفي كتاباً يرد عليه من أحد من الروم[7].

الكنيسة الملكية تحت الحكم العربي

بعد الفتح العربي لسورية، ماذا أصاب الطقوس الدينية من تغير أو تبديل؟

تخلى الروم الملكية عن استخدام اللغة اليونانية، وصارت الحوارات في الكنائس تجري بالعربية، وجرى نقاش تناول جوهر المسيحية أثار مكسيموس المعترف (المتوفى 662م) عن المشيئتين في السيد المسيح، وكان البابوات في روما قد أدانوا القول بالمشيئتين، وتبع رأيه رهبان دير مارمارون، وجرى قتال بين الأهل والجيرة في سورية.

يذكر البطريرك ديونيسيوس التلمحري (المتوفى 845) أنه جرى انقسام في حلب بين جماعة الموارنة والروم الملكية، في خلافة يزيد بن عبد الملك في عام 724م، اختلفوا بشأن ملكية الكنيسة التي شيدها في حلب المطران أقاف (378- 433) حيث طالب بها كل من الفريقين وكثيراً ما تبادلوا الضرب داخل الكنيسة، مما دفع قائد شرطة المدينة، أن يخص كل فريق بنصف الكنيسة، ووضع حاجزاً في الوسط، فأصاب جماعة مارون الجهة الشرقية والروم الملكية الجهة الغربية، وقطعوا الكنيسة بألواح خشبية، وأقاموا مذبحاً خشبياً نحو الغرب وهكذا صار في الكنيسة جماعتان، تحاول كل منهما رفع صوتها أكثر من القداس للتشويش على الأخرى، وكثيراً ما رموا قرابين بعضهم، وكسروا الصلبان، لا بل أمسكوا بلحية الأسقف دون خجل وبصقوا في وجهه، وقد تجاسرت نساء الموارنة، ودخلن المذبح وأمسكن بالكهنة وأخرجنهم خارج الكنيسة، مما اضطر القائد المسلم أن يقدم الذبيحة في كل يوم كاهنان، واحد من الجانب الشرقي وآخر من الجانب الغربي وكل يناول جماعته، فامتثلوا للأمر»[8].

وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، أقام الموارنة لهم بطريركاً عام 684م، فتحسنت أحوال الطائفة المارونية، وعلى عكسهم الطائفة الملكية لم يسمح لهم إقامة بطركاً لهم إلا عام 742م، وكان البطريرك الذي اقاموه يونانياً فلم ينل رضى السلطة ثم عينوا بدلاً عنه بطركاً عربياً هو ثاوفيلس بن قنبر الحراني.

وفي العهد الأموي ظهر القديس يوحنا الدمشقي (675- 754م)

هو يوحنا بن سرجون الغساني، ولد في دمشق عام 675، ودرس اللغة العربية واليونانية وعلم اللاهوت، ونبغ في البلاغة والبيان اليوناني واستغرب المستشرق الفرنسي كلود كاهن، كيف أنه لم يهرب إلى بلاد الروم[9] ظناً منه أنه يوناني.

كان سرجون بن منصور من كبار رجال الدولة العرب في بلاط معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية يقرب إليه المسيحيين، لأن زوجته ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد امرأة مسيحية. ولكن الوليد بن عبد الملك (705- 715) لم يكن كذلك، فهو الذي حول كنيسة يوحنا المعمدان إلى المسجد الجامع، الذي عرف بالمسجد الأموي، وعلى أثر ذلك اعتزل يوحنا الدمشقي الحياة المدنية وذهب إلى دير سابا قرب القدس، بطلب من يوحنا الرابع (706- 734) وعاش هناك في الدير، يعلّم ويكتب، واشترك في الجدل الدائر حول حركة تحطيم الأيقونات في القسطنطينية عام 726م، معتبراً أن الأيقونات ضرورية لتعليم الأميين، ولعبت كتاباته دوراً مهماً في الثقافة اليونانية والعربية.

عقد البطريرك أنسطاسيوس مجمعاً في بلدة هيار قرب خلقيدونية سنة 753م، هاجم فيه القديس يوحنا، صديق الإسلام، وعابد الخشب، ومحرِّف الأسفار المقدسة. من الكتب الهامة في تاريخ الفكر اللاهوتي المسيحي كتاب سماه (الإيمان القويم) ويتألف الكتاب من أربعة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن التثليث والتوحيد، وعن الإله الواحد في الطبيعة والمثلث في الأقانيم، قال القديس يوحنا: «إن كلمة الله، وروحه الإلهيين، هما أقنومان أزليان، لأنهما من ذات جوهر الأب، والفرق بين الأب والابن، الابن فكر ناطق والأب فكر منطوق، والله تعالى لا جسد له، ولذلك فروحه أقنوم أزلي غير غريب عن جوهره الذي هو ذات جوهره، لأن الله جوهر بسيط ولا عرض فيه، ولا تركيب ولا يتميز روحه عنه إلا بأنه منبثق عنه»[10].

وفي هذا الفصل يرد على بعض الفقهاء المسلمين، ولم يحدد أسماءهم، فهم يرون أن المسيح كآدم خلقه الله من تراب، ونتيجة الجدال، ظهرت بين المسلمين حركة فكرية حكَّمت العقل والإرادة الحرة في عمل الإنسان، فالعقل هو الذي يحسِّن الأعمال ويقبِّحها لا الشرع، وإن الله عادل ومنصف لأنه يحاسب الإنسان على ما يفعله من عمل.

القسم الثاني: تحدث فيه عن أعمال الله، وخلقه للملائكة والعالم والشر. جاء في بشارة روح القدس للعذراء «أن الكلمة صار لجسمه أقنوماً، أي صار جسماً للإله الكلمة، وفي الوقت نفسه، ذا نفس ناطقة عاقلة، لذلك فلسنا نقول: إنه إنسان متأله، بل نقول إله متأنس إلهاً تاماً بطبيعته، أصبح هو نفسه إنساناً كاملاً، بدون أن يغير طبيعته، لكنه اتحد بأقنومه بالجسد، ذي النفس الناطقة العاقلة، المأخوذة من مريم البتول واتحد به، دون اختلاط أو تغير أو انقسام، لم ينقل طبيعة لاهوته إلى جوهر جسمه، ولا جوهر جسمه إلى طبيعة لاهوته، ولم يبدع طبيعة واحدة مركبة من طبيعة إلهية، ومن الطبيعة البشرية التي اتخذها»[11].

القسم الثالث: تحدث فيه عن العناية الإلهية، وأن الله منح الإنسان حرية الإرادة، فهو يستطيع أن يختار أعماله بحرية تامة، وإن كان قد هيأ له الأسباب، وأعطاه عقلاً يميز فيه بين الأشياء، ونتيجة هذا الاختيار والتمييز، حيث يثاب العبد ويعاقب[12].

القسم الرابع: تحدث فيه عن التجسد الإلهي، والإيمان بأسرار الكتاب المقدس وإكرام القديسين والصور، والنفس التي تقرع بنشاط وثبات روضة الكتاب المقدس الغناء، تجدها كالشجر المغروس على المياه والذي تأتيه دائماً، شمس الإيمان القويم، فتورق فضائلها ولا تذبل أبداً، وتفوز بأجنحة حمامة مذهبة، تطير بها إلى معرفة الابن الوحيد (المسيح) فيقودها إلى أبي الأنوار[13].

في العصر العباسي، كان الكتاب وعلماء الكلام على اطلاع واسع بمذاهب النصارى، ولكي أعطي فكرة عن مدى معرفة عمال الدولة وكتابها بمذاهب اللاهوت المسيحي، أورد ما قاله اسحق بن إبراهيم الموصلي (767- 850) في قسم الكاتب عون العبادي النسطوري، عندما أراد الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد أن يحلفه بالقسم التالي:

«أحلفك بإلهك الذي لا تعبد غيره، ولا تدين إلا له، وإلا خلعت دين النصرانية، وبرئت من المعمودية، وطرحت على المذبح خرقة حيض امرأة يهودية، وقلت في المسيح ما يقوله المسلمون 'إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب' وإلا فعليك لعنة الـ 318 أسقفاً الذين اجتمعوا في نيقية لإقامة شريعة النصرانية ، وأخذت قربانك من أست يهودي أعور يوم العيد الكبير، ومسحت استك بلحية الشماس، وهدمت الدير، وخرقت رداء مريم، وأصبحت حنيفاً مسلماً، وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك، فقال عون للفضل بن الربيع: أنا لا أستحل الإصغاء لهذا القسم فكيف أستجيز أن أحلف بها وأقولها؟»[14].

كان الخليفة المأمون (813- 833) يحب النصارى، والاجتماع بالبطاركة، ويتجادل معهم في اللاهوت، ولا يجد في ذلك ضيراً، ومن هؤلاء العلماء بطرك النساطرة طيمثاوس الأول (780- 823) والمطران ثاودوروس أبو قرة الحراني، وغيرهما.

المطران ثاودوروس أبو قرة (754- 840)

ولد ثاودوروس في حران عام 754 ودرس في أسكولات الدير، ثم انتقل إلى الرُّها ولما أنهى دراساته العليا، سافر إلى دير القديس مار سابا عام 774، وعاش في الدير، ودرس المنطق والفلسفة وتفسير الكتب المقدسة، وكان رفيقه أفتيموس اسقف صيدا، هو الذي شجب في رسالة (القول في مشيئتين في السيد المسيح) وحضر الخلاف الذي وقع بين الرهبان العرب في دير القديس سابا والفرنجة المقيمين في جب الزيتون بظاهر القدس، ثم انتقل ثاودورس إلى القدس وعاش هناك هو وصديقه داود الرهاوي وأكمل دراساته اللاهوتية، وعاد إلى حران عام 790، وعين مطراناً على مدينة حران وتوابعها فأبدى نشاطاً في التعليم وفي بناء الكنائس، ثم رحل إلى الإسكندرية، وهناك اطلع على الحالة الثقافية وناقش الأقباط في طبيعة المسيح، وعاد إلى أنطاكية، ومنها إلى الرقة، لأن الخليفة هارون الرشيد جعل مقر إقامته في الرقة (180هـ/ 797) والتحق المطران أبو قرة في الترجمة في بيت الحكمة، وساهم في ترجمة الكتب المنطقية والتقى بعلماء الكلام أمثال إبراهيم بن سيار النظام (المتوفى 236هـ/

851) والجاحظ وأبو عفان الرقي، وكان يجادلهما في التثليث والتوحيد، وكان معظم مقامه في الدير القائم بظاهر الرقة.

وفي زمن المأمون نزل أبو قرة إلى بغداد عام 817، وقابل المأمون وحضر مجالسه مع فيثون الرومي المترجم، وكانت لأبي قرة مناظرات مع عبد الله بن كلاب وأحمد بن حابط والجاحظ. يقول عبد الله بن إسماعيل الهاشمي: وكانت له مناظرات معهم، صارت لابن كلاب أقوالاً في كلام الله إن كلام الله هو المسيح، قال أبو العباس البغوي «دخلنا على فثيون المترجم في محلة الروم وكان معه بعضهم وسألته عن عبد الله بن كلاب فقال: كان يحبنا وعنا أخذ ولو عاش لنصرنا» وسال محمد بن اسحق الطالقاني عبد الله بن كلاب وهو حي: ما تقول في المسيح؟ قال: ما يقوله أهل السنة من المسلمين في القرآن أي كلمة الله الحية»[15].

وفي بغداد قابل أبو قرة الفيلسوف النصراني حبيب بن حذامة الملقب بأبي رائطة في مجلس فثيون المترجم وبحضور ملافنة (علماء) السريان وعلماء الكلام وجرى بينهما حوار حول طبيعة المسيح، سألهما عبد الله بن إسماعيل الهاشمي: **ما تقولون حول موت المسيح؟** قال أبو رائطة التكريتي: إذا قلنا إن المسيح مات عنا، إنما نعني الابن الأزلي المولود من الأب (الله) قبل الدهور، مات لا في طبيعته الإلهية بل في طبيعته الإنسانية! وسأله عبد الله: **وكيف يعقل هذا الموت؟** فأجابه أبو قرة: من مات لأجلنا إنسان صرف من طبيعتنا، وإن هذا الإنسان ليس هو الابن الأزلي المتأنس في شأننا! ولكن أبا رائطة لم يعجبه هذا الجواب لأنه من القائلين ليس في المسيح إلا طبيعة إلهية واحدة[16].

عاد أبو قرة الحراني إلى الرقة من بغداد، فوجد الرقة محاصرة بالقبائل القيسية وعلى رأسهم نصر بن شبث العقلي، فتوجه إلى أرمينية عام 817، إلى بلاط أبي العباس آشوط بن سباط، وعلم البطريرك اليعقوبي قرياقس (817) المقيم في الرقة، فكتب إلى أبي رائطة أن يذهب إلى البلاط الأرمني خشية عليهم من أبي قرة الملكي المذهب، والأرمن يعاقبة، فاعتذر أبو رائطة بأنه شيخ عاجز، ولكنه كتب كتاباً وأرسله مع اليان الشماس جاء فيه: «لقد بلغني أيها السيد الحكيم أن أبا قرة طعن فينا، ونفر من تقديساتنا الثلاث: أنت القدوس بالله ذو القوة الذي لا يموت، المصلوب من أجلنا. ارحمنا».

وصل الكتاب للبطريق أبي العباس، فكتب إليه جواباً، يطلبه لزيارته فاعتذر أبو رائطة بعجزه، وضعفه الصحي، وشكره وأرسل الرسالة مع الشماس الشاب نينوس

النصيبي الذي كان ضليعاً باللاهوت وبالأرمينية. ولما وصل إلى بلاط أبي العباس، طلب من أبي قرة أن يناظره، فاعتذر إليه أنه لا يليق بأسقف عجوز أن يناظر شاباً.

ولكن المؤرخين السريان يروون، عن لسان الرهاوي المجهول عام 1236م، بعد خمسة قرون «أن البطريق أبا العباس أرغم أبا قرة على المناظرة، وفي الجلسة الثانية من المناظرة، لم يستطع أبو قرة أن يجيب وتبين أنه لم يقرأ الكتاب المقدس ولم يدرس حكمة القديسين، ولا تعاليم الفلاسفة فخرج أبو قرة مخذولاً، وانصرف مملوءاً خزياً»[17].

هذه الرواية المتأخرة في الزمن لا صحة لها، وتتناقض مع مؤلفات أبي قرة الحراني الكثيرة، ويحاول المؤرخ الأرمني وارطان (المتوفى 1271) أن يؤكدها نقلاً عن الرهاوي المجهول يقول: «قبل موت الأمير آشوط (مساكر) أقبل إليه الأسقف أبو قرة الحراني، وحاول أن يجذبه إلى بدعته الخلقيدونية، ولما علم أبو ريت (أبو رائطة) أرسل الشماس نانا النصيبي (نينوس) لمناظرة أبا قرة، فناظره وغلبه، بقوة روح القدس، فطرد الأمير أشوط، أبا قرة وازداد رسوخاً في إيمان القديس غريغوريوس»[18].

هنا يعترف المؤرخ وارطان بقدرة أبي قرة الفكرية وأن الشماس نينوس لم ينتصر عليه إليه بقوة روح القدس، وتبقى هذه الرواية منافية للحقيقة التاريخية، وتعبر في الوقت نفسه عن الحرية الفكرية في المجتمع العباسي، ومدى الصراع بين المذاهب والطوائف المسيحية.

وسأروي مناقشة لأبي قرة مع رجل يهودي لم يسمه قال: «قال بعض اليهود لماذا تسجدون للصور؟ وقد حرم الله السجود لما يصنع بالأيدي؟ فرد عليه: إن إكرامنا للأيقونات لا يعود إلى الخشب، بل لما تمثله الصورة حباً وعشقاً للمسيح، كما كان اليهود القدماء يكرمون تابوت العهد، وكروبي الذهب (صور الملائكة الذهبية) ليس حباً بالذهب بل إكراماً للرب الذي أمر بصنعهم، وكذلك نحن، **إذا تمنعنا عن إكرام الصور، فكيف نفسر المعجزات التي تمت بواسطة الصور؟**»[19].

ومن مجادلات أبي قرة الحراني مع أبي عيسى الوراق المعتزلي، وصاحب كتاب الرد على أصحاب الفرق المسيحية الثلاث، قال المستشرق الهولندي أ. بيل A. Bel: «يبدو لنا أن كتاب أبي عيسى الوراق شبه حوار مع أبي قرة وتلاميذه من المعتزلة الذين كانوا ينزهون الله عن الوصف والتجسيد، فما بالك أن يصور على الخشب، من رده على المسلمين والعجب على الذين يعيبون على النصارى تصوير الأحياء، ويدعون من صور شيئاً حياً كلفه الله يوم القيامة، أن ينفخ الروح في صورته، وهم يصورون الشجر والطيور والحيوانات وهي كائنات حية»[20].

توفي المطران أبو قرة الحراني عام 840م، ودفن في الرقة. كانت أنطاكية تحت حكم الروم في القرن العاشر. وعندما توفي البطريرك الأنطاكي ثاودورس الثاني في أيار 976 ورشح أغابيوس المنبجي بدلاً عنه في 27 كانون أول 977م، ذهب للقسطنطينية لتتم رسامته ولكنه مات هناك في شهر أيلول 997م. ودفن في القسطنطينية.

في القرن الحادي عشر بدأت الحروب الصليبية، وقاوم المسيحيون أهل البلاد الفرنجة، ولكن الروم الملكية اتهموا بموالاتهم، لأنهم من مذهب واحد، وهم مثلهم في تربية الشعر الطويل وترك الختان، حتى المسيحيون الموثوق بهم من قبل العرب المسلمين لم يدخل أحد من بطاركتهم قبل مار الياس الأفامي (المتوفى 686م) أرض أنطاكية، وصار مقر الروم الملكية في الإسكندرية، يقول سعيد بن البطريق: «إن مصر علوها وسفلها صارت يعقوبية ما خلا كنيسة ميكائيل التي في قصر الشمع، فإن الملكية كانوا يصلون فيها وكانوا إذا مات أسقفهم، بعثوا إلى مطران صور ليصلح لهم أسقفاً، ولم تزل حال الملكية بمصر والإسكندرية حتى صار قزما القبرصي (724- 743) صديق القديس يوحنا الدمشقي الذي كتب إليه هشام بن عبد الملك برد الكنائس من يد اليعاقبة، ومنها كنيسة قيسارية[21]، هي الكنيسة التي سماها المقريزي بكنيسة البشارة التي للروم الملكيين والذين أقاموا 97 سنة دون بطريق أي حتى سنة 732م[22].

وجاء في كتاب التبر المسبوك للسخاوي (1427- 1496) في ترجمة السيد أحمد بن الحسين الشافعي المشهور بالنعماني: «كان نقمة على أهل الذمة، وهو الذي قام بهدم كنيسة النصارى الملكيين (كنيسة ميخائيل) بقصر الشمع وصيرها جامعاً، ويروى أنه أسلم على يديه ثمانون كافراً، وأنه لم يبق في قصر الشمع ولا في دموة (الجيزة) ولا في القاهرة كنيس لليهود ولا للنصارى، إلا وقد شملها من السيد، إما هدم، وإما بعض هدم، وإما إزالة منبر أوقوس، وإما إزالة حجاب، وهي المقاصير التي تجعل على الهياكل»[23].

من هذا النص وما سبقه نستدل على المعاناة التي كانت تتعرض لها الطوائف المسيحية من متعصبي العامة، الذين يهدمون ويحرقون الكنائس احتساباً لله تعالى فيما يزعم الفكر السلفي المتعصب، وهو لا يدري أنه يخالف ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله. كانت نزعة التعصب تزداد في الأزمات تولدها ذهنية مؤمنة بتكفير كل من يخالفها من إسلام ومسيحية، ولا صحة لما يقال بشكل عفوي، أن أهل الذمة نعموا بالخيرات، لأن الرسول (ص) أوصى بأهل الذمة خيراً.

أثناء الحروب الصليبية عانى أهل الذمة من الفرنجة والمسلمين، فعندما أسر الملك لويس التاسع (1214- 1270) في دمياط 1249، دخل المسلمون كنيسة مريم بدمشق وهي للروم الملكية ومعهم المطربون الذين يهزجون فرحاً بما جرى للملك، وهموا بهدم الكنيسة لولا ردع الدولة. يقول شهاب الدين أبو شهامة (1202- 1226) «وبلغني أن النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور (الأيقونات) في كنيستهم حزناً على ما جرى للفرنجة من ذل، فعلم بهم الوالي، فجناهم جناية شديدة، وأمر اليهود بصفعهم وضربهم وإهانتهم»[24].

لقد كانت الإهانات تلاحق النصارى، إن انتصر الفرنجة أو انهزموا.

ماذا حدث للروم الملكية أثناء الحروب الصليبية؟

انقسموا إلى فرعين:

الفرع الأول: ظل ثابتاً، ولم يستبشر بمجيء الفرنجة، وكانوا تحت حكم المماليك، ولهم أساقفتهم ورؤسائهم.

الفرع الثاني: كان أكثرهم تحت حكم الإمارات الصليبية وكانت تتنازعهم الأهواء، وانقسموا إلى فئتين:

-**فئة الروم البيزنطيين**، وكان نفوذهم شديداً في أنطاكية، وكانوا يحذرون من الفرنجة.

-**وفئة الصليبيين**، وكانوا يتحينون الفرص للاستيلاء على كنائس السوريين وأديارهم، ولا يتحرجون من إقصاء أساقفتهم، وإطلاق الحروم عليهم ليحلوا محلهم في الرئاسة والتدبير[25].

وجرى أول انشقاق في الكنيسة الملكية في سنة 1054م، في زمن البطريرك بطرس الثالث (1052- 1057) وصاروا يعرفون بالروم الأرثوذكس وهم العرب والروم والكاثوليك وكانوا خليطاً من عرب وفرنجة، وقام الروم الأرثوذكس بنقل كرسيهم من أنطاكية إلى دمشق.

قطعت العلاقات بين البطريرك بطرس الثالث والكرسي الرسولي أيام البابا لاون التاسع (1049- 1054) وعين الفرنجة يوحنا الخامس عام 1098، ولكنه لم يستطع تحمل مطاليب اللاتين فهرب إلى القسطنطينية ومات هناك وظل الكرسي الأنطاكي خالياً لمدة قرن من الزمن إلى أن عين البطرك أثناسيوس (1157- 1171) ومن بعده عين البطرك شمعون أبو شيبا (1206- 1235) ولكن لم يكن التواصل في الكرسي مستمراً، وفي عام 1242 عين داود الخوري بطريركاً (1242- 1247) وجرت أهوال

احتلال المغول لدمشق عام 1258 فانقطع البطاركة، وإن ظل الأساقفة يمارسون نشاطهم الديني ويدبرون شؤون مواطنيهم.

يروي الحافظ ابن كثير في حوادث سنة 676هـ/ 1366 قال: حضر عندي يوم الثلاثاء 9 شوال البطرك الملقب بميخائيل (1366- 1381) وأخبرني أن المطارنة بالشام قد بايعوه، وجعلوه بطركاً عوضاً عن البطرك الموجود في أنطاكية. فذكرت له: إن هذا أمر مبتدع في دينهم فإنه لا تكون البطاركة إلا أربعة (بروما والإسكندرية وأنطاكية وبالقدس) فنقل بطرك روما إلى القسطنطينية وقد أنكره عليهم كثير منهم إذ ذاك. فهذا الذي ابتدعتموه في هذا الوقت أعظم من ذلك، وتحادثنا في أمور دينهم فوجدته يفهم بعض الشيء، ولكن حاصله أنه حمار، من أكفر الكفار لعنه الله»[26].

ألا ترى معي من خلال هذا الحوار مع مؤرخ مسلم نابه الذكر، تراه يعرف في دين النصرانية ويريد القول أنه أحرص على دين النصرانية أكثر من النصارى أنفسهم، وهذه ذهنية التحريم الأصولية التي تلغي الآخر، إلا إذا كان يؤمن بما يؤمن به، و بالتالي فهو كافر.

في سنة 1267 دمرت أسوار أنطاكية وحررت من يد الفرنجة على يد الملك الظاهر بيبرس (1260- 1277) يقول البطريرك مكاريوس بن الزعيم الحلبي: «إن رؤساء كهنة أنطاكية عملوا مجمعاً ونقلوا البطركية من أنطاكية إلى دمشق لأنها أم بلاد الشام، وكانت وقتها تتبعها عدة أبرشيات (حوران وبعلبك وصيدنايا ومعلولا ويبرود وقارة)، وكانت لهم رعية لا تحصى»[27].

حال الكنيسة الملكية في العهد العثماني

عندما فتح السلطان العثماني محمد الفاتح (1451- 1481) القسطنطينية عام 1453، ساءت أحوال الكثلكة العثمانية، وصارت الكلمة النافذة لبطاركة اليونان المقيمين في القسطنطينية والقدس. ولكن البطريرك غريغوريوس ماماس قد لجأ إلى روما منذ عام 1450م.

على أثر خلو الكرسي البطريركي جمع السلطان محمد الفاتح الأساقفة اليونان في عام 1456 طبقاً لأعرافهم، وانتخبوا الأسقف جورج سكولاريوس واتخذ له اسماً جديداً هو جناديوس، وعامله السلطان بكل احترام وتوقير. ولكن خلفاءه لم يحافظوا على هذه التقاليد، ففي عهد السلطان سليم الأول (1512- 1520) حول الكنائس القائمة في تركيا والبلاد العربية إلى مساجد، مع السماح للمسيحيين ببناء كنائس جديدة من الخشب.

بدأ البابا غريغوريوس الثالث عشر (1572- 1585) يهتم بشؤون الشرق المسيحي، وأرسل الإرساليات الفرنسيسكانية إلى حلب ودمشق عام 1517م. وأسس في روما المعهد اليوناني 1577 والمعهد الماروني 1584، وإليه ينتسب التقويم الغريغوري وصار البطريرك تحت الحكم التركي لا ينصب إلا بدفع الرشوة فقد دفع البطريرك إرميا الثاني (1572- 1595) رشوة لاستلام كرسي القسطنطينية. أما بالنسبة للكرسي الأنطاكي بدمشق، فقد بدأت بوادر الانقسام فيه. وبدأت ميول الناس تتوزع تحت تأثير الإرساليات إلى فئتين:

الفئة الأولى: المتأثرون بتعاليم الكنيسة الرومانية.

الفئة الثانية: أتباع الكرسي الأنطاكي، وكانوا يتأثرون في البداية بتوجيهات الكرسي اليوناني للروم الأرثوذكس المتلقي التعليمات من القسطنطينية.

يتحدث البطريرك جبرائيل الثالث (1702- 1707) مع جرمانوس الثاني بطريرك القسطنطينية (1688- 1710) حين أراد تعديل الليتورجية كتب له أمراً: «يجب أن تحافظ غبطتكم بثبات على التقليد القديم، وتلغي التجديد الذي أدخل، وإن أبقت عليه سيقوم الكرسي المسكوني بتتميم واجبه، وتوجيه الجمهور المسيحي على الخط المستقيم لعقائد الكنيسة الأرثوذكسية وتقاليدها العريقة، التي ستراقب بصرامة من يحيدون عنها»[28].

انتخب الروم الملكية في دمشق البطريرك ميخائيل عفيف بن فضل (1540- 1582) وكان من بلدة كفربهم (حماه) وكان أسقفاً لصيدا، وأصبح بطريركاً في 14 أيلول عندما باركه مطران حلب. وحضر انتخابه في دمشق مطران بصرى الشام يواكيم وكيرلس مطران بيروت ومرقس مطران الحصن، ويوحنا مطران محردة (أوخايكا) وأفرام مكران حماه وميخائيل مطران الزبداني، ويواكيم مطران يبرود، ومكاريوس مطران قارة، وأرسانيوس مطران عكا. حافظ البطريرك ميخائيل على تقاليد الكرسي الأنطاكي، ولم يكن ينصاع كلياً لتعاليم بطرك القسطنطينية. وعندما مات دفن في حماه، وخلفه مكاريوس بن خلف الصاجاني (1582- 1597) الذي دبر أمور الرعية في سورية وذهب إلى زيارة القسطنطينية ومات هناك، وعين سيماويان بن أسقف مرمريتا قائماً بطريركياً (1597- 1612) وأدار الأبرشية من خلال إقامته في حلب وأصلح أحوال الرعية ومات ودفن في حلب.

جرى صراع بين أصحاب الأهواء الأرثوذكسية والأهواء الكاثوليكية، والبيت الذي تتنازعه الأهواء لا بد وأنه منقسم على نفسه، يقول الباحث أسد رستم: «وأصبحت وسائل الروم الأرثوذكس تنحصر في الغالب ببراءات سلطانية يستصدرونها من

العاصمة (استنبول) إلى الولاة والحكام المحليين لردع ذوي الأهواء الكاثوليكية والانصياع إلى طاعة رؤسائهم الشرعيين مطارنة الروم الأرثوذكس، وصار همّ الروم الكاثوليك مقاومة نفوذ الموظفين في عاصمة الدولة، بنفوذ الموظفين من أبنائهم في دوائر الحكم في حلب ودمشق وطرابلس وعكا[29].

كانت التوجيهات التي تأتي من العاصمة تثير حفيظة أهل البلد الغيورين وكانوا عرباً، وكان همهم التحرر من هيمنة اليونان، فانقسموا إلى فرعين:

-البطركية الأنطاكية للروم الكاثوليك،

-البطركية الأنطاكية للروم الأرثوذكس.

الكرسي الأنطاكي الأرثوذكسي

البطريرك أفتيموس كرمة (1634- 1635)

هو عبد الكريم بن كرمة بن خوري حوران، ولد في حماه 1572 وترهب في دير مار سابا، وتعلم اليونانية ورسمه سيماون بن القلة شماساً إنجيلياً عام 1593. ثم رقاه إلى درجة الكهنوت حتى عام 1608 عندما انتقل إلى حلب ومارس الوعظ والتدريس حتى انتخابه مطراناً باسم ملاطيوس عام 1612 وكان مثالاً للصلاح والخلق الحسن، كان ينهي عن شرب الخمر والزنا، وكان يرعى الأيتام، مما جعل أهل حلب ينعتونه بصفي الله، كما كان موهوباً بالرسم والكتابة، وتخصص برسم الأيقونات، تعلم على يد الراهب ملاتيوس الصاقزي والخوري يوسف وجرجس المصور ومن هؤلاء تكونت مدرسة فن الأيقونات الحلبية التي نالت شهرة واسعة في الشرق. وفي عهد المطران ملاتيوس صار أهل حلب يتقاطرون لسماع وعظه.

كان البطريرك أثناسيوس الثاني قد انتخب في شهر أيلول 1611، ووعد أبناء الطائفة بدفع الجزية عنهم، فلم يفلح، وطلب من المطران ملاطيوس أن يدفع الديون عنهم، وهرب إلى القسطنطينية. وعند عودته زجه الوالي مصطفى باشا في السجن ولم يخرجه إلا بعد أن دفع بمساعدة المطران جزءاً من الديون، وذهب إلى طرابلس وتوفي هناك في الصوم الكبير عام 1619. ودفن في دير سيدة بكفين.

بعد الوفاة طالب الوالي المطران بالمال وجلده 80 جلدة، ولكن المؤمنين في حلب دفعوا عنه الغرامة وكانت حوالي ألفي غرش، وأخرجوه من السجن في حزيران 1628.

وفي شهر أيار عام 634 انتخب المطران بطركاً باسم أفتيموس الثاني، وقام بتدبير الرعية وانصرف إلى التأليف والترجمة، ترجم الفصول الخمسة من سفر التكوين إلى العربية وأرسلها إلى روما للطباعة، وكتاب المختصر في تاريخ مطارنة حلب، وكتاب

مجموعة المواعظ، وميمر على مريم الخاطئة، وميمر على لص اليمين، وهو مجموعة سير القديسين الكبار، وعظة تعزية لأهل حلب في نكبة الطاعون 1634. وله كتاب تفسير أناجيل الآحاد والأعياد على مدار السنة. وله رسائل إلى الكرسي الرسولي الروماني وهذه أول محاولة للشراكة مع الكرسي الروماني.

في شهر آب 1635 توفي ودفن في حلب.

انتخب من بعده البطرك أفتيموس الثالث الصاقزي (1635- 1647)، وكان مدبراً لرعيته، وقد طور فن الأيقونات، التي صار لها شأن عظيم في تطور فن التصوير الزيتي في بلاد الشام والشرق كله.

البطريرك مكاريوس بن الزعيم الحلبي (1647- 1672)

ولد يوحنا بن الخوري عبد المسيح الشهير بابن الزعيم الحلبي، في حي الجديدة، حارة النصارى، ذكرها ابن الشحنة بقوله: «هي حارة النصارى وهي المعروفة بالجديدة، بناها المسيحيون في عام 1421 بعد غزو تيمورلنك لحلب عام 1404 وكان موقعها خارج الأسوار، وضعوا لها أبواب تقفل عند المساء لأجل الأمن، وصار يطلق على الحي فيما بعد (صايح ملة النصارى)»[30].

كان للحي والأسرة والديانة أثر كبير في مدينة حلب والمدن الأخرى. درس يوحنا على يد المطران ملاثيوس كرمة العربية، وتعلم رسم الأيقونات، وعلى أفتيموس الصاقزي مبادئ اليونانية، ثم تزوج وسامه المطران ملاثيوس كرمة شماساً، وعلى أثر وفاة زوجته التي تركت ولداً رضيعاً يدعى بولس عام 1627، كان يوحنا يمارس حياكة البسط حتى بعد رسامته مطراناً عام 1635.

وعندما دخل السلطان مراد الرابع (1623- 1640) حلب في يوم الخميس 12 تموز 1635، خرجت جموع النصارى تستقبله بالأهازيج والأغاني ووقف المطران ملاثيوس الزعيم بين يديه وألقى كلمة بالتركية نالت رضى السلطان.

كان المطران يجيد كتابة المذكرات وعلمها لابنه بولس (1623- 1669) وهو الذي كتب سيرة والده وأخبرنا أن والده لا يعرف سوى العربية والتركية ومبادئ اليونانية التي أتقنها بعد سفره إلى بلاد الفلاخ (رومانيا) ولم يكن ينطق بها بسهولة إلا أنه ترجم بعض الكتب، بمساعدة بعض الكهنة وكان ينسبها إلى نفسه، وقد أهداه الخوري يوسف المصور أيقونة القيامة سنة 1645، (وهي اليوم محفوظة في مجموعة السيد هنري فرعون في بيروت) واكتشفت مجموعة من الأيقونات في سقيفة مطرانية الروم الكاثوليك (كنيسة مارجرجس) في حي الشارعسوس، من رسم مكاريوس الحلبي.

انتخب المطران ملاثيوس بطريركاً في 12 تشرين الثاني 1647 باسم مكاريوس، وساس البطريركية من مقره في دمشق، ومات مسموماً في 12 حزيران 1672، ودفن في دمشق.

البطريرك أثناسيوس الثالث دباس (1685- 1724)

هو بولس بن فضل الله الدباس ولد في دمشق عام 1647، وتتلمذ للآباء اليسوعيين وعنهم أخذ ميوله الكاثوليكية. وعندما أنشأ البابا غريغوريوس 15 (1621- 1623) مجمع انتشار الإيمان (البروبغندا) لينظم عمل الإرساليات التبشيرية في الشرق، دعم مدارس اليسوعيين، الذين رأوا في الطفل بولس ميخائيل الذكاء وكان يمتهن الخياطة، وكان جميل الطلعة. أخذه الرهبان اليسوعيين ودرسوه عندهم فاستهوته الحياة الرهبانية، ثم أرسلوه إلى دير القديس سابا ودعي بروكوبيوس، وتمكن من دراسة اللاتينية، وتعرف على رهبان القديس فرنسيس الأسيزي (1182- 1226) عندما عين رئيساً للدير، وعاد إلى دمشق ووعظ فترة في الكنيسة، ونال شهرة فعين مطراناً، ولكن أهل دمشق انقسموا في شأنه عندما انتخب بطريركاً في 5 تموز 1685 لأنهم لمسوا لديه بعض الميول الكاثوليكية. فسموا جماعته باسم حزب البرغش للتحقير، وعينوا بطريركاً أرثوذكسياً آخر باسم كيرلس. اتصل البطريرك أثناسيوس بروما في 10 آب 1687 قبل فيها بالشراكة الكاثوليكية، وتصالح مع خصمه البطريرك كيرلس في تشرين الأول سنة 1694 ووقع الطرفان وثيقة بينهما تضمنت البنود التالية:

1-أن يلتزم البطريرك كيرلس بوفاء جميع الديون ومقدارها 13 ألف غرش.

2-يترك للبطريرك أثناسيوس دخل حلب معاشاً له.

3-لا يحق لأثناسيوس أن يكون بطريركاً ما دام كيرلس حياً.

4-إذا أثار أحد الطرفين فتنة على الآخر ينزع ما بيده ويودع السجن.

5-ليس لأثناسيوس أية سلطة على أبرشيات الكرسي الأنطاكي وتقتصر ولايته على حلب.

وحسب رواية المطران جرمانوس فرحات الماروني (المتوفى 1132) أن الرجلين اصطلحا في مدينة حلب على يد الصراف اليهودي سلمون لأنه كانت له اليد الطولى عند ولاة حلب[31].

أرسل البطريرك أثناسيوس صك الصلح إلى روما في شباط 1698 إلى البابا اينوشينيوس (1691- 1700) فاعتبر أن هذا التنازل خيانة وخاطبه «سلّمت الكرسي

قهراً بغير إرادتي، وإن ضميرنا دائماً يوبخنا لكوننا تركنا بعض الرعية في يد الغير قهراً، لهذا أرسلنا نحو قداستكم المكرمة، هذه الرسالة ليصير لنا تعزية ما»[32].

ساءت حالة البطريرك أثناسيوس فسافر إلى رومانيا، ونزل ضيفاً على الأمير يوحنا قسطنطين، فأكرمه وطبع له على نفقته بعض الكتب باللغة العربية منها: الكتاب المقدس عام 1700م، وكتاب القداسات الإلهية 1701، وعاد إلى حلب عام 1705م، وجلب معه مطبعة باللغة العربية ووضعها في المطرانية وطبع بها عدة كتب أيضاً كانت ثراء للثقافة السورية:

-كتاب الإنجيل الشريف الطاهر سنة 1706.

-كتاب الزبور الإلهي سنة 1706.

-كتاب الدر المنتخب من مقالات القديس يوحنا فم الذهب سنة 1707.

-كتاب البارقليط (المعزي) عام 1711.

كانت المطبعة بإشراف الشماس عبد الله زاخر وأخوه نعمة، وعليها طبع صور بعض الأيقونات، منها: أيقونة الدينونة العامة رسمها البطريرك أثناسيوس عام 1698م، وأيقونة ملك الملوك (المسيح) ورئيس الكهنة 1699م، وأيقونة العذراء والهاوية 1722م. كانت بعض هذه الأيقونات من رسم الفنان الشماس حنانيا (1714-1740).

كما ساعد البطريرك أثناسيوس الفنان موسى بن أسطفان في الرسم على الخزف الصيني عام 1699، واشتهرت مدرسة حلب في الخط العربي الجميل بقلم الخطاط جبرائيل ميخائيل لباد الحلبي الذي ترك لنا عدة كتب منها كتاب الليتورجيات الإلهية، بعضها لا زال في مقر البطركية، في عين ترّاز قد نسخت عام 1715م.

كان البطريرك أثناسيوس يهتم بالأوقاف الكنسية من أجل مساعدة الفقراء، خصوصاً الأخوات من رهبانية الشوير كتب في 5 آذار 1719: «إننا أوقفنا جميع الخمس دوراً من ملكنا على أيتام الفقراء بحلب، وكل ريع الدور الخمسة في كل سنة 70 غرشاً يدفع منها 20 غرشاً إلى الأخت أو ستين في مدينة صيدا و50 غرشاً للأخت فوتين في حلب مدة حياتهما»[33].

كتب البابا أكليمنضوس 11 (1700- 1721) رسالة إلى البطريرك كيرلس بدمشق بتاريخ 21 أيار 1718 يعترف به بطريركاً وحيداً، وأرسل له الهدايا، مما دفع البطريرك أثناسيوس للاستئثار بالكرسي الأنطاكي، وابتعد عن الشراكة الكاثوليكية، ورسم الخوري جيراسيموس سمان وكيلاً له في دمشق، وتخلص من علاقته بالكثلكة فهجاه الخوري نقولا الصايغ عام 1721م:

كـثر العثـار بعـثرة الرؤسـاء   وغـوى الصغـار بعـثرة الكـبراء
أضحى زعيـم القـوم فـي علاقـة   ملونـا كتلـون الحربـاء

بدأ الصراع داخل الطائفة الملكية، وسافر البطريرك أثناسيوس إلى القسطنطينية لينال عون البطاركة اليونان في آذار 1722م، فاستقبله البطريرك إرميا الأورشليمي بالترحاب وساعده، ونقل إلى العربية رسالة مجمعية تحذر العرب من أحابيل غدر الكنيسة الرومانية، كما حصل البطريرك أثناسيوس على أمر سلطاني بتاريخ 14 أيلول 1722، موجه للولاة ضد المرسلين الإفرنج ومن تبعهم من الكاثوليك.

قام الحلبيون من ذوي الكاثوليكية يقاومون. ألّف الشماس عبد الله زاخر كتاباً باسم (التفنيد للمجمع العنيد) ضد الرسالة المجمعية التي تحذر العرب. حرم البطريرك أثناسيوس كتاب الشماس عبد الله زاخر في رسالة في أوائل تموز 1724 جاء فيها: «إن بعضاً ألفوا كتاباً ضد مجمعنا فليكونوا محرومين ومن يقرأ كتابهم».

بدأت حرب الكتب. وطبع البطريرك أثناسيوس ثلاثة عشر كتاباً وعظة، منها:

-تاريخ البطاركة الأنطاكيين.
-أعمال المجامع المسكونية الأربعة الأولى.
-كتاب صلاح الحكيم وفساد العالم الذميم.
-رسالة في التوبة والاعتراف.
-رسالة في أصل الفصاحة.
-كتاب ضمرة الشك من وضع المطران اليوناني ميثانس 1721م.
-منهاج الصلاح بغية النجاح وضعه عام 1723.

ومرض البطريرك فجأة ومات في 24 تموز 1724 ودفن في حلب.

لقد كان لهذا الانقسام جانباً إيجابياً في تنشيط الحركة الثقافية في حلب.

الانقسام في الكرسي الأنطاكي

في عام 1724 تم انتخاب بطركين على الكرسي الأنطاكي للروم الملكية، أحدهما في دمشق هو البطريرك سلفسترس (1724- 1766) للروم الأرثوذكس وكان رجلاً مثقفاً، يتقن العربية واليونانية والتركية، ويجيد الرسم، وإليه تنسب أيقونة المسيح والسيدة مريم ويوحنا المعمدان الموجودة حالياً في دير القديسة تقلا في معلولا، ونقل إلى العربية كتاب القديس يوحنا المعمدان ينبوع المعرفة.

والآخر، هو كيرلس السادس طاناس (1724- 1760) للروم الكاثوليك. كتب المؤرخ الخوري ميخائيل بريك عام 1767 وهو من كهنة دمشق الأرثوذكس. قال «لما ارتسم البطريرك سلفستروس في القسطنطينية وحضر إلى حلب صارت طوشات ومشاجرات لا توصف بين الكاثوليك والأرثوذكس، وصار بينهم ما يجب له النوح والبكاء، ولكن الحلبية طردوه إلى دمشق، ثم قاموا برسم مطران لهم من قبل البطريرك الكاثوليكي كيرلس طاناس الذي كان يقيم في دير المخلص بلبنان، وقد كثرت الطائفة الكاثوليكية في حلب إلى يومنا هذا».

بدأ الصراع بين الطائفتين (الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس) والطعن ببعضهما أمام السلطات، وانتقل الخلاف إلى كل الأبرشيات. كتب الشماس عبد الله زاخر كتابه (البرهان اليقين على فساد إيمان المشاقين) وكان كاثوليكي الاعتقاد، وعندما توفي البطرك كيرلس طاناس انتخبوا بدلاً منه.

البطريرك مكسيموس حكيم (1760- 1771)

انتخب البطريرك مكسيموس حكيم بحضور الموفد البابوي دومينيك دي لانزا الذي كان قادماً من الموصل في 13 تموز 1760 وثبت في 22 تموز وانتخب القس أغناطيوس جربوع مطراناً على حلب، والقس فيليب المدبر مطراناً على بعلبك والقس يوسف سفر مطراناً على قارة وبعدها انتقل إلى حمص.

وفجأة مرض البطريرك مكسيموس حكيم وتوفي في 28 تشرين ثاني 1770م، وانتخب بدلاً منه ثادوسيوس السادس دهان، وتوفي فجأة في 13 كانون الأول 1771م. وصارت طائفة الروم مثقلة بالديون فدفع عنهم الروم الكاثوليك الديون، وانتهى الصراع وعم الفرح مسيحيو حلب، وصارت كل الطوائف تصلي عند الكاثوليك.

المطران الكاثوليكي جرمانوس آدم (1774- 1809)

ولد في حلب عام 1725، وكان اسمه في العماد ميخائيل، وتثقف على المطران مكسيموس حكيم، الذي أرسله إلى روما لمتابعة الدراسة (1736- 1751) درس خلال المدة الطويلة الفلسفة والقانون الكنسي وتعلم اللاتينية واليونانية، وعندما عاد من روما رسمه مكسيموس حكيم راهباً 1751، ونشر كراساً ضد مطامع أثناسيوس السادس الطامع في البطريركية.

أرسله البابا كليمنضوس 13 (1758- 1769) الذي كلف النائب الرسولي المطران أرنولد بوسو بتدبير الأمور فعقد مجمعاً في دير القمر في 13 تشرين الثاني عام

1763، وثبت البطريرك أثناسيوس دهان في 1767م، الذي استولى عنوة على دير القمر، وحاول الشيخ الدرزي علي جنبلاط الإصلاح بين البطريركين فلم يوفق. وكتب القس جرمانوس آدم كتاباً بعنوان (إيضاح اعتقاد الآباء القديسين ضد إلحاد المشاقين) أنكر فيه على الأرثوذكس اعتقادهم رسم الخوري جرمانوس آدم مطراناً على عكا في عيد الميلاد 1774م، ولكنه خاف من غدر الأرثوذكس فهرب إلى دير الشوير، ولكن أهل حلب الكاثوليك طالبوا بعودته بعد وفاة المطران أغناطيوس جريوع في شهر كانون أول 1776م، ولكنه رفض.

أصدر البابا بيوس السادس (1775- 1779) براءة رسولية في 15 كانون الأول سنة 1787م عين فيها المطران جرمانوس قاصداً رسولياً على الطائفة المارونية وعقد مجمعاً في بكركي لحل الخلاف بين الأمير بشير الشهابي والطائفة المارونية، وأفلح في حل الخلاف.

في سنة 1791 قدر القنصل الإنكيزي سكان حلب بـــ 228 ألف نسمة منهم 168 ألف مسلم وعشرة آلاف من الأجانب و20 ألفاً من المسيحيين وثلاثون ألفاً من اليهود، وفصل في عدد المسيحيين، وعدّ تسعة آلاف روم كاثوليك وألفان روم أرثوذكس وخمسة آلاف من الأرمن وثلاثة آلاف من السريان وثلاثة آلاف من الموارنة، ولكن المطران نافيطوس إدلبي، شك في صحة هذه الأرقام[35].

وعلى أثر الخلاف بين الأمير بشير الشهابي والطائفة المارونية، جرت عداوة بين الأمير والمطران فأرسل إليه 1791 وأمر بحبسه وغرمه مقدار خمسة أكياس ذهباً، فباع كل ما يملك وافتدى نفسه من السجن[36].

صمم المطران جرمانوس على العودة إلى حلب، وفي طريق عودته، قرب معرة النعمان خرج عليهم جمع من البدو وسلبوا القفل حوالي 15 ألف غرش، وتركوهم عراة حفاة، والتجأ المطران إلى بعض القرى القريبة فاكتسى ووصل إلى حلب منهكاً في أواخر أيلول 1791 ونزل في منزل أخوه بطرس آدم واجتمع بالطائفة وأعاد لها وحدتها.

طاف المطران جرمانوس في أوروبا بين روما وفلورنسا ومالطا ومكث هناك (1792- 1797) وخلال هذه الفترة توفي البطريرك أثناسيوس، وانتخبوا بدلاً منه كيرلس الرابع في 3 تشرين الثاني 1794، والذي توفي في عام 1796 وانتخبوا البطريرك أغابيوس مطر في 4 أيلول 1797. وفي أوروبا تأثر المطران جرمانوس بأفكار الأسقف بوسويه (1667- 1704) الذي كان فيلسوفاً ولاهوتياً حراً ومؤرخاً مرموقاً، وكان يطالب بتحرير الأساقفة من الطاعة العمياء لسلطة الباباوات.

عاد المطران جرمانوس إلى حلب في 7 نيسان 1798، ونشر أفكاره التحررية فانقسم الكاثوليك إلى حزبين:

-الحزب الشرقي يساندون المطران جرمانوس.

-حزب المعارضين يقوده البطريرك الماروني يوسف تيان الذي أصدر منشوراً يحرم فيه قراءة مؤلفات المطران جرمانوس آدم لا سيما كتابه المسمى (إيضاح البراهين الثابتة في حقيقة الأمانة) الذي وضعه عام 1805م، الذي ألح فيه على ضرورة استدعاء الروح القدس لتتميم استحالة القرابين إلى جسد المسيح ودمه، وأنكر فيه السلطة البابوية، وكان المطران جرمانوس قد طبع عدة كتب، منها: ترجمة تاريخ مجامع الكنيسة المقدسة الذي وضعه الراهب الفرنسي كابسو طبعه عام 1771م، وترجمة كتاب تاريخ الكنيسة في أربعة مجلدات من وضع الكادينال أورسي طبعه عام 1769ن/ وأهم تلك الكتب هو من تأليف المطران جرمانوس (سيرة السيد المسيح) عام 1800م.

مرض المطران جرمانوس فجأة في 10 تشرين الأول 1809 توفي المطران الجاحد لسلطة البابوية وكان قد مهد للفكر البروتستانتي في سورية ولبنان.

وقائع وأحداث

في مطلع القرن التاسع عشر، تراجعت جيوش نابليون عن عكا، وتنبهت تركيا والشرق من غفوته، وأعطت تركيا الحرية لمواطنيها، واضطربت الحياة السياسية والاجتماعية في عهد المطران مكسيموس مظلوم (1810- 1815) وعارضه الحلبيون لأنه من تلاميذ المطران السابق جرمانوس آدم، ولكن البطريرك أغابيوس مطر (1796- 1812) سانده وكتب إلى أبناء الأبرشية في حلب يأمرهم بالطاعة والخضوع، وتوجه المطران مكسيموس مظلوم إلى روما وهناك استقال من منصبه ومكث هناك[37]، وانتخب بدلاً منه المطران باسيليوس عرقتنجي (1815). وحدثت اضطهادات للمسيحيين راح ضحيتها 11 شهيداً، وسبب ذلك أن المطران الأرثوذكسي جيراسيموس التركماني دخل إلى حلب وهو يحمل الكره للعرب الكاثوليك، استقبله الوزير الأعظم أحمد خورشيد باشا والي حلب بالترحاب ومعه قاضي القضاة وطلب أن يصلي كل المسيحيين الروم في كنيسة واحدة هي كنيسة الأرثوذكس، فتظاهر الكاثوليك وتصدت لهم قوات الانكشارية وقتلت 11 شهيداً وتركوهم دون دفن لمدة ثلاثة أيام حتى دفعوا رشوة لقاضي القضاة وأمر بدفنهم.

تحركت أوروبا لدى سماعهم بهذه المجزرة وكلف البابا بيوس السابع (1800- 1823) المطران المستقيل مكسيموس مظلوم التجول في أوروبا وشرح القضية في

النمسا وفرنسا، وبلغت الدولتان الدولة العثمانية بمأساة الكاثوليك في حلب، وجاءت المراسيم السلطانية بطرد المطران جيراسيموس اليوناني الأصل من حلب، والوزير أحمد خورشيد وغادر حلب في 6 آذار 1819 إلى القدس الشريف.

وحدث في 13 آب 1822، هزة أرضية دمرت فيها كنيسة الموارنة، وتوفي المطران باسيليوس عرقتنجي في 29 أيار 1823 وانتخب المطران مكسيموس مظلوم في 5 نيسان 1833 بطركاً للروم الكاثوليك في عهد إبراهيم باشا المصري (1831- 1839) الذي أعطى للمسيحيين الحرية التامة بفضل أمين سره حنا البحري المسيحي الكاثوليكي.

البطريرك مكسيموس مظلوم (1833- 1852)

ولد ميخائيل جرجس مظلوم في حلب في تشرين الثاني 1779م، وتعلم مهنة والده في الحياكة، ودرس على يد المطران جرمانوس آدم، وتأثر بكتاباته، وأظهر نبوغاً في حفظ الكتاب المقدس، وتفسيره، فرسمه شماساً إنجيلياً وصار أمين سره ثم انتخب مطراناً، واستقال، وجاء إلى حلب وطاف في أوروبا وشرح مأساة الكاثوليك في حلب.

ومن أعماله الفكرية والدينية تصديه لبدعة عابدات قلب يسوع، وكانت جمعية سرية صوفية النزعة، جاءت أفكارها من لبنان من بدعة **الراهبة المارونية هندية عجمي** التي تأثرت بها **مرغريتا باطشتا** التي استلمت تعاليم الدعوة بطريق الوحي وكان مرشدها الروحي **الكاهن اليسوعي نقولا كوديس** الذي أعطاها مبادئ الجمعية اللاهوتية، وحذرها من كشف الأسرار إلى من لا ينتمي للأخوية، وألزم فتيات الجمعية بكثرة الصوم والصلاة والطاعة المطلقة. انتسبت إلى الجمعية فتيات من علية القوم، ومن المشهود لهن بالتقوى والورع أمثال **مريم صائغ ومادلينا جريوع**، وكان مرشدهن الروحي **ميخائيل عجوري والخوري إبراهيم عياط** وانضمت إليهن **غرة عجوري ومرغريتا نجم**، وذاع صيتهن في حلب، وعرفت تعاليمهن باتباع تعاليم الضمير، وهذه الدعوة خطرة لأنها تؤمن بأن الخلاص يتم عن طريق تعاليم الإنجيل ولا ضرورة للكنيسة.

اتهمت الكنيسة عابدات قلب يسوع، بالاتصالات المشبوهة، واختلف جمهور الكاثوليك حولهن، لأن سلوكهن لا تشوبه شائبة، ودعوتهن صريحة، تنحصر في طريقين:

- طريق الرياضة الذوقية، والتدرج في محبة الله، والعكوف على التأمل العقلي.

-وطريق الصليب والمجاهدة الروحية بكثرة الصوم والصلوات، والتحرر من سلطة الرؤساء.

وفي 3 آب 1847 أقام البطريرك مكسيموس مظلوم احتفالاً في الكنيسة الكاثوليكية وحرم بدعة العابدات بالحرم الكبير، وضبط الأوراق وأخذ عليهن الإقرار بعدم الاستمرار بتعاليمهن الضالة. وشاعت عنهن الأقاويل والقصص واتهمن بعفافهن ظلماً وبهتاناً.

في هذه الفترة قدم القنصل الفرنسي هنري جي إحصاء عن المسيحيين في حلب وأريحا، وقدر عددهم عام 1847، والإحصاء للكاثوليك، بـ 6490 بينما قدرتهم الكنيسة بـ 3398 ذكور و3306 إناث، ويكون العدد الإجمالي 6704 نسمة، أما المسيحيون من أبناء الطوائف الأخرى فقدروا بـ 16200 نسمة، منهم أرثوذكس 2300 نسمة.

وكان سكان حلب قد تناقصوا بوباء الطاعون الذي أصاب حلب عام 1834م. إذن أصبح المسيحيون يشكلون خمس السكان، وكانوا أقلية نشطة لها دورها الهام في التجارة والصناعة والثقافة. مما كان يثير حفيظة المسلمين المتعصبين والولاة الجشعين.

جاء البطريرك مكسيموس مظلوم إلى حلب في 18 آب 1850م، قادماً من دمشق، ففرح به الشعب والطائفة الكاثوليكية خاصة واحتفلوا في بستان النائب، وأحضروا جوقة طرب، وحضر الوالي ظريف باشا ونقيب الأشراف عبد الله بك بابنسي، وقدمت على المائدة المشروبات الروحية وسكر بعض النصارى، ولبسوا الطرابيش وصاروا يقلدون كبار الموظفين، ساخرين منهم، مما أثار حفيظة عبد الله بك بالبابنسي ورمضان آغا والشيخ خير الله، الذين هيجوا العامة وهاجموا الجديدة، حي النصارى ونهبوا البيوت وسميت هذه الهبة باسم (قومة البلد).

اختبأ البطريرك مكسيموس مظلوم في بيت الخواجا الإيطالي مركوبولي، ومن هناك خرج بزي جنرال فرنسي فتوجه إلى ميناء الإسكندرونة ومنه أبحر إلى بيروت. سمع الباب العالي بالأخبار فأرسل في 22 تشرين الأول محمد باشا القبرصلي لتأديب أصحاب فتنة حلب وعزل ظريف باشا وقبض على عبد الله البانسي ورفاقه وأركبهم على الحمير، وعلى صدورهم لوحة (هذا جزاء من يخون السلطان) وكانت الخسائر قدرت بمائة ألف كيس، بالإضافة إلى اغتصاب 19 فتاة بكر و50 امرأة وبعض الفتيات اللواتي سبين إلى خارج المدينة. ونفي يوسف بك الشريف قائد الإنكشارية إلى قونية، أما المفتي تقي الدين أفندي فنفي إلى القدس الشريف.

جاءت إلى حلب حوالة من البابا بيوس التاسع (1846- 1878) بمبلغ 44256 غرشاً بواسطة الخواجا الإيطالي موليناري، وشكل بطاركة الروم الكاثوليك والأرثوذكس لجنة من المطران عرقتنجي والخواجا فتح الله مراش والخواجا شكر الله عبود للتعويض على المسيحيين المتضررين.

أرسل البابا بيوس التاسع في 6 كانون الثاني 1846 إلى بطركية القدس اللاتينية «حافظوا على الإيمان الكاثوليكي ولا تتدخلوا في الطقوس الشرقية». عاد البطريرك مكسيموس مظلوم من بيروت إلى دمشق وتوفي في كانون أول 1852م.

كان العرب الروم الأرثوذكس يضيقون ذرعاً من تصرفات اليونان وتدخلهم في شؤونهم. ففي عام 1897 عزل البطريرك سبيريون اليوناني (1891- 1898) لسوء تصرفاته، وعينوا بدلاً منه بطركاً **جرمانوس مطران طرسوس اليوناني**، فما كان من الأساقفة العرب إلا أنهم اجتمعوا وعزلوه، وانتخبوا بدلاً من **ملاتيوس دوماني مطران اللاذقية العربي** بطريركاً في الرابع من نيسان 1899. وعادت الكنيسة الأنطاكية إلى كامل استقلالها، وكانت العادة أن يرسل البطريرك المنتخب رسالة وثيقة فيها دستور إيمانه، إلى رؤساء الكنائس المستقلة علامة يتبادل فيها الشراكة.

أرسل البطريرك المنتخب إلى الكنائس السلافية ولم يرسل إلى كنيسة القسطنطينية وقد اعترف بالبطريرك الجديد الباب العالي دون مباركة من الكرسي القسطنطيني.

كان السلطان عبد المجيد اصدر في 18 شباط 1856 الخط الهمايوني الشريف جاء فيه: «إن النظام البطريركي مضمون، إلا أنه على كل طائفة أن تشكل لجنة تقترح الإصلاحات التي يتطلبها روح التقدم، وتنتخب لجاناً من العلمانيين تشارك في إدارة الطائفة. ومن الشخصيات التي برزت في القرن التاسع عشر **المطران بولس حاتم** (1863 - 1885)

ولد في حلب في 27 كانون ثاني 1811، ودرس العربية والسريانية على المطران الماروني بولس أرتين واللغة اللاتينية على الخوري جبرائيل جوان الملكي الكاثوليكي. وعندما أنهى دراسته استدعاه المطران أغناطيوس عجوري رئيس أساقفة زحلة عام 1828 وفوض إليه التدريس والوعظ في قرية زوق ميخائيل، ثم عاد إلى حلب 1833 وكان قد رقي إلى درجة شماس إنجيلي المطران غريغوريوس شاهيات وإلى درجة الكهنوت 1835 وكلفه للتصدي لبدعة العابدات فكتب كتاباً عن الأصول التاريخية لبدعتهن.

أرسل البطريرك مكسيموس مظلوم الراهب بولس حاتم إلى روما لدراسة اللاهوت واللغات الفرنسية والإيطالية (1850- 1852). ثم عاد إلى حلب وانتخب مطراناً لحلب في 28 آب 1863، فمدحه الشاعر فرنسيس مراش بقوله:

فالقلوب على البشائر تخفق وعلى أجنحة السهياكل تصفق

هذا لما الخوري بولس صار في حلب رئيس أساقف إذ يليق

يا أيها الروم اطربوا وترنموا غد قام يرعاكم أمين صيدق

اشترك المطران بولس حاتم بمجمع الفاتيكان الأول في روما في 8 كانون أول 1869، وأطلق الحرم على من ينكر وجود الله، ومن يقول إن العالم صدر عن الله اضطراراً، وهو بهذا يناقض الفلسفة الأفلطونية المحدثة.

كان المطران بولس زاهداً في طعامه وشرابه وملبسه لهذا كان ينعت بصفي الله، وكان يحبه المسلمون والمسيحيون. عاد إلى حلب في عام 1870م، واستقبله والي حلب ثريا باشا بن مصطفى، وكانت بينهما مودة. وفي 10 شباط 1885م توفي المطران بولس ودفن في كاتدرائية حلب.

المطران عبد المسيح الأنطاكي (1874- 1923)

درس في حلب وأتقن العربية والفرنسية والتركية، ثم نزح إلى مصر، وأنشأ مدرسة الشهباء، وهاجم الظلم العثماني، وتغنى بالقومية العربية، وساح في أقطار الجزيرة العربية، مهد العرب والإسلام. وعين مطراناً للروم الكاثوليك في دمشق، عام 1874، وكان حسن الوعظ والإرشاد توفي 1923م.

ومن آثاره: كتاب الدر الحسان، فيه مدائح لأمير المحمرة.

وكتاب الرياض المزهرة بين الكويت والمحمرة.

وكتاب مغني المتأدب عن ديوان أبي الطيب.

البطريرك كيرلس جحا (1902- 1916)

ولد سمعان بن حنا في حلب في 28 تشرين أول 1840م، تعلم في صباه اللغة العربية والفرنسية والتركية، ودرس اللاهوت على المطران أثناسيوس توتنجي مطران طرابلس، ورسمه المطران ديمتريوس أنطاكي شماساً إنجيلياً في 3 شباط 1861م. واشرف على ترميم الكاتدرائية التي احترقت أثناء قومة البلد 1850م. وأنجز العمل الموكل إليه بجد وإخلاص فرقاه المطران بولس حاتم إلى درجة الكهنوت المقدس، ثم

رقاه إلى درجة خوري في 10 أيار 1874م. وعلى أثر وفاة المطران بولس حاتم عين نائباً بطركياً في 25 آذار 1885م، وقبل الأسقفية في دير القديس جاورجيوس. وعندما زار الأستانة في عام 1897 قابل السلطان عبد الحميد الثاني بلباسه الكهنوتي، فتعجب السلطان وخاطبه الأسقف بلغة تركية فصيحة: يا مولاي إني ارتديت الحلة التي أقف فيها عند مذبح الصلاة أمام الله، والآن أقف أمام السلطان ممثل الله على الأرض وأدعو لكم!

من أعمال المطران بناء مدرسة القديس نقولاوس الأسقفية عام 1886، ومدرستان ابتدائيتان في حي الصليبية.

زار المطران جحا فرنسا في أواخر 1886 فاشترى للمدارس آلات موسيقية نحاسية، وزار القدس وسافر إلى روما عام 1898 بدعوة من الكرسي الرسولي وعاد إلى لبنان ومكث في دير المخلص بصريا حتى عام 1901م. وعاد إلى حلب وانتخب بطركاً في 27 حزيران 1902، باسم كيرلس الثامن جحا، وذاع صيته بعلمه وحسن تدبيره، ودعاه البابا بيوس العاشر (1903- 1914) إلى روما ليترأس القداس الحبري بمناسبة مرور 1500 سنة على وفاة القديس يوحنا فم الذهب. وعندما نصب الخديوي حسين كامل (1915- 1917) دعي البطريرك لحضور حفلة التنصيب وبقي في الإسكندرية وتوفي هناك في 9 كانون الثاني 1916م.

البطريرك ديمتريوس قاضي (1916- 1925)

ولد يوسف بن نقولا قاضي بدمشق، في 18 كانون ثاني 1861، وكان والده قد قتل في أحداث دمشق، ودرس يوسف في مدرسة الآباء اللعازريين بدمشق، وكان طفلاً نابغة ووسيماً، أثار انتباه معلميه. ولما ماتت والدته في الهواء الأصفر (الكوليرا) 1875م، أرسله البطريرك غريغوريوس يوسف إلى مدرسة عين تراز في لبنان، درس اللاهوت وتفسير الكتب المقدسة، وعندما أنهى دراسته أرسل إلى باريس وفي الجامعة درس الفلسفة والحقوق (1883- 1888) وبعد تخرجه رسم كاهناً وعاد أسقفاً على أبرشية مرجعيون، ثم عاد إلى دمشق وعين مدرساً في المدرسة البطركية (1891- 1892) ثم عين مديراً للمدرسة البطركية في بيروت (1892- 1898) وأرسل قائمقاماً بطريركياً إلى القدس (1898- 1902) وفي حزيران 1903 انتخب مطراناً لحلب.

في مطلع القرن العشرين كان سكان حلب يقدرون بحوالي 172 ألف نسمة، منهم 125 ألف مسلم وسبعة آلاف يهودي، و40 ألف مسيحي منهم 22 ألف كاثوليكي و18 ألف أرثوذكسي.

كان المطران ديمتريوس صاحب ذكاء نادر وبديهة حاضرة، تذكر المسؤولة الإنكليزية جرترود بيل عن المطران ديمتريوس الموقف التالي الذي حدث في 16 نيسان 1911، قال: دخل عليه أحد أبناء الطائفة، وكان قبيح الهيئة والخلق، فخاطب المطران بلهجة قاسية قال: يا سيدنا زوجني. فأجابه بلطف: هذه ليست مهمتي. فكرر وألح في الطلب وقال بغضب: يا سيدنا زوجني وإلا ارتكبت الخطيئة. فأجابه بهدوء: يا بني ابحث عمن تقبل أن تخطئ معك، وخطيئتك في ذمتي! هكذا كان البطريرك ديمتريوس حكيماً عاقلاً، عندما انتخب بطركاً في كانون الثاني 1916 كان شعاره الوداعة والقوة، ومات فجأة عام 1925 ولم يترك أثراً كتابياً.

المطران إيسيدور فتال (1943- 1961)

ولد في حلب 1886 وتلقى علومه الابتدائية والإعدادية، ثم انتقل إلى المدرسة الصلاحية في القدس 1899م. ومكث هناك حتى تموز 1912م، عندما رسم خورياً، وكان قد درس العربية والفرنسية والإنكليزية. ومنذ عام 1919 عين مدرساً في المدرسة الأسقفية، وتعاون مع الخوري جبرائيل رباط (المتوفى 1935) وحضّر سلسلة كتاب (المشوق) الكتاب الذي لاقى القبول والرضى في جميع الدول العربية.

أصبح الخوري إيسيدور في عام 1943 مطراناً وعيِّن في حلب وجرى له استقبال لائق في 27 تشرين الأول عام 1944. وعندما توفي المرحوم المحسن جورج سالم قد أوصى ثلث ماله للمطران فتال، الذي أسس بذلك المال المؤسسة الخيرية للأيتام احتوت 600 فتى وفتاة، ثم ساعدته السيدة متيلدة سالم في عام 1947 على شراء معهد الأخوة المريميين بعشرين ألف ليرة ذهبية وأسس مدرسة صناعية وزراعية.

قام المطران فتال بأعمال خيرية كثيرة في حلب، وكان يساهم بالنضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، وقد منح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى. وكان يهتم بمؤسسات المجتمع الوطني، ومن أعماله الخالدة بناء مدرسة القديسة تريزه للبنات في حي العزيزية عام 1946، ومدرسة مارالياس للذكور في حي الرمضانية عام 1952، وسعى لتأسيس الجامعة في حلب منذ عام 1957. وفي 4 أيلول 1961 فاضت روحه الطاهرة ورثاه الشاعر أنطوان شعراوي:

قم من سباتك ظافراً يا سيد   كفى الرعية حرقة وتنهد
عودتنا حياً بقربك أسرة   فعلام أنت على الفراق تعود
إني شعرت وقد نعوك كأنما   يتمي بفقدك والدي يتجدد

المطران ناوفيطوس إدلبي (1968- 1995)

ولد في حلب ودرس فيها المراحل الثلاث (الابتدائية والإعدادية والثانوية) وأتقن اللغة العربية والفرنسية، وأنتخب مطراناً لحلب، بوضع يد البطريرك مكسيموس صايغ (1947- 1968) وأحسن تدبير الرعية، ومن إنجازاته الهامة أنه افتتح رعيتين في الرقة والطبقة عام 1972، وتم تدشين مقر سيدة البشارة في الرقة في أيار عام 1978م.

كان المطران إدلبي مثالاً للراعي الصالح وفي عام 1981 أصيب بداء بركسون (الشلل الرعاش) ولكن ذلك لم يثنه عن الوعظ والكتابة، وظل يقاوم المرض حتى عام 1994، عندما احتفل بيوبيله الذهبي وفي خلال ذلك الزمن نشر ديوان سليمان الغزي، وكتاب أساقفة الروم الملكيين في حلب، وغيرها من المقالات والكتب، كان ينهض صباحاً على الأذان ويسمى ذلك دعوة ملاك الرب، فيقوم ويصلي. وفجأة توفي يوم السبت في 10 حزيران 1995.

الأرشمندريت أغناطيوس ديك

ولد هذا العالم في حلب في 15 كانون ثاني 1926، والتحق بأكليركية القديسة حنة عام 1937 وارتسم كاهناً في 29 حزيران 1949، وأحسن تدبير رعيته. ثم أرسل للدراسة في أكليركية رياق (1953- 1957) وأرسل بعد تخرجه إلى جامعة لوفان في بلجيكا، وتخصص في دراسة الفلسفة واللاهوت المسيحي (1957- 1960). وحصل على درجة الدكتوراه عن العلامة المطران ثاودورس أبو قرة الحراني، ونشر كتابه في إكرام الأيقونات، وعاد إلى حلب وتابع خدماته الرعوية، وأصبح نائباً بطركياً عاماً، وتابع الكتابة والبحث، وعينه البابا يوحنا بولس الثاني (1978- 2005) في عام 2002 مستشاراً في المجلس الحبري للوحدة المسيحية، وللأرشمندريت أغناطيوس ديك عدة مؤلفات تزيد عن العشرين بالعربية والفرنسية، أذكر منها: الحضور المسيحي في حلب والبطركية الأرثوذكسية وتطورها وغير ذلك من الكتب الهامة.

الأب عبد الله برنوطي

ولد في حلب في 9 نيسان 1935. درس المرحلتين الابتدائية والإعدادية في حلب، ثم درس في أكليركية القديسة حنا في رياق عام 1950. وفي عام 1954 أرسل إلى فرنسا للتخصص في الفلسفة والعلوم اللاهوتية، لدى الآباء الدومينيكين، ثم مارس التمريض. وعند عودته إلى حلب 1968 رسمه المطران إدلبي كاهناً في رهبنته أخوة

يسوع الصغار ومارس التمريض في مشفى الكلمة (1969- 1972) ثم انتقل إلى الرقة ومارس الوعظ والتعليم المسيحي في الطبقة (1972- 1989) ثم انتقل إلى حلب إلى كنيسة القديس ديمتريوس في الميدان ومارس الوعظ والتعليم حتى عام 1999. وبعدها انتقل إلى حي السيدة، وهو مثال للتواضع والإخلاص في العمل، يحبه كل من يعرفه. وكان صديقاً لي (المؤلف).

الأرشمندريت نعمان رويِّق

ولد في حلب في 2 تشرين الثاني 1957، درس الابتدائية والإعدادية في حلب، ثم أرسل إلى أكليركية القديسة حنة في الربوة عام 1977، ثم أكمل دراساته العليا في الفلسفة اللاهوتية في جامعة الروح القدس في الكسليك (بيروت) وفي معهد القديس بولس (بيروت) وارتسم كاهناً في 16 آب 1982. أوفده المطران إدلبي لدراسة الأيقونات في باريس (1983- 1989) واستلم رعية الرقة والطبقة، وصار يعلم مادة التربية المسيحية. واصبحت الكنيسة في الرقة لكل الطوائف يقدسون بها (الكاثوليك والأرثوذكس واللاتين والإنجيليين) وهو محبوب من كل الطوائف المسيحية وله صلات مع المسلمين، ويقصده الفقراء من المسيحيين والمسلمين للمساعدة ولا يرد أحداً. حفظه الله إنه مثال للراعي الصالح. وهو صديق مخلص وودود، وفنان له أعمال مذهلة في رسم الأيقونات على الطريقة الحلبية.

الروم الأرثوذكس في حلب

الروم الأرثوذكس كثيرون في جنوب ووسط سورية (في حمص وحماه والقلمون ودمشق وحوران وفي الريف) أما في حلب فهم الأقل نسبياً بالنسبة للكاثوليك.

البطريرك كيرلس الأول (1812- 1834)

خدم في حلب وفي دمشق، وترك أثراً حميداً. ولم يترك مؤلفات كتابية.

البطريرك ثاوكنسطوس (1834- 1844)

وهو الذي استخرج ميامر القديس يوحنا فم الذهب من اليوناني إلى العربي، وله مناظرات مع الروم الكاثوليك وكان يطلق عليهم العرب الغساسنة.

البطريرك كيرلس الثاني (1844- 1861)

في عهده حدثت قومة حلب 1850 وأحداث دمشق 1860، وفي عهده تحسنت العلاقات بين الروم الكاثوليك والأرثوذكس، وقد ذهب مع المطران ديمتريوس الأنطاكي لجمع التبرعات من روما واستنبول.

المطران صفرونيوس (1863- 1871)

حسَّن العلاقات مع الكاثوليك، وكان يهتم بالتعليم والإرشاد وقد بنى مدرسة الروم الأرثوذكس بحارة قلاية الروم القديمة بحلب. لا أعرف له أية كتابة.

المطران تيموثاوس (1871- 1873)

كان من أهل حلب، اهتم بالتعليم وتدبير الرعية، واهتم باللغة العربية، وكان صديقاً لرزق الله حسون وأدباء عصره.

المطران ابيفانيوس السمرة (1902- 1903)

كان من مواليد دمشق عام 1876، وخدم في حمص وطرابلس ودرّس في دير البلمند، وتوفي في دير صيدنايا في 3 آذار 1903.

المطران استيفانوس مقبعة (1903- 1910)

هو خليل بن يوسف مقبعة ولد في دمشق عام 1853 واصبح راهباً في دير مار الياس في الشوير عام 1885، وخدم في حمص وبيروت وعين رئيساً لدير البلمند عام 1901، ثم انتخب مطراناً لحلب 1903 ولكن الرعية في حلب نفرت منه، رغم استقامته ونزاهته، وقدموا ضده الشكوى فاستعفى عام 1910.

البطريرك يواكيم الثالث (1878- 1912)

عرف في زمانه بالبطريرك العظيم، كان من أهل دمشق، وسيماً جذاباً، سريع البديهة، يهتم بالأمور الكنسية، زاهداً لا يهتم بمظهره ولا لطعامه ويحتقر المال، أظهر رغبة في العمل من أجل الوحدة بين الأرثوذكس والكاثوليك. وجه في 30 حزيران 1902 رسالة إلى جميع الكنائس الأرثوذكسية بشأن إيجاد الوحدة مع الكاثوليك والبروتستانت واقترح استخدام التقويم الغريغوري. كما اهتم بنشر اللغة العربية وتعليمها. توفي في دمشق عام 1912م.

المطران روفائيل نمر (1912- 1949)

ولد في زحلة عام 1883 وأصبح رئيساً لدير البلمند وانتخب مطراناً لحلب 1912، وقام برحلة طويلة في أمريكا الجنوبية (البرازيل) ومصر (1923- 1928) وشارك في النضال السياسي وانضم إلى الحزب الوطني، وكان صديقاً لابراهيم هنانو (1869- 1935) وسعد الله الجابري (1891- 1948) وعبد الرحمن الكيالي وميخائيل ليان، وليون زمريا، ونعيم الأنطاكي.

ثم قام المطران نمر برحلة ثانية إلى أمريكا الشمالية ومكث تسع سنوات (1938- 1947) ثم عاد إلى حلب، ومارس نشاطه، وكانت له علاقات جيدة مع كل أبناء الطوائف المسيحية والإسلامية. وقد مرض وتوفي في 27 تشرين أول 1949 ودفن في باحة كاتدرائية السيدة في الصليبية.

المطران إيليا محفوض (1950- 1979)

ولد إيليا في المتن الأعلى عام 1914، ودرس بالمدرسة الغسانية بحمص، ولبس الثوب الرهباني 1927، ودرس العلوم الدينية في معهد خالكي في استنبول (1934- 1939) ثم سيم كاهناً في عام 1941 بوضع يد البطريرك الكسندروس طحان، وعلم في المدرسة الآسية بدمشق، وكان زميله في التدريس الأستاذ ميشيل عفلق ثم عين مديراً لمعهد البلمند، وأرسله البطريرك الكسندروس طحان إلى البرازيل ليرعى الجالية العربية هناك (1947- 1950) ثم عاد وانتخب مطراناً لحلب.

كان المطران إيليا معوض ذا نزعة وطنية وتقدمية، وفي زمنه زاد عدد الروم الأرثوذكس بهجرة أهل لواء اسكندرون في عام 1939. وصار مقر المطرانية مقراً للنضال الوطني. انتخب المطران إيليا في 19 أيلول قائمقاماً بطركياً عام 1970، ولقب ببطرك العرب. وقام بترجمات أدبية من الأدب اليوناني الحديث مباشرة، وله كتاب طريق النعمة ترجمة عن الإنكليزية، وكتاب بولس الرسول ترجمة عن اليونانية. وتوفي فجأة في 21 حزيران 1979 ودفن بحلب.

المطران الياس يوسف (1979- 2000)

ولد في بلدة السودة (طرطوس) عام 1931، ودرس الإعدادية في دير البلمند وحصل على الثانوية عام 1958 من اللاذقية، وأرسله البطريرك الكسندروس طحان إلى اليونان لدراسة الفلسفة واللاهوت، وتخرج من جامعة أثينا، وانتخب مطراناً لمدينة حلب في 25 ايار 1979، وبنى كنيسة سرجيوس وباخوس في مدينة الثورة وكنيسة مار

يوسف المشتركة بين الروم الأرثوذكس والكاثوليك في الحمدانية. وكان ديمقراطي النزعة في تعامله مع الآخرين، له علاقات مودة كل الطوائف والأديان. توفي في 6 آب عام 2000 ودفن في كنيسة مار الياس وأقيم له حفل تأبيني رأسه غبطة البطريرك أغناطيوس هزيم في حلب.

المطران بولس يازجي

ولد في اللاذقية عام 1959، درس الابتدائية والإعدادية والثانوية في اللاذقية وتخرج من جامعة تشرين عام 1984 بدرجة بكالوريوس في الهندسة، وأرسله البطريرك أغناطيوس هزيم لدراسة الفلسفة واللاهوت إلى جامعة تسالونيك. ثم حصل على الدكتوراه عام 1992، وعين عميداً لمعهد القديس يوحنا الدمشقي عام 1994، وانتخب مطراناً لحلب، وهم مهتم بالثقافة والتعليم.

الكنائس اللاتينية في سورية

هي الكنائس الكاثوليكية التي يترأسها البابا في روما، وتسمى الكنائس البطرسية، نسبة إلى القديس بطرس، هامة الرسل، وهو أول تلاميذ المسيح ورئيسهم، والباباوات خلفاؤه، ويسمي العرب هذه الكنائس بالغربية لوجودها في الغرب.

وأثناء حروب الفرنجة (الصليبية) زار القديس فرنسيس الأسيزي (1182- 1226) القدس والقاهرة، وأسس رهبانية الفرنسيسكان عام 1210، امتازت هذه الرهبنة بالتواضع والبساطة، ومحبة الفقر وروح الفرح.

جاء الفرنسيسكان إلى القدس 1229- 1244، ودمياط 1249- 1250 والقاهرة 1320 وإلى بيروت 1571 وإلى طرابلس 1582 وإلى القاهرة وصيدا وحلب.

كان الفرنسيسكان في البداية يقصرون عملهم على خدمة تجار الفرنجة، وأسسوا كنائس عرفت بكنائس اللاتين وكانوا يبدون التواضع، ويقدمون للفقراء المعونة للتخلص من أعباء الجزية، والتخفيف من صرامة الصوم الشرقي، وكانوا يبثون روح الفضيلة، ونشر المحبة وعمل البر والإحسان. وكانوا يزورون الفقراء والمرضى في منازلهم. وأنشأوا المدارس وتجهيز الفتيات الفقيرات للزواج. عندما بنوا لهم كنيسة في حي الجديدة بحلب، أثاروا حفيظة الكنائس الشرقية وكانوا يتوجسون من اللاتين الخوف من التدخل في أمورهم. فأصدر مجمع فلورنسا في 4 تموز 1631 قراراً بعدم تدخل اللاتين بأمور الكنائس الشرقية. وبعد قرن من الزمن أصدر البابا بنديكتوس الرابع عشر (1740- 1758) في 16 كانون أول 1743 أمراً على كل مؤمن من الروم

الكاثوليك أن ينتقل إلى الطقس اللاتيني إن رغب بذلك. وفي عام 1755 أصدر البطريرك القسطنطيني كيرلس الخامس أمراً للروم الأرثوذكس اعتبر اللاتين مارقين من الإيمان ولا يجوز الاختلاط بهم. ولكن اللاتين استطاعوا بجهودهم وصبرهم أن يبنوا كنيسة في حي الكتاب على اسم القديس أنطونيوس عام 1849. وبمبادرة من الأب دولمان اليسوعي تأسس كنيسة في حلب 1898 وتولى رئاستها الأب عبد الله صعب (1898- 1917).

زاد عدد اللاتين في حلب، وزال الحذر من الأجانب. قال الأب فردنان توتل اليسوعي «أنه في 23 نيسان 1934 حضر إلى حلب رئيس رهبانية الفرنسيسكان ووضع حجر الزاوية في مقبرة اللاتين القديمة، وفي 10 تشرين الأول 1937 دشنت كاتدرائية اللاتين في حي العزيزية(38).

الأب فردينان توتل اليسوعي (1887- 1977)

ولد في حلب في 12 أيلول 1887، ودرس في مدرسة القديس نيقولاوس للروم الكاثوليك وعندما أنهى دراسته في حلب التحق بمدرسة الآباء اليسوعيين في فرنسا 1902. وهناك انتسب إلى الرهبانية اليسوعية عام 1906، ودرس الفلسفة واللاهوت في إنكلترا وفرنسا، وارتسم كاهناً في أول أيار 1918 وفي عام 1920 عاد إلى القاهرة ثم لبنان وأمضى عشر سنوات (1927- 1937). ثم انتقل إلى حلب ودرّس اللغة العربية (1937- 1947)، ثم انتقل إلى بيروت وانكب على التأليف ومكث هناك حتى عام 1974، وجاء إلى حلب وأشرف على طباعة كتبه. وتوفي في بيروت في 22 أيار 1977 ودفن هناك.

أهم مؤلفات الأب فردينان توتل اليسوعي

-معجم أعلام الشرق والغرب، وهو الجزء الثاني من المنجد في الأدب والعلوم.

-الحوادث والأخبار عن يوميات نعوم نجاش 1855- 1865 بيروت 1940.

-أولياء حلب في منظومة الشيخ أبي الوفاء الرفاعي بيروت 1941.

-أخبار الموارنة في مجلدين، المجلد الأول (1606- 1827) والمجلد الثاني (1827- 1947) طبع في بيروت 1959.

-أخبار السريان الكاثوليك (1840- 1865) نقلاً عن يوميات نعوم نجاش طبع في بيروت 1962.

-أخبار اللاتين والروم (1855- 1963) نشر في بيروت 1963.

المطران بونافنتورا عقيقي (1973- 1978)

ولد في فلسطين في القدس 1905، ودرس في مدرسة الآباء الفرنسيسكان في الكبيبة قرب القدس، ثم أرسل إلى روما لدراسة الفلسفة واللاهوت ومكث (1925- 1930). ورسم كاهناً عام 1930، ومارس الوعظ والتدريس، وانتخب مطراناً لمدينة حلب عام 1973، واتخذ كاتدرائية العزيزية مقراً له. وأشرف على كنائس حلب وإدلب في القنية واليعقوبية التي كان اللاتين أسسوا فيها كنيسة منذ عام 1898، وبلدة الغسانية 1934، وجسر الشغور 1950. واعتنى بالشبيبة وتدبير مصالح الرعية فكان مثالاً للتقوى والورع، وذهب إلى القدس في إجازة وتوفي هناك 1978.

المطران جوزيف نازارو

ولد في حلب عام 1935، وعينه البابا يوحنا بولس الثاني نائباً رسولياً على حلب وتم تنصيبه في 17 كانون الثاني 2003، وهو يقوم الآن بواجباته الرعوية على أتم وجه.

الكنيسة البروتستنتية

المصلح مارتن لوثر (1483- 1546)

يعتبر مارتن لوثر بطل الإصلاح الديني في أوروبا، ودعي أتباعه في العالم بالبروتستانت.

ولد مارتن لوثر في 10 تشرين عام 1483 في مدينة إيسليبن في عائلة فقيرة، استوطنت جبال تورجن في ألمانيا، وكان والده يعمل في المناجم. علم الأبوان طفلهما أصول الديانة المسيحية الكاثوليكية ومبادئها، وكان الأب شديد الصرامة في تعليم اللغة اللاتينية، التي أتقنها الطفل مارتن قبل ذهابه إلى مدرسة القرية، وقد نبغ الطفل في الموسيقى، ونجح في المدرسة الابتدائية، وذهب إلى مدينة مجدبرج لمواصلة تعليمه الثانوي، وكان ينشد الأناشيد الدينية في قارعة الطريق لجمع نفقات معيشته. وقد جذبت رخامة صوته السيدة المحسنة أورسولا، فدعته إلى العيش في قصرها، وعاش في كنفها أربع سنوات ضيفاً.

استعد مارتن لدخول الجامعة في مدينة إرفورت وقد ساعده والده وعاش مارتن لوثر في جو الجامعة متفتح الذهن واسع الثقافة، وتعمق في دراسة الكتاب المقدس، واللاهوت المسيحي، ودرس القانون والمنطق. نال مارتن لوثر شهادته الجامعية الأولى، وكان السؤال الذي يلح عليه: **ماذا ينبغي عليّ أن أفعل كي أخلّص؟**

خطرت في ذهنه فكرة الانخراط في الرهبنة الأوغسطينية، ووضع في أحد الأديرة في إيطاليا لمدة سنة، ولاحظ أن الدير بحاجة إلى إصلاح في مناهجه، وأبدى مارتن لوثر نشاطاً في الوعظ والتدريس، فدعي ليكون أستاذاً في جامعة وينتبرج، وعرج إلى روما وزار كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان، فخطرت على باله مقولة القديس بولس (أما الابن البار، فبالإيمان يحيا). وإذا به يصادف على الدرج الكاردينال تتزيل العائد من الجباية وهو فرح بما يحمل من مال من بيع صكوك الغفران، من أجل ترميم كنيسة القديس بطرس، وإذا به يلتفت إلى الراهب مارتن لوثر، بعبارة فيها من الزهو الغرور «حالما ترن الفلوس في الصندوق، تنال الأرواح الغفران».

تعجب الراهب الشاب مارتن لوثر من توارد الخواطر بين عبارة القديس بولس وعبارة الكاردينال المغرور، فهاجت نفس الراهب بالغضب المقدس، وراح يفكر في إصلاح الكنيسة الرومانية. وفي 31 تشرين أول عام 1517 ذهب مارتن لوثر إلى كنيسة وينتبرج وعلق على بابها قضايا الإصلاح المكونة من 95 فقرة، جاء في أولها:

-كل مسيحي مخلص، يترك خطاياه ويتوب عنها توبة قلبية صادقة، تغفر له خطاياه ويكتب اسمه في سفر الحياة، وعندها لا يحتاج إلى صك الغفران.

-إن الكنز الحقيقي للكنيسة هو الإنجيل المقدس، لنعمة الله ومجده.

وصلت هذه التعاليم إلى مسامع البابا ليون العاشر، فقال بغضب: «إنها دعاية سخيفة، كتبها هذا الراهب الألماني وهو سكران، ولا شك إذا عاد إلى وعيه ستتغير أفكاره».

ولكن مارتن لوثر استمر بدعوته لإصلاح الكنيسة، فاستدعاه البابا للامتثال أمامه في مجمع ورمس، وتوجه إلى المؤتمر غير هيَّاب معتمداً على الله.

عندما وصل الراهب مارتن لوثر إلى مدينة وينتبرج خرجت جماهير المدينة لترى هذا الراهب الذي تجرأ على تحدي سلطة البابا. مثل مارتن لوثر أمام البابا الذي طلب منه أن يجحد كتاباته، فرد عليه: إن لم أقتنع بضلالها فلن أجحدها.

كان أمير سكسونيا حاضراً في المجمع، فأعجب بجرأة هذا الراهب الشاب ووضعه تحت حمايته، وقام مارتن لوثر بترجمة الكتاب المقدس من اللاتينية إلى الألمانية، ووضع له الشروح، والاصطلاحات المبسطة لكي يعرفها الفلاح الألماني.

تزوج مارتن لوثر من فتاة راهبة صالحة هي كاثرين لوثر، وكان زواجه زواجاً موفقاً، ولكن الكنيسة الكاثوليكية شنت عليه حملة شعواء رمته بكل الرذائل والموبقات، وكانت تلك الحملة السبب في كثرة أتباعه الذين دعوا بالبروتستانت أي المحتجين.

وصار مارتن لوثر يرد على أتباع الكنيسة الكاثوليكية بلغة قاسية، قام بترجمة كتاب الرد على القرآن، لريكاردو دامونتكروتشي عام 1542، من اللاتينية إلى الألمانية. جاء فيه: «إن المسلمين قلوبهم مقفلة عن تعاليمنا، وهم يسخرون من كل مسائل عقيدتنا ويتضاحكون عند سماعهم شيئاً عنها، ويعتبرون كل ما نؤمن به ليس أكثر من تخريفات مجانين وتخيلات مخبولين، وأن المسيحيين الكاثوليك عندما يقاتلون العثمانيين، إن الله لن يهبنا النصر ودعوا المسلمين يفعلون ما يشاؤون حتى ينزل بهم غضب الله في النهاية، وإن المسيح الدجال هو البابا الجالس على عرش روما، وليس محمداً العدو الخارجي، فعلينا أولاً الالتفات إلى العدو الداخلي المسيح الدجال، المتحرك داخلنا (البابا) وعلينا أن نرفضه عن طريق التوبة والصلاة»[39].

وفي عام 1546 ذهب مارتن لوثر إلى مدينة مانسفيلد بين أميرين متخاصمين فوافته المنية، في صبيحة يوم 8 شباط 1546، وكانت آخر كلماته «أيها الآب استودع روحي بين يديك» وحملوا جنازته بموكب عظيم إلى مدينة وينتبرج[40].

الكنائس الإنجيلية الوطنية في سورية

هي جزء من الكنائس الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية، تحت تأثير اللاهوتي والمفكر مارتن لوثر (1483- 1546). كان مارتن لوثر راهباً ألمانياً أوغسطينياً، نادى بإصلاح الكنيسة الكاثوليكية بعد اطلاعه على صكوك الغفران التي أصدرها البابا ليون العاشر عام 1517، وفيها تباع الجنة بصك يتضمن الغفران التالي: «ربنا يسوع المسيح، يرحم (فلاناً) بالسلطان الرسولي المعطى له، وإني أحله من جميع الأحكام والعقوبات الكنسية التي استوجبها ومن جميع الخطايا والذنوب التي ارتكبها، مهما كانت عظيمة، وإني أقرنه في شركة القديسين، وأرده إلى الطهارة والبر اللذين كانا له عند معموديته، حتى إنه في ساعة الموت يغلق الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذابات والعقاب (جهنم) ويفتح له الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإنه إن لم يمت يبقى له هذه النعمة. باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد»[41].

رفض مارتن لوثر صكوك الغفران وسلطة البابا وإكرام القديسين، ونقل التوراة من اللاتينية إلى الألمانية، لغته القومية، ونادى بإصلاح الكنيسة الرومانية.

أثارت دعوة لوثر حمية وغيرة يوحنا كالفين (1509- 1564) في فرنسا وكتب كتاباً باسم الأسس المسيحية، ونادى كذلك بإصلاح الكنيسة الرومانية، واعتبر الكتاب

المقدس هو المصدر الوحيد للوحي الإلهي، وحارب الصور والتماثيل والصلوات لأجل الموتى والأسرار ما عدا سري المعمودية والعشاء الرباني.

توطدت أركان اللوثرية في ألمانيا، وهولندا والدول الإسكندنافية وسموا بالمحتجين (البروتستانت) كما انتشرت الكلفينية في فرنسا وسويسرا وأمريكا وانفصلت الكنيسة الإنكليزية عن روما في زمن الملك هنري الثامن (1491- 1547). وتم الانفصال في سنة 1535، وعقدت الكنيسة الرومانية مجمعها التاسع عشر تريدنتودام (1543) من أجل إيضاح العقيدة الرومانية والرد على العقيدة البروتستانتية.

كيف وصلت العقيدة البروتستانتية إلى الشرق؟

كانت هناك إرهاصات بدأت من أيام البطريرك كيرلس لوكاريس (1608- 1638) وهو يوناني الأصل ولد في جزيرة كريت عام 1572، ودرس في البندقية وكان يحب المغامرة والتجوال. قام برحلة طويلة وطاف في سويسرا وهولندا وإنكلترا وتأثر بأفكار لوثر وكالفن وعاد إلى الإسكندرية واتصل بالبطريرك ملاتيوس أبيفانس، وهو يوناني من جزيرة كريت، أوفده البطريرك ملاتيوس إلى بولونيا ليقاوم النشاط اليسوعي في عام 1599، ولكنه أبدى رغبة في الشراكة الكاثوليكية، وجاء إلى أثينا وترأس الكرسي البطريركي عام 1608، إلا أن الأرثوذكس ثاروا عليه فهرب إلى جبل آثوس المقدس عام 1612. وفي أديرة الجبل القديمة عثر على مخطوطة الكتاب المقدس المسماة (الالكسندرينوس)، وعرضها على البروتستانت الهولنديين في حلب، ودرسها اللاهوتي كرنيلوس فان جانيسيوس (1585- 1638) وشرح المخطوطة على ضوء تعاليم القديس أوغسطين في النعمة وحرية الإنسان، وجاءت تعاليمه تتفق وتعاليم مارتن لوثر.

عاد البطريرك كيرلس لوكاريس إلى الإسكندرية عام 1627، وهناك صار يبشر بالعقيدة البروتستانتية، وطرد اليسوعيين من الإسكندرية، وجاء كيرلس إلى حلب، ولكن رجل السلطان مراد الرابع (1623- 1640) قبضوا عليه وبتحريض من الأرثوذكس والكاثوليك خنقه الإنكشاريون في السجن في 27 حزيران 1638م.

نشر التجار الهولنديون الفكر البروتستانتي. وعندما جاء القس الأمريكي بلتسنك بنى كنيسة إنجيلية وطنية في حلب عام 1823، وأوكل الوعظ إلى الأب يوسف آق باش (الرأس الأبيض). وفي سنة 1868 بنى الإنجيليون كنيسة لهم في تراب الغرباء، فتحها الدكتور نسلن مدرسة للوعظ اللوثري عام 1890، وأوكل التعليم إلى المعلم الأب يواكيم مسوح، ولكن الشباب الحلبي من الكاثوليك والأرثوذكس وقفوا في وجهه عام 1894،

وطردوه من حلب. يذكر الشيخ كامل الغزي في كتابه (نهر الذهب) أنه كان البروتسانت في حلب عام 1901 حوالي 18 نسمة، وفي عام 1908 أصبح عددهم حوالي 191 نسمة، وفي عام 1922 تجاوز عددهم 480 شخصاً، وازدادوا بعد هجرة الأرمن البروتستانت من طرسوس ومرسين من تركيا، وصار عددهم كبيراً[42].

وانتشرت الكنائس الإنجيلية في دمشق وحلب عندما قام القس باركيف ابارتيان بنشاط بين السريان المهاجرين من أورفا وماردين وساعده القس إبراهيم نصير وأصبح مقراً كبيراً في جادة الجندق، وترأس الكنيسة القس غايوس المقلع. والكنيسة الإنجيلية كنيسة نشطة، وهي وطنية في توجهها، ويترأس الكنيسة في دمشق القس إبراهيم زاعور، وهو رجل مثقف ذو نشاط اجتماعي وطني.

الدكتور ميخائيل مشاقة (1800- 1888)

ولد في قرية رشميا في جبل لبنان عام 1800، في عائلة كاثوليكية. وكان والده يعمل طبيباً في خدمة الأمير بشير الشهابي، في دير القمر. درس ميخائيل في مدرسة القرية، وعندما حضر خاله بطرس عنجوري من مصر، وكان عالماً في الرياضيات والفلك، تعلم على يديه.

في سنة 1817 رحل ميخائيل إلى دمياط بمصر، وعمل كاتباً في متجر عمه، وعمل بالتجارة فتكونت لديه ثروة، وخلال هذه الفترة قرأ رحلة الرحالة الفرنسي فولني الذي زار سورية ولبنان وفلسطين عام 1785، وتبلبلت أفكاره الدينية. وتعلم الموسيقى، وأتقن العزف.

رجع ميخائيل إلى دير القمر في عام 1820، واتصل بالأمير بشير الشهابي، وعينه في قرية قضاء القنيطرة لإدارة أملاكه. وفي عام 1828 مرض في حاصبيا، ونقل إلى دير القمر للاستشفاء، وأثناء ذلك درس الطب، على يد خاله بطرس عنجوري، وعلى الطبيب الإيطالي جوزيف كارلياني. وعندما دخل إبراهيم باشا المصري بلاد الشام (1832- 1839) رافقه وصار طبيباً في الجيش، وخدم في دمشق وحمص وعالج الريح الأصفر عام 1834، وعاد إلى دير القمر في عام 1839 وصار يمارس مهنة الطب بأجر.

جاء الطبيب ميخائيل مشاقة إلى دمشق وعين رئيساً للأطباء، ودرس المنطق (الإيساغوجي لفرفوريوس الصوري) على يد المعلم الخوري يوسف حداد، والشرح على العلامة مفتي الديار الشامية محمود أفندي الحمزاوي (نقيب الأشراف).

وفي عام 1840 اتخذه القنصل الإنكليزي ريتشارد وود مترجماً في القنصلية، وفي عام 1845 هاجر إلى مصر وعين طبيباً في القصر العيني وحصل على شهادة الدكتوراه في الطب. وفي عام 1848 انضم ميخائيل إلى الكنيسة الإنجيلية وجرت بينه وبين البطريرك الكاثوليكي مكسيموس مظلوم مجادلات نجدها في كتابه **(الدليل إلى طاعة الإنجيل)**. وفي عام 1859 عين الدكتور ميخائيل مشاقة نائب قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في دمشق.

وعندما حصلت الفتنة في دمشق عام 1860 بين المسلمين والمسيحيين استجار بالأمير عبد القادر الجزائري الذي نقله إلى دار صديقه محمد السوطري فظل مختبئاً عنده يعالجه لمدة عشرين يوماً.

وفي عام 1870 أصيب الدكتور ميخائيل مشاقة بالفالج في جنبه الأيمن فانقطع عن العمل وانصرف إلى التأليف فأنجز عدة كتب منها كتابه **(الجواب على اقتراح الأحباب)** وكتاب **(البرهان على ضعف الإنسان)** ورسالة في ترجمة البطريرك مكسيموس مظلوم، ورسالة في الرد على ابن الحموية، والمعين على حساب الأيام والأشهر والسنين، **ومشهد الأعيان بحوادث سورية ولبنان**، طبع بعد وفاته بمصر سنة 1908.

ظل الدكتور ميخائيل مشاقة يعاني من المرض حتى وفاته في السادس من تموز عام 1888، ودفن في دمشق. وكان رحمه الله صديقاً للمسيحيين والمسلمين واليهود. وكان رحمه الله علماً من أعلام الثقافة العربية.

من رواد النهضة والأدب

سأختار دون تحديد أو حصر، مما توفرت لديّ من مصادر عنهم.

الأديب فرنسيس فتح الله مراش (1835- 1874)

ولد في حلب عام 1835 لأسرة روم كاثوليك، ودرس العلوم واللغات العربية والأوروبية، وذهب لدراسة الطب في باريس وعاد إلى حلب عام 1867 وقد كف بصره، وانصرف إلى الكتابة وكانت أخته الأديبة مريانة مراش (1846- 1919) تساعده في القراءة والكتابة.

كان فرنسيس يميل إلى الفلسفة ودراسة العلوم، وقد وضع كتاب **(دليل الحرية الإنسانية)** طبع في حلب 1861 وكتاباً عن **(المرآة الصفيّة في المبادئ الطبيعية)** طبع في حلب عام 1861، وهو خلاصة علم الفيزياء، وله كتاب في التاريخ العام، وخطبة

في تعزية المكروب وراحة المتعوب طبع في حلب 1864، استعرض فيه تاريخ الدول المنقرضة، وله كتاب (غابة الحق) طبع في حلب 1865، جمع فيه بين الفلسفة والأدب بأسلوب قصصي يدعو فيه للمحبة بين بني البشر، وكتاب (إصلاح المدنية وتحسين العادات والأخلاق) وكتاب رحلته إلى باريس طبع في بيروت عند عودته عام 1867، وصف فيه إقامته في باريس (1850- 1867) وكتاب (شهادة الطبيعة على وجود الله والشريعة) وكتاب (مشهد الأحوال) طبع في بيروت 1870، ضمنه أفكاره العصرية في الحياة والمجتمع، وكتاب (در الصدف في غرائب الصدف) طبع في بيروت 1872، وهو رواية غرامية، يصف المرأة بعدم الثبات والوفاء في الحب. وكتاب (الرموز الفنية في الرموز الميمونية) طبع في حلب 1870. وكتاب (مرآة الحسناء) بيروت 1872، وهو ديوان شعر.

توفي فرنسيس مراش في 3 أيار 1874 ودفن في حلب. يعتبر فرنسيس مراش من طلائع النهضة العربية.

الأديب رزق الله حسون (1825- 1880)

ولد في حلب 1825 من أسرة أرمنية أرثوذكسية، والتحق في دير الأرمن الكاثوليك في لبنان، وتعلم اللغات واللاهوت والرياضيات، ثم عاد إلى حلب، وكان فكره علمانياً، رحل إلى باريس ومصر واستنبول حيث أنشأ فيها جريدة (مرآة الأحوال) بالعربية عام 1855 دعا فيها إلى الحرية وإلى يقظة العرب، مما أثار حفيظة الباب العالي، فهرب رزق الله إلى روسيا ومنها ذهب إلى لندن وهناك تابع إصدار جريدة (مرآة الأحوال) وفيها ندد بمظالم رجال الدولة العثمانية.

كان رزق الله ذا شعر متوسط الجودة في النظم، ونظم سفر أيوب، وله كتاب حسر اللثام وكتاب المثمرات، موضوعه الأدب وكتاب السيرة للسيد المسيح، ونشر ديوان حاتم الطائي، ورسالة بعنوان البراءة من الغلول. وتوفي في قطار لندن عام 1880.

الصحفي جبرائيل دلال (1836- 1892)

ولد في حلب عام 186 ودرس في مدرسة عينطورة للآباء اللعازريين، وأتقن العربية واللغات الأجنبية الفرنسية والإنكليزية. درس علوم عصره، وانتدبته الدولة لتحرير جريدة الصدى في حلب عام 1877، وأنشأ جريدة في استنبول دعاها السلام 1880، نادى فيها بحرية العرب ولكن رجال الباب العالي ضغطوا عليه فهرب إلى النمسا، ودرّس هناك في الأكاديمية الملكية اللغة العربية، ثم عاد إلى حلب وقبض عليه

وسجن لكتابة قصيدة العرش والهيكل في ذم السلطان عبد الحميد الثاني، تتألف من 151 بيتاً. وفي السجن توفي في 24 كانون أول عام 1892، ودفن في حلب. ظهر لجبرائيل دلال ديوان شعر باسم (السحر الحلال في شعر جبرائيل دلال) طبع في مصر عام 1903.

المحامي فتح الله صقال (1893- 1970)

ولد في حلب في 13 حزيران 1893، ودرس في مدرسة الأرض المقدسة في الشيباني، وقضى سنوات الحرب العالمية الأولى في القاهرة يدرس الحقوق، وصار ينشر مقالاته الوطنية في جريدة الأهرام، ثم توجه بعد الحرب إلى فرنسا وانضم إلى المؤتمر السوري وأكمل دراساته العليا في باريس. وفي عام 1919 عاد إلى حلب ومارس المحاماة، ودافع عن إبراهيم هنانو عام 1933، واستلم الوزارة في سورية مرتين ممثلاً للحزب الوطني.

وفي عام 1929 أصدر مجلة (الكلمة) وافتتح نادي المسنين في حي السبيل عام 1933 ودشن مشفى الكلمة في حلب عام 1951، من مله الخاص. قبض عليه حسني الزعيم وسجن في عام 1949، وكتب عدة مرات منها (ذكرياتي عن حكومة حسني الزعيم، وخطرات ونظرات، وكتاب ذكرياتي في المحاماة، وكتاب ثلاثون سنة في خدمة الإنسان، وكتاب العالم الجديد، وكتاب أوروبا أمس واليوم، وكتاب إنسانيون).

أصيب بالفالج النصفي سنة 1966 وكان يمارس الكتابة رغم المرض، وتوفي في صباح الجمعة العظيمة في 27 آذار 1970.

العالم الأثري صبحي صواف (1909- 1977)

ولد في حلب عام 1909، ودرس في معهد اليسوعيين، ونبغ في اللغتين العربية والفرنسية وذهب إلى باريس لدراسة علم الآثار وعاد إلى حلب 1930، وساهم في نشاط جمعية العاديات، وأشرف على عدد من الحفريات الأثرية في قلعة حلب وقلعة سمعان ومسكنة (إيمار) وقلب لوزة، وهو الذي أرشد البعثة الإيطالية إلى أهمية تل مرديخ (إيبلا) وأشرف على التنقيبات في الرصافة مع العالم الأثري يوهانس كلفيتس (جامعة برلين الحرة). وترك عدة مؤلفات عن حلب والرصافة وقلعة سمعان وكنيسة قلب لوزة. واستحصل على وسام بابوي تقديراً لجهوده الأثرية وكشفه للكنائس القديمة. وتوفي فجأة في 7 كانون الأول عام 1977. رحمه الله كان عالماً متواضعاً، وكان صديقاً لي (المؤلف).

المدرسة الحلبية في رسم الأيقونات

الأيقونة، صورة رسمت عليها مواضيع الكتاب المقدس، ثم تعلق على الجدران، وقد لعبت هذه الصورة دوراً هاماً في تاريخ الكنيسة الملكية، ويذكر مؤرخو فن الأيقونات أنها تعود إلى صورة المنديل الذي رسمت عليه وجه المسيح وقدمت لملك الرها الأبجر معنو عام 73م.

غلف تاريخ الأيقونات بأساطير، وصار لها لاهوت محترم لدى الكنيسة في القرون الوسطى. ولكنهم اختلفوا في مدى قداستها، فبعضهم ربطها بعبادة الأوثان، وهي تخالف تعاليم الكتاب المقدس.

حظر الإمبراطور ليون الثالث الإيصوري (716- 740) تعليقها في الكنائس وأمر بتحطيمها عام 726. وكان الإمبراطور من أصل عربي، ومن مدينة مرعش. وقام يدافع عنها القديس يوحنا الدمشقي، الذي اعتبرها مقدسة لا بخشبها وإنما بما تمثله من معجزات القديسين. يقول بول هاوزر: «حدثت ظاهرة تحطيم الصور، ولم تكن في حقيقتها حركة معادية للفن، فهي لم تضطهد الفن في ذاته، وإنما اضطهدت نوعاً معيناً من الفن، إذ كانت تقتصر على محاربة الصور ذات المضمون الديني (صور القديسين) وظلت تتسامح مع الرسوم الزخرفية حتى في أعنف فترات الاضطهاد»[43].

اعتبر علماء الكنيسة المؤيديون لها في مجمع نيقية الثاني 787، أن الأيقونات مقدسة وحرموا محطمي الأيقونات، معتمدين على ما كتبه البابا غريغوريوس الكبير (590- 604) إلى مطران مرسيليا سيرينوس «إن الأيقونة تمثل عند الأميين ما تمثله الكتابة عند المتعلمين».

استغلت الأديرة هذه التعاليم ونشأت تجارة مربحة للأيقونات التي صارت تنتقل بين الشرق والغرب. وصار الجمال الذي تمثله الأيقونة كفن بصري مرتبط بعقيدة قدسية، وتحول العنصر المقدس إلى عنصر تزييني وعلى الفنان أن يتقن رسمه لأن رؤيته للعالم هي النافذة المطلّة على عالم الغيب. صارت بعض الأديرة متخصصة برسم الأيقونات، خصوصاً الأديرة الملكية في الشرق التي كانت عامرة بورش الرسم والخط ونسخ الكتب.

عندما جاء المبشرون اللاتين عام 1622 حملوا معهم بعض الأيقونات الغربية، فصارت محرضاً عند محبي الرسم من أهل المشرق. وكان أول المعجبين بها في حلب المطران ملاطيوس كرمة (1660- 1667) محب رسم الأيقونات، وكانت حوله مجموعة من الرسامين منهم الخوري يوسف دانبة الشماس نعمة المصور والبطريرك أفتيموس الصقزي (1635- 1647) أستاذ البطريرك مكاريوس بن الزعيم الحلبي (1647-

1672) الذي كان محباً وممارساً لهذا الفن. وقد أهدى صورة القيامة عام 1645 إلى دير ديالوا Dealu في رومانيا.

ويعتبر البطريرك سلفستروس القبرصي (1696- 1766) الذي ولد في حلب لأب يوناني وأم مارونية حلبية، وكان يجيد فن الخط والرسم، وعندما زار جبل آتوس واطلع على تقاليد الرسم اليونانية هناك رسم بعض الأيقونات الأرثوذكسية. وانتقلت تلك التقاليد إلى حلب.

ما هي مميزات فن رسم الأيقونات الحلبية؟

قام بعض الباحثين بدراسة الأيقونات التي عثر عليها والتي تعتبر من إنتاج مدرسة حلب، وجرى تحليلها، ونسبت كل أيقونة إلى صاحبها، وسأعطي مثالاً على ذلك.

الأيقونة الأولى (أيقونة القديس سبيريدون المؤرخة عام 1748). قام بدراستها الأب باسيل رادو سنة 1933.

أهدى هذه الأيقونة البطريرك سلفستروس القبرصي لدير سبيريدون عام 1748، وهي موجودة اليوم في متحف نقولا إبراهيم سرسق (الخاص) في بيروت.

في تكوين اللوحة، الوجوه ذات ملامح شرقية، عيون النساء لوزية كبيرة وذات أهداب مقوسة وأنوف مستقيمة، رأسها دقيق، والنساء ذات بشرة بيضاء، بينما الشباب وجوههم مستديرة وبشرتهم حنطية، وبجانبهم الشيوخ ذوي وجوه عريضة وخدود بارزة ومجوفة. وقد عالج اللحى وشعر الرؤوس بدقة.

ألوان الأيقونة متعددة، فيها اللون الأحمر والأخضر، أوراق الشجر مذهبة وأساليب الزخرفة تطغى عليها أساليب الزخرفة العربية، حيث أزهار الرمان والزنبق وأوراق النخيل، ويعتقد أن الصورة من رسم الشماس نعمة المصور بن الخوري يوسف.

الأيقونة الثانية: (أيقونة الدينونة): قام بدراستها الأب جول لورو سنة 1962، وهي موجودة في دير البلمند، لاحظ في الصورة الطابع المحلي، وهي متأثرة بالمنمنمات الإسلامية، والزخرفة فيها تشبه زخرفة السجاد العجمي أو السقوف الخشبية في البيوت الحلبية.

كانت معظم الأيقونات خالية من التوقيع، أو أضيفت إليها كتابات فيما بعد، كأيقونة الدينونة، كتب في أسفلها «في سنة 1747 أتيت إلى فالاكيا وكان في ذلك الحين يجلس على العرش رأس البلاد صاحب السمو قسطنطين بك ابن نقولا بك سكارلات الرجل التقي المتعلم الذي يخشى الله» دون أن يذكر اسمه.

ولكن هناك بعض الأيقونات التي ذكر عليها اسم الرسام. كتب حنا المقدسي على أيقونة الملاك ميخائيل التي رسمت عام 1726 وقال حنا أنه استند في رسمها إلى أيقونة كريتية، وهو يرى الشماس نعمة الخوري يوسف قد أخذ فقرات كاملة من أعمال كريتية.

كان الخوري يوسف وابنه رسامين محترفين يحركان فرشاتهما بمهارة تعكس بشفافية الوجوه النضرة في اللوحة، وكانت الألوان تعكس وجوهاً ذات ملامح شرقية.

ولأيقونة الدينونة نسختان الأولى في دير البلمند (لبنان) والثانية في كنيسة الأربعين شهيداً (الأرمن الأرثوذكس) وهي من رسم الخوري نعمة وساعده ولده الشماس حنانيا، وهناك أيقونة النزول عن الصليب طبعت عام 1723 رسمها يتعارض مع التقاليد البيزنطية الأرثوذكسية.

ومن الرسامين الذين برعوا في الرسم في القرن الثامن عشر الشماس جرجس بن حنانيا كان فناناً مبدعاً، راجت أيقوناته التي كانت تعلق في البيوت والكنائس في حلب، وكان يرسم ثلاث أو أربع نسخ للأيقونة الواحدة، بألوان زاهية صريحة، وكأن الأيقونة قدرسمت لأول مرة.

وممن حمل طابع مدرسة حلب الرسام شكر الله بن يواكيم المقدسي، وقد نقل عن أيقونات حنانيا وجرجس، لكن بخصائصه المميزة، كما هو الحال في رسمه لأيقونة الدينونة الأخيرة التي رسمها عام 1770.

ومن الرسامين الذين اشتهروا في دمشق وحمص نعمة بن ناصر الحمصي، وبطرس عجمي، رسموا أيقونات برزت فيها وجوه سمراء أصلها عربي، **العذراء مريم، والقديس جرجس يقاتل في السيف وإبراهيم الخليل الذي يرتدي زي خليفة عربي. أما أيقونة سيدة حماة فيها الملائكة يبشرون الرعاة** وقد اعتمروا الكوفية والعقال ويلبسون الشروال وهم يعزفون على المجوز كانت الألوان زاهية والزخارف فيها أقواساً مستديرة الأطراف.

وهناك **ميشال الكريتي** الذي عاش في سورية (1809- 1821) وتعلم على يديه شباب سوريون أمثال **ميخائيل الدمشقي** (المتوفى 1810) ومن أعمالهم **أيقونة الأميرة التي تنتظر القديس جرجس المنتصر** وهي تحمل خروفاً بيدها. **وأيقونة القديس متى** وهو يكتب إنجيله على مائدة ذات طراز عربي وهي من رسم نعمة بن ناصر الحمصي.

أصبحت المدرسة الحلبية في بداية القرن التاسع عشر تمزج بين الفنين: الحلبي ذو الأصول اليونانية والفن الإيطالي، حيث استخدمت الألوان الزاهية المذهلة مع المنظور والأشكال الهندسية والبيوت ذات الطابع الإيطالي. وبدت الوجوه فيها مستديرة

والأصابع قصيرة كما في أيقونة (المسيح الملك) المرسومة على مخمل من صنع البندقية، وهي على الأغلب لبطرس عجيمي اللبناني الذي درس في حلب ودمشق ورسم في دير القمر، رسم القديسات والقديسين بأجسام مكتنزة ووجوه عريضة، وللنساء شفاه تبرز الشهوة، وجبين وضاء وأنوف مستقيمة، وأعين مفعمة بالرحمة والطيبة.

كان للمدرسة الحلبية أثر كبير على تطور الفن التشكيلي كما هو الحال في الفن الموسيقي، حيث الأغاني الكنسية السريانية المتوارثة، والتي اختلطت بموسيقى القدود الحلبية، والمقامات الصوفية. ومن الرسامين الموهوبين في رسم الأيقونات الأب نعمان رويّق الحلبي له عدة أيقونات تتوزع بين الرقة وحلب ودمشق وباريس وأثينا.

مراجع: الروم الملكية الأرثوذكس والكاثوليك

1) الروم الملكيون الكاثوليك ص49، المطران حبيب باشا بيروت 1986.

2) الروم الملكيون في الإسلام، ص31 حبيب الزيات المطبعة البولسية حريصا لبنان 1953.

3) الآثار الباقية ص288 البيروني، تحقيق إدوار سخاو، ليدن 1898.

4) كتاب العبر ج2 ص153 ابن خلدون طبعة تونس 1937.

5) التنبيه والإشراف ص155، المسعودي تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي القاهرة 938.

6) مروج الذهب ج1 ص242، المسعودي، تحقيق قاسم وهب دمشق 1988.

7) صبح الأعشى ج11 ص100 القلقشندي طبع بولاق 1912.

8) تاريخ ميخائيل الكبير ج2 ص387.

9) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص106 كلود كاهن ترجمة بدر الدين القاسم دار الحقيقة بيروت 1972.

10) شرح الإيمان القويم للقديس يوحنا الدمشقي ك1 ف8 عمود 821.

11) المصدر السابق ك2 ف46 عمود 985.

12) المصدر السابق ك3 ف28 عمود 1045.

13) المصدر السابق ك4 ف17 مجلد 94 عمود 1176.

14) الروم الملكيون في الإسلام ص46-47.

15) الفهرست ص255- 256، ابن النديم، تحقيق رضا تجدد طهران 1971.

16) تاريخ ميخائيل الكبير ج3 ص32.

17) تاريخ الرها المجهول ص16 تحقيق البيرابونا لوفان 1974.

18) ميمر في إكرام الأيقونات ص47، ثاودوروس أبو قرة الحراني تحقيق أغناطيوس ديك، المكتبة البولسية لبنان 1968.

19) المصدر السابق ص61.

20) المصدر السابق ص59.

21)نظم الجوهر ج2 ص45 سعيد بن البطريق، تحقيق لويس شيخو بيروت 1906.

22)خطط المقريزي ج2 ص493، دار الكتب المصرية.

23)التبر المسبوك ص227- 228 شمس الدين السخاوي طبعة بولاق القاهرة.

24)الذيل على الروضتين ص203، أبو شامة المقدسي طبع مصر 1870.

25)الروم الملكية في الإسلام ص73.

26)البداية والنهاية ج14 ص319 ابن كثير دار المعارف، بيروت، 1967.

27)نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبي ص12، تحقيق الخوري قسطنطين الباشا المخلصي حريصا لبنان 1912.

28)البطريركية المسكونية الأرثوذكسية ص72، أغناطيوس ديك حلب 2005.

29❖كنيسة مدينة الله الأنطاكية العظمى ج3 ص7، أسد رستم بيروت 1952.

30)الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص242، ابن الشحنة يوسف اليان الدمشقي، بيروت 1909.

31)مخوطة ديوان البدع ص259، المطران جرمانوس فرحات رقم المخطوط 25، المكتبة المارونية بحلب.

32)أساقفة الروم الملكيين في حلب 112، المطران ناوفيطوس إدلبي مطبعة الإحسان حلب 1983.

33)الرهبانية الباسلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد ج2 ص607. الأب أثناسيوس الحاج بيروت 1973.

34)الحضور المسيحي في حلب ج2 ص159، أغناطيوس ديك مطبعة الإحسان حلب 2005.

35)اساقفة الروم الملكيين في حلب ص204.

36)المرتاد في أخبار حلب وبغداد ص139، يوسف عبود الحلبي تحقيق فواز الفواز، جامعة دمشق، 1976.

37)الروم الملكيون الكاثوليك ص79.

38)الحضور المسيحي جص ص17.

39)صورة الإسلام في أوروبا ص168 ريتشارد سوذرن ترجمة رضوان السيد، معهد الإنماء العربي بيروت 1984.

40)كواكب ورواد ص165 إبراهيم مطر مكتبة المشعل بيروت 1951.

41)سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان ص153، نوفل أفندي المطبعة الأمريكية بيروت 1922.

42)نهر الذهب ج3 ص259، كامل الغزي المطبعة المارونية حلب 1926.

43)الفن والمجتمع عبر التاريخ ص162، أرنولد هاوزر، ترجمة فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي، القاهرة 1967.

الفصل الثاني : السريان وطوائفهم الشرقية والغربية

- المدخل: الآراميون والعرب
- السريان والعرب
- الكنيسة السريانيَّة الأنطاكيَّة

الآراميون والعرب

تقع سورية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وقد سكنتها أقوام وشعوب عديدة، يعود أصلهم إلى أرومة مشتركة، ومن هذه الشعوب (العموريون والكنعانيون، والآراميون والعبريون والآشوريون والعرب) والدلالة على أصلهم المشترك هي اللغة والدين والأساطير ومع مرور السنين اندمجت معظم هذه الشعوب في شعبين هما: (الآراميون) سكان الأراضي المرتفعة، مثل حران وحماة والبشري ودمشق والجليل في فلسطين وشمال الحجاز. أما (العرب) فهم الذين ظلوا قبائل متجولة في البوادي، يرعون أغنامهم وإبلهم. ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن الآراميين والعرب ظلوا دائماً متحدين في وجه عدوهم المشترك.

كان العرب منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، يتجولون في بلاد الشام، ومعهم قبائل العبيرو الآرامية، ثم استقر الآراميون في سورية، وكان المصريون يطلقون على بلاد الشام اسم سورو، ويعنون بها كل المناطق التي تقع شمال خليج السويس، وعن المصريين أخذ الآشوريون اسم سورية، منذ عهد تغلات فلاصر الثاني (745- 727 ق.م). وفي المرحلة الإخمينية (الفارسية) أطلق قمبيز على منطقة سورية اسم سورستان. ولكن في المرحلة المكدونية شاع مصطلح آخر هو أسوريم Asurim، وبهذا الاسم ذكر هيرودوت (484- 425 ق.م) المنطقة الواقعة غرب نهر الفرات وشرق البحر المتوسط، وجعل عاصمتها صور[1]، أن بلاد الشام هو الاسم الذي أطلقه العرب على ديارهم، وصاروا وريثي الشعوب المنقرضة كالأكاديين والكنعانيين والآشوريين والعموريين، وكوّنوا خصائص لغتهم وديانتهم، ولم يبق لهم نظير إلا الآراميين والعبريين.

وقد أطلق المستشرقون على مجموعة اللهجات العربية والآرامية اسم اللغات السامية، وهذه التسمية التوراتية تجافي الوقائع التاريخية، ويقول الدكتور فيصل عبد الله: «إن المقابلة اللغوية بين لغات ولهجات الماضي الأكادي والآرامي والعربي، أدى إلى الانزلاق في استنتاج، لا يتطابق ومعطيات الواقع، ومن يتأمل مصطلح سامي وساميات يجد من الأفضل استخدام مصطلح شامي وشاميات، من حيث الجغرافية والبعد الحضاري»[2].

كان الآراميون أكثر نشاطاً من العرب في التجارة وفي الكتابة والتدوين، وقد أخذوا أبجديتهم الكتابية من أبجدية أوغاريت الكنعانية، وكتبوا على جلود الماعز والصخور في بلاد الشام، وعلى ورق البردي في مصر وصور وجبيل.

من الكتابات الارامية القديمة حوليات صور وما حدث لملكها اشمون عازار عند دخول الأخمينيين عام 530 ق.م إلى سورية، وسموا سكان إقليم صور (سورستان) وفصلوا سكان ما بين الفرات والخابور وسموا ديارهم بيت نهرينا Bet Nahrina وكانت عاصمتها حران.

العرب والسريان

بعد ظهور دعوة السيد المسيح، آمن بدعوته أهل بيت نهرينا، وأطلقوا على أنفسهم اسم سريان وهم الآراميون الوثنيون في حران، **فكيف كانت علاقة العرب بالسريان؟**

لم تنفصم عرى التواصل والقرابة، وظلوا متجاورين، وزادت صلاتهم الثقافية والحضارية من الرها وحران إلى نجران ومكة، وكانوا يشكلون وحدة ثقافية يربطهم لسان واحد. يقول طاهر بن المطهر المقدسي: «إنه لا فرق بين السريانية والعربية إلا في حروف يسيرة، فكأن السريانية قد سلخت من العربية، أو أن العربية قد سلخت من السريانية، الله أعلم»[3].

كيف كان السريان ينظرون إلى أنفسهم؟

كتب المؤرخ اليهودي يوسيفوس (37- 100م) إن آشور يدعون **باللهجة اليونانية** آسور. وهم الذين بنوا نينوى، ويقولون عن الكلدان والآراميين سريان Syrian وهم سكان بلاد غرب الفرات.

والسؤال المطروح: **ماذا فعل السريان بتراثهم الآرامي القديم؟**

يقول المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير (المتوفى 1198م) «لما انتشرت بشارة الإنجيل في الرُها، تلقفها السريان بلهفة، ونبذوا كافة الكتب القديمة التي وردت فيها أخبار الاراميين الأولين، وأحرقوا الكتب الوثنية بدافع الغيرة الإلهية، لئلا يتذكرهم أبناؤهم»[4].

صارت كلمة آرامي تعني الوثني، وصار العرب الوثنيون يدعون بالاحتفاف في حران وما حولها، وفي رواية يرددها السريان، أن الملك العربي أبجر معنو ملك الرها أرسل إلى السيد المسيح يدعوه للمجيء إلى الرها لحمايته من اليهود، وكان ذلك عام 37م. وانتقلت القبائل العربية من الحنفية إلى المسيحية، وعمت البشارة المسيحية

معظم ديار العرب. يقول الجاحظ في رسالته الرد على النصارى: «إن العرب كانت النصرانية كلها فاشية فيها وعليها غالبة إلا مضر، لم تعرف إلا دين العرب (الحنفية) وجاء الإسلام، وكان في العرب ملكان غساني ولخمي، وهما وقبائلهمانصارى، وكانت تهامة لقاحاً لا تدين لدولة، ولا تؤدي أتاوة ولا تدين للملوك»[5].

إذن، أصبح العرب مسيحيين وظلوا مع السريان متجاورين، وبرز من العرب قديسون كسمعان العمودي (390- 459م) كان عربياً من قبيلة طيء، ولد في قرية صيصان قرب بلدة قورش، وكان العرب من طيء وعقيل يأتون إليه ليعظهم بالعربية، لأنه كان منهم[6]. وبرز القديس يعقوب بن معن الملقب بالبرادعي (المتوفى 578م) كان من ديار ربيعة من قبيلة بني تغلب، درس في دير العرب (الفصيل) فسيلتا، وبمساعي المنذر من الحارث الغساني وبمساعدة الإمبراطورة التقية تيودورة زوجة الإمبراطور جستنيان عيَّن يعقوب البرادعي أسقفاً للعرب من الرها إلى نجران، ويقال إنه نصَّر معظم القبائل العربية، ونصَّب عليهم الف اقس بين أعوام (544- 578م) ولجهاده في الدعوة المسيحية أطلق خصوم الكنيسة الأنطاكية السريانية اسمه على السريان الأرثوذكس اسم (اليعاقبة) وبهذا الاسم عرفوا في التاريخ.

يطرح الجاحظ سؤالاً ويجيب عليه بآن واحد، **لماذا كانت عوام العرب تفضل النصارى على غيرهم؟** يقول الجاحظ: «إن عوامنا رأوا في النصرانية ملكاً قائماً، وإن فيهم عرباً كثيرة، وإن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا عندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء، ولم يرد ذلك في اليهود، فعطفت قلوبهم على النصارى ومجدوهم»[7].

ويمكنني إضافة سبب آخر لمحبة العرب للمسيحية، أن العرب كانوا من قبل مسيحيين ما عدا قبائل حمير التي كانت تدين باليهودية، وقد عانى المسيحيون الاضطهاد والذل من اليهود، ولا زال العرب يذكرون المحرقة الكبرى التي اقامها الملك ذونؤاس اليهودي الحميري لمسيحيي نجران، وهم الذين سماهم القرآن الكريم بأصحاب الأخدود، ووصف عذابهم في سورة البروج، ولأن المسيحيين لم يقفوا في وجه الدعوة المحمدية، قال تعالى: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا: إنا نصارى» (سورة المائدة: 82).

كانت الكنيسة السريانية خليطاً من العرب والسريان والأرمن والأقباط، وكانت هذه الكنيسة متميزة ومنفصلة عن كنيسة الدولة البيزنطية.

الكنيسة السريانية الأنطاكية

لم ينقطع التواصل بين السريان والعرب بفضل اللغة والدين، والعيش المشترك. كانت اللغة الآرامية منتشرة في الجليل، وكان السيد المسيح يتكلم بالارامية، وبها بشر ووعظ (كرز)، وفي لحظة الصلب، وفي حالة لاشعورية، صرخ السيد المسيح (إلوى.. إلوى.. لِمَ شبقتني؟!) أي (يا إلهي يا إلهي لم تركتني؟!) قالها بلغته الآرامية لغة القلمون وأهل معلولا وجبعدين وبخعة وعين التينة ويبرود وغيرها.

يقول الأب العلامة يوحنا شابو: «الآرامية من اللغات التي جرت العادة أن تدعى بالسامية، مع أن هذه التسمية لا تطابق في الحقيقة مجموعة قومية ولا تقسيماً جغرافياً، فالسامية اسم اصطلاحي نشأ في القرن الثامن عشر بتأثير الفصل العاشر من سفر التكوين الذي يشير إلى العبرانيين والآراميين والعرب كولد سام»[8].

كانت الآرامية لغة القبائل المتجولة في بلاد الشام وغرب الفرات، ويمكن تقسيم لهجات اللغة الآرامية إلى لهجتين هما:

الآرامية الشرقية (آرامية بلاد ما بين النهرين)

ومن آثار الآرامية الشرقية تلمود بابل والصابئة المندائية والمانوية، وتعتبر لغة أهل الرها من اللهجات الآرامية الشرقية، وهي التي عرفت باللغة السريانية، وإن ظل من اللغة الآرامية الوثنية صفحات من كتابات الفيلسوف الرواقي مارا بن سيرافيون الرسالة التي أرسلها إلى ولده. وما عدا ذلك فالكتابات السريانية المسيحية تعادل آلاف المخطوطات موجودة في أديرة السريان وفي المكتبات الأوروبية. وهي تشمل الكتابات اليعقوبية (أصحاب الطبيعة الواحدة) والنسطورية (أصحاب الطبيعتين) والصابئة الحرانية.

الآرامية الغربية

هي اللهجة التي تكلم بها المسيح، وعندما أنكر بطرس الرسول أنه من تلاميذ يسوع المسيح، أجيب «إنك جليلي ولهجتك تنم عليك». وكانت هذه اللهجة منتشرة في فلسطين، ومن ذلك لغة الترجوم (التأويل) والتعليم التي كتب بها التلمود الأورشليمي وشروحات الكتاب المقدس العهد القديم والتي تدعى (مدراشيم) جمع مدراس أي مبحث (مكان البحث والدراسة). وكانت غايتها تفسير الشريعة لعوام اليهود باللغة الارامية. وهناك توراة السامريين (اسفار موسى الخمسة) المكتوبة باللغة الآرامية، ومن اللهجة الآرامية الغربية النصوص التدمرية، وأقدم المخطوطات التدمرية تعود إلى السنة التاسعة قبل المسيح، وكانت معظم الكتابات التدمرية مكتوبة باللغتين الآرامية واليونانية وأطول هذه النصوص تعرفة المكوس (الجمارك) وتشمل حوالي 175 سطراً

حفرت على الصخر، والكتابات النبطية هي بالارامية الغربية رغم أن أهل البتراء وتدمر هم من العرب الخلص، فالآرامية كانت لغة التجارة، وقد احتكر الأنباط تجارة العرب مع الغرب، كما احتكر أهل تدمر تجارة الخليج العربي مع فارس. وقد كتبت نصورة التجارة في حوران عام 328م بالعربية ولكن بالحروف النبطية.

انتقلت البشارة المسيحية كالنار في الهشيم في وسط ثقافي هلنيستي، وقد دعي أتباع المسيح في أنطاكية سنة 43 بالمسيحيين، ودعي سكان عزب الفرات الآراميين بالسريان. أما في الجزيرة العربية، فقد عرف المسيحيون بالنصارى، وهناك خلاف بين المسيحية والنصرانية.

النصارى هم أتباع يوحنا المعمدان، وهم يرون أن السيد المسيح كلمة الله الحية، جسدها الروم القدس في مريم العذراء، من غير دنس، وتم ذلك بسر إلهي، وولدت مريم البتول المسيح من دون عيب، والمسيح رسول الله وعبده، لم يصلب وإنما ارتفع إلى السماء دون صلب.

أما المسيحيون فلهم رأي آخر: إن المسيح كلمة الله الحية، وهو ابن الله، حملته مريم بمعجزة إلهية، وولد وعانى وبشر بدعوته وقبض عليه وصلب ومات حقاً، ودفن وقام من الموت بعد ثلاثة أيام، وعاينه تلاميذه وتكلم معهم، ثم ارتفع إلى السماء وكان صلبه ودمه فداء للناس في الخطيئة، فهو الفادي.

ومنذ أواخر القرن الأول، كتب جالينوس البرغاموني (130- 200م) في كتابه تفسير كتاب أفلاطون في السياسة: «هناك طائفة في مصر يدعون بالمسيحيين، أخذوا إيمانهم بالرموز والمعجزات، وقد يظهر منهم أفعال المتفلسفين وذلك بعفاف رهبانهم وابتعادهم عن الجماع والزواج، وإن منهم نساء راهبات ممتنعات عن الزواج، ومنهم قوم بلغ ضبطهم لأنفسهم في الزهد والتدبير في المطعم والمشرب وشدة حرصهم على فضيلة الاعتدال أن صاروا غير مقصرين عن الذين يتفلسفون بالحقيقة»[9].

في العهد القديم خلاص الإنسان باتباع الشريعة، أما في العهد الجديد فخلاص الإنسان في الإيمان بالسيد المسيح لأنه هو الطريق للحياة الأبدية. يقول الباحث الألماني إرنست كاسمن: «إن مسيح الإيمان القديم (المسيا المنتظر) يتميز عن مسيح العهد الجديد، الذي دونت أخباره في الأناجيل الأربعة، الذي ولد في بيت لحم ووعظ فوق الجبل وأحيى الموتى، وشفى الأبرص، ومشى على الماء، وحول الماء بمعجزة إلى خمر، ثم قبض عليه وحكم عليه بالموت من قبل مجلس اليهود وصلب ودفن وقام من أجلنا، وأكل وشرب مع رسله»[10].

انتشرت الدعوة المسيحية في سورية وأوربا ومصر والهند من أنطاكية من بشارة الرسل بطرس وبرنابا وبولس رسول الأمم، وتوما الرسول، وقدمت أنطاكية أول شهيد أغناطيوس النوراني الذي استشهد في روما عام 110م.

أما اللاهوت المسيحي انطلق من مدينة الرُّها، ظهر فيها الفيلسوف المسيحي تيتيانوس (110- 180م) ولد في منطقة حدياب الآرامية (قرب أربيل) وكان والداه وثنيين، ولكن ابنهما آمن بالمسيح وجاء إلى الرُّها، وجمع الأناجيل الأربعة، وصنع منها إنجيلاً مختلطاً سماه (الدياطسرون) أي الإنجيل الرباعي سنة 150م ثم حمل إنجيله إلى روما، ولسهولة قراءته بين أبناء الأمم كتبه باليونانية ثم انتقل إلى أثينا (152- 153) ودرس خلالها الفلسفة اليونانية خصوصاً فلسفة أفلاطون وفيثاغورس، وألف كتاباً ضد الإغريق الوثنيين سماه (ستروماتيس) أي التقارير ذكر فيه أن لغته الأصلية هي اللغة السريانية[11].

كان تيتيانس الرهاوي ينكر خلاص الإنسان بدم الفادي، وأن الخلاص لا يتم إلا عن طريق العقل والإيمان بالشريعة، وأنكر الثالوث المقدس وقيامة السيد المسيح، وارتفاعه إلى السماء، وحرم أكل اللحم بل كل ذي نفس حي، وشرب الخمر والزواج، ومات في الرها عام 172م.

كانت تعاليم تيتيانوس هي التمهيد لفكر ماني (المتوفى 276م) وصار الإنجيل المختلط يقرأ في كل الكنائس المشرقية، وقد كشفت نصوص منه في مدينة دورا أوروبوس باللغة السريانية من ترجمة فالوط الرهاوي عام 200م. وهذه النسخة ترجمها عبد الله الطيب البغدادي (المتوفى 1048م).

لقد أثارت كتابات تيتيانوس صراعاً فكرياً حول طبيعة السيد المسيح، واختلفت الكنائس، **هل يسوع هو ابن الإنسان؟ وهل هو عبد الله ورسوله؟ وهل هو دون الأب مرتبة في الزمان والوجود؟ أخذ بهذا الرأي أسقف الإسكندرية أريوس القيرواني (270- 339م)** الذي قال في عظته بعيد الفصح عام 321 «إن في الله أقنوماً واحداً هو الأب الذي أعطى لبني إسرائيل الناموس، وعندما حل الروح القدس في يسوع المسيح أثناء المعمودية في نهر الأردن عام 36م، صار يسوع ابن الله، وهو القائل (أبي أعظم مني) يوحنا 14: 28.

كتب أريوس كتاباً أنكر فيه الثالوث المقدس، وضمن كتابه مقاطع شعرية مقلداً الشاعر الرهاوي برديصان (154- 222م) قال في مقدمة كتابه: «إن الأب وحده هو الله، والابن مخلوق ومصنوع، وقد كان الأب يوم لم يكن الابن قد ولد».

ذاعت أقواله ونالت رواجاً في سورية ومصر وليبيا، وكذلك لاقت معارضة. قال سعيد بن البطريق: «صار أهل مصر والإسكندرية أريوسيين، فوثبوا على أثناسيوس بطريرك الإسكندرية، ليقتلوه فهرب، وحل محله أراقليوس أسقفاً وكان أريوسياً»[12].

لكن القديس أثناسيوس (295- 373م) لم يستسلم لحملة آريوس فعقد مجمعاً عام 321م، حضره مائة اسقف من مصر وليبية، وحكم المجتمعون بتجريد آريوس من رتبته الأسقفية، وحرم كل من يناصره، ونفي إلى خارج الإسكندرية. حدثت اضطرابات في سورية ومصر بين مؤيد لآريوس ورافض له. مما اضطر الإمبراطور قسطنطين الكبير (274- 337م) إلى إصدار أمر بانعقاد مجمع مسكوني سنة 325م، في مدينة نيقية، وحضره حوالي 318 أسقفاً من كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية ومن جزيرة العرب وفارس، وانقسم المجتمعون وجرى نقاش حاد حول طبيعة المسيح، ثم اتفقوا على الصيغة التالية: «نؤمن بإله واحد، الأب والابن والروح القدس، جوهر واحد، متساوين في القدرة والمجد». هنا انتصرت المسيحية على رؤية آريوس النصرانية.

لكن أنصار النصرانية هرب قسم منهم إلى جزيرة العرب وإلى بصرى الشام، وبابل، وقام أنوميوس الأنطاكي (المتوفى 385م) وطالب بعودة آريوس، وصار أتباعه يرددون في كاتدرائية الإسكندرية **«إن الله لم يزل وحده، إنه لم يلد ولم يولد، وإنه خالق الابن، خلقه روحاً لطيفاً، ثم أرسله إلى العالم، وأخذ من العذراء جسداً، بلا اتصال بشري، بل من روح القدس»**[13].

لم يهدأ الصراع، ولكن الأريوسية في النهاية اختفت. يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «هكذا نجد صراعاً قوياً بين التوحيد وألوهية المسيح تطالب الجماعة الأولى بالكثرة وقوة الإيمان وسعية الحيلة، والثانية تطالب بقوة السلطان وببقايا التثليث الوثني الذي كانوا متأثرين به. وهكذا اختفى المذهب الحق في لجة التاريخ، ولم يبق على السطح إلا ألوهية المسيح»[14].

وفي سورية كوّن القديس باسيليوس الكبير جمعية الثالوث المقدس عام 381م، ودعا إلى الاعتراف بأن ربنا يسوع هو إله كامل، مؤلف من نفس ناطقة وجسد ولد بألوهية من الأب قبل خلق هذا العالم، وهو بجسده ولد بآخر الزمان من مريم العذراء، لأجل خلاصنا، وتابعه نسطوريوس بطريرك القسطنطينية (418- 431) وخطب في عيد الميلاد عام 428، وقال: **«إن المسيح جوهران واقنومان، إله تام بأقنومه وجوهره، وإنسان تام بأقنومه وجوهره، وإن مريم البتول أم ناسوته لا لاهوته، والعذراء ليست أم الله»**[15].

سمع كيرلس الإسكندري (412- 333م) بمقولة نسطوريوس فأرسل إلى الكرسي الإنطاكي رسالة جاء فيها: **«إن للمسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحد، وإن المسيح كان قبل التجسد مكوّن من طبيعتين، وبعد التجسد صار من طبيعة إهلية واحدة»**. **فرد عليه نسطور بقوله: «إن كلمة الله كان قبل الدهور، إلا أن مريم العذراء ليست هي والدة اللاهوت، بل هي والدة الناسوت، إن في المسيح طبيعتان»**.

كثر اللغط والاضطرابات في زمن الإمبراطور مرقيان، الذي أمر بعقد مجمع مسكوني في أفسس عام 431م، وحرم نسطورس ومن يقول بقوله ونفي إلى مصر، وتوفي عام 450م.

ظلت الخلافات قائمة وعلى أثر وفاة نسطورس أراد أهل القسطنطينية رفع الحرم عن نسطور فعقد الإمبراطور مرقيان مجمعاً في خلقيدونية عام 451م، وقرر المجتمعون: **«أن يسوع المسيح هو جوهر كامل في اللاهوت وجوهر كامل في الناسوت، وأنه إله حق وإنسان حق، ذو نفس ناطقة وجسد مساوٍ لأبيه بحسب اللاهوت ومساو لنا ما عدا الخطيئة، مولود من الأب قبل الدهور ومولود في الزمان من العذراء أم الله من حيث الناسوت، وهو مسيح واحد وابن وحيد من طبيعتين، دون اختلاط ولا تغير، وهذا هو دستورنا، ومن خالفه يعزل من منصبه إن كان راهباً، ويكون محروماً إن كان عالماً»**[16].

(1)الكنيسة السريانية الأرثوذكسية

تعتبر الكنيسة هي المرجعية الدينية والثقافية لأتباعها، وهي تعمل بمعزل عن سياسة الدولة، ولكن بعد أن أصبحت الدولة الرومانية تعتنق الديانة المسيحية منذ عام 325م، تعددت وظائف الكنيسة وازدادت مهماتها، وأصبحت إحدى مؤسسات المجتمع المدني، وصارت تتحكم بتوجيه أتباعها، وصارت حقلاً للتنافس والصراع وميداناً لعمل القوى الاجتماعية ذات المصالح والمواقف المتباينة والمستقلة عن عمل الدولة.

ومنذ عام 451م، عندما تبنت الدولة مقررات المجتمع الخلقيدوني، انفصلت الكنيسة السريانية الأنطاكية (أصحاب الطبيعة الواحدة) عن الدولة وأصبحت معادية في نظرها، للدولة البيزنطية. وصار أول بطريرك مستقل هو **سويريوس الأنطاكي** (512- 538) وصارت علاقاتها بين مد وجزر مع الدولة.

في عام 512 أمر الإمبراطور أنسطاس بعقد مؤتمر في مدينة صيدا وتم عقد مؤتمر في 26 تشرين الثاني وترأسه مار سويريوس وأحرقوا بالنار التعاليم التي وضعها **البابا طومس لاون** وقرر المجتمعون: «إن الجسد بموت النفس لا يمكن أن

تموت لذلك لا يجوز القول: إن المسيح تألم وهو على الصليب. فرد عليه اسقف أفاميا أبيفانوس: إذن من هو القائل: إلهي إلهي لم تركتني؟ ومن كان بتضرع لتعبر عنه الكأس؟ فقال سويريوس: إن أبيفانوس الأثيم هو ذئب افاميا لا راعيها، وإنه كان جالساً على كرسي الأبرشية خلافاً لإرادة الملك أنسطاسيوس، لقد أفسد الأسفار المقدسة». وكان أبيفانيوس من أساقفة دير مارون الذين قد أبوا التصريح بأن الله قد صلب، واكتفوا بالقول: «يا من صلبت من أجلنا».

من هنا بدأ العداء بين الموارنة وأصحاب الطبيعة الواحدة، وجرت مجزرة عام 517، قتل فيها 350 راهباً من الموارنة. وسوف أتحدث عن هذه الواقعة في تاريخ الموارنة.

صار أتباع الكنيسة السريانية يردون على مخالفيهم «إنكم لم تصلبوا الله بل الإنسان المحض، لأن الله لا يصلب، لكن الذي صلب هو الإنسان يسوع».

كانت هذه العبارة الأخيرة «الإنسان الذي صلب هو يسوع المسيح» وقد كانت تنسب للنساطرة، ولكن ضرورة الجدال والنقاش جعلت أصحاب الطبيعة الواحدة لا يتورعون عن استخدامها.

سأل البابا توماس لاون طيمثاوس الإسكندري عن مضمون مؤتمر صيدا فأجابه بعبارات غامضة، قال: «إن قانون الإيمان النيقاوي ينقض مذهب نسطوريوس ورسالة لاون معاً، لأن ابن الله الوحيد المساوي للأب بالطبع والجوهر نزل من السماء، وتجسد وتألم، ومات وقام، وصعد إلى السماء، وسيأتي يوم الدينونة ليدين الأحياء والأموات»[17].

كان البطريرك سويريوس الأنطاكي فيلسوفاً ولاهوتياً عظيماً، ويحاول مؤرخو الكنيسة السريانية ربطها باسمه، بينما يحاول أعداء الكنيسة ربطها باسم القديس المجاهد مار يعقوب البرادعي (المتوفى 578م) أسقف العرب الغساسنة والمناذرة معاً.

بعد وفاة مطران الرُّها أداي، طلب الحارث بن جبلة الغساني ملك العرب تعيين مار يعقوب أسقفاً لديار العرب وتم الأمر، يقول القس بطّرس نصري الكلداني: «لقد أغوى مار يعقوب بضلاله كثيراً من بلاد الجزيرة وأرمينية ومصر، وتبعتهم في هذا الإلحاد الحبشة»[18].

صارت الكنيسة اليعقوبية هي الكنيسة الأعظم في الشرق. جاء في كتاب مدح اليعاقبة وإيمان السريان: «إن مار يعقوب البرادعي سار إيمانه في الدنيا كلها ودخل هو إلى بلاد المشرق، وكرز (بشر ووعظ)، وعين قسوساً وشمامسة كثيرين ومضى إلى بلاد الشام، وكرس لهم مطارنة على السواحل كلها، وكان المطران يسمى (ديوسقورس)

ودخل بلاد القبط، وعين بطريركاً للإسكندرية، وآخر لأنطاكية، ودخل بلاد النوبة وإلى بلاد الحبشة، وعين عشرين أسقفاً ومطراناً وبطركين، ومات في برية الأسقيط عام 578م، وظل أسقفاً للرها سبعة وثلاثين عاماً، ويتفاخر السريان أنه أبو ملتهم»[19].

صارت الكنيسة اليعقوبية كنيسة سورية وأرمينية ومصر والحبشة.

الكنيسة السريانية والحكم العربي

فتح العرب جنوب فلسطين عام 634م، بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وتراجع الجيش الروماني (البيزنطي) الذي كان بقيادة النبيل سرجيوس، ولكن البيزنطيين صاروا يستعدون للقتال ثانية، وجاء **الإمبراطور هرقل** (610- 641م) إلى الرها وأراد الاحتفال أن يكون في الكنيسة الكبرى، ولكن مطران المدينة أشعيا الأسقف اليعقوبي منعه، لأنه من أتباع المذهب الخلقيدوني، فغضب الإمبراطور واستدعى وجهاء الرها ومنهم عائلة الرصافي والتلمحري وقوسما بن العربي، وحاولوا إصلاح الأمر، فلم يفلحوا، وأصدر الإمبراطور منشوراً إلى سائر أنحاء المملكة، أن يستولوا على كنائس اليعاقبة، ومن لا يسلِّم بالمجمع الخلقيدوني يجدع أنفه، وتصلم أذناه، ويبتز ماله»[20]. ونال أتباع الكنيسة السريانية العذاب والاضطهاد.

وعندما توجهت الجيوش باتجاه اليرموك، وكانوا ثلاثة ألوية بقيادة ثيودور الصقلي، والثاني بقيادة ماهان الأرمني، والثالث بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني، وصل ثيودور إلى قرية جوسية (غرب حمص) مر بناسك عمودي خلقيدوني. قال الناسك لثيودور: عدني بأنك ستمحق أتباع سويريوس وأنا أضمن لك النصرمن الله، فأجابه: وأنا من دون قولك مصمم على اضطهاد اليعاقبة!

تقدمت الجيوش الثلاثة للقتال، وقبل الالتحام في المعركة انسحب اللواءان العربي والرمني، لأنهما كانا من أتباع الكنيسة اليعقوبية، وتقدم الجيش الأول بقيادة ثيودور أخي الإمبراطور هرقل، وانهزم الجيش البيزنطي، وكتب **مار ديونيسيوس التلمحري** (المتوفى 845م): «ولكن الله، إله الانتقام، الذي هو وحده المتسلط على الكل، يغير ملك البشر، قاد أبناء إسماعيل (العرب) من الجنوب إلينا محررين لنا، فكان الروم يقطعون كالجذور المرذولة في الحقل، ويداسون بأقدام العرب»[21].

أدرك المؤرخون العرب أهمية العون الذي قدمه السريان لأبناء عمومتهم العرب، كتب الأستاذ **مصطفى صادق الرافعي**: «وهكذا جاءت النصرانية، في أصالتها تعانق الإسلام وتعزه، إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح، كالأخ من أخيه غير أن نسب الأخوة والدم ونسب الأديان والعقل، ثم أتم القدر رمزه في هذه القصة، بقطف العنب

سائغاً، عذباً مملوءاً حلاوة، فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامي الذي امتلأ حباً، كل حبة فيه قطر من الأقطار»[22].

لقي السريان الرعاية والعطف، بعد أن تخلصوا من الحكم البيزنطي، وصار السريان هم كتبة الدواوين ومعلمي أبناء الأمراء والخلفاء. جاء في كتاب السعردي عن حكم العرب «طالبوا أهل الذمة بالجزية فأدوها، وأحسنوا إليهم، وتعززت الأمور بفضل الله تعالى، وطابت قلوب النصارى في مملكتهم ثبتها الله ونصرها»[23].

كانت الجزية المفروضة على النصارى أقل مما يصرف لحراسة أموالهم وحقوقهم، وبدأ العرب المسلمون يتشوقون لمعرفة مضمون الإنجيل، وطلب الوالي المسلم عمير بن سعد الأنصاري، المقيم في حران، من البطريرك يوحنا أبو السدرات في الرقة أن يترجم له الإنجيل، وترجمه شباب من عقيل وطيء وتنوخ دون تحريف أو تبديل. ولكن الوالي العربي طلب تبديل بعض العبارات كوصفهم المسيح بأنه ابن الله، فلو يوافقوا وكانت هذه أول ترجمة عربية تمت سنة 643م.

بدأت الكنيسة السريانية تعظ باللغة العربية إلى جانب وعظها باللغة السريانية. يقول البطريرك مار افرام الأول برصوم (1887- 1957): «كانت اللغة السريانية، لسان أهل العراق وجزيرة ما بين النهرين وبلاد الشام، وتغلغلت حتى قلب بلاد فارس، بل وانتشرت بين الأمم المختلفة المجاورة للسريان، وظلت دهوراً متطاولة، اللغة الرسمية للدول التي ملكت بلاد الشرق الأدنى، وامتدت إلى مصر وآسيا الصغرى وشمالي بلاد العرب، وكان موطن اللغة السريانية الفصحى مدينة الرُّها وحران وحمص وأفامية (حماه) وما والاها من بلاد الشام، واستفرغ علماء السريان ما في وسعهم في نقل الكتب الفلسفية والعلمية إلى السريانية، ومنها إلى العربية، فعلموا العرب، ودار الزمان دورته فعادت الفلسفة اليونانية من الشرق إلى أوروبا بواسطة الكتب العلمية التي بدأ أثرها في العصور الوسطى عن طريق الأندلس»[24].

حياة السريان المعاشية

بعد أن فتح العرب سورية، تركوا لأهلها الحرية بإدارة أموالهم وكنائسهم ومدنهم وأن لا يسكن أحد معهم في دورهم ومساكنهم، إن دفعوا الجزية وهي دينار على كل رجل راشد[25] والنصيحة للمسلمين. وفي بلاد الشام والجزيرة يدفع السريان مدين من الحنطة وثلاثة أقساط من الزيت، كما كانوا يدفعون من قبل للرومان. وسمح للكنيسة بإدارة أملاكها، والحكم بين أتباعها. وحسب رواية الرهاوي المجهول، أن الخليفة أمر أن يبقى أهل المدن المفتوحة إذا شاؤوا أن يواصلوا حياتهم حسب قوانينهم الكنسية وتقاليدهم قبل الفتح، شريطة أن يدفعوا الضريبة المفروضة عليهم[26].

وكانت الدولة العربية استولت على أرض الصوافي، (هي الأرض التي هرب أهلها وتركوها)، وجعلت ملكيتها للخليفة، يتصرف بها عن طريق الهبة أو الإقطاع، وأرض الخراج وهي الأرض المفتوحة عنوة، تزرع مقابل الخراج بصرف النظر عن دين المالك، أما الأرض الموات اعتبرت ملك خالص لمن يصلحها، وكان أهل القرى يتوزعون الأراضي الزراعية فيما بينهم حسب إمكانياتهم الإنتاجية وقدرتهم على الزراعة، ودفعهم للضريبة[27].

كان السريان الذين يعيشون في المدن يمارسون التجارة والصنعة، وممارسة المهن العلمية كالطب والترجمة، ولهم تنظيماتهم الخاصة بهم، ولا تتدخل الدولة في أمورهم، وكانوا يفضون خلافاتهم طبقاً لأعرافهم وتقاليدهم المهنية، وكان لكل حرفة شيخ صنعة قد يكون مسلماً أو مسيحياً.

هكذا عاش السريان يدبر الآباء والأساقفة أمورهم دون تدخل من الدولة العربية، ولكن كانت تحدث بينهم خلافات على أمور الرئاسة، فكانت الدولة تتدخل بينهم وتساعدهم على حل قضاياهم.

انقسام الكنيسة الأرثوذكسية السريانية

منذ الحروب الصليبية، بدأت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، شق صفوف الكنيسة الأرثوذكسية السريانية فلم تفلح في البداية، ولكنها استمرت في محاولاتها خصوصاً بعد سقوط بغداد بيد المغول سنة 1258م، وعندما استولى العثمانيون على بلاد الشام 1516م، أعاد البابا يوليوس الثالث (1550- 1557م) الكرة وأرسل بعض المبشرين، إلى منطقة طور عبدين، واستطاع أن يجذب إليه البطريرك أغناطيوس عبد الله بن اسطيفان (1520- 1557م). وكان أول رجل من الأكليروس الأرثوذكسي يعلن إيمانه الكاثوليكي، أرسل القس موسى المارديني إلى روما يحمل صورة إيمانه القويم سنة 1555م، وكتب بحثاً في الثالوث المقدس. والسريان الأرثوذكس يعتبرونه بطريركاً دخيلاً.

وأول بطريرك استلم الكرسي بعد البطريرك الدخيل هو أغناطيوس نعمة الله المارديني (1557- 1590) ولكن والي ديار بكر ضايقه، فهرب إلى روما سنة 1575، وكان عالماً بالرياضيات والفلك فأصلح مع البابا غريغوريوس الثالث عشر (1575- 1585م) التقويم الفلكي، واستبدله بالحساب الغربي الغريغوري في 15 تشرين الأول 1582، ومكث البطريرك أغناطيوس نعمة الله في روما حتى وفاته عام 1590م.

تأسس الكرسي الرسولي الكاثوليكي في مدينة آمد من البطريرك باسيليوس جبر بن الشماس عبد الأحد (1704- 1721) وهو أول من ترجم في حلب كتاب القديس

توما الإكويني (الخلاصة اللاهوتية) إلى اللغة السريانية. وعين بدلاً عنه نائباً وانصرف إلى التأليف والترجمة في روما حتى وفاته في 18 أيار 1721م.

وهكذا صار للسريان كرسيان أحدهما أرثوذكسي والآخر كاثوليكي، والسريان الكاثوليك هم أقلية بالنسبة للسريان الأرثوذكس، ومقر البطريركية في باب توما في حي الزيتون.

ماذا أحدث الانقسام بالنسبة للطائفة؟ طبعاً الانقسام أضعف الطائفة من الناحية الاجتماعية والسياسية ولكنه خدمها من الناحية الثقافية، فكل طائفة تحاول ترجمة وتأليف وتحقيق ونشر الكتب السريانية الكثيرة حتى عام 1950م.

الخوري الياس شيلازي (1943- 1950م)

ولد في ماردين سنة 1887، ودرس في دير الزعفران وصار شماساً وتزوج عام 1911، ثم جاء إلى حلب عام 1925م، وطلب من البطريرك الياس أن يرعى الكنيسة التي بناها سليم عازار، ورعاها من (1943- 1950) حتى وفاته في حلب.

المطران ديونيسيوس جرجس قس بهنام (1950- 1992)

ولد جرجس بهنام في مدينة ماردين عام 1912، وعاش يتيماً لوالدته التي كانت تخيط الثياب لتعيله، ودرس في بلدة ماردين، ثم رسم قارئاً عام 1925م، في دير الزعفران، ثم توجه إلى حلب عام 1935، وانتقل منها إلى حمص، والتقى بالبطريرك أفرام برصوم الأول، ولبس الثوب الرهباني وتابع دراساته حتى عام 1939. ثم رسمه مار أفرام شماساً إنجيلياً وأرسله إلى المدرسة الأكليركية في زحلة، وعين في كنيسة مار جرجس بدمشق (1945- 1950) وخدم خلالها سكرتيراً لقداسة البطريرك أفرام في حمص في كنيسة العذراء (أم الزنار) وعين أول مطران للسريان الأرثوذكي في حلب في 17 كانون الأول عام 1950.

كان المطران جرجس بهنام مثالاً للراعي الصالح في شخصه، اشرف على التعليم في مدرستي بني تغلب، وكان يحبه المسيحيون العرب والسريان ويحبه المسلمون لحسن سلوكه وخلقه، وكان صديقاً لي، أزوره في حلب وأستعير منه الكتب، وفي عام 1979 استقال من منصبه وعاش في دار البطريركية بدمشق وكان البطريرك زكا عيواص يجله ويحترمه، وفاضت روحه الطاهرة في 21 آذار 1992 ودفن في دمشق.

ومن الطائفة السريانية الأرثوذكسية ظهر علماء في العصر الحديث أمثال:

-**قداسة البطريرك أغناطيوس أفرام الأول برصوم (1887- 1957)**، وهو علامة المشرق السرياني بلا منازع له مؤلفات في التاريخ والترجمة والأدب ومن اشهر كتبه اللؤلؤ المنثور كتاب أرخ فيه لكافة علماء السريان الأرثوذكس.

-**قداسة البطريرك أغناطيوس يعقوب توما (1957- 1979)** وهو مؤرخ كبير له كتاب عظيم الفائدة عن تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية في جزأين.

-**قداسة البطريرك زكا الأول عيواص** (تربع على الكرسي الرسولي منذ عام 1979) وهو باحث في التاريخ والفلسفة واللاهوت المسيحي ومترجم ومحقق للتراث السرياني، وقام ببناء دير معرة صيدنايا، وهو صرح حضاري عظيم.

-**المطران المرحوم بولس بهنام** كان مترجماً لكتابات ابن العبري وله تآليف في الفلسفة والأدب من مؤلفاته عن الفيلسوف الإلهي موسى بن كيفا وهو رسالة لنيل الدكتوراه في اللاهوت.

والكنيسة السريانية في سورية ذات نزعة وطنية وذات نزعة عربية واضحة، خصوصاً بعد هجرتهم من تركيا من ديار بكر ومن ولاية أورفا (الرها) عام 1924، وأسسوا في حلب مدرستين الأول في زقاق الأربعين عام 1934 باسم مدرسة بني تغلب وقد انتقلت إلى السليمانية عام 1957، والثانية في حي السريان باسم مدرسة بني تغلب الثانية.

معظم السريان الأرثوذكس من مهاجري الجزيرة، وفي عام 1919 ضمت حلب إلى مطرانية سورية وعين عليها **مار سويريوس أفرام برصوم**، فرعاها حتى عام 1926، فاستقال وعين بدلاً عنه **مار اقليمس يوحنا عبجي مطران دير مار متى** (الموصل) 1926- 1928، ثم عين بعده **مار أثناسيوس توما مطران الموصل** 1929- 1933 ثم تلاه كنائب بطركي مار غريغوريوس جبرائيل انطو (1937- 1943) ثم شغرت الأبرشية.

الخوري برصوم أيوب (1968- 1998)

ولد في الموصل في 2 شباط 1932، وانتسب إلى أكليركية مار أفرام في الموصل عام 1948، وتخرج منها عام 1953، وخدم شماساً في الدرباسية، واستدعاه المطران جرجس بهنام إلى حلب لإدارة مدرسة بني تغلب عام 1955، ورسمه كاهناً في 5 كانون الثاني 1958، وبعد عشرة أعوام من الخدمة رقاه المطران جرجس بهتام إلى رتبة خورأسقف في 24 تشرين ثاني 1968، وعينه نائباً عنه في الأبرشية، وكان يتولى الشؤون الثقافية، وكان يدرس في جامعة حلب اللغة السريانية، وله عدة كتب ثقافية

وأدبية من أهمها: كتاب الأصول السريانية في أسماء القرى والمدن السورية. ثم توفي بعد مرض عضال في 2 آذار 1998م. وكان رحمة الله عليه صديقاً ودوداً، عرفته عن كثب (المؤلف).

المطران غريغوريوس يوحنا إبراهيم

ولد في القامشلي عام 1948، من اسرة سريانية عريقة هاجرت من الرها. درس المراحل الثلاث الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارس القامشلي، ثم انتسب إلى كلية مار أفرام اللاهوتية في زحلة، وتخرج منها بعد أن حاز على دبلوم في اللغات واللاهوت (العربية والسريانية واللاتينية). ثم ذهب إلى روما ودرس اللاهوت وحاز على ليسانس في العلوم الشرقية، وبكالوريوس في الحقوق عام 1976، وسيم كاهناً في دمشق في 15 شباط 1976م، بوضع يد مار يعقوب الثالث (1957- 1979) وعمل مع المطران جرجس بهنام في حلب، ثم اسندت إليه إدارة أكليركية مار أفرام في العطشانة في بيروت. وعندما تقاعد المطران جرجس بهنام، تمت سيامة الكاهن يوحنا إبراهيم مطراناً لحلب في 4 آذار 1979، وكان راعياً نشطاً ومديراً حكيماً، وكان يهتم بالتعليم وبالعمران معاً، عزز أوقاف الكنيسة، وبنى جناحين جديدين في المطرانية. وله نشاط ثقافي مرموق في مدينة حلب، بين أبناء الطوائف المسيحية والإسلامية، يؤمن بحوار الثقافات والأديان. أوفد إلى إنكلترا للحصول على الدكتوراه في تاريخ الكنيسة العربية.

وعندما عاد، أسس في حلب دار الرها، ودار ماردين للنشر، وأصدر من خلالهما عدة كتب من تأليفه، منها كتاب المراكز الثقافية السريانية، وكتاب السريان، وحرب الأيقونات، ومجلد السريان، وكتاب الموسيقى السريانية، وكتاب سيرة المطران جرجس قس بنهام تحت عنوان رجل الله أصدره عام 1997م، وكتاباً آخر عن حياة المطران دولباني ناسك ماردين، وسلسلة كتب بعنوان (الله معنا) وسلسلة كتب التعليم المسيحي. وهو لا يزال يعمل بنشاط وجد على رأس الكنيسة (مطرانية حلب). وهو صديق، نشرت في دار الرُّها كتابي عن دور السريان في الثقافة العربية.

الخوري جوزيف شابو

من اسرة سريانية عريقة هاجرت من ماردين إلى حلب، وهو من مواليد حلب 1951، وارتسم كاهناً بعد حصوله على الثانوية العامة، ودراسته اللاهوت في أكليركية مار أفرام في العطشانة في بيروت، وارتسم كاهناً في عام 1974، وهو رجل من الكهنة

النشيطين في الحقل الديني والاجتماعي، ويشرف على دار ماردين للتأليف والنشر، وقد أصدر عدة كتب ثقافية تعتني بتاريخ السريان، وله مساهمات اجتماعية ووطنية بين أبناء الطائفة السريانية والطوائف المسيحية الأخرى، وله صلات مع الطوائف الإسلامية. وهو صديق نشرت في دار ماردين كتابي عن دور السريان في الحضارة العربية.

ومنهم **المطران متى روهم** مطران الجزيرة، **والمطران جورج صليبا** مطران العطشانة في بيروت، والأستاذ ابراهام نورو، والرفيق سعيد إيليا (عضو القيادة القطرية 2005م) والأستاذ دنحو داوود (وزير السياحة) والأستاذ سهيل عروسي (عضو مجلس الشعب) والكاتب والباحث، والأستاذ حبيب العرب المؤرخ والدكتور إبراهيم عبد النور، والأستاذ سمير عبده.

الكنيسة السريانية الأنطاكية الكاثوليكية

نشطت الإرساليات الغربية، وصاروا يبثون معتقدهم الخلقيدوني في شأن تجسد الكلمة، وتمييز الطبيعتين الإلهية والإنسانية في المسيح.

كان **البطريرك جيورجيس الثالث** (1768- 1781) يقيم في دير الزعفران، وصارت له ميول كاثوليكية، يتداولها في السر خوفاً من رعيته، القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، وهم الذين يعرفون باليعاقبة.

البطريرك ميخائيل جروة (1774- 1810)

ولد ميخائيل في حلب عام 1721م، وقرأ العلوم اللاهوتية على المفريان باسيليوس الحلبي مطران الهند. كان ميخائيل مطبوعاً على الورع والتقوى، ورسم قسيساً في 4 تموز 1757م، وعينه البطريرك جيورجيس الثالث مطراناً لحلب في 23 شباط 1766، ودبر الرعية بالإحسان والتعاون، ونقل إلى دير الزعفران (ماردين) في 22 كانون الثاني سنة 1782، وأظهر ميوله الكاثوليكية، فتصدى له مطران الموصل متى بن يشوع المارديني المعروف بابن الثعلب، وقد شكاه إلى محمد باشا الجليلي حاكم الموصل بحجة أنه يريد إخراج أبناء الطائفة في بعشيقا وبرطلة من الدين القويم إلى شرور البراغش (الكاثوليك) لكي يكونوا فرنجة.

ورسمه البطريرك جيورجيس الثالث بطريركاً بدلاً منه، ولكن مطران الموصل متى الذي نصب نفسه بطريركاً (1790- 1817) واعتبر ميخائيل دخيلاً، وهدده بالقتل إن لم يتنازل عن منصبه، فهرب البطريرك ميخائيل إلى حلب، ولكن المطران متى الماردينى

رشا بعض قطاع الطرق الأكراد لكي يقتلوه، وعلم البطريرك ميخائيل بالمؤامرة واستطاع الوصول إلى دير الشرفة بلبنان سالماً. وأعلن نفسه أنه بطريرك السريان الكاثوليك، ورسمه المطران أغناطيوس جربوع مطران حلب على الروم الكاثوليك بتفويض من النائب الرسولي يوسف قدسي، وأرسل صورة إيمانه إلى الحبر الروماني بيوس السادس (1775- 1799) فجاء الرد مهنئاً. وفوض إليه مجمع انتشار الإيمان تدبير أمور السريان الكاثوليك في ما بين النهرين (الموصل وديار بكر والرها) وأنعم على أخيه جبرائيل جروة برتبة فارس في الجند البابوي، ونقل البطريرك ميخائيل الكرسي البطريركي من دير الزعفران إلى دير الشرفة في لبنان.

وتنازل البطريرك ميخائيل إلى نائبه **بهنام بن توما**، كان من أسرة سريانية عريقة في الموصل ولد عام 1788 وتلقن علومه في مدرسة الدومينيكان، ورقاه البطريرك متى بن يشوع إلى درجة المطرانية، وعين نائباً له، وعندما ذهب بهنام إلى آمد كشف عن ميوله الكاثوليكية، وفي عام 1810 تنازل البطريرك ميخائيل جروة له وعينه بطريركاً سنة 1810، وأرسل صك إيمانة إلى روما وسكن قرية شمشم الواقعة بين آمد وسعرت، في دير والدة الله المعروف بالدير المعلق، دفعه أحد الرهبان من أعلى السطح إلى الوادي وتوفي في الرابع من كانون الثاني سنة 1817م.

البطريرك بطرس جروة (1817- 1851)

ولد بطرس في حلب عام 1777م ودرس في أكليركية الشرفة، وارتسم كاهناً في 1802، ونصب مطراناً على القدس في أيلول 1810، وعلى أثر وفاة البطريرك بهنام بن توما، انتخب بطريركاً، ولكنه طلب أن ينقل الكرسي البطريركي إلى حلب بدلاً من طور عبدين، فتم النقل عام 1830م. وحسب ما ذكره الكونت فيليب طرزي في كتابه السلاسل التاريخية في تاريخ أساقفة أبرشيات السريان بيروت 1910، اعتنق في عهده تسعة أحبار سريان أرثوذكس المذهب الكاثوليكي منهم: **بطريرك عبدين غريغوريوس زيتون**، ومن المطارنة **يعقوب حلباني** (مطران دمشق) و**عيسى محفوظ** (مطران القدس) و**أنطون سمحيري** (مطران حمص) و**يوسف سمنة** (مطران حلب)، وهو الذي نظم أبرشيات السريان الكاثوليك في سورية والعراق والجزيرة.

أدخل البطريرك بطرس جروة الحساب الغريغوري في 2 حزيران 1836، ونشط السريان الكاثوليك في سورية، وأثناء قومة حلب (1850)، اعتدي عليه، ولكن الحاج قاسم، أسعفه وحماه، إلى أن تعافى، ولكنه توفي في 6 تشرين أول عام 1851م، ومن أعمال البطريرك بطرس أنه نال من الباب العالي فرمان استقلال الطائفة السريانية الكاثوليكية.

البطريرك جرجس شلحت (1874- 1891)

من عائلة سريانية كاثوليكية، ولد في حلب في 11 تشرين الأول 1818، ودرس في حلب مبادئ العربية والسريانية والفرنسية. ورسمه البطريرك بطرس جروة كاهناً في 2 شباط 1843، وأرسله إلى لبنان لدراسة اللاهوت في دير الشرفة وعاد إلى حلب، وخدم الرعية، وحافظ على الطقوس السريانية القديمة باستخدام المبخرة والرشانة القديمة في القداس، وفي عام 1859 عين نائباً للبطريرك أنطون سمحيري (1853- 1864)، ثم انتخب الكاهن جرجس شلحت مطراناً لحلب في 2 كانون الأول 1861، وذهب إلى روما وقابل البابا بيوس التاسع (1846- 1878) في 16 ىجب 1867 بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لاستشهاد القديس بطرس الرسول، وعندما عاد وجد أن البطريرك فيلبس عركوس بطريرك السريان الكاثوليك قد توفي 1869، فانتخب بدلاً عنه، وقد تأخر الاعتراف به، وقام خلالها ببناء كنيسة الدير الجديد وانتهى منه عام 1871، وعندما اعتلى الكرسي البطريركي احتفل به في حلب، ورسم أقليمس يوسف داود مطراناً لدمشق في 27 آذار 1879، وقام المطران بأعمال المجمع المعروف بسينودس الشرفة، وكانت جلسة الافتتاح في 27 تموز 1880، في مدينة دمشق. عاد البطريرك جرجس شلحت من دمشق إلى حلب وأشرف بنفسه على تدبير الرعية، وأشرف على التعليم، واشتد عليه المرض وتوفي في 8 كانون الأول سنة 1891، ودفن في حلب، ومن أعماله التي تذكر أنه جدد رهبانية مار أفرام.

المطران أقليمس يوسف داود (1879- 1890)

ولد في العمارية قرب الموصل، وتعلم في روما اللاهوت والفلسفة، والسريانية والعربية واللاتينية، وعين رئيساً لأساقفة دمشق عام 1879، وله عدة كتب من أهمها كتاب القصارى طباعة بيروت 1888، بحث في مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام (سورية الطبيعية) وأبحاث في اللغة الدارجة في أورشليم في عهد المسيح.

القس توما أيوب (1861- 1911)

ولد في أسرة سريانية عريقة في حلب عام 1861 ودرّس في مدرسة الشرفة للسريان الكاثوليك في لبنان، العربية والسريانية واللاتينية، وتضلع في البيان والمنطق، ودرس في حلب الأدب والعربية، وأسس نادي الأدب في حلب وترك عدة مؤلفات منها كتاب المنتخب في أمثال حلب، وديوان شعر، وروايات أدبية، وتوفي عام 1911.

الخوري جرجس شلحت (1867- 1928)

ولد في حلب في ساحة التنانير عام 1867ن، ودرس في مدرسة الترقي في حلب ثم تابع دراساته في عينطورة وتخرج منها 1897، وقد تضلع في العربية والسريانية والفرنسية. وكتب عدة مؤلفات في النحو والأدب والمنطق، منها كتابه النجوى طباعة بيروت 1903، وكتاب الكون والمعبد طباعة بيروت 1907، وعرَّب أمثال فنلون نثراً عن الفرنسية طباعة حلب 1910م. وانتخب عضواً مراسلاً في المجمع العربي في دمشق 1923م، وكان تدبر أمور الرعية، ويحاضر ويعلم حتى وفاته عام 1928.

القس بولس سباط (1887- 1942)

ولد باسيل بن عبد الله سباط في 11 كانون الثاني 1887م، ودرس في مدرسة السريان الكاثوليك ثم قصد لبنان للدراسة في دير الشرفة عام 1903، وتضلع في العربية والسريانية والفرنسية والعلوم اللاهوتية، ثم ارتسم كاهناً في 2 أيار 1909م، واعتنى بشؤون العمال، ثم انتقل إلى القدس عام 1923، ودرَّس اللغة العربية حوالي خمس عشرة سنة، ثم انتقل إلى القاهرة عام 1938، وهناك انكب على دراسة المخطوطات العربية، ونشرها في ثلاثة مجلدات عام 1940، ونشر من الكتب التراثية كتاب الروضة الطبية لعبيد الله بن جبرائيل آل بختيشوع النسطوري وكتاب مختصر علم النفس الإنسانية لابن العبري، وكتاب مختارات اسحق النينوي من تأليف ابن الصلت، وحكم إيليا مطران نصيبين، وكتاب المسائل في العين مع ترجمة الكتاب للفرنسية، وكتاب النوادر الطبية للطبيب النسطوري يوحنا بن ماسويه.

نال القس بولس سباط شهرة واسعة، وأصبح مراسلاً في عدة مؤسسات علمية في البلاد العربية والأوروبية، وانتخب عضواً في الجمعية الدولية لتاريخ العلوم، وكان قد انتخب في سنة 1931 عضواً في المجمع العلمي المصري، وأصبحت كتبه موسوعة في تاريخ التراث العربي المسيحي وجمع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية عن العرب المسيحيين في كتاب وطبع في مصر عام 1942 قبل وفاته في حلب بأشهر.

(2)الكنيسة المشرقية (النسطورية)

في عيد الميلاد عام 428م، خطب أحد قسوس القسطنطينية يقال له أنساسيوس، أنكر في خطبته تلقيب العذراء المباركة بوالدة الله وقال: «إنما هي أم المسيح»، وتابعه على ذلك البطريرك نسطوريوس[28]، الذي خطب في عيد الفصح المجيد عام 428م، وقال: «إن المسيح جوهران وأقنومان، إله تام بأقنومه وجوهره، وإنسان تام بأقنومه

وجوهره، وإن مريم البتول هي أم ناسوته ولاهوته، ومنه فالعذراء ليست أم الإله بل هي أم الناسوت أي أم المسيح». وكانت هذه الجملة الأخيرة سبباً في انعقاد مجمع أفسس عام 431م.

أرسل الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير إلى بطريرك الإسكندرية كيرلس، أن استأصل معي هذه الجماعة الضالة، وأجاب الإمبراطور «وأنا أرد عنك هجوم الفرس الأردياء بعون الله. وبعدها تقضي على الأرض حياتك السعيدة، وأضمن لك جنة الخلد في السماء» (تاريخ سقراط ك7 ف29).

انعقد مجمع أفسس وكان أعضاؤه حوالي 1200 أسقف تحت رئاسة بطريرك الإسكندرية. وقبل وصول الأساقفة إلى المؤتمر اتخذوا قراراً بحرمان نسطوريوس، وعند وصول يوحنا الأنطاكي اجتمع أساقفة المشرق وعزلوا كيرلس الإسكندري، ورفعوا عريضتهم إلى الإمبراطور، فصادق على الأمر، وحرم نسطوريوس، وحكموا بوجود اتحاد جوهري بين الطبيعتين في المسيح، وبأن الإله والإنسان في المسيح هما واحد، وبأن مريم والدة الإله.

هاجت كنائس المشرق وطالبوا بإعادة نسطوريوس مما اضطر الملك ثيودوسيوس عقد مجمع أفسس الثاني سنة 449م، في شهر آب، تحت رئاسة ديسقوريوس بطريرك الإسكندرية ومعه 135 أسقفاً، ،حكموا بأن المسيح ذو طبيعة واحدة، وثار الرهبان على فلافيانوس بطريرك القسطنطينية وضربوه حتى مات، انتقاماً لنسطوريوس، مما اضطر الإمبراطور مرقيانوس إلى عقد مجمع خلقيدونية عام 451م، وحضره 520 أسقفاً كلهم من أساقفة المشرق ووقفوا ضد ديسقوريوس بطريرك الإسكندرية وحكموا بأن في المسيح طبيعتين غير ممتزجتين وغير منفصلتين وأن المسيح هو واحد وليس من طبيعتين، وأن القوانين التي اجتمع رأيهم عليها تخصيص اسقف القسطنطينية بخصائص ومزايا أسقف رومية.

ثار أصحاب الطبيعة الواحدة وقالوا: إن هذا الرأي هو انتصار لنسطوريوس، الذي يؤدي قوله إلى أن المسيح له المجد، ليس بإله صحيح ولا إنسان صحيح والصواب هو أن اتحاد اللاهوت والناسوت في جسد المسيح بلا تبلبل ولا تحلل.

ورد أساقفة النساطرة: إن هناك خلطة افتراق بين الطبيعتين الهيولانية واللاهوتية كخلطة الماء بالزيت، وهذه خلطة الفرقة والانقطاع.

وردت الكنيسة الملكية: بل هناك خلطة الحق، وهي الخلق بلا اختلاط ولا تحول وفساد، ولا فرقة ولا انقطاع، لكنها خلطة نفاذ الطبيعة الروحانية اللطيفة في

الهيولانية (الناسوت) حتى تنتشر فيها وتخالطها مثل خلطة النفس بالجسد والنار بالحديد في قوام حمرة واحدة[29].

إن الملاحظ لهذا الجدل هو تلاعب بالألفاظ، ولكنه كان في القديم يعتبر مساً بحقائق لا يجوز التقرب إليها. اعتبر النساطرة أن الدفاع عن أم الإله (مريم) هو إعادة للموروث الوثني القديم عبادة أم الإله السورية (هيرا) وأطلقوا على الكنائس التي تحارب الموروث الوثني اسم قلاع الله. أما عند أصحاب الطبيعة الواحدة فقد اعتبروا أن الدفاع عن والدة الإله (ثاوطوكوس) Theotocos واجب مقدس، لقد اضطرب حبل الأمن.

وقام أساقفة حران (يوحنا) وكالينوكس (الرقة) دوزينا وأسقف تلا (رأس العين) سفرون، وعقدوا مجمعاً من أساقفة مقاطعاتهم في 31 تشرين أول عام 451م، وقدموه لبطريرك الإسكندرية ديوسقوروس يدافعون عن نسطوريوس ولكنه امتنع عن التوقيع وخاطب يوحنا قائد الجيش «لن أفعل هذا ولو بترت يداي، وسال دمهما على القرطاس، فنفي». وفي زمن الإمبراطور زينون انتقل أتباع نسطور من الرها إلى نصيبين.

الكنيسة النسطورية في بلاد ما بين النهرين

كان انتقال أتباع نسطوريوس إلى الجانب الفارسي خطوة هامة في تاريخ الكنيسة النسطورية. عندما قام برصوم النصيبيني بفتح مدرسة للتعليم والترجمة، ودعيت نصيبين باسن أثينا الشرق، خصوصاً عندما أعاد الأسقف أردشير طريقة ثيودورس المصيصي (350- 420م) إلى الحياة.

وفي عام 450م، عين برصوم النصيبيني (420- 495) أسقفاً لنصيبين، فنقل مجلس التعليم من الرها، ويقال إنه ذهب إلى الملك الفارسي فيروز وأخبره أن نسطور كان موالياً للفرس، وقد نصح الرومان أن لا يعادوا الفرس، وأن يترسموا خطى السيد المسيح، في مباركة الأعداء، فأبغضوه وأنزلوه عن رتبته، فوافق الملك فيروز أن ينتقل الكرسي الرسولي إلى مملكته، وجعل مركز الجاثليق في دير مار متى شرق الموصل.

عقد النساطرة مؤتمرهم الأول في قرية ياعذرى سنة 484م، وسنوا قوانين أباحت زواج الأساقفة، وانتخبوا أول جاثليق لهم أقاق الآرامي (487- 499م) وكان عالماً في تفسير الكتب اللاهوتية، وأنشأ أماكن خيرية لتربية الأطفال وأسكولات (مدارس) للتعليم، وألف عدة رسائل ضد القول بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح، وتحت رعايته تعلم الملفان ترساي (412- 502م) هذا العلامة الذي يلقبه مؤرخو السريان النساطرة

بكتارة الروح القدس، وهو عالم ترك حوالي 366 ميمراً (مقالة) وكتاباً في فساد الأخلاق، تكلم في رسائله عن أفضل الطرق في ضوابط الترجمة، وتكلم عن أوزان الشعر السرياني، ومنها الوزن الخماسي لماربالاي أسقف بالس (مسكنة) والسباعي لمار أفرام السرياني.

اشتهرت مدرسة نصيبين، وذاع صيتها في الشرق، خصوصاً في زمن الملفان يشاع الذي كان يدرس اللاهوت وكتب عدة مقالات للملك قباذ (488- 531م) دافع فيها عن صحة الاعتقاد النسطوري في الجوهر الإلهي، وعن سر التثليث المقدس، مما أعجب الملك قباذ.

ترسخت أقدام الكنيسة الجامعة الشرقية، وبرز منها عدة علماء وآباء، أمثال **الجاثليق شيلا** (504- 522م) وهو أول من أقام كرسيه في الحيرة عاصمة المناذرة، وتلاه **الجاثليق مارآبا** (544- 552) كان مجوسياً وتنصر وترجم العهد القديم من اليونانية إلى السريانية، وهذه الترجمة ترجمها إلى العربية اسحق بن حنين العبادي إلى العربية.

أما **الجاثليق حزقيال** (570- 581) كان عالماً باللاهوت، وكان ينفق على تعليم الفارسية والعربية واليونانية والسريانية، ووسع أفق الدعوة حتى وصلت إلى البحرين وقطر (بيت قطرايا). وكان صديقاً **للكاهن الهندي بوذا الذي ترجم كتاب كليلة ودمنة** (بنج تترا) إلى الفارسية **للملك أنوشروان** (531- 579م) ثم ترجمها بعض السريان من الفارسية إلى السريانية وهي الترجمة التي اعتمد عليها ابن المقفع في العصر العباسي.

كان الجاثليق حزقيال صديقاً للشاعر عدي بن زيد العبادي وكان واعظاً للملك النعمان الثاني وهو الذي أقنعه بترك كرسي الملك والزهد في الدنيا عام 469م، ومن بعده تنصرت ملوك الحيرة. وأعظم شخصية هو **الجاثليق أيشو عياب الجدالي** (628- 647)، ظهرت الدعوة المحمدية في زمنه، وتمت الهجرة إلى يثرب (المدينة) في 16 تموز 622م، وعندما فتح الرسول (ص) مكة المكرمة أرسل إليه عدة هدايا من الإبل والثياب العدنية، ويقال إن الرسول أعرب له عن عرفانه بالجميل، وكتب له كتاباً يوصي أتباعه بالنصارى خيراً. وعلى هذا الكتاب كتب لهم الخليفة عمر بن الخطاب عهداً يقر فيه بوصية الرسول ونال المسيحيون حريتهم في العبادة، وترك لهم الحرية في ملكية الأراضي الزراعية في سواد العراق.

ومن الرجال الذين اشتهروا بالزهد والعبادة **اسحق النينوي** (أسقف نينوى 671م) كان عربياً، درس في الحيرة واختاره **الجاثليق كوركيس أسقفاً لنينوى** عام 671م،

ولكنه استقال من منصبه وعاش حياة التنسك وتوفي في دير مار شاهين ودفن في دير شابور. عاش حياة تصوف زاهداً في الدنيا، وألف خمسة كتب بالسريانية منها كتاب في حياة الرهبان الروحية في سبعة أجزاء، وله رسائل في تدبير الروح والأسرار الإلهية وأحكام السياسة، وقد ترجمت كتبه إلى العربية في وقت مبكر وكان له أثر واضح في التصوف الإسلامي، من أقواله في الرحمة ومحبة الآخرين: **«ما القلب الرحوم؟ إنه القلب الذي يحترق حباً لأجل كل الخلائق، لأجل الإنسان والطيور وكل الحيوانات والشياطين، وعلى كل ما هو مخلوق، فمن مجرد رؤيتهم أو ذكرهم تنهمر دموعه بغزارة من شدة الرحمة والشفقة لأن قلبه على مثال الله»**[30].

كان من النساطرة رجال دين كبار أمثال **طيمثاوس الجاثليق** (779- 822م) كان صديقاً للخلفاء وكانت له مناظرات معهم، ومن ذلك جداله لعلماء الكلام المسلمين بحضور الخليفة المهدي حول التوحيد والتثليث، والكتاب نال شهرة واسعة بين السريان[31].

لعب النصارى (النساطرة) دوراً هاماً في الحياة الثقافية والمهنية وكان منهم أطباء كبار أمثال **عيسى بن شهلا** طبيب الخليفة المنصور **وعائلة آل بختيشوع** أطباء الخليفة هارون الرشيد والمأمون، وكان هناك مترجمون من العرب من كنيسة السريان النساطرة أمثال **حنين بن اسحق العبادي وابنه اسحق بن حنين وابن أخته حبش بن الأعسم**، وهم الذين ترجموا كتب جالينوس وأبقراط إلى العربية، ومن بعدهم صار العرب قادة الفكر الطبي في افسلام.

ظل النساطرة ينتخبون بطاركتهم انتخاباً حراً حتى عهد متأخر، عندما استلم رئاسة الطائفة **الجاثليق شمعون الباصيدي** عام 1480م، ومن بعده حصر اختيار البطاركة في عشيرته، واستولى على أملاك الكنيسة.

كان **شمعون بن فرج بن الشماس اسحق بن القس حنا الباصيدي** (دهوك)، استلم الرئاسة وحصرها في عائلته، مما فتح الباب واسعاً للأحقاد والضغائن وأهملت الأبرشيات وفرغت الكرسي ودخلت البلبلة في النظام البيعي[32].

تولى من عائلة مار شمعون عدة بطاركة. وفي زمن **شمعون الخامس المعروف (ببرماما) منصب البطريرك** (1528- 1551م) في زمن احتلال العراق من قبل العثمانيين. وحاول أن يجعل خليفته ابن عمه شمعون السادس، فقام **المطران يوحنا سولاقا** الذي كان رئيس رهبان دير مار هرمز في مدينة العفر، كان رجلاً موصوفاً بالعلم والتواضع. وفي عام 1552م، حضر إليه وجوه الموصل واساقفة أربيل وسلمس وأذربيجان ووكلاء الكنائس في بغداد والكرخ وجزيرة ابن عمر ونصيبين وماردين وآمد

وحصن كيفا، وعرضوا عليه الكرسي الرسولي، وأرسلوه إلى روما ليضع عليه الحبر الأعظم يده المباركة، وعارضته العشيرة الشمعونية ومن يناصرهم.

انقسام الكنيسة النسطورية

وصل مارسولا إلى روما في 18 تشرين الثاني سنة 1552م، واستقبله البابا يوليوس الثالث (1550- 1555م) بفرح، وخاطبه مارسولا بقوله «إني بمنزلة الابن المطيع وإني مستعد لأن أمتثل امتثالاً تاماً ودائماً، جميع الرسوم والأوامر والوصايا والقطوعات والتحديدات التي يبرزها البابا يوليوس الثالث الجالس سعيداً، وخلفاؤه الأخيار الرومانيون المنتصبون شرعاً على الكرسي الرسولي»[33].

وكرسه البابا في 21 نيسان من عام 1553م، وهكذا ظهرت إلى الوجود كنيستان:

(1)الكنيسة الآشورية وهي الكنيسة النسطورية وعليها البطريرك مار شمعون.

(2)والكنيسة الكلدانية، وعليها البطريرك مارسولاقا.

لماذا هذه التسميات الجديدة؟ أو لماذا لم يكتف بتسمية الكنيسة الكلدانية فقط؟

إن تسمية الكنيسة المشرقية الجامعة تسمية جديدة بالكنيسة الآشورية يهدف إلى غاية غير بريئة الغرض، غايتها فصل هذه الكنيسة العميقة الجذور عن مسارها التاريخي الطويل، بإعطائها اسماً جديداً لشعب كان قد انقرض منذ مئات السنين، ولم يخلفوا من الإرث الحضاري ما يقابل ما خلفه السريان الشرقيون، وما صنعته الكنيسة النسطورية بجهادها من صروح ثقافية، من شعر وأدب وفلسفة، ومن ترجمات، لولاها لضاع التراث اليوناني الذي تمثله العرب فابدعوا الطب والصيدلة والرياضيات والفلك.

نعم استطاعت الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) تدمير وتفتيت وضياع هوية ذلك الشعب العظيم، وصار بعضهم يفتخر أنه آشوري، وهو لا يعلم أنه سرياني الأصل ومن شعب لم يزل حياً، فلله في خلقه شؤون.

الكنيسة الآشورية

جلس الجاثليق شمعون دنخا (1580- 1600) على الكرسي الرسولي وانتقل به إلى فارس في مدينة أورومي، وصار يسوس النساطرة من هناك، ثم عاد إلى مدينة الموصل. ونشطوا في سورية، وكان عددهم في العهد العثماني في حلب والرها (أورفا) حوالي 5700 بيتاً، وبقيت أكثريتهم في شمال العراق، وصار لهم حضور في مطلع القرن العشرين، وطالبوا بالاستقلال بتحريض من الاستعمار البريطاني، كما كتب المؤرخ الآشوري يوسف مالك، فقامت حكومة الملك غازي بن فيصل (1933- 1939) بضرب

المتمردين وطردهم خارج الحدود وسمحت لهم حكومة الانداب الفرنسي بعبور الحدود السورية، وأسكنتهم في قرى زراعية، وأجلت عنها الفلاحين العرب، وصار لشيوخهم الملك ياقو والملك هرمز والملك يوسف أملاك عقارية زراعية، وصار الملك زيًا بن الملك ياقو يمثلهم في مجلس الشعب، ولدى دوائر الدولة.

والشعب الآشوري شعب محب للعمل والثقافة، وبرز منهم أدباء وشعراء، وانتشرت في قراهم الممتدة على ضفاف نهر الخابور المدارس والمستوصفات والنوادي، وفي كل قرية آشورية كنيسة يرعاها كاهن (قاشا) يتبعون لبطريركهم المقيم في كندا، البطريرك شمعون (1920- 1968) الذي اعتزل المنصب وتزوج وهو في عمر يناهز الثامنة والستين، واتهم السيد داود بن الملك اسماعيل باغتياله، وهو ينفي ذلك، وانتخب البطريرك مارسولاقا (1968) ولم يخضع انتخابه للوراثة العشائرية التي كانت متبعة من قبل، وممثله في لبنان المطران نرساي.

الكنيسة الكلدانية

منذ عودة البطريرك مارسولاقا (1553- 1555) إلى حلب أعطي سلطاناً على جميع المشرق، وبلاد الهند والصين، وأجازت له الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) أن ينسخ زيجة القسس المحرمة، وأن يمنح الغفران الكامل في بعض أيام السنة. وأسام المطارنة والقسيس الكلدان، ويقال مار شمعون الجاثليق الآشوري دفع رشوة إلى باشا العمادية، فقبض على مارسولاقا وحبسه فمات في الحبس سنة 1555م. وخلفه البطريرك عبد يشوع (1555- 1567) وكان مثالاً للبطريرك المصلح. وبرز بعض العلماء والمفكرين أمثال حنا نيشوع، وكان منهم الرهبان الكرمليين في بغداد والموصل وكان يقصدهم آل الجليلي باشوات الموصل، وفي حلب بنوا لهم منازل جديدة كما ذكر السائح الروماني فنشنسو (ماريا دي سانتا) سنة 1656، قال: «زرت محلة النصارى في حلب، في بقعة تقع خارج أسوار المدينة وقد سميت (بالجديدة) وكنائسهم قريبة منها وهي أربع كنائس متجاورة في بقعة واحدة، أما كنيسة السريان الأرثوذكس وتسميها العامة كنيسة ستنا السيدة فمنفردة عنها»[34].

وفي زمن البطريرك ماريوحنا هرمز (1830- 1838) بلغت الكنيسة الكلدانية ذروتها، وبأمر البابا بيوس الثامن ألقى البابا في 3 تموز عام 1830 البطريركية الآمدية، وحول البطركية البابلية المقيمة في بغداد الدرع المقدس، ولكن بعد ذلك انتقل البطريرك مار هرمز إلى القوش ثم انتقل الكرسي إلى الموصل، وصار الكاثوليك الكلدان يعلنون صورة إيمانهم، أن في المسيح طبيعتان بحسب اعتقاد نسطور القويم، وأضافوا: بأن هذين الأقنومين وهاتين الطبيعتين، قد التصقتا حتى صار منهما رؤية

واحدة (برسوبا). أي أقنوم واحد باليونانية، غير أن أساقفتهم التزموا البتولية منذ سنة 1830[35]. وكثر أتباعهم في سعر وآمد وماردين، ثم هاجروا فيما بعد إلى القامشلي وحلب وبغداد.

كان تواجد الكلدان في حلب منذ مطلع القرن السابع شعر، وإن كانوا خاضعين لبطريركهم في العراق، وقد كلفت روما الرهبان الفرنسيسكان الاهتمام بهم.

وفي عام 1727 كتب **جاثليق الكلدان يوسف الثالث أوجين (1712- 1757)** الذي ولد في ماردين وزارة روما وأقام فيها (1735- 1741م) وعاد إلى الموصل، كتب إلى المطران الماروني جرمانوس فرحات (1670- 1732) للعناية بأبناء رعيته، وكلفه بتوزيع الأسرار عليهم وتكليل عرسانهم ودفن موتاهم. وقد قدر المطران الماروني يوسف مطر (عام 1856) عدد الكلدان في حلب 300 شخص.

وفي عام 1869 زار **البطريرك الكلداني أودو يوسف (1847- 1878)** حلب وهو في طريقه إلى روما وفي طريق عودته في 26 أيلول 1871 عين الأب بطرس رسام (1871- 1882) راعياً لأبناء الطائفة، واشترى أرضاً في حي العزيزية لبناء كنيسة وبنى عليها مصلى على اسم الرسولين بطرس وبولس وانتهى البناء عام 1886. وتعاقبت الخوارنة من آل أدو، الخوري توما أودو (1883- 1885) وهو ابن أخي البطريرك، والخوري بولس أودو (1885- 1894) والخوري حنا أودو (1896- 1939). ولم يكن اختيارهم على أساس الكفاءة وإنما على النسب وعلاقة القربى مع البطريرك.

الخوري بطرس عزيز (1897- 1910)

من مواليد الموصل. درس في الموصل وسيم كاهناً 1894م، ثم درس في روما وأرسل وكيل البطريرك إلى حلب عام 1897، وكان نشيطاً وغيوراً على مصلحة الطائفة، وألف عدة كتب مفيدة وعندما مر البطريرك عمانوئيل توما في طريقه إلى اسطنبول عام 1902 احتفل بالقداس في كنيسة الكلدان، ورقى الأب بطرس عزيز إلى رتبة خوري، وانتخب الخوري بطرس في عام 1910 مطراناً على سلماس في إيران، وغادر حلب وتوفي في زاخو في العراق عام 1937م.

الخوري ميخائيل أشعيا (1910- 1956)

من أهل الموصل، درس عند الفرنسيسكان، وأتقن اللاهوت واللغات العربية والسريانية واللاتينية، وعين كاهناً في العمادية عام 1900م، وأرسل إلى روما. وفي

عام 1910، عين مطراناً على الكلدان في حلب، وظل يدير أمور الرعية، بهمة وغيرة حتى وفاته عام 1956 ودفن في حلب.

المطران بولس شيخو (1957- 1958)

ولد في القوش عام 1906، ودخل المعهد الكهنوتي البطريركي عام 1921، ورسم كاهناً سنة 1930، وأصبح بطريرك الكلدان الكاثوليك عام 1958م، وغادر حلب. وأصبح البطريرك مار بولس الثاني (1958- 1989) وترك عدة مؤلفات عن التاريخ الشرقي.

الأب لويس شيخو (1859- 1927)

ولد في ماردين من اسرة سريانية كلدانية، وقد درس في روما، وعاد إلى بيروت وأسس مجلة المشرق والمكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف، وانصرف إلى الكتابة والتأليف في تاريخ النصرانية عند العرب والمسلمين. ونشر كنوز الأدب العربي، في مؤلفات نالت إعجاب الجميع، من أشهرها كتاب مجاني الأدب في حدائق العرب في ستة أجزاء، وكتاب شعراء النصرانية، وكتاب علم الأدب وكتاب النصرانية وآدابها، بين عرب الجاهلية، وكتاب علماء النصرانية. بالإضافة إلى 25 مجلداً من مجلة المشرق.

المطران أسطيفان بلّو (1958- 1989)

سرياني من مواليد الموصل عام 1925، رسم كاهناً عام 1950، وذهب إلى إيطاليا لدراسة اللاهوت واللغة اللاتينية، وانتخب مطراناً لحلب، وانصرف إلى تدبير أمور الرعية، وكتب تاريخ الكنيسة الكلدانية، وتوفي في إيطاليا 1989 ودفن في الدير الذي عاش فيه في الموصل.



الفصل الرابع : الكنيسة المارونيَّة

-تاريخ الموارنة

-أهم شخصياتهم الدينيَّة والأدبيَّة

الكنيسة المارونيّة

الموارنة شعب خليط من السريان والعرب، وتسميتهم بالموارنة جاءت من ولائهم للقديس مار مارون، ولكن بداية تاريخهم فيه غموض واضطراب، لم يستطع الموارنة إزالته. وأحاول أن أكوِّن صورة مما تسعفني به المصادر السريانية والعربية والأوروبية.

يقول فيليب حتي «الموارنة فصيل سرياني، ميزوا أنفسهم ضمن الكنيسة السريانية الأنطاكية على أثر المجمع الخلقيدوني (451م)، وبدأ الصراع بين الكنيستين المارونية (أتباع مارون) وأبناء عمومتهم السريان، ونشبت بينهم معركة ذهب ضحيتها 350 راهباً مارونياً، من رهبان دير مار مارون قرب افامية عام 517م، لا زالت الكنيسة المارونية تعيِّد بذكرى جهادهم»[36].

من هو القديس مار مارون؟

هو راهب من عائلة يونانية الأصل من أهل أنطاكية، وترهب بدير بالقرب من قورش، وظهرت فضائله في المنطقة وتوفي عام 408م، ونقل رفاته تلاميذه إلى دير بالقرب من افامية، سموه على اسمه. وعندما تولى البطريرك مار سويريوس الأنطاكي الكرسي الرسولي (512- 538) وكانت تربطه بالإمبراطور أنسطاسيوس صداقة. وفي 26 تشرين الثاني سنة 512م أمر الملك بعقد مجمع صيدا، لحرق تعاليم البابا طومس لاون (440- 461م) حضره مئتي راهب من بلاد فلسطين، وخطب مار سويريوس وقال: لا يجوز القول إن الله تألم، فرد عليه أبيفانوس من أبرشية افامية ومعه تلاميذه من دير مار مارون: إذن من كان القائل (إلهي إلهي لم تركتني؟!) أو من كان يتضرع إلى الأب لتعبر عنه الكأس؟ فقال مار سويريوس: إن أبيفانوس الأثيم ذئب أفاميا لا راعيها، إنه كان جالساً على كرسي الأبرشية خلافاً لقانون الكنيسة لإرادة الملك الرجيم أنسطاسيوس، لقد أفسد الأسفار المقدسة. وكان أساقفة المجمع الخلقيدوني قد أبوا التصريح (بأن الله قد صلب) واكتفوا بالقول (يا من صلبت من أجلنا).

أرسل مار سويريوس في سنة 516م، بعض المؤمنين المتعصبين فطردوا المؤمنين من الروم الملكية وهجروهم إلى إيطاليا، وأرسل إلى رهبان دير مار مارون الأسقف الحموي بطرس الذي قتل منهم حوالي 350 راهباً وطردهم إلى جبل لبنان[37].

من هنا كانت بداية الافتراق بين أصحاب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة) وإخوانهم الموارنة. وكانوا يقولون كاليعاقبة (إن المسيح الواحد هو الله، إله تام وإنسان تام، ويختلفون في طريقة التعبير عن الوحدة القائمة بين العنصرين وطريقة شرحها، كما اختلفوا على التركيز على هذا أو ذاك من وجهي هذا السر)[38].

وكانوا يزعمون أن ليسوع المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً، ولكن القس يوسف السمعاني (1687- 1768) يكذب ذلك وينسب هذه العقيدة إلى البطريرك اليعقوبي بولس الرقي (465- 530) ولا زال الموارنة والسريان الأرثوذكس يستخدمون اللغة السريانية في القداس الإلهي، نافورة توما الحرقلي، ومار يعقوب السروجي ونافورة مار يعقوب الرهاوي، وكل الطوائف السريانية تستخدم الزيت والملح والخمير في خبز القداس إلا القبط[39]. وعندما غضب الإمبراطور جستنيان على اليعاقبة قام الموارنة باحتلال أديرتهم في حماة وحمص.

الموارنة عند المؤرخين العرب

يقول الأب أنطوان ضو: «إن الأبحاث التاريخية لم تتمكن من إعطاء أجوبة واضحة وحاسمة حول بدايات الكنيسة المارونية. وذلك بسبب ندرة المصادر التاريخية. وهذا الأمر لا يستطيع أن يحجب انتماءها إلى كنيسة يسوع المسيح، ومهما تقدمت الأبحاث التاريخية يبقى موضوع البطركية المارونية غامضاً وصعباً ومعقداً، إنه بحاجة إلى بحث متواصل ومراجعة دائمة»[40].

ينقل المؤرخ الرحالة علي بن الحسين المسعودي (المتوفى 956م) عن المؤرخ القبطي سعيد بن البطريق المعروف بابن الفراش، بطريرك كرسي مرقس بالإسكندرية، يقول المسعودي «وقد شاهدناه بفسطاط مصر. وقال عن الموارنة كانوا في أيام الملك موريق، الذي ملك عشرين سنة وأربعة أشهر (582- 602م) وظهر في أيامه رجل من أهل مدينة حماه من أعمال حمص، يعرف بمارون (يوحنا مارون) تنسب إليه المارونية، من النصارى في وقتنا هذا (345هـ/ 946م) وأمرهم مشهور بالشام، وأكثرهم بجبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماه وشيزر ومعرة النعمان. وكان له في دير مارون شرقي حماة وشيزر، ذو بنيان عظيم حوله أكثر من 300 صومعة فيها الرهبان، وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم، فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن، من الأعراب وحيف السلطان، وهو بقرب نهر الأرنط (العاصي) نهر حمص وأنطاكية، وكان مارون أحدث آراء بان بها عمن تقدمه من النصارى في المشيئة الواحدة وغيرها، وكثر متبعوه ومن أتباعهم قيس الماروني له كتاب حسن في

التاريخ من ابتداء الخليقة والأنبياء والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم وأخبارهم، انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي، ولم أر للمارونية في هذا المعنى كتاباً، مؤلفاً غيره»[41].

على الرغم من مدح المسعودي لكتاب قيس الماروني، فإنه لم ينقل عنه شيئاً من تاريخ الموارنة، وإنما نقل عن ابن البطريق خبر مجمع القسطنطينية، وكان اجتماعهم للعن رجل يقال له قورس الإسكندري (الصواب كيرلس) خالف الملكية، وأحدث قولاً نحو قول المارونية في المشيئة الواحدة والفعل الواحد[42].

هذا النص على الرغم من أهميته التاريخية، إلا أنه لم يبين لنا أصل الموارنة وتكوينهم العرقي أو السلالي كما فعل محمد بن جابر البلاذري (المتوفى 179هـ/ 697م) الذي تكلم لنا عن أصل الموارنة نقلاً عن شيخ من أهل أنطاكية، قال: «إن الجراجمة من مدينة على جبل اللكام من قرية يقال لها الجرجومة (بين بياس وبوقا) وكان أمرهم إلى بطريرك أنطاكية. وغزا أبو عبيدة الجرجومة، فلم يقاتله أهلها وطلبوا الأمان والصلح، على أن يكونوا للمسلمين عيوناً ومسالح في جبل اللكام، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع (الأنباط) وأهل الفرس والفلاحة في هذا الصلح فسموا (الرواديف) فلما كانت أيام عبد الله بن الزبير، خرجت خيل للروم إلى جبل اللكام، وعليها قائد من قوادهم قاصداً لبنان، فانضوت إليه جماعة كثيرة من الجراجمة، فاضطر الخليفة عبد الملك إلى مصالحة الروم على ألف دينار في كل جمعة، ولكن في عام (89هـ/ 708م) هاجم مسلمة بن عبد الملك الجراجمة وفتح مدينتهم وأجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالهم من القوات والقمح والزيت، على أن لا يكرهوا على ترك النصرانية، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية، إن هم غزوا مع المسلمين، ونزل قسم منهم إلى حمص، وهرب أسقف الجرجومة إلى بلاد الروم»[43]. إلى هنا تنتهي النصوص العربية.

وجاء التوضيح والبيان من كتّاب السريان، جاء في كتاب معتقد اليعقوبية «لما أغارت الروم على السريان، وقتلتهم يوحنا مارون، ووافق ملك الإفرنج الذي كان في أنطاكية وكان اسمه أوجان برنس وقال له: يا ملك الزمان نحن خائفون على جبل لبنان، إن تردّه طائفة الملكية إلى أمانتهم، لأن جوستنيان قيصر (685- 711م) يبغض السريان التابعين ليعقوب وأمانته، فقم إلى الكردينال الذي عندك فأقمه على البترون بطريركاً. فوجد الملكية قد بلغ تملكهم إلى قرية اسمها أميون فارتفع مويرين (يعني يوحنا مارون) وابن أخته ابريهيم (إبراهيم) عن الملكية إلى ممر جبيل، فخلص الناس

من الجزية التي فرضتها الملكية على من لا يتبع دينهم (مذهبهم) فوافقه كل السريان الذين كانوا في جبل لبنان»[44].

في هذا النص ينسب الموارنة إلى مذهب الروم الملكية.

الموارنة عند المؤرخين السريان

ينسب المؤرخون السريان الموارنة ظهور البطريركية المورانية إلى أيام الإمبراطور هرقل (610- 641م) عندما غضب الإمبراطور هرقل على اليعاقبة، واغتصب أديرتهم في الرها وحماة وحمص، احتل الموارنة أديرتهم وظهرت في سنة 681م بدعة الراهب مكسيموس القسطنطيني القائل بالمشيئتين والفعلين وعقد المجمع القسطنطيني السادس وانقسمت البيعة الملكية إلى شعبتين:

الشعبة الأولى: التي قبلت مقررات هذا المجمع، وثبتت المعتقدات الخلقيدونية على حالها.

الشعبة الثانية: التي رفضت المعتقدات السابقة، واستمرت على القول بالطبيعتين والأقنوم الواحد والمشيئتين والفعلين، وظهرت كنيسة مارونية متميزة[45]. وعين يوحنا مارون أول بطريرك للكنيسة المارونية عام 684م، وظل تقديسها باللغة السريانية (يا من صليب من أجلنا احمنا) وزالت اللفظة اليونانية (كرياليسون) من القداس الإلهي، وأباحت الكنيسة المارونية التقديس على الفطير كالخمير، وأكل اللحم وشرب الخمر للأساقفة. إلا أن الشيخ طنوس الشدياق في كتابه (الأعيان في جبل لبنان) يكذب ذلك[46].

عُيِّن البطريرك يوحنا مارون (685- 702م) في أيام البطريرك توافانوس (681- 686م) البطريرك الملكي، ولاقى البطريرك يوحنا مارون الاضطهاد من قبل البطريرك الملكي الذي سلط عليه عامل الخليفة مروان بن محمد، وأراد إجبار الموارنة على حذف عبارة (يا من صلبت لأجلنا) من أجل مسايرة العرب المسلمين الذين يقولون: إن المسيح لم يصلب وإنما ارتفع إلى السماء. وتنسب إلى البطريرك يوحنا مارون رسالتان الأولى تدور حول العقيدة وهي رسالة موجهة ضد أصحاب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة) والأخرى موجهة ضد النساطرة شرح الإيمان في الكهنوت.

قال القس اسطفان السمعاني (1711- 1782) إن أوجان وجميع الإفرنج بأنطاكية، حملوا القس يوحنا مارون إلى الكاردينال رسول الكرسي الروماني وساموه أسقفاً على البترون، وجلب إليه أهل الجبل من السريان، من أصحاب المشيئة الواحدة، وبذلك تكونت الطائفة المارونية[47].

إن هذا التخبط في تحديد شخصية يوحنا مارون دفع الأب جوزيف شابو إلى القول: **«هل كان يوحنا مارون قديساً معترفاً به؟** ويجيب على تساؤله: إننا إذا اعترفنا بأنه كان موجوداً يوماً ما، وجب علينا أن نعترف أنه لم يكن باستطاعته أن يكون رئيساً لدير مغمور كدير مار مارون وأن يرتقي لهذه الشهرة والقداسة، دون مآثر روحية وعلمية».

إن دير مار مارون ليس بالدير المغمور، كما وصفه لنا المسعودي الذي شاهده وبأنه كانت حوله 300 صومعة للرهبان، وإن مار يوحنا مارون كان مؤلفاً مشهوراً وقد نسب إليه كتابان هما في شرح الإيمان في الكهنوت وضد اليعاقبة والنساطرة.

يبدو لي أن الكنيسة المارونية كانت ضعيفة، ولكن وإن برز منها من العلماء ومن المفكرين مثل **تيوفيل بن توما المنجم الرهاوي** (المتوفى 169هـ - 786م) قال عنه ابن العبري: «كان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان وله كتاب تاريخ حسن، ونقل كتاب هوميروس الشاعر اليوناني على فتح مدينة إيليون (طروادة) في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة»[48].

وفي سنة 1182م اتّحدت الطائفة المارونية مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وأقيم البطريرك الماروني في دير قنوبين، وهو دير رهبان على قانون مار أنطونيوس، وأن يضيف البطريرك اسم بطرس الأول إلى اسمه[49].

وضع الموارنة في العصر الحديث

استولى السلطان سليم الأول (الملقب بالرهيب) على سورية ولبنان عام 1516م، وعهد بإدارة الجبل إلى الأمير فخر الدين المعني الأول (1516- 1544) فأحسن تدبير الأمور وتولى الحكم من بعده ولده قرقماس (1544- 1585) فتابع سير والده والخضوع للباب العالي.

فخر الدين المعني الثاني (1585- 1635)

تولى الحكم صغيراً، بعد ولده قرقماس، وقد ولد في بلدة بعقلين، واستلم الحكم بعد أن أقره والي دمشق مراد باشا، جعل فخر الدين مقره في كسروان، فنظم الجيش وتحصيل الضرائب، وسعى إلى توحيد الجبل، وتحالف مع حكومة توسكانيا لتبعث له خبراء لصب المدافع.

وتحالف فخر الدين مع الشيخ الدرزي علي الجانبولاط للقضاء على سلطة ابن سيفا، زعيم اليمانية، وامتد نفوذه على صيدا وصفد ونابلس وعجلون، وسعى إلى تنمية

الزراعة، فاستقدم خبراء إيطاليين، وكان يطمح للاستقلال بالجبل، وأعلن في سنة 1513م، رغبته بالانفصال عن الباب العالي، فحاصرته قوات دمشق وطرابلس فهرب إلى إيطاليا وبقي (1613- 1618) وكوّن جبهة ضد الأتراك، وعاد بدعم من الفاتيكان وفلورنسة وفرسان القديس يوحنا في مالطة.

وبعد عودته بدأت البعثات للطلاب الموارنة إلى المدرسة التي أمر البابا بفتحها في روما، وصارت تدرس باللغات العربية والسريانية واللاتينية، وصارت الفلسفة واللاهوت والعلوم والرياضيات والفلك والطب تُدرَّس فيها.

تحسنت الأحوال في الجبل وأعلن الأمير فخر الدين الثاني الاستقلال فقبضت عليه السلطات العثمانية، وأرسل إلى القسطنطينية وتوفي هناك وحيداً عام 1635م، فرثاه الشاعر اللبناني بولس سلامة:

يا شواطئ البسفور لا تجزعي	هذا أمير الشرق حي يعي
مسلسل الأجداد من يعرب	معنعن الأمجاد من تبع
تتاءت الأغصان في أرزه	هذا أمير السفحتين اخشعي
ضجت جبال الشرق لما قضى	واغرورق التاريخ لما نعي

بعد القضاء على حكم المعنيين جرى صراع بين سكان لبنان وانقسموا إلى فريقين:

فريق القيسية (الحمر) بزعامة آل علم الدين ضد الطغيان ثم بزعامة الشهابيين، وكسبوا إلى جانبهم الموارنة والفلاحين، لأن هدفهم كان الاستقلال.

فريق اليمانية: (البيض) كانوا تحت حكم أسرة آل سيفا، وكانوا مع الأتراك.

وبعد انقراض حكم المعنيين، جرى اجتماع في السمقانية (الشوف) وانتخبوا الأمير حيدر الشهابي عام 1697م، وهزموا الأتراك قرب عين دارة (قضاء عاليه) في 20 آذار وقتلوا أمراء أسرة علم الدين[50].

ما هي التطورات التي حصلت في جبل لبنان؟

كان لاستلام الحكم من قبل الأسرة الشهابية، تأثير كبير على حياة الناس المعاشية والسياسية والفكرية، وهذا التغيير طال حياة الدروز، والموارنة بشكل خاص.

في مجال الزراعة:

تطورت الزراعة، وصنفت الأراضي التي تجبى منها الضرائب، وكانت الزراعة هي المورد الهام في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية. وكانت هذه الأراضي أربعة أصناف:

1)أراضي الدولة (الأميرية) التي تعتبر ملكاً للسلطان ويمثله الوالي في استلام الخراج، وإرساله إلى الخزينة المركزية. وكان السلطان يمنح بعض الأراضي للزعماء الإقطاعيين الذين يقدمون فرساناً (سباهية) أثناء الحروب أو الاضطرابات، وكان بعضهم من المسيحيين الموارنة كآل حبيش والخازن، أو روم أرثوذكس كآل أبي اللمع، أو الدروز كآل جنبلاط.

2)أراضي الوقف الإسلامية والمسيحية: وكانت أراضي الكنيسة المارونية كبيرة، وكان الفلاحون المسيحيون يعملون فيها، وأراضي الوقف الدرزي، وكان الصراف يحضر بعد الحصاد لتقدير الضريبة وجبايتها، وكان الفلاح يدفع البرانية مكافأة للجابي.

3)الأراضي العشرية: وهي الأراضي التي يملكها الإقطاعيون أو رجال الدولة، الذين يقيمون في المدينة، وكان على الفلاح زراعة الأرض المخصصة (الجفتلك) ويدفع عنها العشر، وضريبة استخدام الطاحونة، وضريبة تدخين التبغ، وعلى المسيحي أن يدفع الجزية، يجبي هذه الضريبة مع البراني من الفلاح المثقل بالديون.

4)أراضي المراعي: ملكيتها مشاعية، ولكن الفلاحين أو الرعاة يدفعون للشيخ ضريبة صيفية وأخرى شتوية عن مواشيهم.

وكانت أراضي جبل لبنان مقسمة من الناحية الإدارية إلى ثلاث مناطق، كسروان والمتن والشوف، وتدير كل مقاطعة أسرة إقطاعية متنفذة، وعلى رأس الجميع كان الشهابيون، يجمعون الضرائب ويرسلونها لخزانة الدولة، بعد أن ينهكوا الفلاح.

كانت الحياة في المدينة أفضل من المعيشة في الريف، وكانت بيروت وطرابلس قد انتعشتا بالتجارة، وصارت لهما علاقات مع المدن الإيطالية (بيزا وجنوا والبندقية) وكانت تصدر إليها الحبوب والحرير والخام والجلود والصوف والفواكه المجففة والزيت والزيتون والمكسرات والمنسوجات اليدوية (البسط والسجاد).

ومن الناحية الثقافية بدأت الإرساليات التبشيرية تتوارد على البلاد، خصوصاً من روما والجزويت من فرنسا، والبروتستانت من ألمانيا وإنكلترا. وكانت لكل ولاية باشوية تسيطر على الموانئ وتجبي المكوس.

الأمير بشير الشهابي الثاني (1789- 1840)

ولد في غزير وتوفي في اسطنبول عام 1850. وكان هذا الأمير المصلح والرهيب في آن واحد، كان متناقضاً وانتهازياً، في سلوكه، هو مسلم يصلي الجمعة في قصره الفخم في بيت الدين، وهو مسيحي ماروني يصلي سراً في كنيسة القصر هو وأسرته، وهو درزي في السر أيضاً، وهكذا تسنى له حكم الناس بالترغيب والترهيب. قال عنه

المؤرخ الروسي فلاديمير لوتسكي (1906- 1962): «تحمل أعماله طابعاً تقدمياً، ولو أنه كان جشعاً طماعاً إلى أقصى حد، وذا إرادة لا تلين، إلا أنه قطع دابر الاستبداد الإقطاعي لتأمين الظروف اللازمة لتقدم لبنان الاقتصادي، وكانت أعماله ترمي إلى تكوين دولة مركزية قوية. ضم إليه ممتلكات إمارة جبيل الإقطاعية الواقعة في شمال لبنان، ثم وادي البقاع الذي كان يمون لبنان بالقمح»[51].

وقد وصفه الشاعر الفرنسي **ألفونس دي لامارتين** (1790- 1869) بقوله: «كان درزياً مع الدروز ومسيحياً مع الموارنة ومسلماً مع المسلمين، وهو في الحقيقة غير آبه بالدين»[52].

ولكثرة الضرائب التي كان يفرضها الأمير بشير الثاني على الفلاحين ثاروا عليه في قرية أنطلياس واتخذوا قراراً بعدم دفع الضرائب، فتوارى وهرب من الجبل واستنجد بالشيخ بشير جنبلاط عام 1820، ولكن الأمير الشهابي لم يحفظ الوداد فحاصر قصر آل جنبلاط في المختارة وقبض على الشيخ الجنبلاطي وسجنه وخنقه في السجن، واستولى على عقاراتهم ووزعها على أولاده[53] عام 1822م.

نتيجة الاضطرابات والظلم أصدر **السلطان عبد المجيد خان** (1839- 1861م) خط الكلخانة الشريف، جاء في مقدمة المنشور «يعلم العالم كله بأن التعاليم القرآنية الجليلة، وقوانين السلطة كانت قواعد محترمة، ولكن خلال المئة والخمسين سنة، كف الناس عن التمسك القوانين المقدسة، والقوانين المنبثقة منها، محل الوهن والإملاق في دار السلطنة محل القوة والرخاء، وكانت المقررات تهدف إلى المهمات التالية:

1)أن تصان كلياً حياة وشرف وممتلكات الرعايا بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، وفي هذا إنصاف لأهل الذمة والمذاهب الإسلامية الأخرى.

2)ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب من سلطة الباشوات الطغاة التعسفية.

3)ضمان طريقة صحيحة للخدمة العسكرية مع تحديد أمدها[54].

ما هو تأثير الخط الهمايوني الشريف على حياة الناس؟

أدى هذا الخط الشريف إلى ظهور حزبين عند **الطائفة الدرزية**:

-**حزب اليزبكية**: بزعامة الأمراء الشهابيين واليزبكيين.

-**حزب الجنبلاطية**: بزعامة آل جنبلاط وأنصارهم من آل أرسلان والعماديين والنكديين.

أما بالنسبة للموارنة، فقد قلد السلطان عبد المجيد للبطريرك الماروني شارة من الماس اعترافاً منه بسيادة الكنيسة على الطائفة، فطلب البطريرك من رعاياه الخضوع للسلطان ولمن ينصبه عليهم[55].

قام الدروز بانتفاضة ضد الأمير بشير الثاني الذي هرب ونصبوا بدلاً منه الأمير بشير ابن قاسم الشهابي (1840- 1841) الذي عينه الباب العالي خلفاً للأمير بشير الثاني، وقويت شوكة الطائفتين الدرزية والمارونية، وقام شيوخ الدروز الذين سلحتهم إنكلترا ضد الأمير بشير الثالث، وحرقوا قصره والقرى المارونية المؤيدة له، وأسفر القتال عن قتل 60 شخصاً من الطرفين في تشرين الأول 1841م.

واستعد الموارنة ونظموا فصائل الدفاع في شباط 1842 وانحدرت قوات الشمال التي تقدر بخمسة آلاف مقاتل تقدموا نحو الجنوب وهاجموا الشويفات ووقف المسيحيون الأرثوذكس على الحياد، وتقدم الدروز من المختارة بقيادة الشيخ نعمان الجنبلاطي وهاجموا الموارنة وقاموا بمذبحة وهجّروا الموارنة من قراهم، ولكن الشيخ خنجر الحرفوش (الشيعي) جاء من بعلبك ووقف إلى جانب الموارنة وحماهم.

دعا عمر باشا النمساوي (1841- 1860) شيوخ الدروز إلى بيروت، وجمعهم في قصر بيت الدين، وقبض على ثمانية منهم وأرسلهم إلى بيروت، وأعاد الموارنة إلى قراهم، وحرق قصر آل جنبلاط في المختارة، واختفى الشيخ يوسف عبد الملك في منزل القنصل الإنكليزي بدمشق.

بماذا أثرت هذه الأحداث على سياسة جبل لبنان؟

تحت ضغط الدول الكبرى (فرنسا وإنكلترا) اضطر الباب العالي إلى إعطاء الاستقلال الذاتي للجبل، وعين ثلاثة قائمقامية للحكم الإداري:

القسم الشمالي (كسروان) باعتبار أن أكثر سكانه من الموارنة عين عليهم قائمقاماً من الموارنة.

القسم الأوسط (المتن): كان الموارنة فيه هم الأكثرية، بينما كانت القرى الدرزية مبعثرة كان القائمقام من الموارنة.

القسم الجنوبي (الشوف): لأن الأكثرية للدروز فالقائمقام كان من الدروز.

وبدأ الإنكليز يحرضون الدروز وكان الحاخام اليهودي الذي عمّد في القدس ألكسندر الذي كان يكره المسيحية، وإن كان ظاهراً يحب إدخال الدروز في المذهب الأنجليكاني فهو يريدهم أن يكونوا يهوداً ولكنه فشل في مسعاه، وفضلوا البقاء في الإسلام.

كان الصراع يجري في الخفاء بين الدروز والموارنة، وفي شهر أيلول عام 1844 صاد فلاح موراني حجلة في حاكورة أحد الدروز في الشوف، فجرت معركة راح ضحيتها عدد من الطرفين.

وفي الشمال قام الحداد **طانيوس شاهين** في الكسروان واستولى على أراضي الإقطاعيين الموارنة ووزعها على الفلاحين في كانون ثاني 1859م، واضطر الباب

العالي إلى تعيينه قائمقاماً لكسروان. ونتيجة هذه الأحداث جرت مذبحة بين الدروز والموارنة في أول الربيع من عام 1860، دمر الموارنة حوالي ستين قرية درزية عند أبواب بيروت، وبالمقابل حاصر الدروز الأديرة والإرساليات المارونية وأحرقوها. انتقلت الأخبار إلى دمشق فقام المسلمون المتعصبون انتصاراً للدروز، وقتلوا المسيحيين واستمرت المذبحة ثلاثة أيام (9- 11) تموز 1860، ولكن الأمير عبد القادر الجزائري تدخل وأوقف المذبحة ووضع قصره تحت تصرف المسيحيين.

وعلى أثر ذلك منذ منتصف 1861 أصبح جبل لبنان ذا حكم ذاتي يرأسه متصرف مسيحي (ماروني) مستقل عن والي بيروت ودمشق، ويخضع للباب العالي مباشرة وأسس مجلس إداري مؤلف من 12 عضواً من الطوائف الستة (الموارنة والدروز والسنة والشيعة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك) وصار للمجلس الحق في وضع الضرائب والإشراف على جبايتها وصرفها في المصالح العامة. وخضع لهذا المجلس شيوخ النواحي والقرى.

أصبحت الطائفة المارونية ذات قوة سياسية وثقافية، وزاد نفوذ الدولة الفرنسية بينهم. وأصبح مقر البطريركية في بكركي يتدخل في سياسة جبل لبنان وله اليد الطولى في تحديد سياسته.

الوضع الثقافي والتعليمي للموارنة

في عام 1845 صدر قانون التعليم المجاني، وفي عام 1847 أنشئت وزارة المعارف. ومنذ ذلك الوقت بدأت المدارس الوطنية تتبارى والمدارس والمعاهد التبشيرية التي أسست منذ عام 1584 في روما، ثم تلتها المطبعة المشرقية عام 1653م. ثم تأسست في لبنان المدارس التبشيرية، وصارت المدارس تدرس باللغة العربية، ومن أشهر علماء الموارنة الذين تعلموا في روما ثم نقلوا معارفهم إلى الشرق:

القس جبرائيل الصهيوني الأهدلي (1577- 1648)

ولد في إهدن ودرس في القرية، ثم ذهب إلى روما، وتخرج من مدرسة الحكمة. درس العربية والسريانية واللاتينية ثم صار يدرس في المدرسة، ثم أنشأ فرعاً في باريس لتدريس المستشرقين اللغتين العربية والسريانية 1614م. واهتم بنشر التوراة متعددة اللغات (الهكسبلا)، من تأليف أوريجانيوس الإسكندري (185- 254م) ونشر جغرافية الإدريسي.

المعلم إبراهيم الحاقلاني (1605- 1664م)

ولد في قرية حاقل في جبيل، وسافر إلى روما وتابع دراساته العليا، وأصبح مدرساً للعربية في الكوليج دي فرانس بدعوة من الكاردينال دي ريشيليو (1585- 1642) وصار مترجماً في بلاط لويس الثالث عشر، فوضع معجماً (عربياً - لاتينياً) طبع في روما سنة 1627م، وفي إيطاليا رافق فخر الدين المعني الثاني وصار كاتباً له. ودرس في بيزا وباريس كتابه (مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب) ونال كتابه الثناء في أوروبا.

البطريرك أسطفان الدويهي (1630- 1704)

ولد في بلدة اهدن، ودرس فيها ثم سافر إلى روما، درس اللاهوت والفلسفة وعاد إلى لبنان، قال: عندما عدت كلمتي أمي بالسريانية. صنف عدة كتب في الفلسفة منها منارة الأقداس رد فيه التهم عن المذهب الماروني وصنف كتاب الأزمنة، كتب وأرخ للطائفة المارونية (1670م).

الأب بطرس مبارك (1663- 1742)

ولد في غسطا (لبنان) وسافر إلى روما وأكمل دراساته العليا، وأتقن سبع لغات (العربية والسريانية والعبرية واليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية) وعند عودته أنشأ مدرسة عينطورة (قضاء كسروان) ثم سلم أمرها إلى الآباء العازاريين، وعاد إلى فلورنسا وأصبح مدير المطبعة الشرقية، ونشر مع يوسف السمعاني مؤلفات القديس أفرام السرياني، وترجم إلى اللاتينية بعض المؤلفات العربية.

الخوري بطرس التولاوي (1657- 1745م)

ولد في بلدة تولا (لبنان) وتعلم فيها، ثم سافر إلى روما وأكمل دراساته اللاهوتية والفلسفية والعلوم الطبيعية والفقه الإسلامي.

وعاد إلى حلب وأنشأ مدرسة وطنية، كان من تلاميذها المطران جرمانوس فرحات والمطران جبرائيل حوار، ومن مصنفاته الفلسفية المنطق والفيزيقا، وكتاب علم النفس وما وراء الطبيعة.

المطران جرمانوس فرحات (1670- 1732)

ولد في حلب وكانت عائلته من بلدة حصرون، من عائلة مطر، ودرس في مدرسة الخوري بطرس التولاوي، اللغة العربية والسريانية والإيطالية واللاتينية، ثم رحل إلى

روما عام 1711م، ومنها سافر إلى إسبانيا، وحصَّل بعض المخطوطات العربية، وعاد إلى حلب عام 1712، وأنشأ المكتبة المارونية في الجديدة، وألف حوالي مائة كتاب بالعربية، في علوم الأدب والنحو والصرف والفلسفة، ومن أشهر كتبه (بحث الطالب في النحو والصرف) وكان سبباً في نهضة حلب العلمية، كما جدد الحياة النسكية في لبنان.

عائلة السمعاني

أنجبت هذه العائلة عدة علماء، كانوا سبباً في نشر التراث السرياني في الشرق كله، وسأقتصر على ذكر ثلاثة منهم:

القس يوسف سمعان السمعاني (1687- 1768)

ولد في طرابلس وتوفي في روما، من العلماء والباحثين. تعلم في روما وصار أمين المكتبة الشرقية، وصار معلماً (ملفاناً) في الفلسفة واللاهوت، وكان يتقن عدة لغات منها العربية والسريانية والعبرية واللاتينية والفرنسية والإيطالية، وهو الذي وضع الفهارس للمكتبة الشرقية في الفاتيكان، وكان يلخص الكتاب ويعلق عليه ويقيمه، وقد أرسله البابا بندكتوس الرابع (1740- 1758) عام 1715 إلى مصر لجمع المخطوطات العربية والسريانية واليونانية، وفعلاً اشترى معظم مخطوطات دير النطرون وعاد إلى روما ووضع عدة كتب من أشهرها السريان الأرثوذكس وضعه عام 1719م. نال إعجاب المستشرقين والشرقيين وعلى منواله ألفوا، ووضع كتاباً آخر عن أدب السريان النساطرة في مجلدين (1725- 1727) وله كتاب عن تاريخ العرب المسلمين. وفي سنة 1736 ترأس المجمع الماروني المنعقد في دير اللويزة[56].

المعلم أسطفان عواد السمعاني (1711- 1782)

ولد في بلدة حصرون (لبنان) وهو ابن أخت البطريرك يعقوب عواد، أكمل دراساته العليا في روما وعين أمين المكتبة الشرقية، ووضع فهارس مكتبة فلورنسا، ونقل إلى للاتينية تاريخ الأزمنة لابن العبري[57].

المعلم يوسف لويس السمعاني (1710- 1782)

ولد في حصرون (لبنان) وتوفي في روما، وضع كتاباً عن بطاركة الكلدان والنساطرة نشره في روما 1775م، وله مجموعة نصوص طقسية[58].

الخوري ميخائيل الغزيري (1710- 1791)

ولد في بلدة غزير في منطقة كسروان، ودرس في مدرسة مار مارون ثم ذهب إلى روما، وتعلم في مدرسة الحكمة اللغات العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية، وقام بفهرسة مكتبة الأسكوريال بمدريد، وطبع هذا الفهرس عام 1760- 1770 مع مقدمة طويلة، وكانت خطة فهرسه جيدة، وضع عنوان المخطوطة بحرف كبير بالعربية واللاتينية، ثم يورد لمحة موجزة عن حياة الكاتب مع ذكر كتبه الأخرى، وطبع الكتاب في مجلدين:

المجلد الأول: يشمل كتب النحويين والشعراء واللغويين، وكتاب التراجم والسير والفلاسفة وعلماء الاجتماع، والأطباء والرياضيين والفلكيين.

المجلد الثاني: جعل هذا المجلد مكرساً لكتب التاريخ والجغرافية، وقد ضمن كتبه عدة شهادات تاريخية عربية لكي تساعد الباحث والمنقب في تاريخ إسبانيا العربية، وقد استعان بهذه الفهرسة كبار المستشرقين أمثال المستشرق الهولندي راينهارت دوزي (1820- 1884) الذي كتب تاريخ إسبانيا والدول الإسلامية في الأندلس والمغرب بفضل كتابات الخوري ميخائيل الغزيري[59].

بدأت النهضة العربية في لبنان، وعلى أيدي الأدباء الموارنة، الذين تحمسوا للعربية ودافعوا عنها، كما دافعوا عن العرب وحثوهم لطلب الحرية والاستقلال وسأذكر بعض هؤلاء الأدباء والشعراء، على سبيل الذكر لا الحصر:

المطران يوسف مطر (1851- 1882)

ولد المطران يوسف في آذار 1814 وارتسم كاهناً في 19 آذار 1838 باسم بولس، واتخذ اسم يوسف عند انتخابه مطراناً في 27 تشرين الثاني 1851. وفي سنة 1857 أسس المطران يوسف المطبعة المارونية بالعربية والسريانية في حي السويقة ثم نقلها المطران ميخائيل أخرس إلى أبنية الكاتدرائية القديمة، عام 1925م، وأنشأ فيها مسبكاً للأحرف العربية والسريانية واللاتينية والأرمنية.

قام المطران يوسف مطر بدعوة من البابا بيوس التاسع بزيارة روما عام 1868 باليوبيل الثامن عشر للرسول بطرس، وسافر معه مطران الأرمن الكاثوليك ومطران الروم الكاثوليك بولس حاتم والسريان الكاثوليك المطران جرجس شلحت. وقام المطران يوسف بتقدير المسيحيين في حلب عام 1875.

الكاثوليك: لاتين 500 نسمة، موارنة 2000 نسمة، روم كاثوليك 7000 نسمة، أرمن كاثوليك 4200 نسمة، وسريان كاثوليك 2200 نسمة، ويصبح مجموعهم 16300 نسمة.

الأرثوذكس: الأرمن 1500 والروم 500 والسريان 200 ويصبح مجموع الأرثوذكس 2800.

أما مجموع المسيحيين العام فهو 19 ألف من مجموع السكان، والإسلام مئة ألف، واليهود 7000 نسمة.

صارت المطبعة التي أسسها المطران يوسف مطر 1857 تنشر الكتب الأدبية باللغة العربية، وفيها طبعت عائشة دباغ كتبها، والشيخ كامل الغزي كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب، كما أنها صارت تطبع جريدة الفرات الرسمية عام 1867. وكتب السالنامنة الرسمية لمدينة حلب. ومن أعماله التي لا تنسى، أن مدرسة راهبات مار يوسف التي فتحت في سنة 1857 بالاتفاق بين المطران يوسف مطر والأم روز.

الشيخ ناصيف اليازجي (1800- 1871)

وبلد في قرية كفر شما عام 1800 ودرس الأدب العربي، وحفظ ديوان المتنبي والبحتري وقرض الشعر وهو صغير وذاع صيته في سورية ولبنان، وكتب عدة مقالات مقلداً مقامات الحريري سماها مجمع البحرين، وكتاب فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء، كتبه وهو يعمل في خدمة الأمير بشير الشهابي، وله كتاب الجمانة شعراً، وكتاب عقد الجمان في علم البيان، وكتاب قطب الصناعة في المنطق، وخلف ثلاثة دواوين (نفحة الريحان، وثالث القمرين، والجمانة).

ومما قاله عندما سمع بسجن الأمير بشير الشهابي في المنفى بالآستانة عام 1850، قال:

حوادث الدهر تجري في البلاد على	مراتب الناس مقداراً بمقدار
إن الرياح تصيب النخل تقصفه	وليس تقصف غصن الشيح والغار
هب أنك الشمس في الأفلاك طالعة	هل تسلم الشمس من كسف وأكدار؟
سيفتح الله باباً ليس تعرفه	ومنهجاً غير ملحوظ بإبصار
إذا قطعنا رجاء النفس من فرج	فإننا قد قطعنا رحمة الباري

الشيخ إبراهيم اليازجي (1847- 1906)

هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي. ولد في بيروت عام 1847 وتعلم العربية على يد والده، وأولع بالشعر منذ صباه، وعكف على دراسة مؤلفات والده في البيان، ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت. وأصدر مجلة الطبيب عام 1884 مع صديقيه د. بشارة زلزل ود. خليل سعادة، ونشر في

مجلته مقالات علمية وطبية، ثم أصدر مجلة الضياء عام 1898، وأدارها ونشر فيها مقالات أدبية ولغوية ونالت رواجاً، واستمرت حتى وفاته 1906.

أحمد فارس الشدياق (1805- 1887)

ولد في قرية بعشقوت إحدى قرى كسروان، وتخرج من مدرسة عين ورقة المدرسة التي اسسها البطريرك يوسف اسطفان عام 1789، وكان لها تأثير في نهضة الموارنة العلمية، وكانت أول مدرسة وطنية، درس فيها العربية والإنكليزية، ثم ذهب إلى القاهرة ودرّس في الكلية الأمريكية بالقاهرة ثم دعي إلى مالطا عام 1834 لتدريس اللغة الإنكليزية بالمدرسة الأمريكانية، وانتحل المذهب الإنجيلي، وأثناء زيارته لباريس التقى بباي تونس الذي دعاه إلى تونس وترأس تحرير جريدة الرائد التونسي، وأسلم في تونس. ثم ذهب إلى الآستانة وأنشأ فيها جريدة الجوائب، وتوفي هناك عام 1878، ولكنه أوصى أن يدفن بالحازمية في بيروت.

وترك أحمد فارس الشدياق عدة كتب منها معجمه المشهور باسم (الجاسوس على القاموس) ومعجمه الإنكليزي العربي (الباكورة الشهية في اللغة الإنكليزية) وكتاب الليالي في القلب والإبدال، وكتاب غنية الطالب ومنية الراغب، وكتاب الواسطة في معرفة أحوال طالمة، وكتابه المشهور الساق على الساق في ما هو الفارياق، والفارياق اسم منحوت من اسمه والكتاب وصف فيه رحلاته في أوروبا ومجموعة مقالات أدبية ولغوية.

الشيخ بطرس البستاني (1819- 1883)

ولد في قرية الدبية في لبنان، وتعلم في مدرسة عين ورقة، ودرس فيها اللغات الشرقية والعربية والسريانية والإنكليزية والعبرية، ثم درًس في مدرسة عبية الأمريكية درًس فيها اللاهوت، وكان مارونياً متحمساً، ثم عمل في القنصلية الإنكليزية، واعتنق المذهب البرزيتري عام 1840. وعاون كرنيليوس فانديك في مدرسة عين عبية 1846 وصار في الوقت نفسه مترجماً في القنصلية الأمريكانية. وخلال هذه الفترة عاون الدكتور غالي سميث في ترجمة التوراة إلى العربية.

أنشأ الشيخ بطرس البستاني أول مدرسة وطنية في بيروت لتعليم اللغة العربية عام 1863، وأصدر مجلتين أسبوعيتين: مجلة نفير سورية 1860، والأخرى مجلة الجنان 1870. ونشر فيهما المواضيع الأدبية والوطنية والدينية، دافع فيهما عن حرية المرأة وحارب الخرافات والتعصب الديني، وصنف دائرة معارف البستاني وأصدر منها

ستة أجزاء وأكملها ابنه سليم وقريبه سليمان البستاني بعد وفاته، فكانت في ثمانية أجزاء، ووضع بطرس البستاني معجماً سماه محيط المحيط، واستدرك عليه معجماً آخر سماه قطر المحيط عام 1860.

المعلم سليمان البستاني (1856- 1925)

ولد في قرية بكشتين (جبل لبنان) ودرس العربية والسريانية والإنكليزية في المدرسة الوطنية في بيروت ثم أكمل دراساته للغات الأجنبية الأخرى بجهوده الخاصة فتعلم تسع لغات منها اللغة اليونانية ودرس الرياضيات والفلك والكيمياء والحقوق والتجارة فكان موسوعياً في فكره، وطاف في الجزيرة العربية وزار العراق واختلط في البدو، ثم عاد إلى بيروت.

وفي سنة 1887 شرع بتعريب الإلياذة وأكمل تعريبها في صيف 1895م، وعين وزيراً في الآستانة وعكف على ترجمته للإلياذة، يعدل ويذيل وأكمل عمله في 1903، وصارت مقدمته مثالاً للأدب المقارن. وفي سنة 1913 قبل بداية الحرب العالمية الأولى ذهب إلى مصر، وأخرج ديوانه الشعري (عبرة وذكرى) وفي عام 1924 رحل إلى أمريكا، وتوفي هناك عام 1925م.

ومن الصدف الطريفة أن الطبيب الموراني تيوفيل بن توما (المتوفى 786) ترجم الإلياذة إلى السريانية في غاية الفصاحة، ثم ترجمها من بعده اسحق بن حنين إلى العربية.

الخوري جرجس منش (1873- 1938)

ولد رشيد بن فرنسيس منش في حلب (12 كانون أول 1873) لأسرة مارونية، ودرس في المدرسة المارونية بحلب، ثم قصد لبنان، ودرس في المدرسة الأكليركية، وأتقن اللغات العربية والسريانية والإيطالية، ودرس الفلسفة واللاهوت وتفسير الكتاب المقدس ومبادئ الجدل والخطابة. ثم رقي إلى درجة الكهنوت عام 1895، وأخذ اسم جرجس ودرس العربية في المدرسة المارونية في لبنان، وانتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي في دمشق، وترك عدة كتب، منها:

1) كتاب التحفة الأدبية في ثلاثة مجامع مارونية طبع في حلب 1904.
2) المستطرفات في حياة المطران جرمانوس فرحات نشره عام 1904.
3) الفروض القانونية في كنيسة حلب المارونية عام 1924.
4) الحق القانوني عند الموارنة طبع في حلب عام 1925.

5)الطرفة الشهية طبع في حلب 1907.

وهو صاحب فكرة إقامة تمثال للمطران جرمانوس فرحات في حلب. توفي الخوري جرجس في 13 كانون الثاني 1938م.

ومن الموارنة أدباء وشعراء وكتاب وفلاسفة لا يمكن حصرهم وأكثرهم في لبنان بعد الاستقلال عن سورية عام 1943م.

مراجع: السريان وطوائفهم

1)ذخائر لبنان ص48، إبراهيم بك الأسود بعبدا لبنان 1896.

2)تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الشام) ص63، فيصل العبد الله جامعة دمشق 2003.

3)البدء والتاريخ ج1 ص62، طاهر بن المطهر المقدسي نشر كليمن هيوار دار المثنى بغداد.

4)تاريخ ميخائيل الكبير ج3، ص387، ترجمة المطران صليبا سمعون، دار ماردين حلب 1996.

5)رسالة الرد على النصارى ص15، الجاحظ، تحقيق يوشع فنكل المطبعة السلفية القاهرة 1344هـ.

6)ذخيرة الأذهان ج1، ص130، القس بطرس نصري الكلداني، الموصل 1905.

7)الرد على النصارى، ص12.

8)اللغات الآرامية وآدابها ص7، الأب يوحنا شابو، تعريب أنطون شكري لورنس، القدس 1930.

9)الفهرست، ص438، ابن النديم تحقيق رضا تجدد طهران 1971.

(10)Kasemann. E Essays on New testment. P 162. London 1964.

11)تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية، ج1، ص108، سوريوس يعقوب توما دمشق 1953.

12)التاريخ المجموع ج1، ص117، يحيى بن سعيد البطريق تحقيق الأب لويس شيخو بيروت 1905.

13)عصر المجامع ص134، القمص كيرلس الأنطواني المطبعة التجارية القاهرة 1952.

14)محاضرات في النصرانية ص139، الشيخ محمد أبو زهرة مطبعة يوسف القاهرة 1966.

15)التاريخ المجموع ج1 ص159.

16)التثليث والتوحيد ص161، محمد عبد الحميد الحمد، دار الطليعة الجديدة، دمشق 2003.

17)اللؤلؤ المنثور ص226، أغناطيوس أفرام الأول برصوم، دار الرها حلب 1987.

18)ذخيرة الأذهان، ج1، ص238.

19)مدح اليعاقبة وإيمان السريان نقلاً عن كتاب ذخيرة الأذهان ج1، ص217.

20)تاريخ ميخائيل الكبير ج1، ص408.

21)تاريخ الزمان ص10، ابن العبري ترجمة اسحق حرملة دار المشرق 1986.

22)وحي القلم ج2، ص29- 30 مصطفى صادق الرافعي، القاهرة 1955.

23)أحوال نصارى بغداد ص71، رفائيل بابو اسحق مطبعة شفيق بغداد 1960.

24)اللؤلؤ المنثور ص19، مار أفرام برصوم، حلب 1953.

25)فتوح البلدان ص166 البلاذري تحقيق عمرو عبد الله أنيس الطباع دار النشر للجامعيين بيروت 1957.

26)الجزية والإسلام ص107 دانيل دينيت ترجمة فهيم جاد الله دار الحياة بيروت 1960.

27)مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص61، عبد العزيز الدوري دار الطليعة بيروت 1968.

28)سوسنة سليمان في العقائد والأديان ص146، نوفل أفندي نوفل المطبعة الأمريكية بيروت 1922.

29)التاريخ المجموع ج1، ص167، يحيى بن سعيد الأنطاكي تحقيق لويس شيخو بيروت 1905.

30)السريان نقلة حضارات، ص164، الأب الياس خليفة مركز الدراسات والأبحاث المشرقية أنطلياس 2005.

31)التوحيد والتثليث ص330، محمد عبد الحميد الحمد، دار الطليعة الجديدة دمشق 2003.

32)ذخيرة الأذهان ج2، ص86، القس بطرس نصري الكلداني، طبع الموصل 1913.

33)المصدر السابق ج2، ص140.

34)المصدر السابق ج2، ص210.

35)سوسنة سليمان ص160.

36)تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص140، فيليب حتي، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة بيروت 1959.

37)التوحيد والتثليث ص175، محمد عبد الحميد الحمد.

38)تاريخ الكنيسة الأنطاكية السريانية المارونية ص18-19 الخوري ميخائيل عبد الله الشبابي، بعبدا لبنان 1900م.

39)كتاب القصارى ص41، البطريرك أكليمنس داود، بيروت 1887.

40)السريان نقلة حضارات ص222.

41)التنبيه والإشراف ص131- 132 المسعودي عبد الله إسماعيل الصاوي القاهرة 1938.

42)المصدر السابق ص136.

43)فتوح البلدان ص217.

44)ذخائر لبنان ص89.

45)كتاب القصارى ص43.

46)الروم الملكيون الكاثوليك ص33- 34، المطران حبيب باشا المطبعة البولسية بيروت 1968.

47)سوسنة سليمان ص159.

48)تاريخ مختصر الدول ص127، ابن العبري دار المسيرة بيروت 1986.

49)تاريخ الأدب السرياني ص347، مراد كامل ومحمد حمدي البكري وزاكية محمد سري دار الثقافة القاهرة 1978.

50)تاريخ الأقطار العربية الحديث ص37، لوتسكي، ترجمة دار التقدم موسكو 1971.

51)المصدر السابق ص83- 84.

52)سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ص97، قسطنطين بازيلي ترجمة طارق معصراني دار التقدم موسكو 1989.

53)لوتسكي ص85.

54)المصدر السابق ص149.

55)أخبار الأعيان في جبل لبنان ص617، طنوس الشدياق بعبدا لبنان 1934م.

56)المستشرقون، ج3، ص1090، نجيب العقيقي، دار المعارف بمصر، القاهرة 1965.

57)المصدر السابق، ج3، ص1092.

58)المصدر السابق، ج3، ص1901.

59)المصدر السابق، ج3، ص1093.

الباب الثالث

الأكراد والتركمان

الفصل الأول: الأكراد وطوائفهم (السنة واليزيدية)
الفصل الثاني: التركمان وقبائلهم

الفصل الأول: الأكراد وطوائفهم (السنة واليزيدية)

- الأكراد في التاريخ القديم
- الأكراد والعرب
- اللغة الكردية والدين
- أهم الشخصيات الكردية

الأكراد في التاريخ القديم

الأكراد جماعة من الناس، تكونوا تاريخياً من خلال تفاعل اللغة والأرض والدين، وصارت تجمعهم ثقافة وعلاقات اقتصادية مشتركة، واستمروا في الوجود متعاونين من أجل إنتاج ضروريات الحياة، وصاروا مع مرور الزمن يميزون أنفسهم عن غيرهم بقولهم (نحن الأكراد). يقول الأنثروبولوجي الروسي برومليه: «لا يظهر الأثنوس (العرق) وفقاً لإرادة الناس، بل نتيجة التطور للعملية التاريخية، وهي تشمل أجيالاً عديدة من الناس، أي إن رسوخ جذور الأثنوس أكثر صفاته تميزاً»[1].

لماذا وجود اللغة هو الذي يميز الناس؟ لأن اللغة عنصر هام من عناصر الثقافة الروحية لكل أمة، وهي الحامل لخصائص العرق الذي يدل على الأصل المشترك. ولكن **للأكراد لهجات مختلفة، فهل يفقد الشعب الكردي حقه في هذه التسمية؟** لا، وإن كان للأكراد أربع لهجات مختلفة، فهذا لا يمنع أنهم يشكّلون وحدة ثقافية تميزهم عن غيرهم.

كان قانون التطور الاجتماعي قبل حلول العصر الصناعي، يتأثر بالوسط الجغرافي، أما في العصر الصناعي فأصبح أسلوب الإنتاج هو المؤثر أكثر من الوسط الجغرافي، وأصبحت الجغرافية مجالاً حيوياً يحث أو يبطئ التطور التاريخي.

والأكراد شعب عريق حافظ على تواجده في منطقة كردستان منذ الألف الأول قبل الميلاد، وعاشوا قبائل رعوية بجوار الآراميين والفرس والآشوريين والعرب، وصار لهم شعور قوي بالانتماء السلالي وكانت هذه الأخوة مبنية على الدين واللغة والعادات[2].

وتتحدث الموسوعة السياسية عن الأكراد، وتقرر أن أصلهم العرقي غير واضح، فهم لم يعرفوا في التاريخ كقوم ذي خصائص محددة إلا بعد اعتناقهم الإسلام[3].

فاعتقادي أن الأكراد لم يعرفوا في التاريخ القديم لأنهم قبائل رحل غير مستقرة ولم يملكوا معرفة بالتدوين الكتابي، وكانوا مسالمين لم يحرضوا الشعوب المجاورة للكتابة عنهم. يقول المؤرخ الكردي **محمد أمين زكي**: «يجب أن نعترف بأن منابع التاريخ القديم للشعوب الكردية لا يزال يخيم عليها حجب كثيفة من ظلام دامس»[4].

كان المؤرخ محمد أمين زكي رجلاً معتدلاً، وحتى المؤرخون المغالون مثل علي سيدو الكوراني، قال: «أعترف لقد اختلف المؤرخون في أصل الأكراد فتعددت نظرياتهم». ومثله اعترف الباحث جمال أحمد رشيد عندما يتعرض لعلاقة الأكراد بالآلان (الشركس الاستين) يقول: «وعموماً لم تتوضح العلاقة الكردية الآلانية عند الكثيرين، وخاصة عند الأدباء الأكراد، الذين صدروا مقدمات كتبهم المتعلقة بتلك القصص الدرامية، ببعض الآراء القصيرة المتعلقة بخلفية قصصهم الأدبية، وانتماء أبطالهم إلى أصول غير معروفة، بجانب أحداث تاريخية»[5].

وهذه الأحداث هي الأساطير التي ألصقت بتاريخ الأكراد زوراً وبهتاناً، كقول مؤرخي الفرس إن الأكراد جاؤوا من تناسل الإنسان الأول كيومرث مع امرأة من الجن، فكان نسلهم الكرد، ولكن المؤرخ الكردي فرج الله زكي في تقديمه لكتاب شرف نامه ينفي هذه الأسطورة وصلة الكرد بالجن[6]. وأنا أنفي هذه الصلة التي تتنافى والعقل.

الأكراد والوسط الجغرافي

للوسط الجغرافي دور كبير في نشأة المجتمعات الإنسانية وتطورها، فالسهول والمياه تملي على الناس النشاط الزراعي، وقيام الحضارة وبناء المدن والسدود، واختراع المحراث وقيام الدولة المركزية، وإيجاد مؤسسات ودواوين فيها للكتابة والتدوين كما هو حال بابل القديمة.

أما أهل الجبال فنشاطهم معظمه قائم على الرعي الجبلي، وعلى سفوح الوديان الخصيبة، حيث تقوم زراعات حقلية حول الينابيع، وقيام القرى ذات البيوت الطينية بلا أسوار. وتظل الثقافة تنتقل شفاهاً، ويظل التاريخ غامضاً وكما يقول وليم إيغلتن الابن: «يظل التاريخ وعدد السكان موضع حدس وتخمين، وتعود هذه المسائل إلى مزاج المؤلف الخاص المستند إلى سبب عملي، إلى أن يتم التوصل إلى إحصاء إثنولوجي دقيق في هذه البلاد»[7].

ولتحديد مكان كردستان اختلف الباحثون، فبينما يراه **فلاديمير مينورسكي** (1870- 1977): «إن كردستان بمعناها الشائع تعني الأرض التي يسكنها الأكراد لا الوطن التاريخي أو الجغرافي»، ويعلق الدكتور **شاكر خصباك** على مكان كردستان الحقيقي «هو كردستان الوطن وليست كردستان الانتشار، كما يتصورها غلاة الأكراد، وإن كان يتوزع عدد لا بأس به من الأكراد خارج حدود كردستان الحقيقي وخاصة سورية وروسيا»[8]. هذا اعتراف من مؤرخ كردي معروف بغزارة علمه.

أما عن أكراد سورية، فقد تحدث مينورسكي عن الأكراد في ولاية حلب فهم أقلية صغيرة بين العرب، وقصد منطقتي عفرين وعين العرب، ولم يتطرق المؤلف لأكراد الحسكة، لأن نزوحهم قد تم بعد عام 1926م.

ولكن هناك غلاة الأكراد الذين يجعلون خريطة كردستان تضم جميع بلاد الشام، كما فعل السيد علي سيدو الكوراني الذي جعل كردستان من جبال آرارات حتى الخليج العربي جنوباً، ومن جنوب زاغروس حتى البحر المتوسط غرباً، وهي عنده، بلاد واحدة بسكانها وعاداتها وتاريخها[9]. وهذا تزوير للواقع، يرد عليه المؤرخ الكردي محمد أمين زكي بقوله: «يعتقد بعض المستشرقين أن هذا الشعب القديم الذي كان يسكن منطقة قديمة كبيرة في جبال زاغروس، وهؤلاء الأصل الأول للأمة الكردية الحالية، وكان له بها حكومة مستقلة»[10]. والأكراد لم يعرفوا الحكومة المركزية طوال التاريخ.

ولكن الباحث الدكتور علي الشعيبي يعترض على وجود حكومة مستقلة للأكراد، وينفي وجود دولة للشعب الكردي، هذا الشعب الذي لا يعرف عن أصله وفصله ولا عن الشعوب المجاورة له، من أين جاؤوا؟ ومتى قدموا؟ لم يقدم لنا أي مستشرق أو باحث كردي منصف واحد، أنه كانت دولة للأكراد، وكل ما قدموه كانت تخرصات وادعاءات عريضة لا أساس لها[11].

لهذا يجب إعادة التاريخ القديم للأكراد أكثر من مرة، لأن المؤرخ يدخل عواطفه في أثناء صياغته للحوادث، فالتاريخ دائماً متحزب، وهو سلاح أيديولوجي بيد المؤرخ من أجل الوصول إلى غاياته، وهذا الاتجاه نجده عند أكثر الغلاة من كرد وعرب.

عاش الأكراد في الجبال الواقعة جنوب تركية الحالية، وشمال العراق وغرب إيران، وفي سورية عاشت أقلية في جبل عفرين، وكانوا في البداية رعاة، ثم استقروا وزرعوا أشجار الزيتون والرمان والتين، ورعوا الماشية. فكان الجبال لهم بمثابة وحدة اقتصادية مكتفية، واستمروا في معيشتهم في العهد العثماني دون صلة بالمدن المجاورة، ولم يكن لهم إلمام بالكتابة فعاشوا دون تاريخ مدون، مع علمنا أن أي جماعة من البشر يمكنها أن تعيش منعزلة عن الشعوب التي تجاورها، ويحدث تواصل لغوي كما حدث بالنسبة للغة الكردية في منطقة عفرين التي اغتنت بالمصطلحات التركية والعربية.

كان أكراد سورية مسلمين، وأحناف المذهب، وكانوا قبائل يرأسهم شيخ مشترك، ولكنهم مع مرور الأيام تحولوا إلى عائلات، وصار الشيخ (الآغا) يتزعم القرية، ودخلت بينهم عائلات عربية وتركية (تركمانية) فقبيلة رشوان التركمانية منذ 300 سنة أصبحت اليوم قبيلة كردية. يقول الباحث الروسي بيريميف: «مهما كان الشعب الذي أردنا التعمق في تاريخه، فلا بد من أن نصادف في كل مكان ما يمكن تسميته بلقاء

القبائل والشعوب واتحادها واختلاطها»[21]. ويعطينا كتاب (شرف نامه) للأمير الكردي شرف الدين حسين البدليسي خير مثال على ذلك، فهو يعترف أن معظم أغوات الأكراد من أصل عربي، كتب كتابه حوالي عام 1605م. وخير مثال على ذلك عائلة البدرخان من أصل عربي من أبناء خالد بن الوليد المخزومي القرشي.

الأكراد والعرب

لم يكن للأكراد تاريخ قبل دخولهم الإسلام، واتصالهم بالحضارة العربية. كان الفرس يعتبرونهم من نسل الإنسان والجن، ويقول المؤرخ العربي الطبري (المتوفى 925م) مستنداً إلى أقوال المؤرخين الفرس: «إن الأكراد هم أعراب الفرس»[13]. في رأي الطبري كثير من الصواب، فهم أعراب فارس لأنهم يعيشون في المنطقة الجبلية المسماة إقليم فارس، وكانوا يعيشون مهمشين في الجبال، لذا لم يدخلوا في الحضارة الفارسية، ولكن الأمر اختلف عندما فتح العرب أرض العراق وفارس ودخل الأكراد في الإسلام وصاروا جزءاً من تكوين الدولة العربية.

صار الأكراد في القرن الرابع الهجري يدّعون أنهم من أصل عربي، فدون أقوالهم المؤرخ العربي علي ابن الحسن المسعودي (المتوفى 957م)، قال: «ذهب قوم من متأخري الأكراد وذوي الدراية منهم ممن شاهدنا (332هـ/ 944م) قالوا: إنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن حرب بن هوازن. ومنهم من يرى أنهم من ولد سبيع بن هوازن، ولكن حرب وسبيع عند نسابة مضر لا عقب لهم. وإنما العقب لهوازن من بكر بن هوازن. ومن الأكراد من يذهب إلى أنهم من ربيعة ثم من بكر بن وائل، وقعوا في قديم الزمان بحروب كانت بينهم في أرض الأعاجم (فارس) وتفرقوا وحالت لغتهم وصاروا شعوباً وقبائل»[14]. ولكن المسعودي يعتقد أن الأكراد لا صلة لهم بالعرب وأنهم شعب مسلم لهم أصل خاص بهم.

متى ظهر اسم الأكراد في الدولة العربية؟ ظهروا عندما كانوا يتحالفون والأعراب ويهاجمون الفلاحين في القرى الآمنة، والتي كان سكانها عرباً وأكراداً وسرياناً في منطقة الموصل، فيعيثون فيها فساداً، مما دفع الخليفة المعتضد بن الموفق سنة (280هـ/ 894م) إلى الخروج إلى الموصل فأوقع فيهم وقتل من الأكراد والأعراب خلقاً كثيراً[15].

صار الأكراد عنصراً مفسداً في الدولة، فقتلوا في سنة 329هـ/ 941م، الوزير بجكم، قتلوه وهو يتصيد في نهر جور. وفي سنة (660هـ/ 1262م) نزل الأكراد من جبال زاغروس، إلى بلدة نينوى ونهبوا النصارى وقتلوا من وجدوه[16].

الأكراد وصلاح الدين الأيوبي

يتحدر صلاح الدين الأيوبي من قبيلة الروادية وهي قبيلة كردية تسكن في حدود أذربيجان، ونزل نجم الدين أيوب من بلدة دوين الأرمنية بالقرب من تفليس، ونزل إلى بغداد، وعين والياً على قلعة تكريت في سنة 540هـ/ 1146م، ولما قتل عماد الدين الزنكي في قلعة جعبر ودفن بالرقة، تسلم نجم الدين أيوب أبواب عسكر دمشق وصار أكبر الأمراء عام 543هـ/ 1149م، واتصل أسد الدين شيركوه بنور الدين الزنكي فأقطعه حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره. ولما توفي أسد الدين شيركوه أرسل الخليفة العاضد صاحب مصر في طلب صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي وخلع عليه وولاه الوزارة سنة 564هـ/ 1169م، ولما توفي الخليفة العاضد صار صلاح الدين نائباً عن نور الدين على مصر وقائداً للجيش، وجلب أخوته إليه، وصار الحكم بيد صلاح الدين ونائبه قرقوش الذي بنى قلعة القاهرة (توفي 1191م. خطب صلاح الدين للخليفة المستضيء العباسي، ولما توفي نور الدين سنة 569هـ/ 1174، وتولى الملك من بعده ولده الملك الصالح إسماعيل وكان عمره 11 سنة، خطب له صلاح الدين وضرب العملة باسمه، وتزوج والدته، وفي سنة (571هـ/ 1177م) ملك صلاح الدين قلعة اعزاز، ونازل الملك الصالح إسماعيل في حلب، ثم تصالح معه، وطلب منه الملك الصالح قلعة اعزاز فسلمها له ورحل إلى دمشق، وعندما توفي الملك الصالح (577هـ/ 1183) ملك صلاح الدين الديار الجزرية كلها، ولكن الموصل قاومته، وسار إلى حلب وتملكها وأصبح صلاح الدين سلطان مصر وبلاد الشام، وأخذ القدس عام (582هـ/ 1187م) ورحل عنها الفرنجة، ونال صلاح الدين شهرة واسعة في ديار الإسلام وأوروبا، وكان ملكاً حليماً كريماً حسن الأخلاق، متواضعاً صبوراً، وكان عفيفاً بأموال الدولة والرعية.

وعندما توفي يقول ابن العبري: «لم يجدوا عنده سوى ديناراً صورياً وأربعين درهماً ناصرياً»[17].

حدّ صلاح الدين من نشاط الأكراد وتعدياتهم القبلية، وصاروا يظهرون في الدولة، بصورة العلماء ومنهم ابن عمرو عثمان بن الحاجب (1175- 1259) كان من أئمة النحو، علّم في الجامع الأموي في دمشق له الكافية في النحو والشافية في الصرف، والمقصد الجليل في علم الخليل، ومختصر المنتهى في الأصول. ولكن ظل معظم الأكراد قبائل رعوية معاشهم على الرعي، وقد أبعدوا في القفر مجالاً. يقول ابن خلدون: «فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً هم والأعراب والتركمان في المشرق»[18]. ولأن الأكراد ظلوا يعيشون في الجبال وكانت تغلب عليهم القسوة والغلظة كالأعراب في البادية.

وفي عام 1185 ثار التركمان في أرمينيا والموصل على الأكراد، وسبب ذلك أن الأكراد نهبوا التركمان في بادية الشام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولكن التركمان قتلوا حوالي 200 كردياً، في منطقة ماردين، فاجتمع الأكراد من كل المناطق الجبلية التي يسكنوها في ديار بكر وطور عبدين، وبالمقابل تجمع التركمان من سهول منطقة الخابور والبليخ، وكان عدد الجموع المتقابلة حوالي 30 ألفاً، وجرت حرب طاحنة انهزم الأكراد شر هزيمة، وعملوا فيهم حد السيف حتى فني الأكراد من كل بلاد الشام وجزيرة ابن عمر[19]. وانطفأ الأكراد إلى جبال آرارات وزاغروس.

ولكن الأكراد في عام 1432م، استولوا على قلعة هيثم، وكان الأكراد والتركمان يتقاتلون عليها، لكثرة خيراتها والمناطق المحيطة بها. ذكر الأمير الكردي شرف الدين البدليسي، أن معظم الغلال التي كانت تأتي للأمراء البختيين تأتي من منطقة قلعة هيثم، وفي عام 1433م، نهب السلطان حمزة بن عرتمان التركماني قلعة هيثم، وطرد منها الأكراد، وساق سكان باسبرينا المسيحيين وأسكنهم منطقة ماردين، ولكن الوالي افتدى الأسرى بمبلغ باهظ واسترجعهم إلى منطقتهم، وكانت حوالي قلعة هيثم 50 قرية مسيحية من قبيلة المحلميَّة. ونتيجة الظلم أسلموا واندمجوا مع الأكراد، تخلصاً من الظلم، وكان عددهم حوالي 12 ألفاً. وصارت من قبائلهم الراشدية والمكاشنية وصورا والأحمدي ورشمل وقبالة ولاشنية واستل، وكان هذا أول استيطان كردي في تلك المنطقة[20]. والمحلمية يدعون أنهم عرب من قيس.

اللغة الكردية

اللغة هي روح الأمة، وتاريخها المجسد، واللغة اصطلاحاً كما يقول ابن خلدون: «اعلم أن اللغة في المتعارف، هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة، فتقرر في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها»[21].

وإن تساءل البعض عن تخلف اللغة الكردية، فمرد ذلك إلى أن الأكراد لم تكن لديهم دولة تهتم بشؤونهم الثقافية، فتوحد لهجاتهم القبلية، التي بقيت متفرقة ولا يفهم الكردي السوري الذي يتكلم اللهجة الكرمانجية على الكردي العراقي الذي يتكلم اللهجة السورانية إلا بتوسط ترجمان بينهما.

تحاول جامعة السليمانية في العراق توحيد اللهجات وتجد صعوبة في ذلك، لأن تغيير اللفظة أصعب من تغيير كنية الإنسان ويحاول المتعصبون للهجة السورانية فرضها على اللهجات الأخرى، ومع ذلك يدعي الغلاة «أن اللغة الكردية قد أفلحت في الحفاظ

على مفرداتها رغم عدم استعمالها الأدبي، ولم تتأثر إلا قليلاً باللغتين العربية والتركية»[22].

لا أعرف كيف توصل الدكتور عبد الرحمن قاسملو، وهو المفكر التقدمي إلى هذا الرأي الذي يتناقض ومنطق اللغات الحية، لأن اللغة مثل كل كائن حي تتأثر بالتواصل الحضاري والثقافة بين الشعوب، ولأن اللغة الكردية لم تدعُ إليها الحاجة لم يستخدمها علماء اللغة الأكراد أمثال ابن الحاجب، وللدكتور عمر موسى باشا رأي في اللغة الكردية السورانية بأنها لغة فارسية مشوبة بألفاظ عربية وخلدية، عراقية قديمة[23].

إن الباحثين الأكراد يتأثرون بالآراء التي توافق هواهم، فالحاكم الإنكليزي ميجرسون الذي ذكر في كتابه رحلة في كردستان قال عن اللغة التي يتكلم بها الأكراد الحاليون يقصد اللغة السورانية، هي لغة آرية ممتازة، وهي الوحيدة بين اللغات في الشرق الأوسط، سلمت من تأثير اللغة العربية، سوى بضع الكلمات الدينية. لقد نسي الميجرسون الذي قصد بقوله تغذية روح التعصب لدى الأكراد الغلاة، أن الأكراد مسلمون، يقرأون القرآن ويصلون باللغة العربية، واللغة الكردية لغة محادثة وشعر، ولم تكن لغة أدب وكتابة، وكانت متأثرة جداً باللغة العربية[24].

وهذا الرحالة التركي أوليا شلبي (1611- 1684) لأنه كان يتقن اللغة العربية استطاع أن يتجول بين الأكراد في جبالهم، ووجدهم في عام 1665 يتكلمون بأكثر من خمس عشرة لهجة، من بينها لهجة الزازا (الظاظا) والحكاري والسوراني والسنجاري والكرمانج، لأنه يعرف اللغة العربية لم يجد التفاهم معهم صعباً.

إن اختلاف اللهجات داخل اللغة الكردية يعود إلى اختلاف الوسط الجغرافي، ووحدتها يعود إلى وحدة الوسط الحضاري وهو الإسلام، وعندما قام الشاعر والنحوي الكردي علي الترموكي (1589- 1662) ولد في قرية ترموك في منطقة الهكارية وكان يعلم النحو العربي في الموصل، وحاول توحيد اللغة الكردية قياساً على اللغة العربية، وقد أفلح بتأليف أول كتاب في النحو الكردي. وجعل شواهده من اللغة العربية، أحياناً لتوضيح المعنى إذا استعصى عليه، وحين نظم الشاعر الشيخ أحمد الخاني الذي كتب قصة (مم وزين) وجعلها تعظيماً لله تعالى اقتبس من القرآن الكريم، وقد ترجمها الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي إلى العربية.

أهم اللهجات الكردية

1) اللهجة الكرمانجية: لغة الأكراد في تركيا وإيران ودهوك في العراق وأكراد سورية.

2) **اللهجة اللرية**: وتسمى اللغة الكرمنشاهية، وهي لهجة الأكراد الذين يسكنون كردستان الشرقية.

3) **اللهجة السورانية**: لغة الأكراد في المناطق الممتدة من جنوب بحيرة أورومية كما تسود المناطق التي تسود حول السليمانية، ويتكلم بها عشائر جبل هارومان، والجاف والزيارية والكاكائية في محافظة كركوك وديالة وأربيل، وفي منطقة مهباد في شمال غرب إيران.

4) **لهجة الظاظا** وتسود منطقة ديرسيم في شرق تركيا وهي لهجة عشائر الدوملي والدونبلي.

لا يوجد باللغة الكردية أي تراث فكري يستحق التنويه عنه. قال **الدكتور عبد الرحمن قاسملو**: «وليس للغة الكردية إلى الآن ما يعتبر شكلاً أدبياً موحداً جديراً بالاعتبار»[25]. وطموح الأكراد إلى أدب يعبر عن طموحهم. قال **الشاعر نزار قباني**: «إن اللغة لا تنفصل عن طموح الأمة، وعنفوانها، وكما لا يمكن فصل الثمرة عن قشرتها، والزهرة عن أريجها، والشجرة عن ظلها، كذلك لا يمكن فصل الكلام عمن يتكلمونه، ففي عصور الانحطاط تنحط اللغة، وفي عصور الكبرياء تكبر اللغة وتضيء وتتوهج»[26].

الدين عند الأكراد

الأكراد شعب مسلم، وإن كانوا من مذاهب مختلفة، وفيهم طرق صوفية متعددة نشأت من رواسب ديانات قديمة كالزرادشتية والمانوية، وظهر دعاة دعوا باسم الإسلام. ففي عام 829 ظهر داعية كردي أيام المأمون، ادعى أنه المهدي المنتظر، وتبعته جماهير غفيرة من الأكراد، وكانت غايتهم النهب والسلب، وعاثوا في منطقة طور عبدين وآمد نهباً وتقتيلاً، وتحصنوا في الجبال، وهاجمهم حاكم المنطقة فهرب المهدي المزعوم إلى أرمينيا وهناك قطع رأسه[27].

كل الأكراد تجذبهم الطرق الصوفية وتثير نزعاتهم الوجدانية الرموز والتفسيرات الروحية، وكان الرمز يحمل بالضرورة ملابساته الفكرية، وأهم هذه الطرق:

1) طريقة أهل الحق

مؤسس هذه الطريقة هو السلطان اسحق، وترتبط تعاليمه بالنور والظلام وتبعه خلق كثيرون، وتربته في الشطر الأيمن لنهر ديالي بمنطقة هوراماني لوهيم ومن شيوخ هذه الطريقة المقدسين بابايدكار في منطقة زكاو، ولديهم طقوس سرية تقام على ضوء

الشموع، لذا يسميهم الأكراد المجاورون شمع كشان أي حملة الشموع[28]. ومن تعاليمهم القديمة التي لم يستطع الإسلام القضاء عليها في ديرسيم، فكرة التجلي الإلهي في علي بن أبي طالب، ويعللون هذا التجلي كتجلي الملاك جبريل للرسول (ص) بصورة دحية الكلبي، وهكذاتظهر الروحانيات في ثوب الجسمانيات، وإن الرسول أرسل ابن عمه علي هادياً، وإن القرآن المتداول بين أيدي الناس ليس هو القرآن الحقيقي الذي أحرقه عثمان والذي بدله الناس. وعندما قتل الإمام علي ارتفع إلى السماء، واندمج في قرص الشمس التي لا تتحرك إلا بأمره، لذا يقولون عن عين الشمس (علي إلهي) وأما الفلك الرابع فهو جواده ويقولون بالتقمص، وأن الموت لديهم كالوزة التي تختفي تحت الماء لتظهر في مكان آخر.

تنتشر هذه الطريقة بين عشائر الأكراد والكوران وفي منطقة ديرسيم ولهجتهم لهجة الظاظا، وكتابهم يدعى (سارانجام) وهو مكتوب بلهجة الزازا، يقول مينورسكي: «القضية المحورية هو أن الألوهية تظهر سبع مرات في العالم، وقد ظهرت آخر مرة في علي بن أبي طالب»[29].

ومن محرمات أهل الحق، أكل اللحم، يوصون أتباعهم: لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوانات، ويقدمون في أعيادهم السرية قرباناً من الخبز واللحم المسلوق، والخمرة المقدسة عندهم وهي عبد النور. وهذه من رواسب الفكر المانوي.

2) الطريقة البكتاشية

هذه الطريقة الصوفية، ذات أفكار هرمسية واضحة وجلية، باطنها العرفان. أسسها **الشيخ بكتاش النيسابوري** (المتوفى 1337م) دعا فيها إلى المساواة بين جميع الأديان، ونفي الشعائر والطقوس كالصلاة والصوم، وقال بعدم فائدتها إذا التزم الإنسان بالفضائل، وقالوا: إن المتقن الحكيم لا يصد الشر والظلم عنه، ويؤمنون بالثالوث المقدس (الله، محمد، علي). ويوزعون في عشائهم السري النبيذ والخبز والجبن، وهو يصادف كل يوم اثنين في صحن التكية (أوضه سي) ويعتقدون بالتقمص، والخمرة عندهم غير محرمة، ونساؤهم غير محجبات، ولكن الزنا عندهم محرمٌ، ويعيش فريق منهم عيشة العزوبية، محرمين الاتصال بالنساء، ويجلون شيوخهم، ويعترفون لهم بخطاياهم ليقبلوا منهم المغفرة، ويدعى شيخهم الأكبر (جلبي) ومذهبهم مشترك بين العرب والأكراد الملية حول ويران شهر وحران، وكان منهم تمرياش الملي.

يقدس البكتاشية الإمام علي وفاطمة الزهراء، وأولادهما الحسن والحسين، ويقتصرون على ثلاث صلوات (أطراف الليل وآناء النهار) ويمتنعون عن قص اللحى

والشوارب، ويتواجدون في العراق في محافظة دهوك. يقول عنهم الأكراد السنة، إنهم من أبناء الأسرى الذين سلمهم تيمورلنك للشيخ حيدر الذي قبره في (قب حيدر) شرق حران، ويضعون على رؤوسهم عصابة حمراء فيقال عنهم قزلباش. ولهم مزارات في بيردبور في جبل هاورمان، ومزار ثان في قرية زروا في جبل دلاهو. وهم اليوم كثيرون في تركيا. ولهم علم بأسرار الحروف، فالألف رمز للوحدة الإلهية المطلقة، وقالوا: إن حرف الباء هو حرف القرآن الأول وباقتران الباء والسين (بس) أي كفاية الفارسية. فالقرآن يكفي للدنيا والآخرة، والميم يرمز للرسول الكريم محمد، وهو الإنسان الكامل.

3) الطريقة النقشبندية

هذه الطريقة تنتشر بين الأكراد السنة، ويعتبر مؤسسها الشيخ بهاء الدين محمد النقشبندي البخاري (المتوفى 1389) ومن تلاميذه الشيخ خالد بن حسين الشهير بالنقشبندي (المتوفى 1826) ولد بالقرب من السليمانية في قرية بيارة ورحل إلى بغداد ودرس الفقه ثم انتقل إلى القدس ودمشق 1813، وسمع الحديث من الحافظ مصطفى بن محمد الكردي، والفقه على الشيخ محمد الكزبري. وكان من كبار علماء الشام، ثم عاد إلى السليمانية مسقط رأسه وانتشرت الطريقة النقشبندية بين عشائر الجاف والزبارية والبرازنية، مما أثار حسد أصحاب الطرق الأخرى كالطريقة القادرية والرفاعية. قال عنه المقيم البريطاني وليم ريج في يوم 25 تشرين أول عام 1820: «اختفى الشيخ خالد الشهير بالنقشبندي مصطحباً معه زوجاته الأربع وأولاده، هاجر من غطرسة حاكم السليمانية الباشا البابابي بتحريض من شيخ الطريقة القادرية المنافسة وشيخها معروف البرزاني الذي كان يكرهه لأن الشيخ خالد تفوق عليه»[30]. وأخذ عنه أتباعه.

كان الشيخ خالد عالماً وشاعراً وحافظاً لحديث رسول الله، مما أذاع الطريقة النقشبندية في الشام وما حولها. وظل يدرس في مساجد ركن الدين حتى وفاته عام 1826، ودفن في المقبرة التي نسبت إليه وأقيمت فوقه قبة، وخلفه ولده كاكا أحمد (1793- 1887م) ودفن بالقرب من ضريح والده داخل القبة.

والطريقة النقشبندية من أكبر الطرق في سورية ولبنان وتركيا والعراق. ويقال إن أتباعها حوالي 15 مليون نسمة. ومن أتباعه الشيخ أحمد كفتارو مفتي الجمهورية العربية السورية، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، وفي حلب وحمص ودير الزور والرقة والحسكة وغيرها وفي بيروت لها أتباع.

4) الطريقة العدوية (اليزيدية)

ينتشر اليزيدية في منطقة لالش، في قضاء الشيخان وسنجار فديار بكر وسورية. تنتسب الطريقة العدوية إلى الشيخ الصوفي عدي بن مسافر الأموي (المتوفى 1163م) وأصله من البقاع، درس في دمشق، ورحل إلى بغداد ورافق الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ عقيل المنبجي، ثم انتقل إلى منطقة الموصل وبشر بطريقته بين الأكراد، وكثر أتباعه، وخلفه ابن أخيه حسن وأولاده، وتبعته قبائل علاء الدين وبكران وآل دوجي وبيت خالتي وهبابات وحسكان وقميران ومندكان ومهرخان ومشغرة وصموكة، حتى بلغ عددهم حوالي 20 ألف نسمة.

وهم يعظمون يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويسمون أنفسهم داسناي ويسميهم جيرانهم الأكراد (ايزيدية) والاسم مأخوذ من يزدان (الكائن الأعلى). وديانتهم مزيج من اعتقادات الإسلام والمانوية.

كتب الأمير حسن بن مسافر الأموي (الملقب بالحسن البصري) كتاب الجلوة تكلم فيه عن الله والأزل، وفي سنة 1342م، ألف الحاج محمد البعشيقي كتاباً عن لسان عدي بن مسافر سماه (مصحف رش) أي المصحف الأسود، جاء فيه أن الله الذي لا حد له ولجوده ومحبته للخلائق لا يفعل بهم شراً لأنه صالح، وله قرين هو إبليس (الشيطان) هو بطبعه منقاد إلى عمل الشر، والحكمة تقتضي على من يريد السعادة أن يقدم الولاء لإبليس (طاووس ملك)، ويمثلونه بتمثال من النحاس الأصفر، يشبه الديك.

يصلي اليزيدية في الصباح والمساء، وصلاتهم عبارة عن أذكار وأدعية بالعربية والكردية والفارسية، ويفرض عليهم الصيام ثلاثة أيام متتالية في شهر كانون الأول من كل سنة، وإن الصيام في الإسلام أساسه ثلاثة أيام لا ثلاثين يوماً (سه روز) لا (سي روز). والحج عندهم إلى مرقد الشيخ عدي بن مسافر في عين سفني[31].

وصف الباحث الآشوري يوسف مالك مرقد الشيخ عدي: «إن على جدران الضريح رسم للثالوث الحراني (الشمس والقمر والنجوم) وصورة لثعبان كبير، وإلى جانبهما آية الكرسي، وقال: «في عقيدتهم يطلقون على الكائن الأسمى (الله) اسم يزدان، وأعظم الأرواح السبعة هو طاووس ملك والثاني ملك عيسى، وهو السيد المسيح، ويستطيع أمراؤهم الأمويون الزواج بأكثر من امرأة ويمارسون الختان، ويحرمون لبس اللون الأزرق، كما يحرمون التلفظ باسم (الشيطان) وكل كلمة تجمع حرفي الشين والطاء»[32].

وعيدهم الكبير في يوم الأربعاء من أول شهر نيسان يزورون مرقد الشيخ عدي ويزورون المقابر بالطبل والمزمار ويرقصون حول القبور، ويأكلون ويشربون، وفي

الخميس الثاني يجتمعون في بعشيقه عند قبر الشيخ حسن البصري الملقب بالفردوسي (فردوشي) ويعتقد اليزيدية أنه على رأس كل ألف سنة ينزل الله من السماء ليسنَّ لهم قوانين وشرائع جديدة[33].

لا يغسل اليزيدية وجوههم في الصباح لأنهم اغتسلوا بالماء المقدس من مزار الشيخ عدي في لالش. ويحرمون أكل الخس ولحم الغزال والديك الأبيض والسمك الجري (الحنكليش) ويضحون في كل سنة بثور أبيض عند قبر الشيخ عدي في 5 أيلول من كل سنة.

يحرم الزيدية قص الشوارب، ومعظمهم يلبسون الثياب البيض، وطواقي القوالينف سود صغيرة، ولليزيدية ترتيب طبقي:

1)يرأسهم أمير أموي من أولاد الشيخ عدي بن حسن العدوي (الحسن البصري) والأمير أموي موصوف بالكمال، وهو الآمر الناهي في الشريعة.

2)البير (الجد) وهو الذي يتولى شؤون الصيام والإفطار والصلاة، وهو من أولاد حسن البصري. وهم عرب أمويون.

3)الرهوال، يتولى سدانة مرقد الشيخ عدي، وهو من أولاد الحاج محمد البعشيقي. وهم من أصول عربية.

4)الكوجك، يتولى مراسم الدفن وما يتعلق بالموتى، وتفسير الأحلام وكشف الطالع والبخت.

5)الفقير، وهو الذي يلبس خرقة الشيخ عدي، ولونها أسود وله مقام روحي عظيم عند اليزيدية، ويعلم الأطفال والكبار الرقص حول التربة.

6)القوال، يتولى التطواف بتمثال طاووس ملك، وينشد بالعربية والكردية ويعلم الأطفال ضرب الدف وحفظ التراتيل والأناشيد. وأصول القوالين من العرب.

7)الإمام، يعلم الأطفال حفظ كتابي الجلوة ومصحف رش، ويشرح للكبار الطقوس الملية السرية.

هذه الطبقات تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء.

الوضع الحالي للعائلات والعشائر الكردية

الأكراد خلال تاريخهم الطويل، يرغبون بسكنى الجبال، ويعزفون عن سكنى المدن. ومنذ القرن الثالث عشر للميلاد، سكنوا جبل عفرين وحصن الأكراد، وسفوح جبل قاسيون (في ركن الدين). وفي القرن العشرين سكنوا محافظة الحسكة، جاؤوا من سنجار ومن جبال ماردين وطور عبدين. وكانت هجرتهم الحديثة على أثر فشل ثورة

الشيخ سعيد بيران الإسلامية عام 1926، عندما تعرض الأكراد للمذابح في الدولة التركية الحديثة من قبل أتاورك.

وعدت الدول الغربية الأكراد بدولة مستقلة في معاهدة سيفر 1920، وتخلوا عنهم في معاهدة لوزان 1923، إرضاء لكمال أتاتورك.

شارك الأكراد في الحياة الاقتصادية والسياسية من خلال نضال الشعب السوري.

1)عشائر الأكراد في الجزيرة

يعيش الأكراد قبائل في القرى القريبة من القامشلي، محتفظين بأنسابهم كالعرب. يقول الدكتور عبد الرحمن قاسملو: «القبيلة الكردية تنشأ من جد واحد، ولكن القبيلة قرية أو عدة قرى» ومن تلك العشائر:

1-عشائر الهفركان

يتواجدون في منطقة المالكية (القبور البيض) ومشيختهم في عائلة أكرم حاجو، وفي زمن الانتداب الفرنسي، ذاع صيته لأنه ساير الانتداب، وحمى الأرمن والمسيحيين السريان من مذابح الأكراد.

2-عشائر الدقورية

يقطنون القرى بين القامشلي والدرباسية على الحدود السورية التركية، وقد اشترك الزعيم الوطني سعيد آغا الدقوري بالثورة ضد الانتداب الفرنسي، وهرب إلى العراق. وتنضوي عدة عشائر تحت زعامة الدقورية هي حسنان وعباسان، وعليان، وحمكان، واشتيان، وتمكان، وتغلب على هذه العشائر النزعة الوطنية، ومنهم الشاعر التقدمي جكرخوين، والدكتور عبد الرحمن قاسملو، والمفكر والقائد السياسي قدري جميل عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري.

3-تحالف عشائر الكاباكا والكاباره وسيدان

تتواجد هذه العشائر بين عاموده في الشمال، والحسكة في الجنوب، ومعهم عشائر الكيكية والمرسينية والدوكان والميركان وبوبلان، وملاني وخضروان. وكلها اشتركت في الثورة ضد الانتداب الفرنسي.

4-تحالف العشائر الملية

هذا التحالف العشاشري الكردي - العربي، تكوّن عام 1802، من حوالي 23 عشيرة وأطلق عليها اسم (هزار ملة) أي ألف ملة، وفيهم من العرب عدوان والبقارة والشمطة والجبور، ومن الأكراد اليزيدية، الأوسو الذين زعامتهم في عائلة حسين القنجو، وقد شكلوا في زمن إبراهيم باشا (الفرسان الحميدي) وانحل هذا الحرس عام 1908، عندما خلع السلطان عبد الحميد الثاني.

2)أكراد محافظة حلب

يعيش أكراد المحافظة في منطقتين، عشائر عين العرب، ومن هذه العشائر (الشيخان وكتيكتان، وبيزان وشوران ودنان وقره كيجان وأوكيان وديدان وزوران (البرازية) ومعافان، وآغا هذه القبائل بوزان آغا).

أكراد عفرين: لا يعرفون النظام القبلي، وإنما يتبعون نظام العائلات، ويعيشون في القرى على زراعة الزيتون. قام الوطني إبراهيم الخليل آغا (1938- 1939) بالثورة على الإقطاع وكان مدعوماً من قبل الكتلة الوطنية، واتهم بالشيوعية.

أكراد جبل الأربعين: هؤلاء الأكراد لا يتكلمون اللغة الكردية، وإنما لغتهم هي اللغة العربية، وقد ثاروا بقيادة البطل إبراهيم هنانو (1869- 1935) واشتركوا في الثورة السورية الكبرى.

3)أكراد دمشق وحمص والعشارنة

سكن الأكراد مدينة دمشق في العهد الأيوبي، واندمجوا مع السكان العرب، وتكلموا اللغة العربية وصاروا جزءاً من الشعب السوري، وبرز منهم قادة وعلماء، كان لهم الفضل في تقدم سورية.

أما أكراد حمص جاء بهم شبل الدولة نصر بن مرداس عام 1035م، وأسكنهم حمص وحصن الأكراد ليقفوا في وجه الفرنجة، وعندما أخذ الفرنجة حصن الأكراد عام 1136 جاء قسم منهم إلى الرستن، وظلت عائلات منهم في الحصن ومنهم عائلة سيفا القوية، ولكن متصرف طرابلس شاهين باشا قتل الأمير عساف بن سيفا الكردي عام 1640، وهجَّر أفراد عائلتهم إلى دمشق.

أما أكراد منطقة العشارنة فإنهم من الأكراد اليزيدية الذين هاجروا من منطقة سروج إلى منطقة العشارنة وكان زعيمهم يدعى إبراهيم وسكن قرية سميت باسمه إلى جانب الأكراد المسلمين، وكان اليزيديون لا يلعنون الشيطان مما جلب عداء الأكراد المسلمين الذين حرموا أكل ذبائحهم وصار في العشارنة طائفتان أكراد إبراهيم اليزيدية وأكراد عثمانولا المسلمين(34).

شخصيات كردية بارزة

برزت في سورية كثير من الشخصيات الوطنية والعلمية، ولم يتميزوا عن السكان السوريين، لا في اللغة ولا الثقافة، ومنهم:

العلامة محمد كرد علي (1876- 1953)

هذا العالم متعدد المواهب فهو مؤرخ وأديب وصحفي وسياسي، كان رئيس المجمع العلمي في دمشق، ووزيراً للمعارف السورية، كان محمد سليل أسرة كردية، هاجر جده مزيد بن عبد الرزاق إلى دمشق، مع الشيخ خالد النقشبندي، واشتغل بالتجارة وتزوج ولده كرد علي من امرأة شركسية عام 1870، فولدت له ولده محمد عام 1876، واعتنى بتدريسه، فدرس اللغة العربية والتركية والفارسية والفرنسية، ولازم الشيخ طاهر الجائري (1852- 1920) وكان معاونه في إنشاء دار الكتب الظاهرية، فطالع محمد كرد علي أمهات الكتب العربية ودواوين الشعر، وأصدر جريدة الشام، وزار مصر عام 1901، وحرر في جريدتها المؤيد والمصري، وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، وعاد إلى دمشق 1905، واتهمته السلطات العثمانية بالنزعة الاستقلالية، فهرب إلى مصر وعاود الاتصال بالحركة الثقافية، وأنشأ جريدة المقتبس 1906، وتولى تحريرها والكتابة في جريدة المؤيد. وحين نشبت الحرب العالمية الأولى (سفر برلك) عام 1914، استدعاه جمال باشا من مصر وعهد إليه تحرير جريدة الشرق وظلت تصدر حتى أواخر عام 1916م، وترك التحرير فيها لاختلافه مع سياسة جمال باشا.

وفي العهد الفيصلي أسس المجمع العلمي في 30 تموز 1919، وظل رئيسه حتى عام 1953، وفي فترة الانتداب 1920، أصبح وزيراً للمعارف في وزارة جميل الألشي، وفي سنة 1934 عين عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة وكتب عدة كتب من أهمها: خطط الشام، وغرائب الغرب، وغابر الأندلس وحاضرها، ودمشق مدينة السحر والشعر، والإدارة الإسلامية، والإسلام والحضارة العربية، وأمراء البيان، وحقق تاريخ أحمد بن طولون وكتاب فلاسفة الإسلام، وكتاب المذكرات.

الثائر إبراهيم هنانو (1869- 1935)

ولد إبراهيم بن سليمان آغا في بلدة كفر حارم عام 1869ن، ودرس في المكتب العثماني في الآستانة، وعين حاكماً لمدينة سيواس عام 1908، ثم عاد إلى حلب في العهد الفيصلي، وانتخب عضواً في المؤتمر السوري بدمشق، وعندما دخل الفرنسيون إلى سورية عام 1920، قام إبراهيم هنانو بثورة جبل الأربعين، وعندما فشلت الثورة هرب إلى عمان، ولكن السلطات الإنكليزية اعتقلته وأعادته إلى سورية، وحكم عليه بالسجن، ثم أطلق سراحه، وتفرغ للعمل الزراعي في بلدته كفر تخاريم حتى وفاته في حلب في تشرين الثاني 1935، ودفن في حلب. ورثاه الشاعر عمر أبو ريشة:

هنانوا أي صاعقة أقضَّت ومن كهنانو يوم زحف الكتائب؟

سـل الوطـن المفجـوع عنـه فإنـه ينـوء بعـبء الحـزن جمـع المعـاطب

رئيس الجمهورية محمد علي العابد (1872- 1939)

ولد محمد علي بن أحمد عزت باشا العابد في دمشق عام 1872، وأكمل دراسته في الآستانة. ثم أكمل دراساته في باريس حيث درس الحقوق، وعاد إلى الآستانة عام 1903، وعين وزيراً مفوضاً لتركيا في واشنطن (1905- 1908). ثم عاد إلى دمشق فترة من الزمن ومارس المحاماة، وأثناء الحرب العالمية الأولى تجول في سويسرا وفرنسا وإنكلترا. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى مصر. وفي عام 1922 عاد إلى دمشق، وعين وزيراً للمالية، فأبدى إخلاصاً وكفاءة، ثم انتخب رئيساً للجمهورية السورية (1932- 1936) ومارس المحاماة ومرض وذهب إلى باريس للعلاج. وفي 22 تشرين الأول 1939 توفي ونقل جثمانه إلى دمشق. كان الأكراد في سورية جزءاً من الشعب السوري، ولم تكن هناك تفرقة حتى هجرة الأكراد من تركيا إلى سورية بعد الحرب العالمية الثانية، وبعدها صار الأكراد الغلاة يطالبون بالانعزال عن الشعب السوري.

الرفيق خالد بكداش (1912- 1995)

ولد في دمشق في 15 تشرين عام 1912، في حي ركن الدين من أسرة كردية، واشترك والده بكداش قوطرش الضابط العثماني في معركة ميسلون في 24 حزيران 1920م، ولم يخدم في الجيش الفرنسي.

درس الطفل خالد بكداش في مدارس ركن الدين الابتدائية، ودرس الثانوية في مدرسة التجهيز وحصل على الثانوية في صف الفلسفة والرياضيات عام 1930، واشتغل في الصحافة الوطنية وصار يعطي دروساً خصوصية في اللغة العربية والفرنسية والرياضيات، وانتسب إلى الحزب الشيوعي عام 1930، وفي سنة 1931 اعتقل وأحيل إلى المحكمة، وفي المحكمة وقف يحاكم الاستعمار الفرنسي ويدعوهم إلى الرحيل، وحكموا عليه بالسجن لمدة عام.

انتسب الشاب خالد بكداش إلى الجامعة السورية (كلية الحقوق) عام 1932، وساهم في إخراج جريدة (الفجر الأحمر) وترجم البيان الشيوعي. وفي عام 1934 غادر دمشق إلى موسكو لدراسة الماركسية، وهناك حضر المؤتمر السابع للأممية، وانتخب عضواً في رئاسة المؤتمر عن الحزب الشيوعي السوري، تحت اسم سري

(رمزي). وفي عام 1936 سافر إلى باريس لمساعدة الوفد السوري برئاسة هاشم الأتاسي وسعد الله الجابري بالاستقلال لسورية، وفي نفس السنة سافر إلى المغرب العربي والجزائر لمنع عملاء الجنرال فرانكو من تجنيد الجنود المغاربة لمقاتلة الجمهوريين في الحرب الأهلية.

عاد الرفيق بكداش إلى سورية عام 1937، وانتخب أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوري - اللبناني وقام بنشر الأفكار العلمية للاشتراكية. وكتب كتاباً في سبيل حريات الشعب الوطنية والديمقراطية عام 1937، وعندما حدثت اضطرابات في الجزيرة بين الأكراد والسريان كتب كراساً: **ماذا في الجزيرة؟ إنه عصيان فاشيستي**. لم يكن خالد بكداش متعصباً شوفينياً، إنه وطني وأممي لكل الطوائف من عرب وأكراد وسريان. أسهم خالد بكداش في كتابات في السياسة، حركة التحرر الوطني والنضال في سبيل الاشتراكية، وله آراء في قضايا الفكر والفلسفة والأدب، ودراسة عن فلسفة ابن طفيل وقصته حي بن يقظان. وكتب في سبيل صحافة عربية ثورية وجماهيرية، وحاولت سلطات الاحتلال اعتقاله في أيلول عام 1939، في دفاعه عن سلخ لواء اسكندرون. ولكنهم لم يستطيعوا القبض عليه. وبين أعوام (1941- 1944) ألف الحزب الشيوعي جبهة وطنية من أجل دعم نضال الشعب ضد النازية والفاشية، وقدم للحزب مشروع الميثاق الوطني من أجل الاستقلال الذي أنجز في 17 نيسان 1946م.

وفي عام 1947 تقدم للبرلمان السوري فنال (11) ألف صوت، ولكن السلطات الرجعية تدخلت وزورت الانتخابات. وهذا ما زاد الحزب إصراراً لخوض النضال ضد مشروع الهلال الخصيب للاتحاد مع حكومة نوري السعيد في العراق. وخلال حكم الشيشكلي (1952- 1954) قاد نضال الحزب ضد الحكم الديكتاتوري.

في أيلول عام 1954، تقدم للانتخابات ونال أكثر من (17) ألف صوت، وكان أول نائب شيوعي في الوطن العربي. وفي البرلمان دافع عن حقوق العمال والفلاحين، وجميع الفئات الكادحة، ومن البرلمان نادى بالوحدة الوطنية، لتمكين الشعب من الوقوف في وجه مشروع أيزنهاور بعد العدوان الثلاثي على مصر.

وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر عام 1958 طالب الحزب الشيوعي على أن تكون الوحدة على أسس ديمقراطية وكتب الرفيق خالد بكداش كتاباً باسم (طريق الاستقلال والديمقراطية والوحدة) ولكن اعتبر الحزب الشيوعي مناهضاً للوحدة واعتقل معظم أفراده واختفى خالد بكداش، وحصل الانفصال كما توقع الحزب الشيوعي.

بعد قيام ثورة حزب البعث العربي الاشتراكي في الثامن من آذار 1963، صاغ خالد بكداش نقاط التعاون بين الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي، وكتب كتاباً باسم (سورية على الطريق الجديد) عام 1965، أكد فيه على:

1)التعاون مع حزب البعث وكافة القوى الوطنية والتقدمية.

2)الحفاظ على وجه الحزب الشيوعي في القضايا المبدئية، والقضايا السياسية الكبرى.

3)الدفاع دون كلل عن الانتماء الوطني وعن مصالح العمال والفلاحين.

اشترك الحزب الشيوعي في الجبهة الوطنية التقدمية عام 1972، وانتخب خالد بكداش عضواً عن الحزب الشيوعي في مجلس الشعب عام 1973، وكانت شعارات الحزب: الدفاع عن الوطن، والدفاع عن لقمة الشعب وكرامته، والعمل على تحقيق وحدته ووحدة الشيوعيين.

وفي هذه الفترة كتب الرفيق خالد بكداش عن ديالكتيك الوحدة بين ما هو قومي وما هو أممي في النضال العام ضد الإمبريالية عام 1975. ومثّل الرفيق خالد بكداش الحزب الشيوعي السوري في كافة مؤتمرات الأحزاب الشيوعية العربية والعالمية. ودافع عن قضايا الأمة العربية، وفضح سياسة إسرائيل العدوانية عام 1967 في مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني، وهاجم الحزب الشيوعي الإسرائيلي، مما أغضب بعض الأحزاب الشيوعية الأوروبية، ووقف ضد الانتهازية التحريفية، وكان يعمل بلا كلل ولا ملل من أجل تنمية الشعور الوطني والطبقي في سورية العربية. وكان يرى أن فكرة الأممية الصحيحة لا تنفصل عن الوطنية الصحيحة، وكان خالد بكداش الوجه العربي الناصع من أجل هذا نال وسام لينين وثورة أوكتوبر بمناسبة بلوغه السبعين عاماً (1982). وفي هذه المناسبة قال عنه الرفيق **يوسف فيصل** الأمين العام المساعد للحزب (خالد بكداش هو أحد القادة الوطنيين المرموقين في سورية وهو وجه بارز على نطاق الحركة الشيوعية العربية والعالمية).

كما قال عنه الرفيق **فايق وراد** الأمين العام للحزب الشيوعي الأردني: «إننا نحيي فيه الابن البار لطبقة العاملة وسائر الجماهير الكادحة في سورية» وكذلك قال عنه الرفيق **عزيز محمد** الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي: «لقد عرفتك أيها الرفيق المناضل، كما عرفك مناضلو حزبنا، وكل التقدميين في بلادنا، مناضلاً وطنياً بارزاً ومدافعاً عن استقلال سورية، وسيادة شعبها، وعن المصالح الوطنية التحررية لشعوبنا العربية».

توفي الرفيق خالد بكداش في 24 تموز عام 1995، وشيعته كل دمشق. عاش خالد بكداش وجهاً عربياً ناصعاً، لا يعرف النظرة العرقية الضيقة، وتزوج الرفيق خالد بكداش الفتاة الكردية الأصل وصال فرحات العربية الثقافة والتوجه، وأنجب منها الدكتور عمار بكداش، وهي الآن الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، وابنها عمار عضو بارز في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري.

برزت عدة عائلات كردية الأصل عربية التوجه، أمثال عائلة حسني الزعيم، رئيس الجمهورية في الانقلاب الأول 1949، وعائلة البرازي الذين منهم رئيس الوزراء حسني البرازي، وعائلة قوطرش الذين منهم خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري لمدة سبعين عاماً تقريباً. وعائلة بوظو الذين منهم وزير الداخلية علي بوظو، وكلهم شاركوا في حكم سورية بوجوه وألسنة عربية تدعو للانتماء الوطني لسورية.

الأكراد.. (الموقف والتوجه)

ساهم الأكراد في النضال السياسي والقومي في سورية، منذ مطلع القرن العشرين، ولم يكن هنالك تمييز بين صفوف الشعب السوري، ولم يشعر الأكراد بأنهم أقلية في الوطن أو أن لهم حقوقاً خاصة بهم لم يحصلوا عليها حتى إحصاء عام 1962 الذي جرى في الجزيرة (محافظة الحسكة) عندما استثني الأكراد الأتراك الهاربين من الظلم، حيث حرموا من الجنسية وحق التملك، وعندها شعر الأكراد بأنهم أقلية، وأن لهم حقاً في الثقافة والتعليم باللغة الكردية، وعندما صار أكراد العراق وأكراد تركيا يطالبون بحق تقرير المصير في وطنهم المستقل. وانتقلت هذه العدوى إلى الغلاة الأكراد، واختلف السياسيون في حل هذه المعضلة، وطرحوا السؤال التالي:

كيف يمكننا حل المسألة الكردية؟ واختلفت الآراء التي يمكننا أن نجملها بالآراء التالية:

-يرى السيد منذر الموصلي أن حل المشكلة ممكن لأنه يكمن في روابط القربى والإخاء والدين والتاريخ، وإن الاندماج بين العرب والأقلية الكردية يتم عن طريق الحوار الصادر عن نظام الحكم، وأن يعامل الأكراد المتواجدون في منطقة الجزيرة بإعطائهم الهوية وحق الملكية للهاربين من الاضطهاد التركي.

-بينما يراه **الدكتور جمال الأتاسي**، أن الحل يتم عن طريق الحد من مواقف الغلاة والمتطرفين العرب والأكراد الذين يحلمون بما يشبه الإمبراطورية الكردية، مما ينعكس سلباً على تطلعهم إلى وطن مستقل، وهذا التطلع يتعارض مع مشروع التحرر الوطني لشعب يريد حرية تقرير المصير. ويضرب لنا مثلاً بالموقف الذي جرى في صيف عام 1957، قال: شاركت في وفد بعثي حزبي عقد في أثينا للحركات الوطنية في دول البحر المتوسط، وألقى **الأستاذ ميشيل عفلق** كلمة قال فيها: إن أمتنا العربية التي عانت التجزئة والاضطهاد والاستعمار طويلاً، لا يمكن لها وهي تنهض أن تقبل لنفسها اضطهاد قوميات أخرى وهي تنشد حريتها، فإنها تريد في الوقت ذاته الحرية لشعوب العالم أجمع[35]. وأكد على رفض الدعوات العنصرية، لا سيما وأن التجربة التاريخية

الماضية، والروابط العديدة المشتركة بين العرب والأكراد، أدت إلى أن كثيراً من الأكراد استعربوا ولهم مواقع قيادية وثقافية واجتماعية وسياسية في سورية، ولكن الدكتور جمال الأتاسي عاد إلى المسألة الكردية، ورأى ارتباطاتها في الدول المجاورة، قال: إن **المسألة القومية الكردية من المسائل المعقدة في العالم.** فهي تتناول من ناحية الحقوق القومية لشعب متواجد كأقليات قومية موزعة في أربع دول متاخمة لبعضها، وبينها حدود دولية فاصلة، وفي الوقت ذاته تحمل تطلعات شعب يطمح إلى أن يكون أمة من بين الأمم، وأن يكون له كيانه المستقل بين الكيانات القومية في العالم(36).

أما المشروع الإسلامي، فحل القضية لديه هين، وهو أن الله خلقنا من ذكر وأنثى وجعلنا شعوباً وقبائل لكي نتعارف، والمواطن الصالح من يعبد الله بإخلاص ويحب الوطن لأن حب الوطن من الإيمان، وينال كل امرئ حقه في الحياة والعمل والعبادة. من هذه النظرة قدم **الدكتور علي الشعيبي** دعوته للأكراد، قال: أيها الأخوة الأكراد، دعوا الحقد، ودعوا النفخة الفارغة المفتعلة، وعيشوا حياتكم الهادئة. أيها المثقفون الأكراد، لا تشحنوا الناس الطيبين بالمبادئ المفتعلة المصطنعة، افهموا طبيعة الشعوب، وطبيعة الدول المعاصرة، والحقيقة الواقعية، لا تعيشوا بخيال العرب وهم يتحدثون عن خيولهم التي انساحت شرقاً إلى الصين، وغرباً إلى جنوب فرنسا، عيشوا واقعكم وحياتكم بكل عزة وكرامة. أيها الأكراد، نحن وأنتم أبناء شجرة الشوك، أبناء الألم أبناء المعاناة. نحن وأنتم أبناء تاريخ عريق سطره أجدادنا العرب والأكراد، بالعرق والدم، ولنا أن نفخر سوية بصناعة وإعمار بلدنا السوري الحبيب(37).

هذه الدعوة العاطفية، وإن كانت صادقة، هل تكفي لحل المسألة الكردية؟ وهل للعواطف والانفعالات دور في ميدان السياسة؟ يجيبنا العالم الروسي باغراموف: «نعم، إن العلم الاجتماعي الماركسي لا يستبعد دور الانفعالات والحالات النفسية والمشاعر، فعلم النفس الاجتماعي هو ميدان للوعي الاجتماعي الذي لا يمكن فصله عن الوسط الذي يولّده»(38).

ويرى الشيوعيون والقوى التقدمية أن المشكلة الكردية، مشكلة سياسية وثقافية معقدة، ولا يمكن حلها إلا ضمن حل الوحدة الوطنية. وفي الندوة التي نظمتها جريدة قاسيون تحت شعار (الوحدة الوطنية كأداة للمواجهة) قدم الدكتور قدري جميل وهو أستاذ جامعي ومفكر شيوعي وكردي مداخلة بعنوان (الليبرالية الجديدة خطر على الوحدة الوطنية والأمن الوطني والسيادة الوطنية)، جاء فيها: «يطرح مؤخراً بشكل واسع دعاية لليبرالية الجديدة على أنها وصفة لحل جميع الأمور المرتبطة بالاقتصاد والسياسة، ولكن الذي يتطلع إلى تجربة هذه الليبرالية الجديدة في الأماكن والمناطق

التي مرت بها، يرى أنها لم تخلق سوى الخراب والدمار، وتفتيت بنى الدولة والمجتمع»[39]. **وإذا سألناه: لماذا الليبرالية عندنا أداة تفتيت للمجتمع؟ وهي في الدول المتقدمة أداة وحدة والتحام لبنى الدولة؟** يجيبنا التقدميون: إن الليبرالية هدفها إضعاف بنى الدولة في العالم الثالث، فالولايات المتحدة كأبرز قوة ليبرالية جديدة، قامت بعد احتلال العراق وأفغانستان، بفرض التجزئة الطائفية والعرقية المتخلفة. ويرى **الأستاذ عبد الهادي نصري** وهو باحث سوري، أن علينا اليوم في سورية تنشيط الحركة السياسية في المجتمع عن طريق الحوار، وهذا شرط هام لوحدة المجتمع بكل أعراقه المختلفة من (عرب وأكراد وسريان وأرمن وتركمان وشركس) حيث تتلاقح الثقافات والأفكار والفنون والإرث الحضاري بين جميع أبناء الوطن المخلصين، الذين هم المداميك الوطنية لملاط الوحدة الوطنية[40].

وعندما سألت **الصحفية ديانا جبور الدكتور قدري جميل**: أنت من فصيل شيوعي يدعو إلى وحدة وطنية، وسؤال: عن أي وحدة وطنية تتحدثون؟ وقد عجزتم عن إنجاز الوحدة فيما بينكم كشيوعيين؟ أجابها: برأينا أن الحركة السياسية الضعيفة تؤدي إلى تشرذم الأحزاب وانقسامها، أما الوحدة الوطنية بين أفراد الشعب فتتعزز كلما توفرت الأجواء الموضوعية لتقويم الحركة السياسية الوطنية[41]. وهذه الأجواء تتم بالحوار الوطني الحر، وتأمين الديمقراطية وضمانها للجميع عن طريق التعددية السياسية والاقتراع السري.

هل الأكراد الذين يتوقون لإقامة دولة خاصة بهم هم أمة تملك قيماً روحية، وحقوقاً وحريات ذات طابع ثقافي خاص بهم؟[42] يرى الأكراد الماركسيون، أنهم جماعة متحدرة من أصل واحد، وأن بينهم أواصر القرابة واللغة والدين، ولكن الأرض التي يعيشون عليها لم تكن وطناً لهم، وهذا يتنافى وقول **المفكر الفرنسي موس** في كتابه الأمة «نعني بكلمة أمة مجتمعاً متجانساً لنفسه مادياً وفكرياً، ذا سلطة مركزية ثابتة ودائمة، ولهم وطن ذو حدود معينة، يجمع سكانه وحدة فكرية وذهنية وثقافية نسبية، فيقنعون بشكل واع بالدولة الوطنية وقوانينها»[43]. على هذا الأساس ليس للأكراد حق في الانفصال داخل حدود الوطن سورية.

وعلى الأكراد أن يقتنعوا بالتجربة الأمريكية ذات الشعوب والأعراق والطوائف المتعددة وكل فرد منهم مقتنع بالدولة التي يعيش وينتمي إلى جنسيتها.

مراجع: الأكراد

1)الأتنوس والتاريخ ص12 بروملیه، بودولني ترجمة طارق معصراني دار التقدم موسكو 1988.

2)الأكراد ملاحظات وانطباعات ص38، فلاديمير مينورسكي ترجمة معروف خزندار بغداد 1968.

3)الموسوعة السياسية مادة الأكراد، عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري المؤسسة العربية للدراسات بيروت 1979.

4)عرب وأكراد ص116، منذ موصلي، دار العلم دمشق 1991.

5)لقاء الأسلاف ص10- 11، جمال أحمد رشيد، دار الريس لندن 1984.

6)كردستان بين الوهم والحقيقة، ص94، علي الشعيبي، إصدار خاص دمشق 2004.

7)جمهورية مهاباد ص76، وليم إيغلتن الابن، ترجمة جرجس فتح الله، دار الطليعة بيروت 1972.

8)عرب وأكراد ص97.

9)المصدر السابق ص89.

10)خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ج1 ص88، محمد أمين زكي، ترجمة محمد علي عوني القاهرة 1939.

11)كردستان بين الوهم والحقيقة ص36.

12)الأثنوس والتاريخ ص175.

13)تاريخ الرسل والملوك ج1 ص240، محمد بن جعفر الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1958.

14)التنبيه والإشراف ص78 المسعودي تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي القاهرة 1938.

15)تاريخ مختصر الدول ص150، ابن العبري دار المسيرة بيروت 1986.

16)المصدر السابق ص283.

17)المصدر السابق ص223.

18)مقدمة ابن خلدون ص108، كتاب التحرير القاهرة 1966.
19)تاريخ طور عبدين، ص287، مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم، ترجمة المطران بولس بهنام بغداد 1963.
20)المصدر السابق ص352.
21)مقدمة ابن خلدون ص284.
22)كردستان والأكراد ص29، عبد الرحمن قاسملو المؤسسة اللبنانية للنشر بيروت 1974.
23)أدب الدول المتابعة ص38، عمر موس باشا دار الفكر الحديث بيروت 1067.
24)حراس البوابة الشرقية ص130، جمال الغيطاني دار الطليعة بيروت 1972.
25)كردستان والأكراد، ص30.
26)الشعر قنديل أخضر ص28، نزار قباني بيروت 1976.
27)تاريخ طور عبدين، ص286.
28)خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص309.
29)الأكراد ملاحظات وانطباعات ص58.
30)عرب وأكراد ص279.
31)دليل الجمهورية العراقية ص433، مصطفى جواد وأحمد سوسة ومحمود فهمي درويش وزارة الإرشاد بغداد 1960.
32)Malek. Y The British betrayal of the Assyrian, p122, New Jersey 1935.
33)خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص306.
34)عرب وأكراد ص480.
35)مقدمة كتاب عرب وأكراد، ص25.
36)المصدر السابق ص39-40.
37)كردستان بين الوهم والحقيقة ص249- 250.
38)الأمم والمسألة القومية ص58 إيلينا مودرجنسكايا موسكو 1979.
39)جريدة قاسيون العدد 235، ص5، تشرين ثاني دمشق 2004.
40)المصدر السابق ص4.
41)جريدة تشرين العدد (12584) ص18، 16 كانون أول 2004.
42)مسألة الحضارة ج2، ص174، ج دولو مونتريال 1944.
43)الأمة ص20، موس باريس 1956.

الفصل الثاني : التركمان وقبائلهم

- التركمان في سورية
- إسكان التركمان في الرقة
- التركمان في ريف حلب ودمشق



التركمان في سورية

المجتمع السوري مجتمع متعدد الثقافات، لأنه متعدد الأعراق والطوائف، وكل إنسان في المجتمع ينتمي إلى أسرة، وفئة تسكن في منطقة، ولكن الجميع لديهم شعور عام أنهم ينتمون إلى وطن واحد هو سورية العربية.

وسورية دولة حديثة تشكلت من أعراق، وجدت قبل وجود الدولة، والمواطنة هي شعور بالانتماء للوطن، وحضارة واحدة. من هنا لا بد من دراسة ماضي كل عرق أو طائفة لفهم الحاضر، وما يطمح إليه الوطن في المستقبل.

والتركمان مجموعة من السكان يملكون ثقافة معينة، ولغة يتكلمونها داخل نطاق الأسرة أو الحي، ولهم شعور بوحدتهم السلالية.

فمن هم التركمان ومتى ظهروا في التاريخ؟

التركمان فرع من فروع القبائل الرعوية التركية، عاشوا على الرعي، وشكلوا نظاماً عشائرياً، لهم وحدة من الناحية السلالية، وقد ظهر شعورهم بوحدتهم في المراحل المتأخرة من تطورهم الاجتماعي، وفي ظروف تاريخية خاصة، **يذكر ابن خلدون**: أنهم كانوا يعيشون من رعي السائمة مثل الغنم والبقر، فهم أهل ظعن على الأغلب يرتادون المراعي (المسارح) والمياه من أجل حيواناتهم، بالتقلب في الأرض أصلح بهم[1].

وفي رأي **فريدريك انجلز**: أن القبيلة تتسم برابطة لهجة معينة، وبتصورات دينية عامة، وبشعور تسمية خاصة[2]، أينما ذهبوا يحتفظون به، من خلال لغتهم الحاملة لثقافتهم ولكنهم في الوقت نفسه هم مواطنون في البلد الذي يقيمون فيه، يتأثرون بالمناخ الفكري العام، ولا يتغير هذا الشعور إلا عندما يغيرون أسلوب إنتاج حياتهم، والبيوت التي يسكنونها، والطعام الذي يأكلونه، واللغة العامة التي يتكلمها الوطن، واللباس الذي يرتدونه، والتزاوج من خارج الأثنوس (العرق) يؤدي إلى تغير الصفات الثقافية القديمة واكتساب صفات جديدة. وهذا ما حدث للتركمان حديثاً.

هل التركمان هم الترك؟

إن كلمة 'تركي' تعني المتجول أو الأفاق[3]، أما كلمة تركمان فمختلف فيها، وخير من يجيبنا على ذلك، **المستشرق الروسي فاسيلي بارتولد**، المتخصص في دراسة

الحضارة التركية، قال «إن كلمة تركمان ما زالت مجهولة المنشأ والأصل، ولعل هذا يتضح لنا من الآراء الكثيرة التي ترددت لدى الباحثين والمؤرخين بهذا الشأن»[4].

أما **المؤرخ التركماني شاكر صابر فيورد** لنا رأياً مؤداه «إن كلمة تركمان كلمة مركبة من كلمتي ترك، وماتندا الفارسية، لأنهم كانوا قبائل مسلمة، منتمية إلى قبائل الأوغوز التركية، وكلمة تركمان تعني الشبيه بالترك، لوحدة اللغة، أطلق عليهم أهل خراسان هذه التسمية. ويورد رأياً **للمؤرخ العربي ابن كثير**: أن كلمة تركمان كلمة مركبة من كلمتين (تورك) و(إيمان). **ولأبي الفداء الحموي** رأي طريف يقول فيه: إن التسمية جاءت من كون هذه القبائل قد أسلمت، وكانوا من ترك خراسان وما وراء النهر، وصاروا يعملون في الترجمة بين العرب المسلمين وبين الترك الوثنيين فقيل عنهم (ترجمان) ثم حرف الاسم إلى تركمان[5].

يؤكد هذا الراي **المستشرق الفرنسي كلود كاهن** الذي يرى أن اسم التركمان ظهر في فترة إسلام الترك في خراسان، ولتمييز أنفسهم عن الأتراك الرحل غير المسلمين[6].

يعتقد التركمان أنهم من فروع الأتراك الأغوز، هذا الرأي **للمؤرخ التركماني محمود كاشغاري** (القرن 11 ميلادي)في كتاب (ديوان لغات الترك) إن التركمان ينتسبون إلى جدهم الأعلى أغورخان وإليه تنتسب 19 عشيرة ذكر منها (تيكة، نودت، ساريك، أساري، توبارلار، ولاكاب ولاكام، وسالير) وبسبب اختلافهم على ملكية المراعي جرت الحروب بينهم، وتفرقوا في البلاد، ولكن تلك الحروب لم تحطم بنية النسب العشائرية[7].

ولكل قبيلة شيخ ولكل عشيرة زعيم منتخب، له حق المنيحة والذبيحة، وإن رواسب البنية القبليّة عند التركمان، كان لها تأثير خاص في حياتهم الإنتاجية، في تربية المواشي (الغنم والبقر) في الأراضي والمياه، وفي شعورهم بوحدتهم[8].

يرى المحامي **عباس العزاوي** أنه «حين اعتنق الأتراك الإسلام، انتشروا في المملكة الإسلامية زرافات ووحداناً، ودخلوا الجندية أقواماً، وتولوا قيادة الجيوش مدة، واشتهر منهم أمراء كثيرون، فكانوا عضداً قوياً، وقاموا بخدمات عظيمة للإسلام»[9].

من أين هاجرت القبائل التركمانية إلى الوطن العربي؟

جاؤوا من صحراء تركستان، ومن خراسان وما وراء النهر، وكانوا بدواً متجولين، وهم قبائل متعددة، فالقبائل السلجوقية يعتقدون أنهم أحفاد سلجوق بن دقاق أحد رؤساء عشيرة الغز التركية التي خرجت من سهول تركمانيا في القرن العاشر الميلادي، واتخذوا في البداية مدينة أصفهان عاصمة لهم، وجرى صراع داخل القبيلة، وتوجه

قطلمش بأبناء قبيلته نحو الغرب، وخاض طوغرل بك معركة أرضروم واستولى عليها عام 1054م، وخلفه ابنه ألب أرسلان وبنى مدينة قونية، ثم احتل ملا زكرت من الأرمن عام 1077م، وأسس دولة سلاجقة الروم، واشتهر من سلاطينهم كيقباد (1219- 1237م) أعظم ملوكهم.

يؤرخ أبو الفرج ابن العبري (1226- 1286) لدخولهم أرضروم بقوله: «في سنة 1050م، أوقع يمين الدولة محمود الغزنوي بالأتراك الغزية أصحاب أرسلان بن سلجوق، لأنهم كانوا يفسدون بخراسان، وينهبون، فأرسل إليهم جيشاً أجلاهم عن خراسان، وساروا إلى أصفهان ووصل بعضهم إلى أذربيجان، ودخلوا مراغة، وأحرقوا جامعها، وقتلوا عوامها مقتلة عظيمة، ومن الأكراد الهذبانية، وسارت طائفة منهم إلى أرضروم، وطائفة إلى الموصل»[10].

يحاول المؤرخون المعاصرون إرجاع تواجد التركمان في البلاد العربية (سورية والعراق) إلى أيام الدولة الأموية، حيث خدم الترك في الجيش الأموي في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي (المتوفى 718م) عندما جعل حرسه في مدينة واسط من التركمان، ثم زاد عددهم في أيام المعتصم في بغداد، وعندما تضايق الناس من تصرفاتهم، انتقل بهم إلى سامراء، وفي أيام الخليفة المكتفي في سنة 904م، خرج الترك في خلق كثير لا يحصون إلى ما وراء النهر وكان عسكرهم في 700 قبة تركية، وهي لا تكون إلا للرؤساء منهم، فسار إليهم جيش المسلمين، وكبسوهم مع الصبح، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وانهزم الباقون، وجاؤوا بسياهم إلى منطقة الثغور وديار بكر. وفي عام 1185م، ثار التركمان في منطقة الثغور ومنطقة الموصل، وسبب ذلك أن الأكراد صاروا ينهبون القبائل التركمانية، وهم يشتون في بادية الشام، فقتل التركمان في منطقة ماردين حوالي 200 كردياً، واجتمع الأكراد من كل المناطق الجبلية، في منطقة ديار بكر وطور عبدين، وتجمع التركمان في منطقة البليخ والخابور، وكانت جموع الطرفين المستعدة للحرب زهاء 30 ألف مقاتل، وعند التقاء الجموع، قامت حرب طاحنة، انهزم الأكراد شر هزيمة، وعمل التركمان فيهم حد السيف حتى فني الأكراد في شمال سورية وما بين النهرين[11].

كثر التركمان في سورية والعراق في سلطنة السلاجقة في الموصل وحلب ودمشق أيام نور الدين محمود الزنكي. يقول المؤرخ التركماني عزيز قادر الصمناني: «إذا قلنا أن الترك غير التركمان وإن كانوا من أصل مشترك، ومن أشهر الإمارات التركمانية، الإمارة الزنكية في الموصل (1127- 1232م) وقيام عماد الدين الزنكي وابنه محمود نور الدين الشهيد اللذان دافعا عن الإسلام، وحررا كثيراً من البلدان من يد الفرنجة، وهما من قبيلة الأشاور من التركمان الأوغوز»[12].

يؤكد المؤرخ السرياني ابن العبري دور التركمان في تحرير سورية من الفرنجة، أنه في سنة 1152م انكسر نور الدين الزنكي في شمال حلب أمام الفرنجة، فجمع أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب، إن ظفروا بجوسلين وسلموه إليه، فقبضوا على جوسلين وهو في رحلة صيد وسلموه إلى نور الدين، فاستولى بعدها على (عنتاب، واعزاز، وقورس، وبرج الرصاص ومرعش ونهر الجوز) وأسكن قبائل التركمان في هذه البلاد»[13]. ولا زالوا يعيشون فيها حتى الوقت الحاضر.

صار للتركمان ثلاث إمارات في الموصل وبلاد الشام وفي أرضروم (سلاجقة الروم) جاؤوا إلى هذه البلاد، وصار التركمان قبائل تتجول في آسيا الصغرى وديار بكر وربيعة وبادية الشام، وصارت عاصمتهم قونية مركزاً هاماً للتصوف الإسلامي، أو للمتصوف المولوي.

لم يكن التركمان من مذهب واحد، كانوا مسلمين سنة وشيعة. جاء في كتاب جامع الدولة، أن التركمان مسلمون وكانت قبائلهم المتحولة، قد انقسموا إلى القبائل الرحل الخراف البيض (آق قيونلو) وهم سنة، والخراف السود (قرة قيونلو) وهم شيعة، ومن بينهم ظهرت دعوات شيعية مغالية مثل علي إلهي (القزلباش) والبكتاشية والكاكانية، وأن معظم التركمان سنة على المذهب الحنفي[14]. وقد أثر التركمان في القبائل الكردية المجاورة لهم.

وفي سنة 1271م، ظهر في بلدة آماسيا من أعمال سلاجقة الروم، رجل تركماني، ادعى النبوة وسمى نفسه (بابا) فاستغوى جماعة، بما كان يخيل إليهم من المخاريق، وكان له مريد اسمه (اسحق) يتزيا بمزاياه، فأنفذه إلى أطراف الروم والثغور ليدعو التركمان إليه، فوافى مدينة سميساط، وأظهر الدعوة، فاتبعه خلق كثير من التركمان والأكراد، وبلغ عدد من اتبعه حوالي ستة آلاف، وكانوا يقولون: لا إله إلا الله، بابا رسول الله. ومن خالفهم قتلوه، وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين والمسيحيين، من أهل حصن منصور وفاختين وكركر وسميساط وبلد وملطية، وصارت لهم هذه البلاد كلها من أماسيا (في شمال الثغور) فأنفذ إليهم السلطان غياث الدين السلجوقي جنداً من المسلمين فلم يتجرأوا عليهم لما توهموه منهم، وأنفذ إليهم جيشاً من الفرنجة الذين كانوا في خدمته وقتلوهم، وأسروا الشيخين بابا واسحق، وقتلوهما وكفى الله الناس شرهم[15].

الأتراك والعثمانيون والتركمان

أصلهم يعود إلى عشيرة تركمانية، كانت مستقرة في وسط القارة الآسيوية، وكانت هذه العشيرة هربت من وجه المغول تحت قيادة رئيسها سليمان شاه الذي غرق أمام

قلعة جعبر عام 1290م، وخلفه ابنه أرطغرل خان. وفي أرضروم شاهد قتالاً، فانساق بحميته العشائرية، وانتصر لسلطان قونية علاء الدين السلجوقي، وانتصر على المغول، فأنعم السلطان على عثمان بن أرطغرل لقب بك عام 1300م، ثم استولى عثمان على قونية على أثر وفاة السلطان علاء الدين السلجوقي، وشكل أكبر إمبراطورية، وبقي كثير من رعاياه يغيرون على القبائل العربية والكردية، وصارت كلمة تركي عند جوارهم تعني الفلاح أو الهمجي. وكان لهذه الكلمة وقع مهين، فصار التركي أو التركماني إذا سئل عن جنسيته قال: بأنه مسلم[16].

وحين استولى العثمانيون على القسطنطينية في عهد محمد الفاتح 1453م، صار الناس يتكلمون حوالي خمس لغات منها التركية والعربية واليونانية والأرمنية والفارسية، ويجد الدارسون للغة التركية هذه المخلفات اللغوية. يقول الباحث الروسي بيريمييف: «مهما كان الشعب الذي أردنا التعمق في تاريخه، فلا بد أن نصادف في كل مكان ما يمكن أن نسميه بلقاء القبائل والشعوب واتحادها واختلاطها»[17]. ولقد كانت اللغة أهم من الدين في تكوين القبيلة التركمانية في البداية، ثم تغير الوضع بعد ذلك.

لقد خلَّف التركمان أثراً محموداً في الثقافة الإسلامية، فمنهم الشاعر الصوفي فضل الله عماد الدين التبريزي (المقتول 1401م) وخليفته الشاعر والفيلسوف نجم الدين نسيمي (المقتول في حلب 1433م) لأنهما كانا من غلاة الحروفيين.

فما هي الحروفية في اصطلاح أهل التصوف؟

يقول ابن خلدون «الحروفية علم ظهر في الملة الإسلامية، عند ظهور الغلاة من المتصوفة، وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم، والتصرف في عالم العناصر، ومن مزاعمهم تنزل الوجود عن الواحد، وزعموا: أن الكمال الأسمائي مظاهرة أرواح الأفلاك والكواكب، وإن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، وهي سارية في الأكوان على هذا النظام، وهي من لدن الأول، تنتقل في أطواره، وتعرب عن أسراره»[18]. وهذه دعوة حلولية صريحة، تتفق ودعوة البكداشية والكاكائية.

وبعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر والعراق عام 1516م، اهتم السلطان سليمان القانوني (1521- 1566م) بالاستقرار في بادية الشام، فأوكل إلى القبائل التركمانية الرعوية بحماية طريق الحج وحماية محمل الحج من تعديات البدو الرحل، وكانوا عضداً قوياً للدولة العثمانية في استقرار الأمن وتوطيده. وصار التركمان من غلاة الإسلام المدافعين عنه بحمية.

كان للمرأة التركمانية دور كبير في المجتمع التركماني، فهي امرأة عفيفة وتحترم بيتها وأسرتها وتعمل برعاية الحيوانات الصغيرة التي تربى في البيوت، وعملية الحلب واستخراج السمن والجبن ونسيج الصوف، وتصنيع البيت التركماني المصنوع من اللباد والخشب، وصناعة السجاد. وكانت المرأة تعمل في معالجة المرض خصوصاً الأطفال الصغار.

ملكية القطيع داخل القبيلة التركمانية

كانت وظيفة القطيع الأساسية كمصدر للطعام، وقد أدى ذلك إلى شعور التركمان بالحق الجماعي في الغذاء المستحصل، فكان الفقير له الحق في أن يكون له عدد من الشياه لتغذية أطفاله، وبالمحافظة على ملكية عشيرته للقطيع، خصوصاً أثناء الغزو، لشعور الأفراد بأنهم أبناء رجل واحد، وهذا الشعور لا يوجد عند ملاك البقر من التركمان. يقول الباحث الروسي فيكتور شنيريلمان معللاً سبب ظهور هذا الشعور:

أولاً: امتلك الأقرباء حق الأولوية في الحصول على اللحم والمنيحة.

ثانياً: توزيع الثروة على أفراد العشيرة، يزيد من نفوذ العشيرة ونفوذ شيوخها.

ثالثاً: إن عملية توريث أقرباء الدم داخل حدود الفخذ الواحد من العشيرة، يزيد من الشعور بوحدة العشيرة وسيطرة النظام الأبوي[19].

كان التركمان يتنقلون بواسطة العربات التي تجرها الخيول والبغال والبقر، مما سهل عليهم عملية الانتقال وارتياد مساحات أكثر، وسهولة الحركة الاقتصادية، فارتفعت مكانة القبيلة وقدرتها القتالية في حماية القطيع من هجمات البدو (الغزو) من أجل السيطرة على القطيع ونهبه.

لقد احتفظ التركمان بتقاليدهم العسكرية والاجتماعية حسب أخبار مؤلفي القرون الوسطى، ولا زالوا يرددون أغانيهم القديمة، وأساطيرهم حول البطولة، خصوصاً في سهوب تركمانيا الجنوبية الغربية، أما في البلاد العربية فقد نسوها، وربما لا يتذكرون إلا بعضها[20]، لأن عوائد تقلب طباع الإنسان يعود إلى مألوفها، فالإنسان ابن عوائده لا ابن نسبه[21].

إسكان التركمان في الرقة

أسس التركمان إمارتين إحداهما عند منبع الجلاب، شمال بلدة أدنة، إمارة الخروف الأبيض (آق قيونلو) في القرن الخامس عشر الميلادي، بزعامة آل رمضان،

وإمارة الخروف الأسود (قره قيونلو) في مرعش بزعامة آل ذو القدر، وهي إمارة شيعية. وفي بادية الشام كانت قبائل تركمانية تتجول في المراعي الخصبة[22].

عندما مرَّ الرحالة الألماني ليونهارت راو وولف بمدينة الرقة في 9 أيلول 1574م، كتب في مذكراته عن الرقة: «كان في المدينة قصر للمتصرف (سنجق بيه) وكان معه 1200 جندي عثماني وله قصر، وكانت أسوار المدينة والمباني بحالة سيئة، وإن إعادة المدينة القديمة كان من أجل حفظ الطريق لاستمرار مرور القوافل بين حلب وبغداد، ومع ذلك فإن الطريق الشمالي بين حلب الرها هو المفضل لمن يريد الذهاب إلى الموصل،؛وذلك بسبب تعديات التركمان، وكان المفروض أن تتطور مدينة الرقة وتتقدم لولا تلك التعديات»[23].

وقد أكد تلك التعديات الرحالة التركماني أوليا شلبي (1611- 1684م) في كتابه سفرنامه، عندما مرَّ في مدينة الرقة عام 1650م، كتب: «أنه قبل زيارته للرقة بقليل كان هناك سكان مستقرون في المدينة، ولكن هجوم القبائل التركمانية خرب المدينة وأضعف الاستقرار خصوصاً في فصل الصيف، أما في فصل الشتاء فإن المدينة تصبح مكاناً للقاء العرب والتركمان الرحل»[24].

كانت قبائل التركمان المتجولة في البادية السورية لا يتميزون عن العرب الرحل إلا بلهجتهم (البيوروكية) التي هي مزيج من اللغتين التركية والعربية[25]. وكذلك بخيامهم النظيفة المصنوعة من اللباد الأبيض، وتكوين أطفالهم ونسائهم الجميلي الخلقة.

كان التركمان يتجولون في البراري مع أغنامهم، وكانوا يغيرون على الفلاحين المستقرين حول المدينة في حوض البليخ وعلى ضفاف الفرات، مما أفسد الحياة الاجتماعية والاستقرار في مدينة الرقة وحولها[25]، مما دفع السلطان أحمد الثاني (1691- 1695) إلى إصدار فرمان في ربيع الأول عام 1101هـ/ 1691م يأمر فيه أمير لواء مرعش والرقة وفضيلة قاضي حلب لردع طائفة من التركمان بقبائلها (البكمشلي والعربلي والقره شيخلي) وعدة قبائل أخرى اعتادت على النهب والغارات على القوافل الآتية من بغداد في المواسم، وتعرض أصحابها للقتل واختلاس الأموال، أثناء سفرهم حتى أصبح أهالي الرقة يشكون الفقر، لذا يجب ردع القبائل المذكورة حسبما ورد في الشرع[26]. ثم أمر السلطان عشائر التركمان بممارسة الزراعة والحراثة حول تل أبيض وعلى البليخ، وطلب من قاضي الرقة حمايتهم وتأمين الميرة لهم[27].

لقد استقرت عشائر التركمان في أجمل مناطق البليخ في منطقة الحمام الذي نسب إليهم (حمام التركمان) واعتبرت عشائرهم في حماية والدة السلطان التي كانت توصي بهم وبالمحافظة على مواشيهم، وعدم أخذ زيادة منهم عن المطلوب[28].

ولكن عندما دخلت قبائل عنزة إلى ديرة حلب والرقة والرُّها حوالي عام 1730م، صارت هذه القبائل العربية بقيادة الموالي (البوريشة) تعتدي على عشيرة رشوان التركمانية (اليوم يدعى أفراد هذه العشيرة أنهم أكراد) فصدر أمر سلطاني موجه إلى والي حلب عثمان باشا تاريخه أواخر ذي الحجة 1153هـ / 1737م، صادر عن القسطنطينية جاء فيه: «كنا قد كلفنا متصرف دير الرحبة وسلمية وسنجق الجماسة (السبخة) أمير الأمراء حمد العباس زاده (البوريشة) بحجة شرعية لحماية سكان الشامية وعشائر رشوان التركمانية من تعدي العربان عليهم، ولكن شقيق المشار إليه حسن البوريشة قد تجرأ على نهب التركمان القاطنين على البليخ، ونهبهم وسلبهم، مما اضطر وزيرنا عثمان باشا للقبض عليه وحبسه في قلعة حلب، وعلى أثرها تدخل شقيقه المتصرف حمد العباس، وأخرجه من السجن بكفالة، وتعهد باسترجاع المنهوبات وتسليمها إلى أصحابها، ولكن لم يف بوعده، وعلى أثر ذلك، قام وزيرنا بالاتصال بالوزير أحمد باشا والي الرقة، ونظم محضراً بحضور قاضي حلب محمد أمين يوسف زاده، حيث وضع مكافأة خمسة عشر ألف قرش تدفع للذين يقومون بالحماية والحراسة، وعهد إلى والي حلب بتأمين حماية الأهالي، والقوافل التركمانية من تعديات العرب عليهم»[29].

إذا كانت القبائل التركمانية تنهب من قبل القبائل العربية (الموالي وعنزة وشمر) فإنهم كانوا يعوضون ذلك بنهب الفلاحين المستقرين (الشوايا) المحيطين بالرقة.

قال المستشرق الإنكليزي هاملتون جب: «حين وجهت الحكومة العثمانية في القرن السابع عشر الميلادي بضرورة الحد من الغارات التخريبية التي تقوم بها القبائل التركمانية، اختارت الرقة على البليخ لتجمعهم، واستقرارهم، وأخذت الحكومة عليهم ضمانات مالية لضمان حسن سلوكهم، ولكن ظلت هذه القبائل مسترسلة في حياتها الرعوية الخالصة، وكانوا يتشاجرون مع العرب، كما كانوا يغيرون على الفلاحين المجاورين حين تكون السلطات ضعيفة»[30].

لقد ذكر الأستاذ عبد القادر عياش، أن السلطان محمد الرابع (1648- 1687) أمر وزيره حسين باشا القاضي أن يأتي بثمانين ألف تركماني ويسكنهم على البليخ بمنطقة قرب عين العروس في أعالي نهر البليخ وعلى نهر الجلاب[31].

يدل هذا الرقم على كثرة قبائل التركمان في ذلك الزمان، ويذكر لنا مفصلاً السيد يوسف عبود الحلبي في كتابه المرتاد في تاريخ حلب وبغداد، وكان معاصراً لهذه الأحداث وهو شاهد ثقة، قال: «إن شيخ التركمان علي الرشوان، عندما سافر ومعه عسكر عظيم وفرمان في أن يصيروا من سكان الرقة، عادوا بعد مدة وأرسلوا إلى

عثمان باشا والي حلب ثلاثين ألف قرش رشوة يقدمونها له غنم وبقر وماعز ودراهم، وعادوا ثانية إلى سهول حلب للرعي هناك، ولكن غار عليهم أمير الموالي حسن العباس، واستولى على ألفي جمل من قبيلة (غرية التركمانية) في ناحية الشمالية»[32].

ويذكر المؤرخ العراقي عبد الرحمن السويد «أصدر الباب العالي إلى والي الرقة وأورفا حسن باشا عام (112هـ/ 1700م) بالخروج لكسر شوكة عرب الموالي حتى لا يتجرأوا على الفساد والخراب، إذ أغرتهم كثرتهم بالاعتداء على التركمان»[33].

وفي عام 1124هـ/ 1711م، ثار رشوان زاده خليل باشا في منطقة الموصل وبادية الرقة وأورفا، استطاع والي الرقة وأورفا التركماني طوبال يوسف باشا أن يخمد ثورته وأن يرسل رأسه إلى العاصمة[34]، علماً بأن رشوان وطوبال يوسف كلاهما من عشيرة تركمانية واحدة هي عشيرة العربلي التي لا زال أحفادها يعيشون في حمام التركمان.

جاء في سالنامه أورفا ذكر لعشيرة بادللي التركمانية التي تقيم على البليخ في منطقة تل أبيض وبندرخان، ولهم أقرباء في حلب والباب وطرابلس وعينتاب[35]، وهم فرع من من التركمان جلابي أي من عشائر التركمان المقيمة على الجلاب.

أما التركمان المقيمون في الحمام يذكر عنهم وصفي زكريا: «وإن كانوا تركماناً لحماً ودماً لكنهم مستعربون بالمرة ومنقطعون عن التركية»[36]. لقد كانت ملاحظته صحيحة أن ما يحافظ على العرق والسلالة اللغة والدين، والتركمان هم إسلام سنة وأحناف، ولكن أضاعوا لغتهم الأم، فهم يدعون أنهم عرب من بجدلة وأنهم جاؤوا من حويجة العبيد من جنوب شرق الموصل وسكنوا بين التركمان وأخذوا اسمهم وأنهم يعودون إلى قبيلة عربلي. إن وجاهة التركمان اليوم في عائلة حسين الطوبال ومن أقربائهم الحاج علي الباشا (علي بيكلر) كانوا يسكنون في منطقة خربة الرز والعلي باجلية، ثم هاجروا في القرن التاسع عشر إلى منطقة جرابلس والباب وسكنوا قرى (بلوة وكربجلي وطامشلي وهيوك وحليصة ونبقة وغيرها) وكان شيخهم نعسان المصطفى من قبل وشيخهم اليوم فاروق زكي المصطفى، يسكن في قرية تلعار شرقي، وفي قرية سلوى يسكن فياض آغا من عشيرة بجدلة.

تواجد التركمان الحالي

أكثر تواجدهم في حلب وأقضيتها، منهم عشيرة قرقمين يسكنون في قرية تلعار شرقي، وفي قرية تلعار غربي وهم من أفخاذ مختلفة من بجدلة وقرقين، والوجيه فيهم محمد علي إسماعيل، ومنهم المهندس علي الحسين من قرقمين، الذي أفادني بالمعلومات حول التركمان.

-وفي قرية الجكة تسكن عائلة الأستاذ نوري محمود كلو أمين فرع حلب ثم محافظ دير الزور.

-وفي حلب تسكن عائلة العماد حسن بن علي التركماني وهو من عشيرة بجدلة، وزير الدفاع -السوري وعضو اتحاد الكتاب العرب.

-وفي قرية بارح فيها خليط من بجدلة (عائلة البركات) وعائلة (مجيد المبروك).

-وفي قرية احتيملات تتواجد عشيرة الطاطاويين.

-وفي قرية راعل عشيرة بجدلة فخذ الشبلي.

-وفي قرية صندره تسكن عشيرة البكشملي.

-وفي قرية دلحة تسكن عشيرة القادرلية.

-وفي قرية عويلين فيها من عشيرة الكوناج.

-وفي قرية حرجلة تقطن عشيرة الشرقاوي التركمانية.

-وفي قرية حرجلة خليط من عائلات عشيرة الشرقاوي وغيرها.

-وفي قرية كوبرلي تسكن عشيرة قازلية وفي قرية جارز تسكن عشيرة بجدلة.

-قرية الراعي توجد عشائر بجدلة.

-وفي قرية الوقف توجد عشائر بجدلة.

-تل الهوى وتل الحجر أكثرهم من عشائر بجدلة.

وفي منطقة منبج:

تسكن عشيرة بجدلة الذين منهم آل الرشيد.

وفي منطقة جرابلس:

تسكن عائلة محلي.

في حمص توجد عائلات تركمانية، وفي الرستن ومنهم الأستاذ عبد الرزاق أيوب.

وفي تلكلخ توجد عائلات تركمانية.

وفي محافظة الرقة توجد عشيرة بجدلة وبكمشلي.

وفي محافظة اللاذقية يوجد تركمان في برج اسلام وحول الحفة في قرية معاف.

وفي محافظة القنيطرة والجولان توجد عدة قرى تركمانية ومنهم عائلة فايز آغا.

مراجع: التركمان

1)مقدمة ابن خلدون ص108، كتاب التحرير القاهرة 1966.

2)الأثنوس والتاريخ ص133، برومليه، بودوني دار التقدم موسكو 1988.

3)المصدر السابق ص68.

4)تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص76، ف. بارتولد مكتبة الأنجلو المصري القاهرة 1958.

5)موجز تاريخ التركمان في العراق ص32، شاكر صابر الضابط بغداد 1962.

6)تركيا العثمانية ص8، كلود كاهن باريس 1968 (عن الإنكليزية).

7)مدخل إلى تاريخ توطين التركمان (السالير) في القرن السادس عشر الميلادي ص71، عشقاباد 1965.

8)عالم البدو ص154، تانيا جدانكو موسكو 1986.

9)العراق بين احتلالين ج3 ص22، عباس العزاوي المكتبة التجارية بغداد 1954.

10)تاريخ مختصر الدول ص180، ابن العبري دار المسيرة بيروت 1986.

11)تاريخ طور عبدين، ص287، مار أفرام أغناطيوس أفرام الأول برصوم، ترجمة المطران بولس بهنام بغداد 1963.

12)التاريخ السياسي لتركمان العراق ص44، عزيز قادر الصمانجي، دار الساقي دمشق 1999.

13)تاريخ مختصر الدول ص208.

14)تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص273، كلود كاهن، ترجمة بدر الدين قاسم دار الحقيقة بيروت 1977.

15)تاريخ مختصر الدول ص251.

16)الأثنوس والتاريخ ص174.

17)المصدر السابق ص175.

18❖مقدمة ابن خلدون ص428.

19)أصل تربية الماشية عند التركمان ص218، شنيريلمان، موسكو 1980.

20)بعض أشكال تربية المواشي في تركمانيا ص19، أورازوف لينينغراد 1973.

21)مقدمة ابن خلدون ص331.

22)أبحاث الندوة الدولية لتاريخ الرقة، ص153، ديتر شتورم، دمشق 1981.

23)المصدر السابق ص153.

24)الحوليات الأثرية السورية، مجلد 31، ص165، الأستاذة دعد الحكيم دمشق 1981.

25)المصدر السابق ص166.

26)متحف الوثائق بدمشق الوثيقة رقم 504، رقم السجل 3.

27)المصدر السابق وثيقة رقم 257، تاريخ 1154هـ/ 1738م.

28)المجتمع الإسلامي والغرب ص268، هـ. جب وهـ بوون ترجمة أحمد عبد الرحمن مصطفى، القاهرة 1971.

29)حضارة وادي الفرات ص359، عبد القادر عياش، دار الأهالي دمشق 1990.

30)المرتاد في تاريخ حلب وبغداد ص46، يوسف عبود الحلبي، تحقيق فواز الفواز، جامعة دمشق 1977.

31)العراق بين احتلالين، ج1 ص139، عباس العزاوي.

32)تاريخ بغداد ج1، ص14، الشيخ عبد الرحمن السويد، تحقيق صفا خلوصي، مطبعة الزعيم بغداد 1962.

33)نهر الذهب في تاريخ حلب، ج3، ص295، الشيخ كامل الغزي المطبعة المارونية، 1926.

34)أورفا سالنامه ص98، مطبعة الهامي استنبول 1927.

35)عشائر الشام ج2، ص248، وصفي زكريا دمشق 1947.

36)سالنامه أورفا ص99.

الباب الرابع

مجموعة الأعراق القفقاسية

الفصل الأول: القبرداي عمدة الشراكسة

الفصل الثاني: الداغستان نسور الجبال

الفصل الثالث: الشيشان ذوو الهمم العالية

الفصل الرابع: الأستين الوسامة والنبالة



الفصل الأول: القبرداي عمدة الشركس

- التاريخ القديم
- التركيب الاجتماعي
- الشركس والإسلام
- الهجرة إلى سورية
- أهم الشخصيات



الشركس أو مجموعة الأعراق القفقاسية في سورية

إن تاريخ شعوب القفقاس، يشوبه الغموض، كمعظم تاريخ شعوب العالم القديمة، ومعرفتنا عنه أنه تاريخ قبائل جبلية، ولكن اللقى الأثرية التي وجدت دلت على وجود حضارة مرت بمرحلتين هما:

المرحلة المبكرة:

وهي الآثار التي كشف عنها العالم الروسي ب. يروفسكي عام 1897 في كورغان مايكوب (قرية مشوقة) قرب الكوبان، وقد كثر اكتشاف مثل هذه الآثار في الشمال الغربي من القفقاس، بينما كانت قليلة في اتجاه الوسط وإلى الشرق، وقد بين العالم السوفييتي غ. ف. تورشانيوف علاقة هذه الآثار بحضارة الساحل السوري وبلاد ما بين النهرين، وتقرر لديه أن هذه الحضارة محلية أصيلة في هذا المكان الجغرافي.

وقد عثر العلماء السوفييت على أقدم سيف في أوروبا، بالقرب من مدينة مايكوب، وحدد عمر هذا السيف بما يزيد عن ثلاثة آلاف عام، كما عثروا على خنجر حديدي معاصر للخنجر الحديدي الذي وجد في مقبرة توت عنخ آمون، يرجع إلى عام 1350 ق.م هو هدية من ملك الحثيين[1].

المرحلة المتأخرة:

وجدت آثار في نفوسفابودنوي - نالتشيك، وقد تجلت في شكل مدافن مبنية بحجارة ضخمة مستطيلة الشكل منحوتة بشكل متقن، وقد احتوت على مصوغات ذهبية وحجرية وعظمية، وأوان فخارية، كما وجدت آثار مساكن ومواقد. وقد دلت هذه الآثار على وجود دولة، واستقرار مدني وأسوار عالية، وسكان يدوِّنون معارفهم ومشاعرهم[2]. وأن هذه الكتابة حورية مقطعية لفظية، على نمط الكتابة السومرية، ولكن اسم الصانع يدل اسمه على نمط الأسماء الكنعانية (غياتش بن حيا).

يعتقد الشركس أنهم يعودون بأصولهم إلى قبيلتين هامتين هما:

قبيلة الأنت Ant

وهذه القبيلة كانت تسكن شمال غرب القفقاس. والأنت هم قدماء الأديغة، وقد كانوا ضمن الاتحاد الإمبراطوري للحثيين ولا زالت لدى الأديغة اسطورة تقول: إن الملك الحثي أتيغ خان كمير استولى على آسيا الصغرى، وقد تزوج الفتاة الجميلة جيركاس، فاشتهر أحفاده من زوجته المذكورة باسم (جركس) أو تشركس، ويؤرخون عصرهم بحدود 400- 300 قبل الميلاد، معتمدين على روايات اليونان والرومان خاصة. قال المؤرخ الشركسي آدم غوت: «معظم شعوب العالم تعرفنا باسم شركس، ولكننا ننادي أنفسنا باسم أديغة ومنذ القدم نعيش في المناطق الواقعة ما بين شرق القفقاس وغربه، في الجبال الشاهقة، موطن أجدادنا»[3]. قبائل رعوية.

قبيلة النارت Nart

والأديغة يدعون الانتساب أيضاً إلى قبائل النارت، وهم فئة من الفرسان الأبطال، دجنوا الحصان، وعاشوا ضمن حضارة مركبة تقوم على الزراعة وتربية الماشية والرعي، لم يستقروا في مكان واحد، وقد حملوا تاريخهم الحضاري وموروثهم الثقافي من خلال لغاتهم التي احتوت على أساطير نارت - ساجه الأديغية حتى هذه الأيام، إذا رأى الشركس أحدهم فاقد الحياء والرحمة يقولون له: ألست أديغياً أنت؟ والنارتيون قوم يحبون ركوب الخيل، ويقيمون في مباريات المصارعة بالرماية بالنبال، ويتبارون في الرقص على حافة الموائد الدائرية الضخمة، دون أن يحركوا المائدة، أو يدلقوا شيئاً من أواني الطعام التي فوقها، وكانوا يقيمون احتفالات لشرب الخمر، وكانت تتخلل هذه الاحتفالات أحياناً طقوس لقسم اليمين، وكان القسم يتم إلى جانب دن الخمر تعبيراً على أنه أوثق الإيمان[4]. هذا دليل على أنهم كانوا يمارسون الزراعة والرعي معاً.

إن تسمية الأديغة بالشراكسة ظهرت في المصادر الكرجية منذ زمن بعيد، معتمدين على التسمية القديمة، كيركيت Kirkit وإن أقدم اسم مدون للشراكسة باللاتينية ما كتبه جان دويلان دوكاريان الذي أوفده البابا أينوسنسيوس الرابع (1243- 1254م) عام 1245 إلى خان المغول، فهو يذكر أن بلاد الكومانيا Comania يحدها من الجنوب الآلان (الأستين) والسيركاس، وإلى جنوب بلاد الآلان بلاد يدعونها ساركوسا Sarkosa وهم يدعون أنفسهم آديك أو أديغة Adiga. وهم رغم أنم مسيحيون إلا أنهم يمارسون تعدد الزوجات، ويعتبرونهن كلهن زوجات شرعيات[5]. وهذا دليل على أنهم كانوا مسلمين.

تاريخ الشركس وأصل التسمية

الشركس اسم يطلق على الأقوام التي تقطن القسم الشمالي من بلاد القفقاس، وبالتحديد على ضفاف نهر الكوبان (القوبان) وعلى الشاطئ الشرقي للبحر الأسود ومن شبه جزيرة تامان إلى حدود الأبخاز جنوباً[6]. وهناك عدة تعليلات لهذا الاسم المأخوذ من اللغة الفارسية (جهار - كس) ومعناه الرجال الأربعة[7]. وبعضهم يقول: إن الكلمة جاءت من اللغة التترية من كلمة (جر) أي طريق (وكسمك) وتعني قطع، والجمع بين الكلمتين (جركس) بمعنى قاطع الطريق[8].

أما المؤرخ بدر الدين العيني (المتوفى 1451م) فإنه يجعل الجراكسة أولاد جبلة بن الأيهم الغساني، وقد تفرقوا إلى أربع قبائل[9]. وقد دوّن الكونت بوتوكي تلك القصة سمعها في قبارديا عام 1798م، وقد أكد هذه الأسطورة الأنثروبولوجي الإنكليزي جيمس بل، وهذه الأسطورة تقول: «إن الشركس والألبان والأكراد أحفاد أخوة ثلاثة من أحد أمراء العرب الذي فقأ عين رجل في مشاجرة، وأن الخليفة عمر بن الخطاب حكم بالقصاص (العين بالعين) وقد فرّ الأخوة الثلاثة إلى الأناضول إلى قرة حصار وهناك وصلتهم رسالة، أن الرجل قد صفح عنهم، وقبل الدية، ودعوهم إلى موطنهم الأصلي، الجزيرة العربية ولكنهم رفضوا العودة[10]. ومثل تلك الأسطورة أوردها الدكتور أديب سليمان باغ، قال: «هناك أسطورة أو حكاية كتبت في رسالة بأمر رضوان بك عام 1899م، تقول: أنه أثناء إحدى المهرجانات أفلت من أكسة بن عكرمة وهو زعيم قبيلة عربية قرشية سهم أصاب عين أعرابي من قبيلة أخرى، وعندما شكا المصاب أمره إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فأرسل يستدعي المتهم الذي توقع عقوبته المنتظرة (العين بالعين) ولخوفه هاجر إلى بلاد الروم، وصار الناس يرددون ساراكسه ومنه اشتق اسم الشراكسة[11].

وهناك مؤلف عربي نسب الشراكسة إلى قريش، وألف في ذلك كتاباً باسم الوجوه العابسة بذكر نسب الشراكسة[12]. وهذا دليل على حب الشراكسة للعرب والمسلمين.

يذكر المؤرخ والرحالة علي بن الحسين المسعودي (المتوفى 956م) عندما يصل إلى نهر كزل روذ وتفسيره نهر الذئب، وتجلب إليه المياه من جبل القبق، وهو جبل عظيم، وصقعه صقع جليل يكون في المسافة علواً وطولاً وعرضاً نحو من شهرين وأكثر الأمم في هذا الجبل اثنان وسبعون وكل أمة لها ملك ولسان، وقد اشتمل على كثير من الممالك وهذا الجبل ذو شعاب وأودية»[13]. وأهل جبل القبق من أنواع اللكز ثم اللان والخزر والأبخاز وكشك وسائر تلك الأمم المنتشرة هناك، مدينة طرابزنده (طربزون)

وهي مدينة على شاطئ البحر الأسود، لها أسواق في السنة تأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم من بلاد الكشك[14].

ذكر الشاعر أبو عبادة البحتري (837- 920) جبل القبق بقوله:

معلق بابه على جبل القبـ ـق إلى دارتي خلاط ومكس
حلل لم تكن كأطلال سعدى في قفار من البسابس فلس

ومن المؤرخين من يوسع دائرة كلمة شركس لتشمل الأديغة والداغستان والشاشان والأستين، ويرجعهم إلى قبائل أربع، هي:

1-قبيلة تركس أو شركس:

وهؤلاء سكناهم في حوض نهر التيرك Terek في الشمال الشرقي من القوقاز في سهل قبارديا الذي يقع شرق حوض القوبان، حيث تتفرع من سلسلة قفقاسية الشركسية جبال فرعية تتجه نحو الشمال بشكل نصف دائري وتتصل بجبال بشتاو محيطة بسهل واسع حيث تتجمع المياه النازلة من الجبال لتؤلف نهر التيرك، ويسمى هذا السهل سهل قبارديا. وقد اعتقد بعض المؤرخين أن اسم الشركس يعود إلى نهر التشرك حيث أريقت عنده دماء كثيرة وانتصر الشراكسة على التتر. وهناك تعيش قبائل القبرداي.

2-قبيلة أراكس:

وسكناهم حوض نهر أراكس الفاصل بين أذربيجان وأرض القوقاز من جهة مصبه في بحر الخزر إلى أواسط الجبل، ومن روافده نهر الكر وعليه تعيش قبائل الداغستان.

3-قبيلة آص:

وهم اللان ويسكنون غرب قبيلة أراكس من مضيق داريال إلى سواحل البحر الأسود ومنهم قبائل الآفار (الداغستان) والآستين (القوشحة) والأبخاز (الأباظة) ويسمى موطنهم سهل الأبخاز.

4-قبيلة كسا:

هم سكان ما وراء مضيق دريال ويشمل قبائل كثيرة من الشاشان والأنغوش في حوض نهر الكوبان، وقد ذكرهم المسعودي باسم قبائل الكشك. وكلمة الكشك هي تحريف لكلمة كاساك، ولا زال الأستين يدعون القبرطاي باسم كسغ، وهنا تعيش قبيلة

الحاتقواي، القبيلة التي تحدث عنها الرحالة التركي أوليا جلبي (1611- 1679)، وقد وصف أفراد هذه القبيلة بأنهم يعبدون الشجر، ولديهم عيد في شهر تموز شهر الكرز ويستمر العيد لمدة أربعين يوماً يأتيهم فيها تجار الترك والروس والفرس والعرب والأرمن ثم قال عنهم ليس في العالم كله مثل بنات الشركس وشبابهم جمالاً وأدباً، ويصفهم بالكرم وحماية الغريب[15].

يعتبر جبل القفقاس جبل الألسن، واللهجات، حيث توجد أكثر من مئتي لغة[16]، بينما ذكر المسعودي أن عددها اثنتين وسبعين لغة، يقول الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف: «الحدود تفصل بين الناس، لكن اللغات تفصل بينهم أكثر، والحدود قد تتغير، وقد تلغى أو تتحول إلى مجرد شكليات، أما اللغة فهي ملك الشعب إلى الأبد، يستحيل تغييرها أو إلغاؤها»[17]. إن اللغة تعطي للشعب خصائصه، وشعوره بوعيه السلالي والعرقي، ولأن الشركس يعيشون في جبال، جعلتهم يحتفظون بلغتهم، فاللغة هي روح الشعوب وفيها يقرأ مصيرها. وكلما كانت الأودية والجبال صعبة كانت الجماعات التي تسكنها أصفى والفروق اللغوية أكثر وضوحاً[18].

ما هي أهم لهجات اللغة الأديغية؟

قسَّم الباحثون المختصون في لغة الأديغة إلى أربع مجموعات هي:

(1)مجموعة شمال القوقاز:

هم سكان حوض الكوبان وسواحل البحر الأسود ويتكلمون لهجة (جنأك) ولهجة قبائل هذه المنطقة تكاد تكون واحدة بلا فرق ولا تمييز[19]. وتضم القبائل التالية:

-الكوين **Guin** ويقطنون شبه الجزيرة الصغيرة الواقعة بين خليج تاسك وخليج بيزوغ.

-الحاتقوا، وكانت تسكن شبه جزيرة تامان، ثم غادرت المنطقة بعد احتلال الروس لمدينة أنابا سنة 1791.

-الأبزاخ، ويسكنون في المنطقة الوسطى حول نهر وورب وعلى ضفاف نهر لابا الكبير ولابا الصغير وهم يقطنون غرب البسلني.

-البجدوغ، كانوا يسكنون في المنطقة الواقعة شرقي الشابسوغ وعلى الضفة الشمالية لنهر الكوبان. ويتألفون من فرعين (الكرله ناي) و(خمشاي) وأكثرهم الآن في القفقاس مع قبيلة الحاتقواي.

-الشابسوغ، كانوا يسكنون شرق قبيلة ناتخواج على ضفاف نهر ووبين **Uibin** وفي وادي بسيطوي جنوبي سلسلة جبال قفقاسيا وقد شكلوا مع قبيلة الناتخواج، جبهة متحدة في وجه الاحتلال الروسي.

-الجانا، كانوا يقيمون شمال نهر الكوبان حول قره كوبان وبعد الاحتلال الروسي للمنطقة عام 1778، غادروا المنطقة وعاشوا قرب مدينة أنابا ونهر آراكوم.

-الكيفاك، كانوا يسكنون شمال مدينة أنابا ثم تفرقوا بعد عام 1822، بعد احتلال الروس للمدينة عام 1791، واختلطوا بقبيلة الناتخواج.

-التشابن، كانوا يعيشون مجاورين للحاتقوا ثم اختلطوا مع قبيلة الناتخواج، وهناك قبائل صغيرة مثل الكميرقوي والأدماي والموخوش والحاتقواي يعيشون في حوض الكوبان.

(2)مجموعة المنطقة الوسطى

سكان هذه المنطقة من البسليني ويعيشون حول نهر وورب وعلى ضفاف نهر لابا الكبير، ونهر لابا الصغير، وخوشي، وقد اشتهروا بالأناقة والجمال والفروسية، وقد كان لجمال أميرات عائلة قانوق سبباً لمباريات أمراء الجركس. ويروي القبرطاي أن الأمير تامبي كانت له زوجة جميلة جداً من عائلة قانوق، فاضطر إلى مغادرة المنطقة للمشاكل التي تعرض لها هو وزوجته وذهب إلى القبردا الحالية[20]. ولهجة البسلني في رأي العلامة يوسف عزت قوموغة وهي أفصح اللغات وأتقنها، وهم يحسبون من ضمن الأديغة لاشتراكهم معاً بأساطير النارتساجه Nartensaga.

(3)مجموعة الأديغة العليا:

1-سكان منطقة سهل القبرداي يتكلمون لهجة صحاغ، والقبرطاي هم أكثر القبائل الجركسية سيطرة ونفوذاً وعدداً، وهم الذين استطاعوا أن يكونوا دولة مما جعل لهجتهم هي الأكثر فصاحة لأن اللغة كائن حي تتأثر بالأحداث السياسية والاجتماعية، وكما قال المفكر الألماني يعقوب غريم «إن لغتنا هي تاريخنا في الوقت نفسه».

والقبرطاي هم الذين أسسوا مدينة مزدوك Mezdog، ولا زالت بالقرب منها تقوم قلعة (تشركس- كارمن) ويعتقدون أنهم هاجروا من منطقة القرم، واستقروا عند مصب نهر الكوبان في منطقة الحجر الأحمر (قيزل طاش) عام 1759م. وكانوا بقيادة آل أنزور.

2-منطقة قبارديا الكبرى، يقيمون في أحواض نهر شجم وباخسان ومالكا ويودكوموك وكوما ووادي لنجوق (حجرزلنجوق). وفي أعالي الكوبان يعيش القرشاي - شركس، ويعتقد القبارداي أنهم سكنوا هذه المنطقة بسبب ظهور الآفار الذين جاؤوا من

جهات الفولغا والدون، فالتجأ قسم منهم إلى جزيرة تامان والقسم الآخر في قرب مدينة أنابا، في مكان الأرض المدورة (تشي – خوراي) والصواب أن **الأمير ينال** دفع عنها الأستين واستوطنها منذ عام 1490م.

3- مجموعة لهجة الأبخاز

يقطنون على ساحل البحر الأسود في منطقة كبيرة من حوض نهر أفيس حول نهر لابا ويجاورون قبيلتي الأبازين والأباظة، وقد تأثروا بلغتهم، وهي ترزح تحت هيمنة الفعل الواحد، بالإضافة إلى الملحقات الصدرية والعجزية التي لا تستطيع هذه اللغة التعبير إلا بواسطتها، وفيما عدا الكلمات العربية والتركية وبعض الكلمات المأخوذة من اللغة الروسية، لأن اللغة ليست نظاماً من الأمور الجوهرية الثابتة بل من الأشكال غير المستقرة فهي كالكائن الحي تتطور، ومع ذلك يرجع **الباحث الشركسي منذر بج** اللغة الأديغية إلى اللغة السومرية يقول: «إن اللغة السومرية قبل خمسة آلاف عام ليست لغة ميتة بل هي لغة حية مستمرة في الوجود من خلال اللغة الشركسية»[21]. وهناك بعض الباحثين يقولون أن السومريين جاؤوا إلى وادي الرافدين من سواحل البحر الأسود، الذي ذكر المؤرخ الروماني **بليني الأكبر** (23- 79م) أن عدد اللغات حول جبال القفقاس والبحر الأسود كانت حوالي 300 لغة، قال: وقد قمنا نحن الرومان بإدارة أمورنا هناك بمعرفة 130 مترجماً[22].

التركيب الاجتماعي عند الشركس

كل ما يدخل في تكوين الحضارة يمت إلى الطبيعة، أي إلى الظروف الجغرافية، وهي في نفس الوقت ظروف إنسانية أدت إلى نشأة الأعراق، فالسهول تملي على الناس حياة رعوية وكذلك الجبال والغابة تفرض نوعاً آخر من الرعي، إنه الرعي الجبلي. كتب **اليزيه ركلوس** في كتابه (الأرض) المنشور في باريس عام 1876م «إن الهضاب ذات أهمية كبرى في تاريخ البشرية». **فما تأثيرها على سكان جبال القفقاس الأوسط؟** جبل البروز، وجبل قازيك، ومن أشهر سهول هذه المنطقة إقليم القبرداي الذي تعتبر تربته من أخصب الترب في العالم، وكذلك المناخ المعتدل ساعد على نشاط بشري مركب من رعي وزراعة، كانت الزراعة في البداية صغيرة زراعة حواكير ثم تطورت عندما استخدم الإنسان طاقة الحيوان والحصان والثور، وكانت الزراعة مشاعية بين أفراد القبيلة، وكانوا يعتقدون بأنهم أبناء رجل واحد، وعندما تطورت الزراعة ظهرت في المجتمع طبقة الأحرار والعبيد، وكانوا من أسرى الحرب، وكان

الزواج في القبيلة من خارج القبيلة، وكان الشاب يخطف فتاته من القبائل المجاورة. وعندما تحول الوضع وصار الفرد يمكنه الزواج من داخل القبيلة ولكن من قرابة بعيدة ظلت عادة **الكواسا** وهي عادة الخطف القديمة ولكن تحت إشراف القبيلة وبمعرفة الأهل والجوار.

وبنى الشركس منازل تتفق ومعطيات البيئة، حيث يتوفر الخشب والحجر، فكانت البيوت الحجرية لسكنى الإنسان والحيوان. وهناك الأبراج الحجرية المخصصة للدفاع، كل منزل تحيط به أربعة أو خمسة منازل. وقامت هناك صناعات منزلية بسيطة تلبي حاجة السكان، وكان المنزل الأديغي أو الشركسي وحدة غذائية مكتفية، فالمرأة تحضّر الطعام والأب يخزّن المونة للشتاء، وكانت النساء هن اللواتي يمارسن التضميد والطبابة، وكان الرجل الشركسي يحب البطولة والفروسية، ويخلدون بطولاتهم بالأغاني الشعبية التي تنوب عن التاريخ.

وهناك أربع طبقات عند القبرداي، وهي المراتب التي أحدثها الأمير جان خوانوقة اصلان في القرن 16 ميلادي.

طبقة الأمراء (بشي Pshe)

وكان الأمير الذي يعتبر رأس القبيلة، بالحكمة والرجولة والاتزان، وتذكر بعض الروايات أنه يوجد القبرداي أمير الأمراء (بشيم يابشي) وهو الأمير ينال (المتوفى 1427م). ولا زالوا يتذكرونه بكل إجلال ويرددون (ليت عهد ينال يعود لنا) وكان من قبيلة الأبخاز، ومن بعده ترأس القبرداي (باخجري خان) وكان بين الأمراء أمير ينتخب يدعى (بشي شخوه) وهؤلاء لا يتزوجون من عائلات الأمراء، أو النبلاء، وقد يعزل الأمير وتنزل طبقته ويدعى بشي تاوخ، وقد طبق هذا الحكم على عائلة (قابردا تامبي) وصارت من طبقة النبلاء. وكان الأمراء من كبار الملاك، وكان الأمراء متواضعين لا يتميزون عن الشعب بلباسهم (التشركسكا) والقلبق الأسود.

في عام 1767 قام عشرة آلاف فلاح بثورة بزعامة داميلي مامسروقه، في منطقة التيرك ولكن ثورته أجهضت بتظافر وتحالف الأمراء والنبلاء ورجال الدين، ثم قامت ثورة ثانية، في منطقة الكوبان (1790) ضد الأمراء واستطاعوا إجبارهم باللجوء إلى الروس وسميت تلك الثورة (غريوسكايا). وهناك طبقة الـــ (بشي كاو) أي أتباع الأمير. وهناك الأمراء من غير الأديغة ويطلق عليهم (كوه وز).

طبقة النبلاء (القوالاش)

وتعني الكلمة الرجل الحائز على أوصاف الشهامة منذ ثلاثة جدود. وهؤلاء هم الحكام الحقيقيون وبيدهم تنفيذ الشريعة (الأديغة خابزه). قال المؤرخ الشركسي

محمد خير حاغندوقة (وهؤلاء يشبهون الحكام الإداريين يعاونهم أعوان يطلق عليهم (ورق)[23]. وكانوا يقدمون لأعوانهم وأتباعهم لتوطيد أساسهم الاجتماعي، توهب هذه الأراضي كهبة تنتقل بالوراثة. ومن العائلات النبيلة عائلة الأنزور الذين كان لهم الفضل في اعتناق الشركس للإسلام، وممن أسهموا في تطبيق شريعة الأديغة خابزه، وعندما احتلت القوات الروسية معظم إقليم القبرداي، في عام 1829 انضم بعض أفراد عائلة الأنزور إلى حاشية القيصر وبعضهم انضم إلى الشيخ شامل مثل الكابتن محمد ميرزا أنزور وكان عضد الشيخ شامل وعندما استشهد في 26 حزيران عام 1851 بدأت كفة الثورة بالنزول، وبدأ رجال الشيخ شامل بنفضون من حوله وفي عام 1859 استسلم الشيخ شامل في غونيب معقله الحصين. وبدأ تهجير الشركس إلى بلدان السلطنة العثمانية.

لم يكن سلوك كل النبلاء نبيلاً، فعند بغت وظلمت عائلة شيرنيلوق من قبيلة الشابسوغ ثاروا عليها، فاستعان بالأمير باتي غيري من قبيلة البجدوغ، واشتدت أوار الثورة فساعدت الإمبراطورة كاترين الثانية الأمراء والنبلاء، ولكن لم يغمد الثوار سيوفهم حتى طردوا نبلاءهم وقتلوا الأمير باتي غير البجدوغي. وبعد وفاة كاترين الثانية 1796م، حدثت انتفاضة شعبية اتحدت فيها قبيلتا البجدوغ والشابسوغ، وانتهت بمعارك دامية عرفت بحرب بزيقوه قرب مدينة بجدوغ قاله على بعد 15 كم غرب مدينة كراسنودار، ولكن هذه الانتفاضة فشلت في تحقيق أهدافها[24]. ولكن لم يعد لديهم طبقات اجتماعية.

طبقة الأعوان (ورق)

هذه الطبقة تلي النبلاء مرتبة، ولكن الشركس يعظمونهم، وينسبون إلى أسمائهم القرى والأحياء التي يقيمون فيها هم وأفراد عائلاتهم وأتباعهم، وهم من أشد الناس إلحاحاً في تطبيق شريعة الأديغة خابزه حتى إن البعض ينسبونها إليهم فيقولون (ورق خابزه).

وللورق شارات خاصة بهم، وقد يرتفع بعض الناس العاديين إلى مرتبة الورق إذا أبدى جرأة وبسالة في الحرب أو قام بعمل مفيد كما رفع الأمير ايلجروقوه الطبيب الذي عالجه وأشفاه من مرضه إلى مرتبة ورق، وهو جد عائلة دوخشوقين[25]. ومن عائلات الورق التابعة لآل أنزور في قبرداي العليا (بارت، الجبرومة، حاموقة، داس، مريمقول، تانا، كيمرغوي، ماميشيف، كوجك، غودروقه، توخ، سوجن، بلقار، شاغير، خوجاماطاي، تشاريف، تابوخ، أباتوقة، تلاوج، أوغينوقه، لاشين، ورقي).

ومن عائلات الورق الذين هم أعوان آل أنزور في قبرداي الصغرى (قونايف، تشاراكول، قوباناي، خايف، غالاشيف، كاباتسيف، نالاي، بيتروشوف، باشلايف).

ومن عائلات الورق من الآستين (القوسحة) وكانوا أعواناً لآل أنزور، من فرع الديغور (باغاي، وسومغور).

طبقة الأحرار (فوقول)

هؤلاء لا يدفعون ضريبة الراس، ولا يخضعون لسيطرة، وهم أناس عاديون يعملون في أراضيهم أو يمارسون الحدادة والنجارة والتجارة، ويسمون فوقول، من كلمة فوقولي أي الغني، وعليهم طاعة الأمير والنبيل أحياناً، بل إن بعضهم يملك الأجراء والعبيد.

وطبقاً لوصف الرحالة الفرنسي الذي زار بلاد الأبخاز عام 1839 يقول دبوا دومون برو: «لا تختلف الطبقات الأربعة الأولى عند القبرداي والأبخاز عن بعضها من حيث اللباس والحياة العائلية، وتسري بينهم المساواة التامة والكل يخضعون لقانون الأديغة خابزه»[26].

طبقة الأقنان (بشي لئه)

تعني كلمة بشي لئه رجل الأمير، وهؤلاء يعملون في أرض الأمير أو النبيل مقابل حصة من المحصول، وهم فلاحون عليهم التزامات، ونتيجة للاضطهادات قاموا بعدة ثورات في الأعوام (1821، 1824، 1857، 1866) وهذه الثورة الأخيرة كانت من أكبر الثورات في مناطق القبرداي وقد امتدت إلى مدينة ليخني في بلاد الأبخاز[27].

وقد صور الأديب الروسي غوغول هذه الطبقة في قصته الخالدة (النفوس الميتة).

طبقة العبيد (أونه أوت)

معظم هذه الطبقة تعمل في خدمة البيوت، وهم يعودون لأصول تترية أسرهم الشركس في الحروب، ويسمون أحفادهم (ناشكو) أي ذوي العيون الضيقة، هذه الطبقة لا حقوق لها في شريعة الأديغة خابزه، ولا يحق لهم استخدام السلاح خشية منهم، في أمثال الشراكسة (لا تجعل الخادم رديفك فيستولي على سرجك).

الشركس والإسلام

يحدد مؤرخو القفقاس عام 527م زمن دخول الديانة المسيحية إلى حوض الكوبان ولا زالت آثار إحدى الكنائس وتسمى شونه أي بيت الخيل، ولا زالت توجد نقوش تمثل الصلبان البيزنطية على المعالف والأجران، ويروى أن الخان التتري المسلم جان بك حول هذه القلاع المسيحية إلى مساجد. وعند جاء الأمير التتري منكوخان منطقة التيرك أثار حفيظة قبائل القبرداي الموجودة في منطقة التتر تحت حكم القائد باتود

خان، فقادهم القائد أنزوروق غراندوق، وجاء بهم عام 1180م، واجتمع المجلس الرئاسي للقبائل تحه مافه، وانتخبوه قائداً عليهم، وكان أنزوروق مسلماً، وكان القبرداي منقسمين بين مسلم ومسيحي، ثم توجه أنزوروق إلى منطقة الأستين (القوشحة). وعندما هاجمت قبائل الآفار بقيادة الخان بايقان المغولي عام 1222م، كان تضرع بعض الشركس (ليكن أوشي جرقا) أي يسوع المسيح مخلصنا، بينما كانت القبائل المسلمة تكبِّر، وهي تقاتل المغول.

وبعد فتح القسطنطينية عام 1453ن، احتل محمد الفاتح بلاد القرم عام 1475 وأصبح التتر تابعين له وأعلنوا إسلامهم. وعندما قام إيفان الرهيب واحتل عام 1557 إمارة استراخان وجرى صراع ديني بين الإسلام والمسيحية، من أجل مكاسب سياسية، وكان الخان عادل كراي مسلماً صالحاً، ملماً بالعلوم الشرعية واللغة العربية، وكان همه نشر الإسلام فتقرب للشركس وأرسل إليهم الدعاة وبنى المساجد وعين لها الأئمة[28].

وعلى أثر معاهدة بلغراد عام 1739م، حصل القبرداي على استقلالهم، أثناء حكم الإمبراطورة إليزابيت (1725- 1762م) وأحب الشركس دينهم الإسلامي واستقلالهم عن الروس، وقام النبيل أصلانوفا أنزور على إجبار الأنغوش والأستين على تطبيق الشريعة الإسلامية بقطع يد السارق، وقتل الزاني. وقد ساعده النبيل اسحق أبوكوقه، وأما مقاضاة الأمراء والنبلاء والورق فقد كانت تطبق عليهم شريعة الأديغة خابزه[29].

وانتشرت الطرق الصوفية بين الشركس خصوصاً الطريقة الصوفية النقشبندية التي أحياها غازي مولا (1793- 1834) وأصبحت دعوته تعرف بدعوة الملالي، وقد ثوروا الشيخ شامل (1834- 1859) واستمرت ثورته. وبانتهاء ثورته تم تهجير الشركس إلى البلاد العربية، سورية والأردن، وقد توالت الهجرات:

الموجة الأولى: بدأت عام 1850 واستمرت حتى عام 1856 ولا يعرف من قاد هذه الهجرات.

الموجة الثانية: بدأت عام 1862 وبلغت الذروة عام 1864، ويقدر عدد المهاجرين إلى تركيا وبلغاريا والبلاد العربية حوالي مليوني نسمة.

الموجة الثالثة: من 1900- 1906: لا توجد معلومات دقيقة عنهم إلا الهجرة الأخيرة عام 1906، بقيادة طالستان أنزور. استوطنوا الرقة وخناصر وحلب.

الشركس في سورية

بدأت هجرة الشركس إلى سورية منذ منتصف القرن التاسع عشر، وكانت آخر هجرة بقيادة طالستان أنزور بك إلى الرقة وخناصر في أواخر عام 1905، وكان

طالستان بك من العائلات النبيلة، سكن هو وولديه عمر وجواد في مدينة الرقة، ومعه أخوه علي قاير بك، الذي رجع إلى الآستانة وكان شاعراً ومترجماً من الروسية إلى التركية وقد ترجم مؤلفات بوشكين وليرمونتوف ودوستوفسكي، وتوفي في الآستانة ومعظم أعماله في مجلة ثروت فنون. وقد حصل على بعضها ابن أخيه إسماعيل بك أنزور. أما بشماف أنزور الأخ الأصغر لطالستان فسكن في خناصر، وأنجب إسماعيل بك أنزور الذي درس الفن السينمائي في النمسا وكان أول مخرج سينمائي في سورية. وولده نجدة أنزور هو المخرج السينمائي والتلفزيوني المشهور في سورية له كثير من الأعمال التي نالت الجوائز في المهرجانات منها: أخوة التراب، والموت القادم من الشرق، مسلسل الجوارح، الذي غير مجرى الأفلام الدرامية، وله المسلسل المشهور آخر الفرسان، ومسلسل فارس بني مروان، وأعماله كثيرة يمتاز بدقة الإخراج وجمال الصورة.

ومن المفكرين والكتاب الشركس، المؤرخ والباحث أمين سمكوخ، وولده برزج سمكوخ وهو أيضاً مؤرخ كبير، وهو يعيش في دمشق بعد نزوحهم من القنيطرة.

ومن الباحثين الدكتور أديب باغ (دكتوراه في الجغرافية) كتب عن جغرافية الجولان رسالة الدكتوراه وترجمت إلى العربية، وهو أعظم مرجع عن الجولان.

ومنهم الدكتور عادل عبد السلام في الجغرافيا، وهو أستاذ جامعي معروف وله إسهامات في التأليف والتدريس، وفي الموسوعة العربية التي تكتب في دمشق.

ومنهم الدكتور زهدي سطاس يكتب في الاقتصاد وهو أستاذ جامعي له مساهمات عديدة عن تاريخ الشركس، وأخوه عز الدين سطاس باحث وكاتب في التاريخ السوري والشركسي.

ومنهم الدكتورة ناديا خوست، الأديبة السورية المعروفة، مؤرخة مدينة دمشق، والقاصة المشهورة في اتحاد الكتاب العرب.

ومنهم الأديب عدنان قبرداي، المؤرخ والكاتب في تاريخ الشركس.

والقصاص سامي حمزة، روائي سوري معروف، عضو اتحاد الكتاب العرب، يعيش في مدينة الرقة.

الفصل الثاني : الداغستان نسور الجبال

- التاريخ والتقسيم العرقي
- الداغستان والعرب والإسلام
- ثورة الشيخ شامل
- الهجرة إلى سورية



الداغستان نسور الجبال العالية

الداغستان هم أحد شعوب القوقاز التي تسكن الجبال العالية، بل إن تسميتهم جاءت من سكناهم لتلك الجبال. وتتقسم بلاد الداغستان طبيعياً إلى أربعة وديان عميقة، تجري فيها أنهار السامور والصولاق وروافده والأندي والأورا، وغازي قوموق.

قال الشاعر رسول حمزاتوف: «بلدي يفيض قوة وعظمة، وتحوم فوقه النسور كالآلهة، إنها تحلق عالياً فوق الأرض، كأنها حراس ساهرون، وطني يسمى أشجع الشجعان، نسور الجبال»[30].

تقع الداغستان على المنحدر الشرقي لجبال القوقاز في جهة بحر قزوين، وتقدر مساحتها بحوالي (51 ألف كم مربع) وفي تلك الجبال وجدت كهوف فيها رسوم ملونة لحيوانات كالماعز الجبلي، ومنذ آلاف السنين كانت معيشة الناس على الرعي الجبلي وعلى الزراعة في تلك الأدوية الخصبة، التي توجد فيها أجمل بساتين الفاكهة في العالم، بالإضافة إلى الحبوب والخضار، ومنذ القديم قامت صناعة الأسلحة، السيوف والقامات، لتوفر مادة الحديد، والرصاص والكبريت. في شمال البلاد يربون الخيول الجيدة ذات الشهرة العالمية. وتعيش في تلك البلاد قبائل من اللان والأندال والغازي قوموق، وقد امتزجوا منذ القديم بالشعوب الطورانية، وهم حالياً يسكنون حول فروع نهر صولاق صو، أما الأثنوس الأكبر (العرق السلالي) في تلك البلاد فهم اللزجي يسكنون المنخفضات المتجهة نحو بحر الخزر، وعموم الداغستان الجبليون من ذوي الرؤوس المدورة، مع بروز الخدين، وبياض البشرة، إلا أنهم قصار القامة بالنسبة إلى الأديغة والأستين ولغتهم الوطنية اللزجية لغة العلم والثقافة وهي غنية بالمفردات العربية والتركية والفارسية[31].

لقد أسهبت في وصف البيئة الجغرافية للداغستان، لأن معرفة الجغرافية والتاريخ، والاهتمام بما هو ثابت في ثقافة شعب ما، كاللغة والدين، هي ضرورية في تكوين التاريخ المعاصر، والداغستان هم مجموعة من شعوب القفقاس يملكون ثقافة معينة، ويتكلمون عدة لغات قبلية، وهذا لم يمنعهم من الشعور بأنهم يعودون إلى أصل واحد، ويملكون جملة من الصفات والأفكار والعادات كونوها من خلال عيشهم

المشترك، يقول برومليه: «لا يظهر الأثنوس (العرق) وفقاً لإرادة الناس، بل نتيجة لتطور موضوعي للعملية التاريخية وهي تشمل أجيالاً عديدة من الناس، أي أن رسوخ جذر الأثنوس هو أكثر صفاته تمييزاً»[32]. يقول الشاعر حمزة تسادا: «حين يموت الوالد، يورث أبناءه بيتاً، حقلاً، سيفاً ومزماراً، لكن الجيل حين يذهب يورث غيره من الأجيال التالية اللغة»[33]. واللغات الداغستانية هي لهجات تخضع لقواعد الصرف في اللغات الشركسية، وقد أوجز العلامة يوسف عزت هذه الخصائص بما يلي:

1)أداة التعريف غير موجودة في اللغات الشركسية ومنها اللهجة الداغستانية.

2)لا يوجد في هذه اللغات علامة التذكير والتأنيث.

3)الصفة في اللهجات الشركسية، غالباً تنتهي بأدوات (خه، خي، غه).

4)علامة الجمع هي (خه) وتلفظ CH بالألمانية.

5)أحوال الاسم تبقى في صيغة واحدة في الجر والنصب على الأغلب، وتنتهي بحرف الميم.

6)تتأخر عن الموصوف كما في اللغة العربية.

7)أما المضاف إليه فإنه يتقدم على المضاف إذا بمعنى الملك مثل (أحمدم يونه) أي بيت أحمد.

8)أسماء الأعداد تأتي دائماً بعد المعدود، وتصريف الأفعال يكاد يكون سماعياً.

9)صوغ اسم المصدر من الأفعال يكاد يكون بزيادة (غه).

10)إذا تقدمت الهمزة على بعض الحروف الساكنة تنطق معاً (همزة) بمعنى جديد (صئة)[34].

فاللغة هي ملك الشعب إلى الأبد، ويستحيل تغييرها وإلغاؤها، ولكن يشملها قانون التطور، فالشعوب القفقاسية تكونت سلالاتهم الاجتماعية قبل العصر الصناعي. وقد تأثروا بوسطهم الجغرافي (الجبال والأودية والغابة) وفي العصر الحديث أصبح أسلوب الإنتاج هو المؤثر أكثر من الوسط الجغرافي، وأصبحت الجغرافيا عامل حث وإبطاء في التطور الاجتماعي.

هناك تصنيف سلالي لمجموعة الشعوب القفقاسية، يعتمد على الوسط الجغرافي، ويقسمهم إلى مجموعتين:

مجموعة عرق البحر الأسود:

وهؤلاء يتميزون بالرأس الطويل، والوجه الطويل، والأنف المستقيم، والعيون الملونة، والشعر الكستنائي الكثيف، والقامة المنتصبة الطويلة، ولون البشرة الأبيض، ومع تناسق الأعضاء، وقوة البنية، وهذه الخصائص تتصف بها قبائل الأديغة والأستين (القوشحة)،

وهم الذين وصفهم الرحالة والمؤرخ العربي المسعودي في القرن العاشر الميلادي، قال: «إن لهذا الشعب أخلاقاً حميدة، وهم يدينون بالوثنية، ولا يوجد في العالم مثل هؤلاء الناس في رشاقة أجسامهم، وتناسق أعضائهم، ونحافة خصورهم، وتناسب أضلاعهم، وأحواضهم، وتكامل الأشكال المتناسقة، ولنسائهم شهرة في الجمال، وحسن المعشر، ورقة المشاعر وسحرهن في مبادلة الحب»[35].

إن المظهر الخارجي وحد بين الأستين والقبرداي، على الرغم من اختلافهم باللغة.

مجموعة العرق الجبلي:

وهؤلاء يتميزون بالراس المدور، والعيون السوداء وأحياناً الزرقاء، والأنف المنحني نحو الأسفل، والقامة المتوسطة، ومن هؤلاء الداغستان والشيشان[36].

وقد وصفهم أبو الثناء الأمشاطي (المتوفى 1494) «بأصحاب القدود القوية، وأهل البأس والعصبية، دأبهم المغالبة، وفيهم غلظة وجبروت وكبر وخيلاء، لا يرون لأحد عليهم فضلاً، ويزعمون أنهم مستحقون لكل شيء من المكرمات»[37]. هذا الوصف تناول الصفات النفسية أما الصفات الجسدية فالداغستان والشيشان على العموم يميلون إلى النحافة، وهم يفضلون الرجل الخفيف الحركة فوق سرج حصانه، ويبقى الراقص منهم رشيق الحركة، في حلبة الرقص ولو امتد به العمر. وصف الأستاذ فريد وجدي الشركس بشكل عام: «إن الشركس جيل من الناس يسكنون حول جبال القوقاز، وهم معدودون أكمل بني آدم خلقة، وأحسنهم وجوهاً، وأشجعهم قلباً وأشدهم للشدائد مقاومة»[38].

ومن عادات الشابسوغ والداغستان أن لا يكون لأي شخص دالة على الآخرين، ولا لجماعة من الناس سيطرة على جماعة أخرى، والقوة الوحيدة عندهم هي قوة الكلمة[39]. وقد دلل على ذلك الشاعر رسول حمزاتوف في كتابه (داغستان بلدي).

إلى أي بلد يذهب القفقاسي، فإنه يحمل معه خصائصه السلالية، ولغته الحاملة لثقافته، ولكنهم في الوقت نفسه ذوي عقول متفتحة هم مواطنون مخلصون للبلد الذي يستقرون فيه. عندما جاؤوا إلى سورية والأردن، لفتوا انتباه الآخرين بملابسهم وأغطية رؤوسهم المصنوعة من الجلد (القلبق الأسود) والمعطف الطويل (التشريكسيا) ولبسهم الجميل وتمنطقهم بالقامات، ولكن مع مرور الزمن تطوروا مع تطور العصر، صاروا يلبسون الثياب الحديثة، الجاكيت والبنطال بالنسبة للرجال وأحياناً الكوفية والعقال بالنسبة للشركس في الرقة، وتطور لباس المرأة الشركسية لبس التنورة والقميص والبدلة وغطاء الرأس (الإشارب) وبذلك فإن كل المظاهر التي جاؤوا بها لم تبق إلا في حفلات الرقص الوطنية.

الداغستان والعرب

كانت القوافل العربية المحملة بالطيب والبخور والتوابل، تأتي دائماً إلى بلاد الكرج، وأذربيجان وأرمينيا، وتعود بالمقابل محملة بالسيوف والفراء والبسط والسجاد، ولأهمية هذه المنطقة من الناحية الاقتصادية أرسل الخليفة عمر بن الخطاب في سنة 644م، جيشاً بقيادة سراقة بن عمرو المضري، إلى إقليم أذربيجان، وانفصلت عن الجيش، سريتان بقيادة القائدين بكر بن عبد الله الفهري وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وقصدا بلاد شروان اللزكي (الداغستان) وفتحا تفليس. وجاء من بعدهما الأمير مسلمة بن عبد الملك وجعل حكمه في تفليس، وأرسل الدعاة يدعون للإسلام[40]. وعرف اللزكيون اللغة العربية وكانت تجري بينهم وبين العرب مناوشات، من ذلك المعركة التي جرت عام 1023م، التي قادها سراقلة التفليسي، أسر أحد العرب، وأخذ الجبليون فرسه وسلاحه وقوسه، لكنه لم يشأ أن يعطي الكتاب، الذي أخفاه في صدره. ولكن القائد سراقلة، أعاد إلى الأسير فرسه، وأخذ منه الكتاب وقال: عندنا من الخيل والسيوف ما يكفينا، لكن ليس عندنا كتاب واحد. أما أنتم العرب، فعندكم الكثير من الكتب، فلماذا تبخل علينا بواحد منها؟

دهش المحاربون اللزكيون وسألوا قائدهم: وما حاجتنا إلى الكتاب، فنحن لا نعرف أن نكتب أو نقرأ، بل لا نعرف كيف نمسك الكتاب؟ فهل من العقل في شيء أن تأخذه بدل الفرس والسلاح؟ أجابهم قائدهم: سيأتي يوم تقرأونه»[41].

كان اللزكي أميون، ولكن لهم عقول متفتحة ودور للضيافة في المدن والقرى، يجتمع فيها الكبار والصغار، وهم ينصتون للشعراء والمغنين. وكانت من آدابهم «تعلم الأدب والأخلاق في بيتك ثم اذهب إلى المجالس» ومن أمثالهم (الشمس تنير الكون والمعرفة تنظمه، والشجاع يموت ولكن الجبان يندثر) فاللكزيون يحبون البطولة والذكر الحسن.

دخلت الثقافة العربية مع الإسلام، وكانوا من قبل وثنيين ومسيحيين، وكان الداغستان متعلقين بالإسلام، ويتحزبون له على عكس بقية شعوب القفقاس الأخرى. يقول المؤرخ الشركسي أمين سمكوخ: «إن الديانة المسيحية دخلت إلى جنوب القفقاس في أوائل القرون المسيحية، وتنصروا في القرن السادس الكرج والشركس وفي القرن الثامن أسلمت بعض قبائل الكرج والداغستان (اللزكي والآفار) ثم أسلم الأديغة والأبخاز في القرن السابع عشر، بدون فتح ولا إرغام، وذلك بتأثير عوامل سياسية واقتصادية مختلفة، من أهمها الاتصال بدولة المماليك بمصر، والأتراك العثمانيين والتتر حكام القرم»[42].

كان معظم المماليك شراكسة، وكانوا يتقربون لشعوب القفقاس، سئل **الملك الأشرف قانصوه الغوري (1510- 1516)**: **ما معنى الشركس؟** وكان الملك من أصل شركسي، فقال: أصل الجركس، أنه جاء بنو غسان في خلافة عمر بن الخطاب إلى المدينة، وأسلموا وحجوا وكان سلطانهم في الطواف جبلة بن الأيهم، قد تقدم عليه رجل فقير في السعي، فدفعه فوقع ومات، فجاءت جماعة الرجل الفقير، وطلبوا دم القاتل، فحكم عمر بقتل القاتل، أو أن يرضيهم، ولكنهم أبوا إلا قتله. فقال لهم جبلة أمهلوني ثلاثة أيام. وفي ذلك الليل هرب وجاء إلى هرقل وتنصر، فبعثهم هرقل إلى بلاد الدشت والجركس»[43] وأورد الملك الأشرف هذه القصة المعروفة والشائعة عند كل القبائل الشركسية، وهي تعكس حبهم للعرب لأنهم مسلمون مثلهم.

على أثر اجتياح تيمورلنك (1390- 1402) منطقة القرم وآزوف عام 1395 صار القبارطي يتبعون إدارياً خانية التتير في قازان، وأثناء حكم **ينال بن كورياني** (المتوفى 1427م) شعر عموم الشركس بعزتهم القومية وانتشر الإسلام الذي وحدهم في مواجهة الروس. وفي سنة 1475م، جرى حدث تاريخي هام هو احتلال **السلطان محمد الفاتح** لبلاد القرم، وأصبح مواجهاً لبلاد شمال القفقاس، وأصبح التتر تحت سيطرة العثمانيين وكانوا مثلهم ينتمون إلى نفس العرق والدين، ولكن في سنة 1556م، انهارت إمارة أستراخان على يد **إيفان الرهيب** (1533- 1584م) وسيطر الروس على شمال القفقاس وتكون كيانان منفصلان ومستقلان:

الأول: نوعاً من الكيان الاتحادي لأمراء القبرداي في الغرب.

والثاني: إمارة تاركو Tarkou التي يرأسها الشام خال أمير القموق، وكانت تقع في شمال الداغستان.

وفي عام 1560 قامت قوة روسية ودعمت الحكم الداغستاني، على أساس أن يعطي للقبرداي ما يقتطعه من الشام خال، ولكنه لم يف بوعده[44]. وبدلاً من ذلك اتخذ خليفته **فيودور إيفانوفيتش** (1584- 1598) لنفسه لقب **سيد جورجيا وقبردايا، وسيد الداغستان وأمراء الجبال**. ولكن على أثر معاهدة بلغراد عام 1739 بين الروس والعثمانيين حصل القبرداي على استقلالهم في إمارة قباردا العليا.

وعندما زار **الرحالة التركي أوليا جلبي** (1611- 1684م) بلاد الداغستان عام 1662م، ذكر في كتابه سفرنامه، أنهم كانوا لا يقيمون في القرية أكثر من عشر سنوات، وعلل ذلك أنه إذا مات زعيم قبيلة يحبونه في إحدى القرى الجبلية، فإنهم يغادرون القرية ويعتبرونها مكاناً مشؤوماً، وغير صالحاً للعيش، ثم ينتقلون إلى مكان كثيف في الغابة كثير المياه وخصب التربة، ثم يحرقون القرية القديمة»[45].

إن السبب اقتصادي محض، فسكان الغابة، عندما يريدون إصلاح مكان الزراعة، يحرقون القرية القديمة ويتركونها لمدة خمس سنوات، ثم يعودون لزراعة المنطقة، وهذه عادة متبعة في الهند وتايلاند وجبال الأنديز، أضف إلى ذلك أن الداغستان يعتقدون أن الروح لا تفارق أهل الميت، وتظل ترفرف فوق البيت لمدة أربعين يوماً، لذا تزور المرأة قبر زوجها لمدة أربعين يوماً، ثم تنقطع هذه الزيارة لأن الروح تذهب إلى عالم الغيب، والداغستان لا يبكون الميت خشية أن تعيق الدموع في الآخرة، التي تتحول إلى بحيرة بين الميت وأهله. ومن عادات الداغستان الترحال المستمر، يقول رسول حمزاتوف: «إن الجبليين دائمو الترحال والسفر، بعضهم يرحل طلباً للثروة، وبعضهم سعياً وراء المجد، وآخرون بحثاً عن الحقيقة، فالذين ارتحلوا للثروة، ها هم يتمتعون بها، والذين خرجوا طلباً للمجد، أحضروه وعادوا، أما الذين خرجوا طلباً للحقيقة حكموا على أنفسهم بأن يبقوا دائماً في الطريق»[46].

وفي عام 1780م، عينت الدولة العثمانية فرح علي باشا والياً على منطقة أنابا وبتأييد منه انتشرت الطرق الصوفية، وبدأت ثورة الشيخ منصور الشيشاني (1880- 1890) في غرب القفقاس، ثم تلتها ثورات الملالي، ومنها ثورة الملا غازي مولا (1793- 1832) الذي تعلم العربية والحديث والخطابة في قرناي وجمع حوله بعض المريدين مثل حمزة بك (1798- 1834) الذي تعلم العربية والفقه في تشوخ وفي خونزاخ المدينة الداغستانية العريقة في الثقافة الإسلامية، التي تعلم فيها الشيخ شامل الداغستاني (1834- 1859) الذي قاد الثورة لمدة حوالي 25 سنة. وعندما فشلت هذه الثورة هاجر الشركس والداغستان والشاشان والأستين إلى سورية والأردن.

ثورة الشيخ شامل ونتائجها

عندما تولى الشيخ شامل بعد الملا قاضي قيادة المريدين، اختلفت الدعوة التي لم تعد ممارسة الزهد والانعزال عن الناس، والاكتفاء باللبس والطعام البسيطين، بل صار الفتى كما يقول الشيخ شامل:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى ... صافى وصوفيَ حتى سمّي الصوفي

كان الانتماء إلى الصوفية يتم عن طريق الأسرة والقبيلة، وهما يلعبان عند شعوب القفقاس دوراً هاماً، فهما ينقلان إلى الطفل ما يمكن أن نسيمه بروح المجتمع. وكانت شخصية شامل محصلة للأوضاع الصعبة الناتجة عن الاحتياجات الاجتماعية[47]. كان

الشيخ شامل ذو ضمير قلق، ولكنه ذو منهج فكري واضح، يحاول تكوين مجتمع مدني بين قبائل رعوية، وجد في الدين رمزاً للحرية المفقودة. **فمن هو الشيخ شامل؟** هو علي بن دنغان ولد في عام 1798 في بلدة غمرا في شمال الداغستان تعلم العربية والتركية والفارسية، وتعلم القرآن الكريم والفقه والتفسير، واتبع الطريقة النقشبندية. وعندما توفي الملا قاضي عام 1832 خلفه أحد مريديه ولكنه توفي أيضاً عام 1832، فأصبح الشيخ شامل هو شيخ الدعوة وفي يده الحل والربط. وأعلن برنامجه السياسي «إعلان دولة إسلامية مستقلة عن الروس» وبذلك حدد مطامح شعبه، وسعى بتكوين حكومة وجيش منظم وبدأ بجمع الضرائب ويسن القوانين التي تتفق ومبادئ الشريعة الإسلامية، وأعلن الجهاد المقدس على الروس.

كان زعماء القبائل في القفقاس مشتتين. لا يوجد أدنى قدر من الترابط بينهم. وكذلك كان أفراد القبيلة، كان الجبلي منهم يتمشى في الغابة، ويقوم بصناعة العصي، تاركاً العمل لزوجته وبناته، ويتصيد هو وأولاده.

أرسل الشيخ شامل أتباعه الملالي إلى القرى لتعليم الأطفال القرآن، ولوعظ الكبار وإثارة الحمية الدينية والوطنية بينهم، وكما تقول الباحثة الروسية بولونسكايا، وجد شامل في الدين رمزاً للحرية المفقودة، مما شجع على التشبث بتعاليمه وقيمه الأولية، التي حققت في يوم ما انتصارات ونجاحات باهرة»[48].

كانت قبادرا بمثابة المشروع القدوة، وكان معظم شبابهم في السلاح الإمبراطوري. ذكر العقيد **لويس مليكوف**، كانت لنا أربع فرق إسلامية في حربنا ضد تركيا عام 1829، وكان لكل واحدة قائدها، وهو ضابط روسي ومعاونه مسلم، وهناك مرافق روسي وملا وحامل رسائل في الفرقة. وأعلن الشيخ شامل الثورة في عام 1837 وسمعت بها الدولة الروسية والتركية، وفي عام 1839 أرسل **محمد علي باشا والي مصر** وكانت جيوشه تحتل منطقة عربستان ومركزها ولاية أورفا وديار بكر، رسالة إلى الشيخ شامل وأهل داغستان:

بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد. والآن أوجه سلاحي ضد روسيا حيث قمت بتعيين شامل أفندي شاهاً عليكم. وأرسلت له ختمين، وآمركم أن تخلصوا له الطاعة، وتعينوه في مهمته، وإني أعدكم بأن أرسل لكم بسرعة جزءاً من قواتي. وسيقطع رأس كل من يخالف أوامري كالكفار. التوقيع محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا.

كان شامل يقاتل القوات الروسية في الأحراش والغابات، وفوق الصخور الجرداء، وكان يتجنب ما وسعه الاشتباك مع الروس في معارك منظمة. كان يقاتلهم قتال

عصابات، وكان ينتقل من مكان إلى آخر في سرعة مذهلة، من حدود داغستان شرقاً، إلى جوار (فلادي كافكاز) غرباً، مما ترك العدو في حالة تأهب دائم.

وفي 10 تموز 1840، حضر الشاعر الروسي ميخائيل ليرمونتوف معركة نهر فاليرك، وفيها انتصرت قوات الشيخ شامل، فمجد تلك الانتصارات. وفي الثاني من تموز 1841 توصل الجنرال جولوفين إلى استنتاج عام حول نشاط شامل العسكري وقال: «إننا لم نواجه في القفقاس عدواً شرساً وخطيراً مثل شامل، وبسبب تضافر عدة ظروف، اكتسبت قوته طابعاً دينياً وعسكرياً، يشابه ذلك الذي مكن محمد في الدعوة الإسلامية، من أن يهز ثلاثة أرباع المعمورة»[49].

شاعت أخبار انتصارات الشيخ شامل كل بلاد القوقاز، فقويت شوكته، وصارت قبائل القبرداي تأتيه من أعالي الكوبان إلى ساحل البحر الأسود، وكانت قباردا في الوسط، وكان شعبها شجاع محب للحرية، وكانت ثورة الشيخ شامل لعموم شعوب القفقاس.

كان الميجر جنرال دانيال سلطان اليسو يعمل في خدمة الروس فهرب إلى جيش الشيخ شامل، وضمن له التفوق العسكري لعدة سنوات قادمة في جنوب الداغستان.

وعندما حاول الأمير بارياتنسكي محاصرة شامل، واحتل خرائب غاغاتل وعندي، وطرد القرويين منها في 14 حزيران 1845. وكانت معه سريتان من فوج القبرداي بقيادة الكابتن محمد ميرزا أنزور. وتم الاستيلاء على جبل آفال في 9 تموز 1845. وحاصروا قوات شامل ولكنهم فوجئوا أن شاملاً قد تراجع وأنقذ مواقعه وقواته، فمن أنبأه بخطة الهجوم؟ ظل ذلك لغزاً محيراً للأمير بارياتنسكي. وفي 13 نيسان 1846 عبر شامل نهر الأرغون وكانت وجهته قابردا، وفي 17 نيسان بات شامل على نهر الكوبرا بينما أرسل عيونه يشيعون أنه يتجه نحو نهر التيرك. اغتنم الجنرال فريتاغ هذه الفرصة وكمن للشيخ شامل بقواته المكونة من 17 سرية مشاة وسرية فرسان واحدة من القبرداي، وقوزاق الدون، وثمانية مدافع مع ثلاث سرايا من قوزاق غريبنسكي و300 رجل من فوج السامور، كلهم كمنوا في حصن (كازاخ كيشو). وقرر الجنرال الأمير بارياتنسكي أن نهاية شامل قد دنت، وأنه لا بد وأنه قتيل أو أسير. إنها فرصة لإنهاء الحرب بضربة واحدة[50]. صرح الأمير بذلك للكابتن محمد ميرزا أنزور وهما يلعبان الشطرنج.

في 19 نيسان 1846 هرب الكابتن محمد ميرزا أنزور، والتحق بقوات الشيخ شامل وأنذره بالخطر المحدق به فتراجع شامل بسرعة عن قلعة كازاخ كيشو، وأفلت من

الخطر المحدق به. قال جوزف باولي: «غير أن حسن طالع شامل خدمه مرة وأفلت من قبضة القوات الروسية».

صار الشيخ شامل يتقل من نصر إلى نصر، وقد أرهق القوات الروسية بفضل قيادة نائبه **محمد ميرزا أنزور** الذي استشهد في صيف عام 1851، وبعد وضع الأمير بارياتنسكي خطة محكمة، قسم فيها قوات القفقاس إلى خمسة جيوش منفصلة تخضع لقادة يتمتعون بسلطات كاملة تحت قيادته الشخصية، واحتل شيشانيا الصغرى لقطع الاتصالات بين قوات شامل وشمال الداغستان ونهر التيرك. وعندما سمع الشيخ شامل بسقوط ممر الأرغون يقال إنه انخرط في البكاء. وتحسَّر على أيام نائبه محمد ميرزا أنزور.

بدأت قوات الشيخ شامل تتراجع والقادة ينفضون من حوله. وفي 24 تموز 1859، استسلمت قلعة أولو، وفي 28 تموز استسلم **القائد غيبة ماحما** في غولوتل، وقاد الأمير بارياتنسكي القوات الروسية بنفسه ضد شامل، وفي 7 آب سلم **دانيال سلطان** قلعة أريب وغيرها من القلاع التي كان يحكمها، وذهب بنفسه إلى معسكر بارياتنسكي في بوتليج يطلب العفو.

اضطر الشيخ شامل إلى التراجع إلى قلعة غونيب هو وأفراد أسرته، وكان أتباعه يقدرون بأربعمائة شخص، وتوجهوا إلى معسكر الأمير الروسي، بعد أن عرف أن خائناً دل العدو على درب جبلي سري يقود إلى معقل شامل. يقول رسول حمزاتوف: «وحين أصبح شامل في كالوغا عاد هذا الخائن إلى بيت أبيه، لكن أباه قال له: أنت خائن ولست جبلياً ولست ابني. قال هذه الكلمات وقتله، ثم قطع رأسه، ورماه مع الذهب الذي أعطاه الروس له، من أعلى صخرة إلى النهر، أما الوالد نفسه فلم يعد يقوى على العيش في قريته فاختفى في مكان مجهول»[51].

في 25 آب 1859 استسلم الشيخ شامل وجلس القائد الروسي على حجر وقال لشامل: «عبثاً كانت كل جهودك وكل جهادك. فأجابه شامل: كلا لم تكن عبثاً، وستبقى ذكراها في قلب الشعب، لقد وحد جهادي قبائل وقرى كانت تتنازع فيما بينها»[52].

وطلب الشيخ شامل من الأمير الروسي سيفه وكتبه وقال: «لقد خسرنا كثيراً من المعارك بسبب السيف، لكننا لم نخسر معركة واحدة بسبب الكتاب»[53]. ثم التفت إلى المقاتلين من حوله وتمثل بقول الشاعر العربي:

وإخوان اتخذتهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادي

وخلتهم سهاماً صائبات ... فكانوها ولكن في فؤادي

نفي الشيخ شامل إلى كانوي وبقي هناك (1859- 1869) وبناء على طلبه نقل إلى كياف وفي عام 1870، سمح له بزيارة مكة، وفي 4 شباط عام 1871، توفي في منزل السيد أحمد الرفاعي، ودفن في مكة. وبعد استسلام الشيخ شامل كتب كارل ماركس عدة مقالات في جريدة نيويورك تايمز قال فيها: «أيها العالم، أيتها الإنسانية، تعلموا معنى الحرية من الشركس، وانظروا ماذا يستطيع شعب يطلب الحرية أن يعمل». وكتب الشاعر الروسي نيقولا نيكراسوف (1821- 1877) معزياً شعوب القفقاس الجريحة: «لقد أرسلت لأغني آلامك يا شعبي، من يستطيع الآن أن يعيش سعيداً في روسيا؟»[54].

ومن بعد فشل الثورة، بدأ التهجير للشركس والداغستان منذ عام 1862- 1870. ويقدر المهجرون بمليوني نسمة.

الداغستان في سورية

يسكنون في محافظة حمص، في قرية دير الفول، ظهرت منهم عائلات خدمت في وزارة الداخلية، مثل المحافظ خالد الداغستاني محافظ الرقة، والعميد بهاء الدين الداغستاني قائد شرطة محافظة الرقة. ومنهم الأدباء والصحفيون والأطباء والمهندسون. واستشهد منهم شباب في أرض الجولان وفلسطين.

الفصل الثالث: الشيشان ذوو الهمم العالية

- الشيشان والأنغوش ووحدة المصير
- الشيشان والإسلام
- الهجرة إلى سورية

الشيشان والأنغوش ووحدة المصير

مجموعة من الشعوب القفقاسية، يتألفون من قبيلتين من أصل مشترك، فهم يتكلمون لغة واحدة وإن اختلفت اللهجة، فهناك اختلافات بسيطة في تقديم بعض الحروف أو تأخير بعض الكلمات، والأغلبية مسلمون.

مساحة جمهورية شيشانية وأنغوشية حوالي 9 آلاف كم مربع، ويقدر السكان بحوالي مليوني نسمة، وإذا كانت جبال الداغستان ذات تفرد غريب بين جبال القفقاس، فإن منحدرات تلك الجبال تقع في منطقة شيشانية عند ملتقى أطراف السلسلة القوقازية مع الكتلة الداغستانية المعارضة لها في الاتجاه، ومنها تنحدر مياه نهر أراغون العميق الغور، وعلى عكسه ذراعاه نهري كشانتي وشاور أرغون، فهما أقل عمقاً من النهر السابق، فهي تجري في فصلي الربيع والصيف، وتكاد تنقطع في فصلي الخريف والشتاء. وتبدو المرتفعات المتاخمة لها ذات غطاء نباتي بديع أثارت خيال كبار أدباء الروس أمثال: **الشاعر بوشكين** (1799- 1738) الذي نفي إلى إقليم ستافروبول شمالي القفقاس سنة 1820 في نفس السنة التي بدأت فيها الثورة الشيشانية، ومن وحي هذه الثورة كتب روايته الشهيرة (ابنة القائد). أما **الشاعر الثائر ميخائيل ليرمنتوف** (1814- 1841) الذي نفي إلى قبردينا بلقاريا عام 1837، والتقى بالكابتن محمد ميرزا أنزور ومنه سمع قصص بطولات الأديغة الشجعان فكتب روايته **(بطل من هذا الزمان)** وروايته عن **إسماعيل بك أنزور** وقد رسم له صورة تخيلية وهو يقاتل الروس، وصورة للكابتن محمد ميرزا أنزور، وكتب عن بطولات الشيخ شامل. أما **الأديب العظيم ليون تولستوي** (1828- 1910) فقد كتب عن أحداث ثورة الشيخ شامل سنوات (1851- 1859) قصته الرائعة (نهاية حب) جاء فيها الحوار التالي:

-أيشفى لوكوشا؟ الله أعلم ليس في القرية طبيب، وهم يلتمسون ذلك!

-أين يمكن أن يلتمسوه؟ في غروزنايا بلاد العسل الطبيعي، ونبات دوار الشمس.

وغروزني هي عاصمة الشيشان الواقعة على نهر سيلج وهو فرع من نهر التيرك.

والشيشان والأنغوش من العرق القوقازي الأبيض، ورؤوسهم مدورة إلى حد ما كسكان الجبال، وفيهم من ذوي الشعر الأشقر، والعيون البنية والعيون الملونة، وهم طوال القامة ذوي بشرة بيضاء[55].

عاش الشيشان والأنغوش في الغابات والجبال، والغابةمصدر أمان، وحياة رغد لسكانها، فهي ملجأ آمن من الأعداء كالحصون والأسوار، كما أنها تزود الناس بالخشب لبناء المنازل وصنع الأدوات، وللتدفئة وطهي الطعام، كما تقدم عسل النحل، والصيد الوافر، والغابة إلى جانب ذلك تسهم في خلق الرجال الأقوياء. من أمثال الشيشان «من يجعل الشجاع دليله يرتفع به إلى الأعالي، أما من يجعل الجبان دليله يمر به على الخرائب».

كانت الميثولوجيا الشيشانية تحتوي على قصص وأغان هي تعبير مكثف عن حكمتهم الشعبية المتوارثة خلال السنين الطويلة، وتدور معظم أساطيرهم عن البطولة، وكان يسمح للرجل أن يبكي عند المصائب العظيمة، مصائب الوطن، أما الذي يبكي لألم أصابه فهو ثعلب ماكر. وكانوا يركبون الرجل الجبان حصاناً أجرب، ويلبسونه ثياباً قذرة، ثم يشهرون به، فيلاحقه الأطفال بإشارات الاستهزاء، وبالتصفير والتصفيق، ثم تفرض عليه غرامة بقيمة ثورين[56].

ومن عادات الشيشان أن المغنين كانوا ينشدون القصائد ويلحنونها، ثم يتنقلون بين القرى، ويعلمونها للناس، فكان المنشد هو الحكيم والمعلم الشعبي، يعلم الناش الحكمة والمعرفة، لأن معظم الناس أميين.

ويبدو أن الأنغوش كانوا في القديم وثنيين، فقد وجد في ديارهم هيكل مقدس لإله الخصب (توشال) وبجانبه كان ينتصب عمود حجري بطول الرجل العادي وهو يمثل (عضو الذكورة) ويقال إن النسوة العاقرات في تلك المنطقة ما زلن حتى اليوم يزرن هذا الموضع للتبرك، ويحملن منه الشظايا كتعويذة أملاً في الإنجاب.

ومن أثاث الشيشان المميزة، كانت لهم جفان خشبية، مصنوعة من خشب الجوز، قطر الجفنة نصف متر، وهي منحوتة من قطعة واحدة، وتصنع هذه الجفان بواسطة دولاب تديره طاحونة مائية صغيرة، مخصصة لهذا الغرض، وفي وسط الجفنة توجد طاسة صغيرة منحوتة من خشب الجفنة لوضع الأدام، وعلى طرف الصحن تنقش رموز خاصة بالعائلة[57].

ووجدت في بلاد الشيشان والأنغوش أبراج حجرية ذات طوابق متعددة، وقاعدة البناء من الأسفل (8× 10م) ثم يصغر البناء كلما ارتفعنا، وقد يرتفع البناء إلى ثلاثة طوابق يبلغ ارتفاعها (12م) وهناك يقود إلى الطبقة الأولى من البناء من الخارج، أما الوصول إلى الطوابق العلوية، فإن ذلك يتم بواسطة سلم خشبي عريض. والطابق الأول جدرانه مصمتة إلا من بعض الفتحات الصغيرة مخصصة للإنارة والتهوية، وهو يستخدم كحظيرة للحيوانات، وله باب صغير ارتفاعه (1،5م) وعرضه (75 سم). أما

الطابقان الثاني والثالث فهما مخصصان للمعيشة، وتخزين الغلال، وفيهما تكثر النوافذ وتتسع قليلاً، وسطح البرج الحجري مائل لانزلاق المطر والثلج، ولا نصادف مثل هذه الأبراج في معظم بلاد القفقاس[58].

شكّل الشيشان والأنغوش نتيجة التجاور والاحتكاك شعباً واحداً. كتب الجغرافي الروسي أنوخين عام 1972: «لا تتكون الأمة إلا في ظل الاختلاط المنتظم، ونتيجة النشاط الاقتصادي المشترك الطويل. الأمر الذي يفترض قبل كل شيء رابطة الأرض مع ظروف العمل واللغة والدين ومن خلال الإنتاج، طابع الأمة الناشئة، مسبغة عليها خصائص معينة تسمى بالطابع القومي»[59].

تقول الشاعرة الشيشانية رئيسة أخماتوفا: «منذ القديم والقرويون الجبليون في بلدي يعتبرون أن الوطن يبدأ دائماً عند عتبة باب البيت، واليوم يقولون: إن الوطن عند عتبة الباب، لكنه لأي سبب كان قد لا ينتهي هناك»[60].

يطلق الشيشان على أنفسهم اسم (ناخشوي) أي الشعب، بينما يدعوهم الداغستانيون (ميتشكيز) وتعني ناس، وكان الشيشان يعيشون في بحبوحة من العيش في اقتصاد مركب (رزاعة ورعي) ويعيش الناخشوي في حوض نهر الأرغون ويشكلون الأكثرية وبلدتهم الرئيسية مزدوك بينما يعيش الأنغوش في حوض نهر آسا في القسم اشرقي وبلدتهم هاسافيورت.

والشيشان مسلمون إلا أن مجتمعهم يقوم على تقاليد القبيلة التي لا تتعارض وتعاليم الإسلام الحنيف، وزعاماتهم موضعية حيث لا أمراء ولا نبلاء عندهم ولا عبيد، ودينهم الإسلام ومذهبهم المذهب الشافعي وتشيع بينهم الطريقتان النقشبندية والمولوية، دخلت عليهم عن طريق ملالي الداغستان. قال الشيخ أبو بكر عبد الرشيد إمام مسجد غودرمس (المدينة الواقعة على بعد 50 كم من مدينة غروزني): «إن المذهب الشافعي لا يبيح صلاة النساء في المسجد لذلك فالنساء يصلين في بيوتهن»[61]. إلا أن النساء يختلطن بالرجال في الحياة العامة. وللدين الإسلامي تأثير كبير على الشيشان، كتب الباحث الأمريكي دانيل بايبز: «إن للدين الإسلامي خاصة، يمتاز بها، إنه يمتلك نظاماً متكاملاً في تنظيم المجتمع»[62]. وقد ظهرت صحة تلك الميزة في ثورة الشيشان الحالية.

يقول الدكتور كتيف ميثم محمد مدير المشفى المركزي في مدينة نازاران: «إن المسكرات في بلادنا غير مقبولة، وغير مستساغة، حسب التقاليد الإسلامية، التي ورثناها عن آبائنا، وإن قلة نادرة من الناس عندنا تحتسي المشروب سراً، ولا تمارس ذلك علناً»[63]. وعلى عكسهم الأديغة والأبخاز الذين يشربون الخمر، ولكنهم يمتعون

كالشيشان عن أكل الخنزير، وبذلك يتميزون عن الروس الذين يعيشون بينهم ويتكلمون لغتهم.

هجرة أم تهجير؟

أصدرت الدولة العثمانية قانوناً لهجرة شعوب القفقاس في 19 آذار 1857م، وغلفته بدعاية العطف، والانتصار للإسلام، وقدمت كثيراً من التسهيلات للمهاجرين، منها:

-كل مهاجر مسلم من القفقاس يحصل من السلطان على ضمانات كافية للحفاظ على حقوقه وحريته وماله.

-توزع على المهاجرين أراض زراعية معفاة من جميع أنواع الضريبة.

-كل من يسكن من المهاجرين على سواحل البحر الأسود (تراقيا) يعفى من التجنيد مدة ست سنوات.

-كل من يسكن منطقة الأناضول يعفى من الجندية لمدة اثنتي عشرة سنة.

وكانت الدولة العثمانية تحاول توزيع المهاجرين في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كي لا يشكلوا قوة سياسية في المستقبل ولتسهيل إذابتهم في المجتمع العثماني.

وبدأ رجال الدين الموالون للدولة العثمانية يروجون لفكرة الهجرة قائلين: «إن أمة محمد لا يمكن أن تعيش تحت إدارة الروس الكفرة». كانت الدولة العثمانية تهدف إلى غرضين هامين:

-زج المقاتلين الشركس في حروب البلقان.

-ولتوطين الشيشان على أطراف البادية لصد هجمات البدو.

وفي عام 1860 على أثر فشل ثورة الشيخ شامل، استغلت الدولة العثمانية نفسية شعوب القفقاس المحبطة، فأنشأ (المؤسسة العامة لإدارة المهاجرين) وصارت تسهل لهم الزيارة إلى مكة وإلى بلاد الشام الشريفة، واستطاعت بهذه الطريقة تهجير نصف مليون نسمة بين أعوام (1859- 1864).

يعلل الباحث الإنكليزي **نورمان لويس** هجرة شعوب القفقاس بتمسك المسلمين بدينهم، بالإضافة إلى كرههم الخدمة في الجيش الروسي[64]. ولكن الباحث الشركسي نهاد برزج، يخالفه بذلك، فالوبيخ هاجروا إلى تركيا وهم وثنيون ولم يسلموا حتى عام 1930، وبعض قبائل الشابسوغ كانوا مسيحيين وقد أخفوا معتقداتهم حين وصولهم إلى تركيا، وإن بعض وجهاء الأباضة قابلوا القنصل الإيطالي في تركيا، وبينوا له أنهم مسيحيون، وأنهم أجبروا بالقوة على ترك أوطانهم، وأن الأتراك لم يقدموا لهم أية مساعدة[65].

هاجر الشيشان إلى محافظة الحسكة وسكنوا في قرية السفح التابعة لرأس العين، منذ عام 1864م. وقد عانوا في البداية من ضغط الأكراد، وعائلة إبراهيم باشا الملي، ولكن الشيشان الأبطال ثبتوا في أرضهم وردوا عنهم الأذى.

ومن العائلات المعروفة منهم اليوم عائلة الأخته، وعائلة جبرائيل، الذين يعيش منهم أفراد في مدينة الرقة، الأخوان أحمد جبرائيل ومحمود جبرائيل. ومن الشيشان الأديب حسام دولي، له مساهمات في الأدب والكتابة إلى التلفزيون العربي السوري (آخر المشوار).

الفصل الرابع : الأستين (القوشحة) الوسامة والنبالة

- التركيب العرقي والاجتماعي
- ثقافة الأستين

الأستين (القوشحة) الوسامة والنبالة

لعب الوسط الجغرافي دوراً أساسياً في حياة الأستين، فالمناخ حدد خصائصهم الجسدية والنفسية وتشكيلة العمل الزراعي - الرعوي، ووسائل النقل واللباس والمسكن، وكذلك التخوم الطبيعية كالجبل والغابة، حددت نوع الرعي، فالأرض هي الأم التي أعطتهم مصادر رزقهم، وشكلت وعيهم السلالي، وتاريخهم الاجتماعي.

يشترك الأستين مع قبائل الشركس باعتقادهم المشترك بأنهم ينتسبون إلى قبائل النارت الذين دجنوا الحصان، ورعوا الضان والبقر، خلال تاريخهم الطويل في جبال القفقاس. وكونوا أساطير النارت - ساجه. ولقد عثر الكونت بوتوكي 1798 على قصة النساء المحاربات لدى المغنين والشعراء، تقول القصة: «أما هؤلاء النسوة المحاربات، فكن لا يقبلن الخضوع لأمر الرجال، ولا مخالطتهم، بل يخرجن لمحاربتهم. وظلت الحروب مستمرة بين الطرفين، وإذا بأميرة (الايمنت) الحكيمة التي تنتسب إليها العظمة والنبوة، تخرج من خيمتها فجأة وتطلب قائد الأستين المدعو (تولمه) وكان فتى جميلاً ذا مواهب عقلية عظيمة، فنصب الجند لها خيمة بيضاء بين المعسكرين، وتفاوض الطرفان، وبعد بضع ساعات وافقت زعيمة النساء المحاربات على الزواج من القائد تولمه، وزالت البغضاء والعداوة. وحلت المحبة، وتزوج الجنود بالنساء المحاربات، وانتشر الجميع في جبال القفقاس وما زالوا يسكنونها حتى اليوم»[66].

في البحث عن تاريخ الأستين، يجد الباحث صعوبة في تكوين صورة تركيبية صحيحة، لغياب التدوين التاريخي، ولاعتماد الشركس كلهم على الموروث الشفوي والأساطير. فتاريخهم تاريخ قبائل، لا يعرفون الكتابة وغياب الدولة عندهم جعل تاريخهم يرويه المغنون والشعراء. يقول المؤرخ الشركسي شوكت المفتي: «من المعلوم أن الحوادث التاريخية كلما ازدادت قدماً اختلطت بالأساطير وانتهت بالخرافات، على أن قصة النساء الأمازونيات (النسوة المحاربات) تعتبر من أغرب الحوادث التاريخية، وأنها لا تخلو من الطرافة، وأما علاقتها بماضي أمتنا الشركسية تثبت قدم هذه الأمة، التي يكتنف تاريخها الغموض»[67]. وتكثر الفروض والاستنتاجات الشخصية.

يعتقد المؤرخون الشركس أن الأستين يعودون إلى فرعين هما:

الفرع الديغوري:

هم أهل الشمال وينحدرون من عشائر الآلان الذين سماهم المؤرخ والرحالة العربي المسعودي بشعب اللان، الساكنون في جبل القبق، ويصفهم: «وليس في هذا الصقع أنقى أبشاراً ولا أصفى ألواناً ولا أحسن رجالاً، ولا أصلح نساء، ولا أقوم قدوداً، من هذه الأمة»[68]. وهم يزعمون أنهم من العرب، من نزار بن معد بن مضر، وأنهم فخذ من عقيل سكنوا هناك من قديم الزمان[69].

ويدعو المسعودي كل سكان جبل القبق باسم الكشك ويقسمهم إلى أنواع منهم اللكز، واللان، والخزر، والأبخاز، ويصفهم بالرشاقة والجمال، بل إنهم أجمل شعوب الأرض، وللأستين أساطير وقصص تحدث عن البطولة والحب، ومن أقوالهم فيه: «الحب ليس ناراً، ولكنه إذا اشتعل فمن الصعب إطفاؤه». يقول **المؤرخ الشركسي النابه ايتك ناميتوق:** «ولنسائهم شهرة في حسن المعشر، ورقة المشاعر، والسحر في مبادلة الحب، وهن يفضلن الملابس البيضاء، وإن استعملن البروكار والأقمشة الحريرية الملونة الزرقاء والحمراء، كما اشتهرت نسائهم بركوب الخيل والمشاركة في الحياة العادية»[70].

الفرع الأيروني

يعيشون في جنوب الديغور، ويتحدرون من قبائل السرمات، ولغتهم مزيج من اللغات المجاورة لهم، فيها الفارسية والتركية والعربية، ولغتهم أكثر تداولاً. يروي المؤرخ الإنكليزي الشهير إدوار جيبون: «إن الاختلاط بين الفرعين (الديغوري والأيروني) أدى إلى تحسين جيل المستقبل للآلان حيث بيّض لون بشرتهم الداكنة». وفي أسطورة يرويها الكونت بوتوكي 1798: «إن الشركس والألبان والأكراد أحفاد ثلاثة أخوة من العرب، وأن أحدهم فقأ عين رجل في مشاجرة وإن الخليفة العادل عمر حكم بالقصاص (العين بالعين) وقد فرّ الأخوة الثلاثة، وجاؤوا إلى الأناضول إلى قره حصار. وهناك وصلتهم رسالة من الخليفة تسمح لهم بالعودة وقبل الدية، ولكنهم رفضوا العودة»[71].

كان الديغور يؤمنون بالزرادشتية، جاءتهم من جوارهم، وكان الفرس يطلقون عليهم (كي قوبات) والمقطع (كي) لقب التفخيم والاسم هو (قوبات). يقول **الأستاذ محمد جمال آبه زاو:** «ولا تزال إلى اليوم عائلة من القوبات مقيمة في حلب هي عائلة (نوزات قباتي) ومنهم والدة المخرج الفنان نجدة أنزور»[72].

لا يمكن فصل تاريخ شعوب القفقاس (الشركس) بعضهم عن بعض، فهم وحدة، عاشوا في وسط تاريخي واحد، ومارسوا نشاطاً اقتصادياً واجتماعياً واحداً، فكان لهم بالتالي تكوين نفسي واحد، وتاريخ واحد، وإن اختلفوا في اللغة.

ينسب الباحثون عموم الشركس إلى الشعب الأسقوثي Scythia وهؤلاء كانوا يسكنون السهوب الواقعة بين نهري (استر) الدانوب في الغرب ونهر (طنايس) الدون في الشمال الشرقي وهو يطابق سهول أوكرايينا الشرقية.

وعندما سكن الشركس (الأستين) في منطقة بحر آزوف Palus - Maeotis صار يطلق عليهم الميئوت. قال المؤرخ الشركسي اتيك ناميتوق: «إن المديين ينتسبون إلى الميئوت، الذين كانوا يقطنون شرقي بحر آزوف من بلاد الشركس، ثم تسربوا إلى منطقة وان Van»[73].

كان الأسقوت قد غزوا القوقاز في القرنين (8 و7 قبل الميلاد) ثم جاء الأخمينيون واحتلوا القوقاز في زمن داريوس الأول (521- 486 ق.م) وتحت الاحتلال الأخميني (الفارسي) اتحد سكان البلاد وانصهروا جميعاً. وقد درس العالم الروسي أباييف النصوص الأسقوثية المكتشفة تلك الحقبة، جمعها وحللها ثم أطلق حكمه التالي قال: «إن لغة الأسقونيين تنتمي إلى الفرع الإيراني الفارسي، وأنها قريبة من لغة الأستين المعاصرين لهم»[74].

واللغة عند علماء الأنثروبولوجي أهم عنصر من عناصر الثقافة الروحية لدى الشعوب، وهي الحامل لكل خصائص الأثنوس (العرق)، لأن في اللغة يكمن تاريخ الشعوب.

كان للشركس صلات مع اليونان، خصوصاً في زمن الإمبراطورية المكدونية، كان الإسكندر والسلوقيين يستوردون السيوف والقامات الشركسية، ولا زال الإسكندر إلى اليوم مقدساً عند شعوب القفقاس.

في أيام الدولة البيزنطية، قامت حملات باتجاه بلاد القفقاس، في عهد الإمبراطور جوستنيان (527- 564م) ودخلت المسيحية إلى الشركس، وآمنوا بالدين المسيحي، ولا زالوا يسمون يوم الأحد (تحه مافه) أي يوم الرب[75]. لذا عندما جاء العرب بدينهم الإسلامي الحنيف، رفض الشركس الدخول فيه، وهناك قصة يروونها تقول: «عندما انتشر الإسلام، أرسل النبي محمد صهره علي إلى سينوب، لنشر الدين الإسلامي بين شعب الإله لبش (رب النار والحديد) ومزتحه (رب الغابات) رفضوا هذه الدعوة، وفضلوا دينهم القديم، وعاد علي إلى بلده حزيناً»[76].

إذن رفض الشركس الديانة الإسلامية من منطلق وثني، فأين اعتقادهم بالدين المسيحي؟ يعلل ذلك مورغان، بقوله: «إن الأستين والشركس لم يعتنقوا النصرانية بحذافيرها، وإنما أخذوا منها ما يلائم عاداتهم واعتقاداتهم التي ورثوها عن آبائهم»[77]. وهذا تعليل صحيح، فللشركس عموماً، كانوا يستحمون في مياه النهر أو

النبع وهم عراة رجالاً ونساء، دون أن يحدث أي تحرش جنسي بينهم، ولكن هذه العادة الوثنية أبطلها الملا اسحق أبوقوه بعد دخولهم الإسلام»[78]. وهذه العادة كانت موجودة لدى قبائل البلقار (الصقالبة) المقيمون على نهر الدون، ذكرها ابن فضلان في رحلته عام 912م، قال: «وينزل الرجال والنساء إلى النهر، فيغتسلون جميعاً عراة، لا يستتر بعضهم من بعض ولا يزنون، ومن زنا منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوه من رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضاً، ثم يعلق قطعة منه ومنها، على شجرة قديمة لديهم»[79]. كان الأستين والبلقار يسكنون منطقة واحدة.

في عام 1090م، استولى ملك الكرج داويد الثاني (1089- 1125) على جنوب القوقاز وبلاد الأبخاز حتى بحر الخرز[80]. وصار الأستين من رعاياه. وفي عام 1193م تزوج الأمير داود سوسلان أحد أمراء الأستين من الأميرة تاماره ابنة ملك الكرج جورجي الثالث (1154- 1185) ثم حكمت تاماره (1185- 1212م) وساعدها زوجها بإدارة الحكم، فكان عهدها هو العهد الذهبي للكرج، وفي زمنها ضربت عملة ذهبية باللغتين العربية والكرجية[81].

الفتاة الأستينية

يعتبر الأستين من أجمل شعوب العالم، وكانت الفتاة الأستينية تركب الخيل، وتشترك في السباق، ولكي تظل ممشوقة القامة، كانت تضع على صدرها، صدارة من الجلد، كي لا يبرز نهداها، ويمتاز الشعب الأستيني بالرقص الشعبي، الذي كان من طقوس القبيلة. فهو الاستعداد، إما للصيد الشاق، وإما للاستعداد لصد الأعداء، أو للغارة عليهم، وكانت طقوس الرقص تقام في أعياد آلهة الجمال والربيع (ستناي) وبعض هذه الرقصات غايتها امتلاك الطبيعة أو السيطرة عليها من خلال الرقصات التي تقدم لإله الغابة (مزتحه) لإنزال المطر، ثم ارتبطت هذه الرقصات في مراحل تالية بتقاليد الحب البشري، وكانت رقصة العرس (رقصة القافا) التي تعبر عن اللقاء الأول والحب العفيف، حينما يدور الشاب والفتاة حول بعضهما، شريطة أن يكون العريس على يسار العروس دائماً، وهذه إشارة منه بأن لا يقاطعه أحد أثناء رقصته مع حبيبته[82].

عاش الشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف بين الأستين منفياً، وأحب فتاة شركسية، خلدها في قصته بطل من هذا الزمان، قال عن الفتاة الأستينية: «وأصالة العرق هذه هي الشيء الهام في النساء، كما في الخيول الأصيلة، إنك لا تعرف الشركسيات، شتان بينهن وبين الجورجيات إن لهن قواعد في السلوك، وقد نشأن على تربية أخرى، ويتحدث عن الفتاة الشركسية ببلا التي أحبها وأحبته، وقالت له وهي تحتضر: إنها

تأسف على أنها ليست مسيحية ذلك أن روحها وروح حبيبها تبشورين لن يلتقيا في العالم الآخر، وأن امرأة أخرى ستكون خليلته في الجنة. وعندما اقترح عليها بتشورين أن تكون مسيحية قالت له: لا بل أموت على دين قومي الذي ولدت عليه»[83]. وكان الأستين يسمحون بتزويج بناتهم خارج حدود القبيلة.

من علامات القرابة عند الأستين

يعتبر الأستين من الأقوام النبيلة عند الشركس، وكان نبلاء القبرداي يرسلون أولادهم إلى بعض الأسر الأستينية لكي يتربوا عندهم، ويكتسبوا بعض عاداتهم، وهذه تعرف:

بقرابة الأتاليق: وهي قرابة بين الأسرة المربية والفتى قرابة لا ترتبط بالدم، يرسل الطفل في الثامنة من عمره ويعود إلى أهله في السادسة عشرة. وقبل أن يغادر الفتى الشاب أسرته الثانية يغنون للطفل «أنت اليوم صغير، وغداً ستغدو بطلاً عظيماً، بعد أن يشتد ساعدك، وتغزو، وتعود بالغنائم والأسلاب، وعليك ألا تنسى مربيك العجوز».

كان نبلاء القبرداي يرسلون أولادهم إلى أحد فرعي الأستين، كما فعل آل أنزور الذين كانوا يرسلون أبناءهم إلى إحدى الأسر الديغورية، ثم يتزوجون منها بعد ذلك. كتب **محمد جمال آيه زاو**: «إن الثالوث المقدس عند السومريين يتألف من آنزو Anzu الابن الأكبر للإله أنليل وهو القمر وبإضافة أل التعريف R إلى الشركسية يصبح الاسم الأكبر والأعظم»[84]. وقرأ الباحث الروسي تورتشانيوف اسم إله القمر في الأديغية القديمة Anza وذكر النص التالي: «يا أنزا قم بتوحيد العبيد، واجعلهم يثورون ثانية، وبذلك تكون قد خدمت الحقيقة»[85]. فإذا أضفنا أداة التعريف يلفظ الاسم أنزامز Anzar-ms عند الأستين ويعني الاسم رب الرجولة والخير[86].

أخوة الرضاعة

تقام لها مراسيم وطقوس خاصة بالبالغين لتقرير الصداقة. ويمكن أن تقام بين الرجل والمرأة، ويصبحان أخوة، ويمكن لهما أن يعيشا سوية ويخرجان للرعي أو للصيد دون أن تقام بينهما علاقة جنسية، لأن ذلك محرم عليهما[87].

قرابة التبني

تقام هذه القرابة بين عائلتين، بينهما ثأر، ولا صلاح ذات البين، يأخذ ابن القتيل ويربى في حمى الرجل القاتل، ثم يعاد إلى أهله في الشباب، في مراسم طقسية خاصة. وهناك قرابة تبني أخرى، إذ يكفي أن تخرج المرأة ثديها ويلثمه الشاب بفمه، ويصبح الشاب بعدها ابنها بالتبني، وتحرم عليه كأمه، ويصبح أبناؤها أخوته[88].

هذه العادة موجودة عند معظم الشعوب الرعوية، ومنها العرب قديماً.

كانت معظم طقوس القرابة تقام تحت الأشجار المعمرة، ويصف لنا أوليا شلبي (1611- 1684) الرحالة التركي الذي زار قبيلة الأدماي الشركسية عام 1662، وكانت أمه من الأستين، وله معرفة باللغة الأبخازية والأستينية، زار قبيلة الأدماي وقال عنهم: «كانوا يحتفلون تحت شجرة ضخمة، معمرة يعتقدون أنها تعود إلى زمن الإسكندر المكدوني (357- 323 ق.م) هو الذي حفر حفرتها بنفسه، ثم غرسها من بعده الخضر عليه السلام، وأن هذه الشجرة - حسب اعتقادهم - مهداة من الله، ليعبدوه تحتها إلى يوم القيامة، ثم يضيف أوليا إلى وصفه، ولها عيد يتم في شهر حزيران، في موسم ثمرة الكرز، ويجتمع تحتها حاكم المنطقة، وتجار الأقاليم السبعة من هند وسند، وفرس وصين، وترك وعرب، وروس وكرج، ويظلون أربعين يوماً بلياليها تحت هذه الشجرة، يأكلون ويشربون، ويعرضون أفضل أمتعتهم، وأحسن صناعاتهم، وفي الليل يحرقون تحتها شمع العسل، ويرشقون الشجرة بقطع من الحديد، ونعال الخيل والمسامير. كانت عبادة الأشجار المعمرة واردة عند الشركس ويطلقون على الشجرة (كتخ قودش) ومعناها العهد والميثاق ويقال إن لكل عائلة أستينية (قودش) ويرة العالم الإنكليزي أدوار تيلور «أن الموروثات الثقافية من عادات وأفكار وطقوس دينية، تظل مستمرة بقوةالعادة، في مجتمع جديد يختلف في الزمن عن الزمن الذي أفرز تلك الطقوس»[89]. وقد عرف العرب هذه العبارة، وقد كانت توجد شجرة معمرة في مدينة نجران.

ثقافة الأستين

يعتقد الأستين أن أجدادهم أتوا من أماكن لم يكن الرعاة والجمل فيها، ومعنى هذا أنهم كانوا رعاة ولكن رعيهم جبلي، وكان جوارهم يسمونهم (قوشحة) أي سكان الجبال، سكان جبل القبق كما يسميه المسعودي، وكان الأستين رعاة أميون يعتمدون على الشعر والغناء في حفظ موروثهم التاريخي والثقافي، وكان المغنون يتجولون وهم مرغوب فيهم. يقول الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف: «كان والدي يقول: إن الضيف العادي هو ضيف بيتك، أما المغني فهو ضيف القرية كلها، وكان يستقبل في كل مكان، أفضل مما يستقبل الحاكم، ربما لهذا السبب، لم يكن حكام المناطق يحبون المغنين الطلقاء»[90]. وكان معظم المغنين والشعراء المتجولون من الأميين، إلا أنهم من ذوي الذكاء، والبديهة الحاضرة، وكانوا يرافقون الفرسان في الغزو يحضونهم على القتال. وكانت العشائر عندهم تتحد بنسب وهمي يقوم باعتقادهم بوحدة الدم، الأب أو الجد الأعلى للعشيرة. وأعرف منهم في سورية المؤرخ والأستاذ الجامعي الدكتور أديب جباغ له مساهمات في كتابة التاريخ العربي. والأستين يعيشون في الجولان من قبل، وهم الآن يعيشون في دمشق.

مراجع: الشركس أو شعوب القفقاس

1)الأرض وتطور الجنس البشري ص242 لوسيان فيفر ترجمة محمد سيد غلاب، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة 1957.

2)الشركس في فجر التاريخ ص214، برزج أمين سمكوخ، منشورات دار علاء الدين دمشق 1995.

3)ملاحم نارت الشركسية ص11، آدم غوت، ترجمة ممدوح قوموق، دار المجد دمشق 1984.

4)المصدر السابق ص63.

5)أصل الشراكسة ص74، أيئك ناميتوق، ترجمة فؤاد يحيى توغوج، دار صوت النارتين عمان 1991.

6)دائرة المعارف الإسلامية مجلد 7، ص337، القاهرة 1937.

7)مقدمة ابن خلدون، ص456، كتاب التحرير القاهرة 1966.

8)دائرة معارف البستاني، ج1، ص440، بطرس البستاني بيروت 1953.

9)السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص26، طبع مصر 1356هـ.

10)أصل الشراكسة ص28.

11)الجولان دراسة في الجغرافية الإقليمية ص264، أديب سليمان باغ، ترجمة ونشر اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1984.

12)جغرافية سورية ج1، ص371، عادل عبد السلام، دمشق 1973.

13)مروج الذهب، السفر الأول ص60، المسعودي اختيار غازي طليمات وزارة الثقافة دمشق 1985.

14)المصدر السابق ص161.

15)أصل الشركس ص73.

16)الأبخاز أشهر معمري العالم ص21، سولا بنيت، ترجمة فاضل لقمان دار الحوار اللاذقية 1986.

17)داغستان بلدي ص234، رسول حمزاتوف، ترجمة عبد المعين الملوحي وعدنان جاموس دمشق 1976.

18)احتلال الروس للقفقاس ص28، جون ف باولي، ترجمة إبراهيم عودة، عمان 1987.

19)مدخل إلى تاريخ الشراكسة، ص28، أمين سمكوخ دار دمشق 1984.

20)تاريخ القوقاز، ص159، يوسف عزة غموقة ترجمة عبد الحميد غالب، القاهرة 1933.

21)الأصول الشركسية في اللغة السومرية ص12، منذر بج، دار الفكر حلب 1995.

22) أصل الشركس ص22.

23)الشركس أصلهم وتاريخهم وهجرتهم إلى الأردن، ص74، محمد خير حاغندوقة، عمان 1991.

24)شمال القفاس ص25، عز الدين سطاس، دمشق 1996.

25)المصدر السابق ص223.

26)الأبخاز أشهر معمري العالم ص23.

27)إبادة الشراكسة ص10، علي حسن قاسوم ترجمة عمر شابسيغ، دار صوت النارتين عمان 1993.

28)مدخل إلى تاريخ الشراكسة ص165.

29)تهجير الشراكسة ص95، نهاد برزج، ترجمة مكتبة الشباب عمان 1987.

30)داغستان بلدي ص305.

31)موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص366، محمد جمال صادق آبه زاو، منشورات علاء الدين دمشق 1996.

32)الأثنوس والتاريخ ص12.

33)داغستان بلدي ص352.

34)تاريخ القوقاز ص158.

35)أصول الشركس ص74.

36)مدخل إلى تاريخ الشركس ص37.

37)دائرة المعارف ج3، ص81، فريد وجدي القاهرة 1955.

38)المصدر السابق ج3، ص81.

39)دوي الرعد ص72، لاختنفسكي آجوق، ترجمة دينا دبجن دار دمشق 1983.

40)تاريخ القوقاز ص229.

41)داغستان بلدي ص432– 433.

42)مدخل إلى تاريخ الشراكسة ص34.

43)تهجير الشراكسة ص102.
44)أصل الشراكسة ص26.
45)النشرة الثقافية الشركسية عدد 6 ص75، دمشق 1994.
46)داغستان بلدي ص275.
47)الخوف من الحرية ص228، أريك فروم ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات بيروت 1975.
48)الإسلام الثابت الحضاري والمتغيرات السياسية ص26، ألكسي مالاشينكو ترجمة ممتاز بدري الشيخ دار الحارث دمشق 1999.
49)احتلال الروس للقفقاس ص372.
50)المصدر السابق ص434.
51)داغستان بلدي ص308.
52)المصدر السابق ص317.
53)المصدر السابق ص433.
54)تاريخ الأدب الروسي ص7، مارسيل هرار منشورات دار عويدات بيروت 1957.
55)نضال الشعب الشيشاني ص29، زهدي سطاس ورفاقه دار شرق غرب دمشق 1997.
56)الشيشان ص21، برونو بليتسكه ترجمة أحمد راتب زنداقي عمان 1989.
57)المصدر السابق ص105.
58)المصدر السابق ص114.
59)الأثوس والتاريخ ص50.
560)مجلة العربي الكويتية ص151، عدد أيار عام 1987.
61)المصدر السابق ص151.
62)Danil Pipes, In path of God p11 NewYork 1983.
63)مجلة العربي ص149.
64)Norman Lewis. Nomads and settlers in Syria and Jordan p98 London 1985.
65)تهجير الشراكسة ص95.
66)أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز، ص10- 11، شوكت المفتي مطبعة المعارف القدس 1962.
67)المصدر السابق ص7.

68)مروج الذهب ج1، ص195، المسعودي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة 1948.
69)المصدر السابق ج1، ص204.
70)أصل الشركس ص74.
71)المصدر السابق ص28.
72)موسوعة تاريخ القفقاس ج1، ص313.
73)مدخل إلى تاريخ الشراكسة ص28.
74)الجديد حول الشرق القديم ص342، نيغفارد بودني ترجمة جابر أبي جابر وخيري الضامن، دار التقدم موسكو 1988.
75)تاريخ القوقاز ص37.
76)النشرة الثقافية الشركسية عدد 5، ص169، دمشق 1991.
77)مدخل إلى تاريخ الشركس، ص33.
78)موسوعة تاريخ القفقاس ج1، ص329.
79)رحلة ابن فضلان ص162، تحقيق سامي الدهان، وزارة الثقافة دمشق 1977.
80)تاريخ القوقاز ص37.
81)دائرة المعارف الإسلامية، ج6، ص347.
82)تاريخ الشركس وآل أنزور ص56، محمد عبد الحميد الحمد دار الطليعة الجديدة دمشق 1998.
83)بطل من هذا الزمان ص51، ليرمنتوف، ترجمة سامي الدروبي دار التقدم موسكو 1984.
84)موسوعة تاريخ القفقاس ج1، ص96.
85)اكتشاف وفك رموز الكتابات الشركسية القديمة، ص33، ترجمة عمر شابسيغ، صوت النارتين عمان، 1993.
86)موسوعة تاريخ القفقاس ج1، ص326.
87)مدخل إلى تاريخ الشركس، ص28.
88)الأبخاز أكثر معمري العالم ص93.
89)إدوار تيلور ص36، نوابغ العرب، دار المعارف القاهرة 1965.
90)داغستان بلدي ص57.

الباب الخامس

الأرمن تاريخهم وهجرتهم إلى سورية

- الأرمن في التاريخ
- الأرمن والسريان
- هجرة الأرمن إلى سورية
- أهم شخصياتهم

الأرمن في التاريخ

الأرمن شعب عريق له خصائصه المميزة، ولهم جغرافية خاصة بهم، عاشوا في الهضبة التي تحدها من الشمال كرجستان (جورجية) وسلاسل جبال القوقاز، وعلى حدودها الشرقية يقع بحر الخزر (قزوين) أما حدودها الجنوبية، فتصل إلى جبال طوروس ومنطقة كيليكية التي تحاذي جبال آرارات (جبل النار) من الشرق، وهي جبال مكللة بالثلوج معظم أيام السنة.

يسود الهضبة مناخ جبلي بارد في الشتاء، وجو لطيف صيفاً، والتربة البركانية خصبة فيها سهول واسعة تصلح للزراعة والرعي، وفيها بحيرات أهمها: بحيرة وان Van، تصلح للري والسقاية ولا تصلح لشرب الإنسان، لذا سماها الأرمن القدماء (البحر المالح) ويصب فيها نهر هوشاب Hoshap، والبحيرة الثانية هي بحيرة سيفان Sivan مياهها عذبة.

أما عن تاريخ الأرمن فهم شعب عريق ذكرهم هيرودوت (484- 425 ق.م) عندما قال عن المكدونيين، انحدروا من جناح القبائل الهندية ولحق بهم الفريج والأرمن وأقاموا في الجزر اليونانية، وصارت بينهم لحمة نسب، وكان ذلك في القرن 12 ق.م. ثم عبروا مضائق البسفور إلى آسيا الصغرى واستقروا في القرن الثامن قبل الميلاد في جنوب جبال القفقاس، ثم افترقوا عن أبناء عمومتهم الفريج، وتابعوا مسيرتهم باتجاه جبال أرارات[1].

إذن، الأرمن حسب رأي هيرودوت من الشعوب الهندوأوروبية، ثم زحف الأرمن باتجاه مملكة أورارتو، وكانت المملكة في حالة ضعف، وطردوا القبائل الموجودة هناك، واستقروا بينهم ثم اندمجوا بهم، وحلوا مكانهم وحكموهم. والمستغرب أن اسم الأرمن اشتق من اسم الملك الأورارتي آرامه[2].

أما كيف ينظر الأرمن إلى أصلهم السلالي؟

أورد **موسيس الخوريني**، في كتابه (تاريخ الأمة الأرمنية) الذي وضعه عام 440م، أسطورة تقول: «إن هاييك أبو الأرمن تمرد على بعل ملك بابل، عقب دمار برج بابل، فخرج هاييك بعشيرته المكونة من 300 عائلة، واتجه شمالاً نحو منطقة أرارات واستقر في سهل هكار، وبنى قرية صغيرة. وعندما علم الملك البابلي بخبرهم، جرد عليهم

حملة بالقرب من البحر المالح (بحيرة وان) وانتهت التجريدة بانتصار هايك وعشيرته على الجيش البابلي، واستقر أحفاده هناك وبنوا مدينة Hayotsdzor، وعرفت فيما بعد باسم هايستان».

فالأرمن يعتقدون بأنهم من الشعوب السامية، جاؤوا من وادي الرافدين وعاشوا في الهضبة الفارسية. وصار الأرمن يعتقدون بصلة الدم فيما بينهم، وبالتسمية الذاتية، والعادات والعبادات، وأن لاعتقادهم بسلسلة النسب الوهمية، التي لا تقوم على أساس تاريخي، بل على أساس أسطوري، جعلت تسميتهم سارية. يقول الباحث الروسي برومليه: «إن التسميات التي تعطى للقبائل والمجموعات، شيء راسخ، وتغييرها أصعب بكثير من تغيير كنية الإنسان، ويعيش الأثنوس ومعه اسمه الذي تلقنه من مئات السنين»[3].

وبما أن كل أثنوس هو جزء من تاريخ البشرية، فإن الشعب الأرمني العريق في تكوينه، هو جزء من شعوب الشرق الأوسط القديمة. بنى الأرمن مدينة أرمافيرا Armavira حوالي عام 800 قبل الميلاد، بناها الملك آراميه (880- 844 ق.م) في الجانب الشرقي لمنحدرات جبل آلاغوز البركاني، وأول إشارة وردت في المدونات الحثية حوالي 1300 ق.م، ثم ورد اسم الأرمن في النصوص الاشورية في أخبار مملكة أورارتو، ومملكة نانيري، حول بحيرة وان. وفي تاريخ الأمة الأرمنية عند موسيس الخوريني، أن هايك عهد بالحكم لابنه أمريناك الذي حكم 46 عاماً، وخلفه ابنه أرمايوس الذي حكم 40 عاماً، ومن بعده ماسيوس الذي حكم 32 عاماً، وخلفه ابنه كيغام الذي حكم 50 عاماً، وخلفه ابنه جرموش الذي ملك 31 عاماً، ثم عهد الحكم إلى آرام الكبير الذي بنى مدينة مازاكارد القديمة. ومن هذه السلالة الكريمة جاء الملك ديكران الأول.

أما النص التاريخي الموثوق به، ما جاء في نقش بهستون، عندما ذكر الملك داريوس الأول (521- 485 ق.م) ما ذكره عن حملته التي قامت بتأديب الشعب المتمرد في مدينة زوزا، في السنة العشرين لحكم داريوس، وانتصر على الشعب الأرمني بمعونة أهورامزدا، وفي عهد الملك أرتحشستا (465- 424 ق.م) قسَّم الفرس المملكة الأرمنية إلى دولتين:

-أرمينيا الشرقية، وعاصمتها (مازاكا) وكان يحكمها مزربان أرمني موالٍ للفرس يدعى بروانت.

-وأرمينيا الغربية، وعاصمتها (ديكر) وكان يحكمها مزربان فارسي يدعى تريبازوس. وكان نائب الملك وقد بلغت ثروته حوالي 3000 تالنت فضة، وفي سنة 401

ق.م، قامت ثورة داخلية قام بها الأمير قورش الصغير ضد أخيه الملك أرتحشستا الثاني (404- 358 ق.م) وقد استعان الأمير الثائر بمرتزقة يونان وأرمن.

كانت المدن الأرمنية غنية. قاد المؤرخ أكزينفون (430- 355 ق.م) حملة من المرتزقة، وقد دوّن حملته في كتابه (سوروبيدنا)، لقساوة شتاء أرمينيا انسحب معظم جيشه ولم يبق منهم سوى أربعة آلاف. وذكر أن الملك يروانت الأول (401- 375 ق.م) كان خاضعاً للفرس، وفرض على شعبه الديانة الزرادشتية، وكان أشراف الأرمن وشيوخ العشائر يعيشون في قلاع خاصة بهم، وهم المسؤولون عن إدارة القرى، وكان عليهم أن يقدموا للملك الأرمني الخراج والمحاربين، ومما لاحظه أكزينفون، أن الفلاحين كانوا يعيشون في بيوت منخفضة عن سطح الأرض ولها فتحات ضيقة، ويدخلون إلى هذه البيوت في سلالم متنقلة، ويدخلون إلى بيوتهم من الأعلى، وذلك خشية البرد والوحوش الضارية، ويعيشون مع مواشيهم (الماعز والبقر) في هذه البيوت، وكانت بساتينهم حول البيوت وهناك الحقول البعيدة في السهول، وكان نظام الري متطوراً جداً، مما جعل لدى الأهالي فائضاً من الحبوب واللحوم والجبن والعسل، ولديهم البيرة والخمرة الخاصة بهم، وكان فرسان الأرمن يمتطون خيولاً أصيلة أصغر حجماً من الخيول الفارسية ولكنها أجمل منها شكلاً.

وفي عهد الملك يروانت الثاني (344- 331 ق.م) توحدت أرمينيا وأصبحت المملكة الأرمنية قوية مهابة الجانب. وعندما تقاتل الملك داريوس الثالث (336- 330 ق.م) والإسكندر المكدوني قرب أربيل عام 331 ق.م، نصر الملك يروانت الثاني داريوس الثالث بينما انضم إلى جانب الإسكندر ولي العهد مهران بن يروانت، الذي أصبح ملكاً لأرمينيا (330- 317 ق.م) وفي عهد ولده يروانت الثالث (317- 260 ق.م) عظم شأن المملكة وأصبحت العاصمة أرمافيرا، عاصمة الثقافة، وانتشرت الفلسفة اليونانية، وبنيت المسارح وقد عثر في موقع نمرود داغ على نص تذكاري للملك مهران باللغة اليونانية.

وعندما اعتلى العرش الملك أكسركيس (228- 212 ق.م) بنى مدينة جديدة عاصمة للمملكة دعاها باسم (أرتكساتا) وصارت عاصمة التجارة، وتوطدت العلاقات التجارية بينها وبين دولة الهان الصينية (206 ق.م- 220م). وصار الحرير يجلب من الصين ويحتكر في مخازين أرتكساتا، وعظم شأن العاصمة وقد عثر المنقبون الأثريون على قصر ذي قاعات كبيرة فيها حمامات. وفي وسط المدينة كانت الأجورا (ساحة السوق) وحولها القلعة والمشاغل والدكاين، وعثر على عملة فضية عليها صورة الملك أكسركيس، بدا فيها ملتحياً وعلى رأسه تاج.

وفي عهد الملك يروانت الرابع (212- 200 ق.م) بنى مدينة يرفان على ضفة نهر أراكس، وزودت المدينة بالمياه العذبة التي تجري بين البيوت وفي الشوارع في أنابيب فخارية، وبنيت قلعة للآلهة أناهيد سماها بغران Bagaran أي مدينة الآلهة، ومن بعده ضعف شأن الدولة الأرمينية. عندما وضع الفرثيون مرزباناً بعد الملك القتيل عام 189 ق.م، هو الملك أرداشيش الأول (189- 160 ق.م) وعادت القوة لأرمينيا بفضل تدبيره، وقوي الجيش، وأصبحت اللغة الأرمنية لغة البلاط بدل اللغة الفارسية، وصار يحمل لقب Strategos، وجعل الطرق التجارية آمنة من ساردیس إلى طيسفون وعلى هذه الطرق بنيت دور الضيافة لاستراحة التجار، وكان عددها يزيد على العشرين خاناً، وتولى عرش أرمينيا عدة ملوك، وفي الآخير دب فيهم الضعف وأصبحوا خاضعين للدولة الفرثية.

الملك ديكران الكبير (95- 56 ق.م)

هذا الملك من السلالة اليروانتية، ويعد أعظم ملوك أرمينيا في كل الأزمنة ويسمى حكمه بالعصر الذهبي، ولقبه الرومان (ملك آسيا العظيم). وفي عهده أصبحت الإمبراطورية حوالي 700 ألف كم مربع.

كان ولي عهده أردافست، اشهر أدباء عصره يكتب باليونانية، ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان، هدد الرومان عاصمته ديكرانا كيرتا، ونهبوها في 6 تشرين أول عام 69 ق.م، وانتهى مجد الدولة الأرمنية الكبرى. يقول المؤرخ الروسي تونغارد ليفين: «كانت أرتكساتا تستحوذ على تجارة الحرير، بينما تنحصر في ديكرانا تجارة التوابل والبخور واللبان العربي، وصارت أرمينيا أهم مراكز تجارة البحر المتوسط، ودلت التنقيبات الأثرية على وجود عدد كبير من الجاليات كالسوريين والمصريين واليونان والعرب، مما أثار حسد روما، فقام يوليوس أوغسطس (63 ق.م- 14 م) بمهاجمة ديكران الكبير ليستولي على أعظم مراكز التجارة العالمية(4). توفي ديكران العظيم في سنة 55 ق.م، عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، وصارت سيرته أسطورة لدى الشعب الأرمني.

الملك أردافست بن ديكران (54- 34 ق.م)

كان هذا الملك الشاعر والفيلسوف، درس في أثينا فلسفة أفلاطون وأرسطو، ووقف على الحياد في معركة حران عام 54 ق.م التي تقابل فيها الرومان والفرثيون، وعندما هاجم الإمبراطور أنطوخيوس القوات الفرثية وقتل في المعركة عام 49 ق.م، وجد قبره في نمرود داغ وذكر اسمه مع ملوك الأرمن. وقد غضب عليه الإمبراطور

أنطوخيوس الروماني وقبض عليه في أنطاكية، وأخذه مكبلاً إلى الإسكندرية وأعدمه هناك في عام 34 ق.م.

الملك ديكران الرابع (8 ق.م- 7م)

اعتلى العرش ومعه أخته وزوجته بآن واحد يرادو، وكثرت الدسائس في البلاط وعمت الفوضى، وكان الصراع على أشده بين روما وطيسفون، بينما الشعب الأرمني يعاني، وأجبر ديكران على الاستقالة، ونصبوا بدلاً منه ابنه أردافست، وبعد مدة صارت أرمينيا تخضع لحكم الفرس، واعتلى العرش رجل آرامي يدعى آريو برزان (الأسد بن زان) وظل الحكم للأجانب حتى عام 66م.

الملك ورطاد الأول (66- 79م)

اعتلى العرش وأعلن خضوعه لروما، وذهب إليها ترافقه حاشية من الأشراف الأرمن ووضع الإمبراطور نيرون (54- 68م) التاج على رأسه وباركه، وأذن له بالعودة، ورمم قصور أرتكساتا، بمساعدة مهندسين من الرومان، وبدأ حكم الأسرة الأرشوغونية، وكان معظم ملوكها ضعافاً، وفي معركة هرانديا عام 115م، بين الرومان والفرثيين، تم الاتفاق على ألا يتم تنصيب أي ملك أرمني إلا بموافقة ومباركة الدولتين.

وفي عهد **الملك درطاد** (خسروف) (217- 238م)، زال حكم الفرثيين، واستولت على الحكم الفارسي الأسرة الساسانية (226- 651م). قدم الملك وبدأت الحركات التبشيرية (المسيحية). واصلحت الطرق وشعرت تدمر بقوتها، فأرسلت حاكماً من قبلها (261- 272م) وعندما زالت قوة تدمر، قامت الحرب بين الفرس والرومان، وجرت معركة نصيبين عام 298م، وقامت دولة مستقلة في أرمينيا. وجاء **الملك درطاد الثالث** (298- 330م). وفي زمنه حدث إعلان الدولة الرومانية، دولة مسيحية 325م، ونشط القديس كريكور المنوّر واشترك في المجمع المسكوني الأول، وبنى الملك درطاد الثالث مدينة دوفين بالقرب من نهر آذاد، وأول كنيسة بنيت في مدينة آني التي دعيت فيما بعد بمدينة الألف كنيسة.

الأرمن والمسيحية

كان **الملك خسروف القصير** (331- 339م) رجلاً عادلاً ومسيحياً صالحاً، جعل الكاثوليكوس هوسيك مستشاره ومرشده، وهو الذي وطد العلاقات بين السريان والأرمن، وعلى العكس منه كان ولده **الملك ديران الأول** (340- 350م) شرس الطبع،

قتل الكاثوليكس هوسيك، مما أغضب أشراف الأرمن فقبضوا عليه وسملوا عينيه عام 350م، ونفوه إلى خارج البلاد فتوفي عام 365م. وخلفه الملك أرشاك الثاني (351-367م) وكان ملكاً محباً للعدل والصلاح، قرّب إليه البطريرك نرسيس، وسلطه على كافة الكنائس، ولكن الملك الفارسي شابور بن هرمز (310- 379م) الذي كان يكره المسيحيين، هاجم أرمينيا وقبض على الملك ومعه قائد الجيش أوساك فانتزع الملك الفارسي رأسه من بين أكتافه، فحزن الملك الأرمني وانتحر في سجنه عام 368م.

عاد الملك المنفي في روما باب **Bab** (369- 374م) وشن حملة على الفرس واستطاع القائد الأرمني البطل موسيغ ماميكويان أسر زوجة الملك شابور وبعض أشراف الفرس ثم أطلق سراحهم.

صار الملك باب عصبي المزاج، فقتل البطريرك نرسيس بدس السم له، فثارت البلاد وقبضوا على الملك باب عام 373م، واغتيل في سجنه، واعتلى العرش الملك وارطاد (374- 378م) وقام بإصلاحات ونظم أمور الدولة، وعين موسيغ ماميكويان مستشاراً له، وعين قائداً للجيش سهاروني، الذي قتل ماميكويان بحجة أنه قد قتل أباه من قبل.

هاجمت الجيوش الفارسية أرمينيا وقتلوا القائد سهاروني وهرب الملك وارطاد إلى القسطنطينية، وقسمت أرمينيا إلى دولتين: أرمينيا الشمالية يحكمها الملك أرشاك الثالث (378- 386م) وأرمينيا الجنوبية يحكمها الملك خسروف الثالث (386-392م) ولكن الفرس خلعوه وعينوا بدلاً منه ولي عهده أفرام شابور الثالث (392-414م) وكان ملكاً مثقفاً، ولكن زادت الاضطرابات وفي عهده انتهى حكم الأسرة الأرشاغونية ودام ذلك حتى الحكم العربي عام 640م.

الأرمن والسريان

يدعي السريان أن رسالة السيد المسيح وصلتهم على يد الرسولين برثلماوس الذي بشّر في مدينة كبادوكية، والرسول ثداوس الذي بشّر في أرمينيا الجنوبية، في أيام الملك ورطاد الثالث (283- 330م) على يد القديس كريكور بن أناك، وكان من الأشراف (نافارار). وظل يجاهد حتى وفاته سنة 326م، وخلفه ابنه أرشاك (أريستاكيس) وكانت اللغة السريانية هي لغة الكنيسة، وبمساعدة مطران الرها دانيال (المتوفى 387م) وضع العلامة مسروب ماشدوتس والجاثليق ساهاك بن نرساي (المتوفى 387م) وضع العلامة ميسروب الأبجدية الأرمنية، ونقلت إليها كتب العهدين القديم والحديث[5].

انضم الأرمن إلى السريان القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وانفصلوا عن الروم الملكية والموارنة والنساطرة القائلين بطبيعتين في السيد المسيح. جاء في كتاب (ذخيرة الأذهان): «أما الأرمن الذين أغواهم شموئيل برصوما فانتشرت بينهم بدعة أوطاخي حتى أفسدت عقولهم، وفي عام 500م، عقد الأرمن مجمعاً وأدخلوا بدعة بطرس القصار في التقديسات الثلاثة، وفي سنة 545م، اتبعوا مذهب الخياليين الزاعمين أن السيد المسيح لم يكن له جسم حقيقي، بل خيال، غير قابل للآلام، وصار لهم مطران يلقب بالجاثليق Cathalicos يجلس في بلدة سيس في كيليكية، وفي سنة 551م عقدوا مجمعاً في بلدة دوين Dovin بأمر **بطركهم موسى الأول**، وانفصلوا عن الكرسي الأنطاكي»[6]. وهنا انفصل الأرمن عن السريان الأرثوذكس، وإن ظلوا مثلهم يؤمنون «أن الله واحد، وأن كل من الأب والابن وروح القدس ليسوا سوى أقنوم واحد، وأن المسيح ذبيحة إلهية من أجل خلاص البشر من الخطيئة الأولى»[7].

تذكر السيدة **ديرنرسيسيان** في كتابها عن الأرمن «أن المؤرخين المحدثين يعتقدون أن الصور والرموز المنقوشة على الصخور التي عثر عليها في وادي أراكس Arax يمكن أن تكون في حد ذاتها شكلاً بدائياً لكتابة النصوص الأرمنية القديمة»[8]. إنها كانت باللغة الآرامية التي وجدت في معبد أناهيد، وإن ميسروب قد اشتق الكتابة الأرمنية من الأبجدية اليونانية التي كانت شائعة بين الأرمن، وكانت الكتابة الأرمنية أساس الثقافة الأرمنية، وكتابة التاريخ الأرمني، الذي دونه **المؤرخ سيبيوس Sebeos** الذي وضع كتاباً حول سيرة الإمبراطور هرقل (610- 640م) وفصل بالأحداث التاريخية (635- 661م) وفصَّل في أخبار معركة اليرموك، وبيّن لماذا لم يشترك القائد الأرمني واهان بالحرب، وانسحب بجيشه إلى حمص، لأن هرقل كان يضطهد الأرمن والسريان.

ووضع **المؤرخ الأرمني غوفون** تاريخاً لأرمينيا وصف فيه احتلال العرب لأرمينيا (661- 788م) أكمل فيه تاريخ سيبيوس في العصرين الأموي والعباسي، وذكر في كتابه أسماء العلماء والمفكرين الأرمن.

التركيب الطبقي للمجتمع الأرمني

كانت تسود المجتمع الأرمني العلاقات القبلية، وظهرت الدولة من تحالفات العشائر، وكان النظام السائد هو النظام الإقطاعي، وكانت لديهم أربع طبقات:

1-طبقة الأشراف:

كانوا يملكون الأراضي الزراعية ويسكنون في قصورهم في المدينة، ويطلق عليهم بالأرمنية ناخارار Nakharar وهؤلاء هم شيوخ القبائل، وكانوا معفيين من الضرائب وكانت الزراعة متطورة، وأصبح المجتمع الأرمني مجتمع الوفرة.

2-طبقة الأحرار:

كانوا دون الأشراف في المنزلة الاجتماعية ويطلق عليهم Azats أي ذوات، وهم رجال الدولة وكانوا يدفعون ضريبة الرأس، ولكنهم معفيون من عمل السخرة وسكناهم في المدن والقرى.

3-طبقة التجار والحرفيين:

كانت لهم متاجر في المدينة، وورش عمل في القرى، للنسيج ثم تجلب إلى المدينة، وكانت تجارة الحرير هي المفضلة، وكذلك تجارة التوابل والبخور، وكان للتجار إسهامات في قوافل التجارة البعيدة. ولهم وكلاء في المدن الحدودية، وكانت الجاليات الأرمنية التجارية موزعة في العالم في سورية وبلاد ما بين النهرين وفارس واليونان وروما ومصر، وكانت الصناعات تورّث للأبناء ثم تنتقل بين الأجيال.

4-رجال الدين والأدب:

لم يكونوا طبقة محددة المعالم، ولكن كانت لهم مكانة مرموقة في المجتمع الأرمني، كان رجال الدين يعيشون في المعابد والأديرة والكنائس والأسكولات التابعة للأديرة بينما يتجول الشعراء والمغنون في الأرياف ويقيمون الحفلات في المدن، في قصور الأشراف، وكان للأطباء مكانة عالية، كانوا يعيشون من أجور معالجة المرضى، ولهم نقابة تحدد أجورهم، وتشرف على أحوالهم.

كان ذلك التقسيم في العصرين الوثني والمسيحي.

الأرمن في العهد العربي

اعتبر الأرمن والسريان العرب محررين لهم. قال البطريرك السرياني مار **ديونيسيوس التلمحري** (818- 845م): «إن إله الانتقام الذي هو وحده المتسلط على الكل، ويغير ملك البشر، كما يشاء، ويعطيه من يشاء، ويقيم عليه أوضاع الناس، لما رأى نفاق الروم الذين كلما حكموا كلما ابتزوا بقسوتهم كنائسنا وأديارنا، وحكمونا بلا رحمة، قاد الإسماعيليين (العرب) من الجنوب ليقتني لنا الخلاص من أيدي الروم بواسطتهم، وتحررنا من كيد الروم، وشرهم وحقدهم المرير، وتنفسنا الصعداء»[9].

وعندما زار **الأمير الأرمني ماميكونيان** (661- 685م) دمشق وقابل **الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان**، وتكلم معه باللغة العربية، دونما حاجة للترجمان، عينه معاوية حاكماً لأرمينيا.

وفي العهد العباسي حكمت **الأسرة البكرودونية** (885- 1045م) وتوطدت العلاقات التجارية والثقافية بين اشلعبين الأرمني والدولة العربية الإسلامية، قال المؤرخ

الفرنسي فوسيون: «إن الحكم العربي على أرمينيا لم يكن ظاهرة انعزال لأرمينيا، بل على العكس من ذلك، فقد كان فترة تبادل واسع لمختلف الحضارات والثقافات»[10].

ومن اشهر ملوك ارمينيا في أرارات:

الأمير سمباط الأول (890- 914م)

كان هذا الأمير قوي العزيمة، قضى حياته السياسية جاهداً في فرض الاستقلال الذاتي لأرمينيا، قاتل الوالي العربي يوسف بن أبي الساج. وكان الأمير سمباط محباً للعلم والعلماء واستدعى العالم العربي قسطا بن لوقا البعلبكي (820- 912م) إلى بلاطه ووضع له كتاباً في علم الفلك، وكتاباً عن الفلاحة اليونانية، وعلّم الأمير أشوط والأمراء الآخرين المنطق والرياضيات واللغتين العربية واليونانية، وعندما توفي قسطا بنى على قبره قبة.

الأمير أشوط الثاني (914- 929م)

كانت البلاد مضطربة أول حكمه، ولكنه قبض على زمام الأمور بيد حديدية، وقتل الأمير العربي يوسف بن أبي الساج، انتقاماً لمقتل أبيه، فأرهب الأمراء الأرمن، ونال ثقة الخليفة المقتدر الذي أطلق عليه لقب شاهنشاه أي ملك الملوك، وازدهرت في زمنه الثقافة الأرمنية والعربية، وأصلح قوانين الدولة والزراعة وبنى السدود، وأقطع الأراضي للأشراف، وبلغت الدولة في عهده عصرها الذهبي.

الأمير عباس بن سمباط (953- 977م)

كان هذا الأمير يجيد عدة لغات منها العربية والسريانية واليونانية والفارسية، ويحب العلوم والحكمة، وفتح المدارس في أرجاء مملكته على نمط المدارس الموجودة في الرها، وكان متعمقاً في الفلسفة المشائية (فلسفة أرسطو) يقرأ النصوص بالعربية واليونانية، وقد لقبه شعبه بالملك الرحيم[11].

عاش في بلاطه فترة من الزمن عيسى الرقي المعروف بالتفليسي، وكان يترجم له الكتب من السريانية إلى الأرمنية، وكوّن مكتبة غنية بالمخطوطات السريانية والعربية، على غرار مكتبة بيت الحكمة في بغداد.

الأمير جاجيك الأول (989- 1020م)

أصبحت أرمينيا في عهده سوقاً رائجة للبضائع والكتب، وتحسنت أحوال الناس المعاشية وازدهر الأدب الأرمني، وتفسير الكتب اللاهوتية، وكما قيل: «توقع زوالاً إذا ما قيل تمّ». بعدها تحولت الإمارات الأرمنية في أرارات، إلى أماكن للصراع، فتولى العرب حكمها مباشرة، وانتهى حكم الأسرة البكرودونية.

ملوك أرمينيا في كيليكية

تحول مقر الإمارات الأرمنية من أرارات إلى منطقة كيليكية، وتولت الحكم أسرة روبين (1080- 1199م) وبنى لاون مدينة سيس وجعلها عاصمته. عقد معاهدات مع الإمارات الصليبية ومع المغول. نقل ليون الثاني (1187- 1219م) قصر الملك من عين زربة إلى سيس، وأطلق المؤرخون على مملكته اسم مملكة كيليكية، وكانت مدينة سيس بلا أسوار في البداية، وكتب نرسيس اللمبروني عام 1177م، شاكياً من عدم وجود أسقف في سيس مقر الملك ولا كنائس مناسبة[12]. ولكن في عام 1212م، صار في المدينة أساقفة أرمن، وبطريق رومي. وفي عام 1266م أحرقت بلدة سيس وكنيستها الكبرى، وانتهكت حرمة القبور. وفي سنة 1238م أحدث هيثوم الأول مجلساً لحكم البلاد (1226- 1270م)، وأصبحت مدينة سيس تضاهي حلب وأنطاكية في العمارة والتجارة، وكانت سيس قد أقيمت على جبل مستطيل، وبنيت حولها أسوار عالية، وفي السفح بساتين نضرة يسقيها نهر صغير وحولها بنيت حصون دفاعية مثل تل حمدون والمصيصة وخرت برت الذي قال عنه أبو الفداء «أعظم معاقل الأرمن، وهو في الشمال من سيس على بعد مرحلة، وهذه الحصون كلها للأرمن»[13].

أقام هيثوم علاقات سياسية متوازنة مع هولاكو ملك المغول، ومع أمراء الفرنجة ليحمي نفسه من الأخطار، ولكي يتجنب ما حاق بالعرب والمسلمين. قال ابن العبري (1226- 1286): «وفي سنة 1252م، توجه حاتم (هيتوم) ملك الأرمن إلى خدمة مونككاقآن ملك المغول ورحل عن مدينة سيس يوم الجمعة، وخرج متنكراً مع رسول له بزي بعض الغلمان، وأخذ على يده جنيباً يجذبه خلف الرسول، لأنه كان خائفاً من السلطان صاحب الروم، يقول ابن العبري: «حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنتين من عودته من ملك المغول قال: عبرت بقيسارية وسيواس مع الرسول، ولم يعرفني أحد من أهلها قط إلا لما دخلنا مدينة أرزتكان عرفني رجل من السوقية كان قد سكن عندنا فقال: إن كانتا هاتين عيني فهذا ملك سيس، فلما سمع الرسول كلامه التفت إلي ولطمني على خدي وقال: يا نذل صرت تتشبه بالملوك؟ فاحتملت اللطمة لأزيل بها ظن من كان ظنه يقيناً»[14].

وأصبحت الدولة الأرمنية ذات مكانة في الشرق، وأصبحت الثقافة الأرمنية أعظم حيوية وأكثر تنوعاً، يقول موريس كراوزيه: «ما زال بعض الأرمن يعيشون عند حدود الأناضول وأذربيجان تحت سيطرة الأمراء الأتراك، وضم البعض الآخر منهم إلى مملكة جورجيا، أضف إلى ذلك أن أرمناً آخرين قد فروا إلى كيليكية فتأسست خلال القرن الثامن عشر الميلادي دولة صغرى مستقلة ساعدتها بيزنطة وفرنجة سورية فبلغت أوج

عزها مع أميرها ليون الكبير، وفتحت أبوابها للمقتبسات اليونانية واللاتينية وفي الوقت نفسه حافظت على قوميتها»[15].

لكن ازدهارها لم يدم طويلاً، بعد حكم أسرة هيتوم، تحالف الملك ليون الثالث بن هيتوم (1270- 1289م) مع المغول واهتم بتنظيم المملكة ليصد هجمات المماليك وعندما استلم الحكم الملك هيتوم الثاني (1289- 1305م) تحالف مع الفرنجة وتصاهر معهم، وعندما سافر إلى القسطنطينية اغتصب العرش أخوه طوروس، وبدأت الخلافات تدب في المملكة وظهرت المنازعات الدينية والسياسية، وفي عهد الملك الطفل ليون الخامس (1320- 1342) استولى الفرنجة على الحكم، وانتقلت مملكة سيس لحكم أسرة دي لوسينيان الفرنسية، وزال الحكم الأرمني من الوجود السياسي.

نظام الإقطاع وتطوره في كيليكية

ورثت مملكة سيس نظامها الاقتصادي من عصور قديمة، من نظام الإقطاع المعمول به في أرمينيا الأم، ثم ما لبث أن تعدل لاحتكاكهم بالفرنجة، وأصبح للمستشار دور كبير إلى جانب الملك وإلى جانبه المترجمين، والمستشارين الخاصين، وكذل ضابط التحصيل (عامل بيت المال) صار المسؤول عن إدارة القصر الملكي وأموال الدولة، وأصبحت لقائد الجيش مكانة عالية وصار يلقب بـ Constable، وظهرت وظيفة جديدة رئيس البارونات Avak Baron، وإلى جانب هؤلاء كان هناك منصب الجاثليق، وهو يناظر الملك من حيث السلطة، وكان جميع هؤلاء لهم أملاك إقطاعية تدرُّ عليهم أرباحاً وفيرة وإلى جانبهم توجد طبقات الشعب من فلاحين وحرفيين وتجار وهؤلاء هم قادة البنية الاقتصادية.

وامتازت هذه المملكة بفن عمارتها، الراقي والمتطور، هناك القصور الملكية، والكنائس الفخمة، والمسارح المعدة لتقديم الأعمال الأدبية، وكانت تعرض مسرحيات سوفوكليس الرائعة، وكان النبلاء يقيمون حفلات الرقص، والغناء الشعبي، وهناك رحلات الصيد إلى الريف حيث تقام الحفلات التي تشترك فيها النساء والرجال معاً، وهناك الأعياد الدينية كعيد السيدة في منتصف شهر آب، وعيد الصليب في منتصف ايلول وعيد رأس السنة الذي يقترن بعيد الميلاد، وفي مطلع الربيع عيد الفصح الشرقي. وكان الشعب يرتدي الثياب الحريرية الجميلة الألوان والزاهية. وفي أواخر الدولة في كيليكية ظهر نظام الفروسية، ورافق ذلك شعر شعبي لتمجيده. ذكرتهم ببطولة أرداشيش الأول وبسالة ديكران الثاني. ومن يفوز كان يحظى بقبلة أجمل الفتيات.

وعندما أراد الملك هيتوم أن يرسم ابنه الأكبر ليون فارساً، دعى لهذه المناسبة عام 1256م، شقيقته أميرة يافا وصهره بيهموند السادس (أمير أنطاكية) وكونت طرابلس وجوليان أمير صيدا مع زوجاتهم، بالإضافة إلى الأساقفة ورجال الدين. وتقدم الأمير روبين على جواد أبيض محاطاً بالنبلاء والجنود وهم يحملون الرايات، وعندما وصل الجميع إلى شاطئ النهر حيث يغطّس الصليب في الماء الجاري. ثم أقيم الاحتفال والولائم والعروض الغنائية والرقص الشعبي. وهذه الطقوس أخذها الأرمن عن اللاتين. وعندها انتقد الجاثليق نرسيس الملك لأنه سمح بهذا التقليد الفرنجي فكتب للشعب الأرمني الرسالة التالية: «تماماً كما أمرتنا أن نرضخ إلى تقاليد آبائنا، وأن نتبع تلك العادات التي يأخذ بها أجدادنا، فإننا نقول لك أيها المبجل: لا تذهب عاري الرأس كأمراء وملوك اللاتين، الذين يقول الأرمن إن لهم مظهراً غير محبب، ولكن ارتد الشرياش Sharbash (غطاء الرأس) كأجدادك، ودع شعرك وذقنك تتموان مثلهم، البس الطارة Tura (القبعة) العريضة الصوفية واترك الوشاح والعباءة»[16]. صار البلاط الأرمني مقلداً للبلاط الفرنجي. وصار رسم الأسد المتوج شعار ملوك الأرمن في كيليكية.

هجرة العرب إلى أرمينيا

بدأت الهجرة العربية إلى أرمينيا منذ عام 642م، عندما وجه الخليفة عمر بن الخطاب سراقة بن عمر إلى الدربند (باب الأبواب) على ساحل بحر قزوين، وبعد فتح تلك البلاد عقد الوالي حذيفة بن اليمان عام 653م معاهدة صلح مع الأرمن، تضمنت بعض الشروط:

1) تعفي الدولة العربية، أرمينيا من دفع الجزية لمدة ثلاث سنوات، وبعدها يدفعون الجزية لوالي دمشق.

2) أن يتكون في أرمينيا جيش قوامه خمسة عشر ألف فارس عربي ينفق عليهم من أموال الجزية. وأن يكون للجيش قلاعه دون أي تدخل أجنبي، وعلى الجيش حماية الأرمن من تعديات الروم.

وكان الجيش يتكون من قبائل قريش وأسد وهذيل وقيس، ومعهم عائلاتهم وقد طاب لهم المقام وظلوا في تلك البلاد. وقد شاهدهم الرحالة والمؤرخ العربي يوسف بن الأزرق الفارقي عام 1154م، عندما زار ولاية الكرج في أقصى الشمال من أرمينيا، يقول ابن الأزرق: «وبينما كنت والملك وعسكره نازلين في برج يقع عند سفح أحد الجبال الشاهقة، وإذا بجماعة تقبل علينا من ضياعهم، فجاء أحدهم إليّ وحدثني بالعربية، فعجبت لذلك وسألت الفتى: -من أنت يا فتى؟ إني ما رأيت بهذه الأرض

مستعرباً! فأشار إلى قرية على قمة الجبل: - من تلك القرية! وسألته: من أين هذا الكلام العربي؟ فقال: إن جميع من في تلك القرية عرب، ونحن جميعاً نتكلم اللغة العربية! فقلت: ومتى حللتم في هذا المكان؟ فقال: منذ خمسمائة سنة، وسألته: وما الذي جاء بكم إلى هذا المكان؟ فقال: لا أعلم! ثم انصرف الفتى وفي اليوم التالي رجع ومعه جماعة من قومه، وكان فيهم شيخ كبير اسمه محمد بن عمران فأخذ ابن الأزرق يوجه إليه الأسئلة، وهذا يجيبه عنها، وقال الشيخ: إن هذه البلاد أصبحت لنا وطناً، ويوصي بعضنا بعضاً أن لا نترك العربية مطلقاً. ونساؤنا لا تكلم الأطفال إلا بالعربية، لكي ينشأوا على اللسان العربي الفصيح. وسألته: كيف أحوالكم؟ قال: في خير، ليس بيننا وبين أحد معاملة سيئة. ولنا في هذه الأرض التي مساحتها خمسة فراسخ في مثلها، نحرث ونزرع ما نحتاج إليه، وما يعارضنا أحد، وهذا الأمير صاحب الكرج يحسن إلينا ويوفر علينا مصالحنا، وكل من ولي من أمر في هذه البلاد يحسن إلينا، ونكون عنده في أحسن منزلة»[17]. وهناك قبائل عربية كثيرة أخرى غيرهم استقرت في تلك البلاد واندمجت مع شعوبها.

الأرمن في مدينة الرُّها

الرُّها مدينة قديمة، تقول الأساطير إن النمرود هو الذي بناها. يقول القديس ايزيدور الإشبيلي (560- 636م) إن النمرود بنى إديسا Edessa، بعدما هاجر من بابل وحكم فيها. هذه عادة قديمة لدى المؤرخين. ولكمة الرُّها جاءت من أصل آرامي Urk ثم حورت في اللغة الأرمنية أورهي بمعنى المدينة الكثيرة المياه، لأنه يمر فيها نهر ديصان (الوثاب) أو نهر سيرتوس باليونانية، وفي داخل المدينة بركة ماء كبيرة كثيرة السمك يطلق عليها حالياً عين زليخة.

خضعت الرها لحكم السلوقيين أنطوخيوس سيديتس (129- 130 ق.م) ووضع فيها جالية مكدونية إلى جانب سكانها الآراميين والعرب، ثم حكمها ديكران الكبير (89- 77 ق.م) وجلب إليها جالية أرمنية لتأمين تجارة التوابل والبخور. كانت المدينة تحكم من قبل أسرة عربية يعرف ملوكها باسم الأباجرة، وأولهم الملك أريو بن معنو (132 ق.م) وكانت لهم صلات تجارية في مدينتي الحضر وتدمر، وعندما ظهرت الدعوة المسيحية تقبل الملك (أبجر معنو أوكاما) الدعوة واستلمها من الرسول أدي البشير، وأعلن إيمانه، ويدعي أهل الرها بأن لديهم رسالة من يسوع المسيح، وصورته على منديل حريري.

وفي عهد الإمبراطور هدريان (117- 138م) وضع على عرش الرُّها رجلاً فارسياً لمدة سنتين ثم عاد الحكم ثانية للأباجرة واشتهر منهم الملك وائل بن سهرو الذي

حكم باسم معنو الثامن (139- 165م) وكان يلقب بملك ديار وائل وهم العرب الرحل المحيطين بالرها وحران وسروج ورأس العين وكان اليونان يسمونهم بعرب الرها.

آمن الأرمن بالديانة المسيحية، وكانوا ملازمين للسريان في معتقدهم الكنسي، وينفرون من المذهب الملكي الروماني، وبعد سقوط مملكة سيس كان تواجدهم كثيفاً في منازكرت وملطية ومرعش وسميساط وروم قلعة (قلعة الروم) وديار بكر والرها، وعندما احتل عماد الدين زنكي مدينة الرها (1145م) وأخذوها من يد اللاتين ثانية، ساعده السريان اليعاقبة والأرمن، ويتهمهم المؤرخ اللاتيني وليم الصوري (1130- 1186م) بالخيانة، كتب: «كان في الرها عند احتلال زنكي لها السريان والأرمن وكلهم خدم يجهلون كلياً استخدام السلاح، ولا يعرفون إلا فنون التجارة، وكان اللاتين في القلعة العليا، وهؤلاء هم الذين قاوموا العدو ببسالة من أجل الحرية التي انتزعها منهم السلاجقة، كما انتزعوا منهم ذهبهم وفضتهم، وصلبانهم وجواهر كنائسهم وجرودهم، وأرسلوهم إلى حلب مع أميرة الرها بياتريس، وأخذوا معهم الكاثوليكوس نرساي الرابع شنورهالي، وبدأ الخطر يهدد أنطاكية أهم الممالك اللاتينية»[18].

كان الأرمن والسريان يكنون العداء للمذهب البيزنطي الملكي، وكانوا يطلقون على القائد الأرمني الأصل العداء ويلقبونه ابن الشيطان البكر، ولا يذكرون اسمه (رومانوس ديوجينييس) لأنه كان ملكياً في المعتقد، ولكن قادتهم ورؤساءهم الذين يميلون إلى حكم الفرنجة، وعندما احتل عماد الدين زنكي الرها، واستعادها من حكم الفرنجة، كتب نرساي الرابع كاثوليكوس الأرمن مرثية للرها وصف أسسها الراسية في الأرض، وقصورها وأبنيتها البديعة ذات التيجان المرمية، وهيكلها البديع المحاط بالأبنية الجميلة، وطرقها المكرسة للتجارة، والموزعة بخطة متناسقة. كما كتب المطران باسيل بن شومانه (1129- 1169م) معللاً سبب سقوط المدينة المباركة، لأن النساء الرهاويات عاشرن المسلمين وأصبحن زوجات لهم وفق رغباتهن، وهذا ما أغضب الله بصورة خاصة، قبل مجيء السلاجقة بسنة واحدة، وكان أكثر من مئة امرأة قد تزوجن من الكافرين[19].

هكذا اختلطت أنساب العرب والأرمن عن طريق المصاهرة في الرها وغيرها من المدن.

الأرمن تحت الحكم العثماني

الأتراك العثمانيون من العنصر الطوراني، أسسوامملكتهم في أرضروم (آسيا الصغرى) سنة 1299م، وكان أول سلاطينهم عثمان الأول (1299- 1326م) وفي

عهد السلطان سليم الأول (1512- 1520) سيطروا على كل سورية وبلاد الشام والعراق وأرمينيا ومصر، وتعدد الأجناس والأعراق والطوائف في مملكتهم الواسعة فكان العرب والأرمن والأكراد والسريان واليونان والشركس والتركمان كلهم من الأعراق الداخلة تحت حكمهم.

أطلق الأتراك على الرها اسم (أورفا) وعندما زارها الرحالة التركماني أوليا شلبي سنة (1658م) وجد معظم سكانها من المسلمين والسريان والأرمن، ويعدد المساجد والمعابد والحمامات والخانات والأسواق، اليت لا زالت تحمل الأسماء نفسها، ولكنه استدرك إهمال الزمن، فمنذ بضع سنوات بني مسجد بديع خارج السور الشرقي، قرب المكان الذي انتصب عليه من قبل معبد القديس سرجيس التاريخي، ولا زالت النقوش السريانية البديعة على جدران المسجد[20].

وعندما زار الأب الإيطالي فيشنسو أورفا عام 1656 قال: «ذهبت إلى حي الأرمن والذي يقع بظاهر أديسا (أورفا) في مكان منعزل على أرض منبسطة ليس بعيداً عن أطراف المدينة. وقد اعتقد أهله الأرمن المسيحيون لأول وهلة، أني جندي عثماني فهرعوا إلى بيوتهم وأغلقوا الأبواب»[21].

ظل الأرمن أكثرية السكان في كيليكية حتى عام 1915، وحسب التعداد العام: 120 ألف أرمني و100 ألف عربي و30 ألف كردي من القزلباش (علي إلهي) و28 ألف يوناني و20 ألف تركماني و20 ألف شركسي وخمسة آلاف سرياني وكان مجموع السكان الإجمالي 323 ألف نسمة.

أسباب تهجير الأرمن

على أثر النهضة في روسيا والإصلاحات التي حدثت في عهد القيصر بطرس الأول (1682- 1725م) حدثت حروب بين روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية، ونال الأذى الشعوب القوقازية المسلمة (الشركس والأذرية والتركمان والأوزبك)، فانعكس ذلك بالمقابل على الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية فنال الأذى (الأرمن واليونان والبلقار والرومان والكروات والصرب) قال المؤرخ الأرمني شاوارس طوريكيان: «عندما بدأت الشعوب البلقانية نضالها التحرري ضد العثمانيين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي الأمر الذي أدى إلى التدخل الأوروبي، ونشوب حرب الأتراك والروس، انتهت بانتصار الروس (1877- 1878) ونتيجتها تضاءلت جدوى الإصلاحات التي تعهد الباب العالي في المقاطعات التي يقطنها الأرمن وضمان أمنهم تجاه الشركس والأكراد[22].

كان الأرمن من أكثر شعوب الإمبراطورية العثمانية طموحاً للحرية والاستقلال، فقامت لديهم جمعيتان، جمعية أرضروم، وجمعية الاتحاد الوطني في وان Van عام 1885، وكانتا سريتين تطالبان بالاستقلال التام.

تضايق السلطان عبد الحميد الثاني (1876- 1909) من مطالبة الأرمن بالاستقلال فصرح للقريبين منه: الوسيلة الوحيدة للخلاص من القضية الأرمنية تكمن في القضاء على الأرمن أنفسهم». وفعلاً قامت المجازر بين أعوام (1895- 1896) ونشطت الأحزاب الطورانية، كحزب جمعية الاتحاد والترقي بالدعوة للقضاء على الأرمن والعرب، وجاهر قادتهم بالعلمانية. قال طلعت باشا: «لا توجد للدين أهمية عندي لأن ديني هو الطورانية. وإن الشعوب التي تعيش فوق أرضنا منذ زمن هي أعشاب ضارة يجب اقتلاعها من جذورها، وتطهير بيوتنا منها، هو هدف ثورتنا»[23]. وبدأت الاضطهادات ضد العرب والأرمن واليونان والسريان.

إن هذا التصريح يتناقض مع الحقائق التاريخية، فالعرب والأرمن والسريان في هذه البلاد منذ الألف الثاني قبل الميلاد، والأتراك منذ الألف الأول بعد الميلاد، وكأن الحرامية صاحت على أهل البيوت، كما يقول المثل العربي.

عقد الأتراك العلمانيون مؤتمراً في 3 تموز عام 1913م، في القسطنطينية، قرروا فيه تقسيم المقاطعات الأرمنية إلى قسمين:

القسم الأول: يضم طربزون وسيواس وخربوط وديار بكر.

القسم الثاني: يضم مقاطعة وان وأرضروم وتبليس.

وحدث ما لم يكن بالحسبان في 13 تشرين الأول عام 1914م، دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، وأعلنت الأحكام العرفية وبدأت سياسة التتريك. وفي 24 نيسان عام 1915 بدأت حملة الاعتقالات المسعورة ضد رجال الفكر الأرمن البارزين والعرب، في وقت واحد، وبدأت المشانق في صاصون وفي وان قال الدكتور ناظم «إن السفينة لا تسيرها الكلمات، وإن الثورة لا تعرف الشفقة، لذا يجب اتخاذ إجراءات حاسمة، وإننا في حالة حرب، ولا يمكننا أن نأمل فرصة أفضل من ذلك»[24].

وبدأت البرقيات السرية تحمل الأوامر السرية (المشفرة) إلى الولايات العثمانية في سورية إلى متصرفي (حلب ودير الزور) وفي الولايات العثمانية (ديار بكر وأورفه) وكلها تنص على إبادة الشعب الأرمني، وتم القبض على أحرار الأرمن، وقد تمّ تهجير حوالي مليون رجل وامرأة وطفل وشيخ وسيروا في سوقيات أطلق عليها (قوافل الموت).

أصدر وزير الداخلية طلعت باشا (1872- 1922) الذي اغتاله الأرمن في برلين، اصدر تعليماته السرية بتشكيل لجنة عامة تتولى توطين المهجرين من الأرمن مهمتها «تحقيق هدفنا المقدس وهو تخليص أرض الآباء من هذا العنصر الخطر (الأرمن)

وإزالة اسم أرمينيا من تركيا، ويجب أن يوكل بهذه المهمة إلى رجال وطنيين يمكن الاعتماد عليهم»[25].

تشكلت في القسطنطينية لجنة عامة مديرها شكري كايا، وفي كل ولاية نائباً عنه، ففي حلب ينوب عنه عبد الأحد نوري بك، وفي أورفه ويسي بك، وأرسلت إليهما البرقية التالية والمؤرخة في 12 كانون أول عام 1915: «اجمعوا وحافظوا على حياة أولئك اليتامى الذين لا يمكنهم تذكر أعمال التعذيب التي يتعرض لها آباؤهم، أما الباقي فأرسلوهم مع القوافل».

يتذكر خلف الشواخ (الاسم العربي الذي عرف به) «أن جمعاً من الجندرمة تناوبوا على أمه وكانوا يغتصبونها بالدور وهو ينظر إليهم، ثم قتلوها بعد ذلك، قال: كان ذلك في منزلنا في قرية جرموش في ضواحي أورفه. هذا ما قاله لي وهو شيخ كبير.

شمل التهجير كل رجل قادر على حمل السلاح، قال المؤرخ العالمي أرنولد توينبي: «كان حكام المقاطعات يطلبون، كل الرجال الأقوياء القادرين على حمل السلاح (15-70) وكانوا يقيدونهم ويسوقونهم إلى خارج البلدة، وتنتظرهم في الخارج عصابات قبائل الأكراد المسعورة، لإبادتهم وسلبهم كل ما يملكون مع الحرس المرافق، ثم يقفلون راجعين إلى المدينة التي انطلقوا منها»[26].

وفي 18 تشرين ثاني عام 1915 أرسل طلعت باشا برقيات جاء في إحداها: «كونوا حذرين واحرصوا على ألا تقع أحداث تلفت الانتباه، بشأن أولئك الذين يقطنون قرب المدن والمراكز الأخرى، وإظهار الأمر على أنه عملية ترحيل واتخاذ الإجراءات الاعتيادية المناسبة، بالقبض على الأشخاص الذين يدلون بأية معلومات تفشي الأسرار، وتسليمهم إلى السلطات العسكرية لتقديمهم للمحكمة»[27].

فضح الأمر وتناقلت الأنباء العالمية أخبار المجازر، وكتبت النشرة الأرمنية (أوترويوغو) الصادرة في مدينة روستوك باللغة الألمانية، في عددها المؤرخ في 6 نيسان 1915م، جاء فيها: «أننا نقاتل منذ ستة قرون، دولة همجية متوحشة، وطأت تحت اقدامها جميع حقوقنا الإنسانية والمدينة، وسوف نتابع قتالنا ضد جاويد القاتل الذي سفك دماء الأرمن، ولقد أعلنوا علينا حرباً مقدسة، قتلوا فيها النساء والأطفال والمسنين، والمرضى والمعوقين كما لو كانوا أعداء» قرأ المقالة طلعت باشا لمجلس الوزراء، **فعلق ناظم بك مستغرباً: ماذا يريد الأرمن منا؟ إنهم يسعون وراء تحطيمنا، إنهم يقولون: أيها الأتراك اخرجوا من هذه الديار، فأنتم لستم أصحابنا. فهذه الجبال والوديان والغابات هي ملك لنا منذ الأزل والتاريخ يؤكد مطالبنا»**. وفي هذا ادعاء كبير من الأتراك لا صحة له من الناحية التاريخية، فالأرمن من الشعوب العريقة في شمال غرب آسيا.

حددت الدولة مسار السوقيات (**قوافل الموت**) على طريقين:

طريق صحراوي: من تبليس ووان وديار بكر إلى رأس العين ثم باتجاه الموصل.

طريق نهر الفرات: من ملطية وسميساط وبيرجيك والرها إلى الرقة ودير الزور وأخيراً باتجاه الموصل نحو العراق. ثم استأجر طلعت باشا عصابات الأكراد ومنهم عصابة علو الشيخاني من أكراد ديرسيم، وقاموا بقتل وسلب القوافل على الطريق. ولكن بعض حكام المقاطعات كانوا من ذوي الضمائر الحية مثل جلال بك والي قونية، حمى المهجرين من القتل، فكان مصيره العزل ثم قدم للمحاكمة العسكرية والحبس.

هجرة أرمن أورفا وجرموش إلى الرقة

هرب أرمن جرموش وبعض العائلات الرهاوية إلى الرقة، وجرموش قرية كبيرة حوالي 913 خانة، والبلدة مبنية من الحجر المنحوت، وكان لدينا مثل يقول (احصوا القرى وعدوا جرموش معاها) كنت أظنها قرية صغيرة لا تستحق التعداد، وعندما زرتها في شهر تموز عام 1990 وجدتها بلدة، كانت في أوائل القرن العشرين ضاحية جميلة، بنيت من الحجارة المتهدمة، ذات شوارع متناسقة، وفيها ساحات وشوارع، تجري المياه فيها ضمن قساطل تحت الأرض، وتقع على سفح جبل يتدرج من الشمال نحو الجنوب، ومحاطة ببساتين عامرة باشجار الزيتون والكرمة والرمان والتين، ولا زالت أشجار الفستق الحلبي وفيها حقول القطن والحبوب من جهة الجنوب والشرق، وفي المدينة إن صح لي أن أسميها بالمدينة، كنيستان إحداهما في الجهة الغربية كنيسة كبيرة ذات قبة شامخة، تثير في النفس البهجة والحزن بآن واحد لأنها اصبحت عنبراً للحبوب وفيها الدجاج والبط والأوز.

والثانية: كنيسة صغيرة تقع في وسط المدينة لتأدية الصلوات وقد تهدمت، ولا زالت أنقاضها لا ينقصها سوى السقف.

أهديت هذه القرية التي كانت عامرة إلى الشيخ العجيمي باشا (أمين السعدون) شيخ المنتفق في منطقة البصرة لأنه انتصر للأتراك ضد الإنكليز.

جاء سكان جرموش إلى تل السمن إحدى القرى على نهر البليخ شمال مدينة الرقة، وفي عام 1922 أسست المحسنة الدانماركية مس كارين بييه مدرسة وداراً للأيتام ثم انتقلت المدرسة إلى حلب في عام 1924م.

جاءت إلى الرقة 56 عائلة مهجرة من جرموش الرُّها، ثم هاجر معظمهم إلى حلب ومنها إلى بيروت وإلى أمريكا، وأرمينيا وأوروبا. وبقيت بعض العائلات تعيش في الرقة حالياً ولهم في الرقة مدرسة وكنيسة وهم محافظون على لغتهم وثقافتهم الوطنية.

هجرة الأرمن عبر الفرات

انطلقت عشرات السفن في يوم صيف حار عام 1916م، بإشراف **ويسي بك مدير الإسكان والتهجير في الرها** (أورفا) انطلق من بلدة جيك راكباً عربته السوداء المريحة، وترافقه كوكبة من الحرس ممتطين خيولهم، يراقبون سير السفن المحملة بأجساد بشرية محطمة، تعاني من الجوع والمرض والخوف من مستقبل مجهول.

وفي الثالث من أيلول وصلوا إلى منطقة الدبسي، فاستقبلهم **شيخ فيضي بك الفواز، مأمور التهجير في مدينة الرقة**، وفي الصباح انطلقت السفن تتابع سيرها، وحطوا رحالهم في المساء في مقابل قلعة جعبر الأثرية، وفي الليل جاء رجل أرمني كان دلالاً في بلدة خريوط وسأل شيخ فيضي عن معنى (تعالوا تراهم ناموا) وسأله عن مصدر الصوت فأرشده إلى أحد الحراس ينادي بعض الذئاب البشرية المتربصة لسلب الأرمن المعذبين، طرد الحارس الخائن، وشددت الحراسة، واستمرت القافلة بأمان فوصلت بعد ثلاثة أيام حتى حدود ناحية السبخة عندما استلم إدارة المسير (**شكري بك البقججي**) ليوصلها إلى دير الزور.

في 3 آب عام 1916 عيَّن **صالح بك زكي**، متصرفاً جديداً لدير الزور، وسمع السيد شكري بك البقججي أن المتصرف الجديد بدأ يستقبل الأرمن المهجرين ويقتلهم قرب ناحية الصور في مكان دعي لكثرة القتل فيه (مرقدة)، ونقل الخبر إلى صديقه شيخ فيضي الفواز.

وبعد سماع شيخ فيضي للخبر المؤلم، بدأ يسمح للأرمن بالهرب نحو بادية الشامية، وأدرك المتصرف المتعطش للدماء ما فعله شيخ فيضي فأرسل برقية إلى والي حلب في 7 أيلول 1916 يبلغه بتواطؤ مدير تهجير الرقة، فقبض على شيخ فيضي وقدم للمحكمة العسكرية بحلب، ولكن المحامي **لطيف غنيمة** وهو رجل سرياني من أهل أورفه (الرها) اتصل بالقنصل الأمركي المستر ج. ب. جاكسون للعمل لدى سلطات حلب لإخراج الشيخ فيضي من السجن ونجحت مساعيهم، جاء في أرشيف محفوظات القنصلية الأمركية بحلب، أنه منذ وصول صالح زكي بك متصرفاً على دير الزور، حدثت أعمال قتل وحشية (تطهير عرقي) لا يمكن للعقل البشري تصديقه، وأنه شخصياً أشرف على عمليات القتل في مرقدة، تعاونه عصابات من المجرمين الأتراك والشاشان والأكراد، أطلقهم من السجون وكلفهم بارتكاب المجازر، بينما قدم العرب الأصدقاء للأرمن المأوى لذلك العدد القليل من الناجين[28].

سأل محرر صحيفة (تصوير أفكار) الصحفي التركي أغويابك والي دير الزور صالح زكي بك «يقال إنكم قتلتم أو أنه تم بإشرافكم قتل عشرة آلاف ارمني؟ فتبسم

وأجاب بتواضع وخشوع: أيجب أن أشعر بالغبطة لذلك؟ لا يا سيدي لن أكون راضياً بعشرة آلاف، حاول أن تعطي رقماً أعلى»[29]. وفعلاً لقد غمط ذلك الصحفي حقه وهو القاتل لأكثر من ثلاثين ألفاً.

أما شيخ فيضي الفواز – رحمه الله – عين في العهد العربي مأموراً للتحريرات في مدينة الرقة وكان من وجهاء بلدة الرقة، وعاش طيلة حياته وهو مطمئن البال لاعتقاده أن كل من آذى الأرمن قطعه الله من الخلفة والذرية ويعدد أمثلة على ذلك.

جاء في كتاب صدق المجاز الذي صدر في بيروت في عام 1995: «أن المرحوم الشيخ فيضي بك الفواز (1888- 1973) كانت قد عهدت إليه عدة مسؤوليات حكومية وإدارية، وقد عرف عنه أنه حمى عدة عائلات أرمنية في منزله كانت بضيافته حتى زالت غمامة الموت عنهم. ومن هذه العائلات التي استوطنت في برج حمود في بيروت عائلة غازاريان غازاريان وبعضهم يسكنون في ساحة البرج والمعرض، وعندما جاء شيخ فيضي الفواز إلى بيروت في نيسان 1962م، استضافوه واحتفلوا به لأنه سبب نجاتهم وبقائهم عل وجه الأرض»[30].

وفي عام 1965 حضر إلى مدينة الرقة شابان من الأرمن يدعوانه لحضور المهرجان الخطابي للذكرى الخمسين لمأساة الأرمن الكبرى.

وممن علينا ذكرهم بالخير الحاكم العسكري لولاية دير الزور علي بك جواد، استقبل اللاجئين الأرمن، وأمن لهم السفر داخل البادية السورية، وعندما أرسل له طلعت باشا بإبادة الأرمن أجابه: «إن وسائل النقل غير كافية لترحيل الجماعات، أما إذا كان هدفكم قتلهم وإبادتهم، فإني لا أستطيع القيام بهذا الأمر». فعز له طلعت باشا وأرسل بدلاً منه الوالي صالح زكي (طوراني من بلدة طرابزون) وكان متعطشاً للدماء، فنفذ مهمته بطيب خاطر[31].

في تموز عام 1914 عقد أرمن تركيا مؤتمراً في مدينة أرضروم، وقرروا إذا قامت الحرب بين الروس والأتراك، سيتصرف الأرمن كرعايا مخلصين للدولة التي يعيشون تحت ظلها، بغض النظر عن أي اعتبار آخر. وأرسلت حكومة الاتحاد والترقي مندوبين إلى المؤتمر هما: ناجي بك، وشاكر ناجي، وطلبوا من المجتمعين تشكيل فرق فدائية أرمنية لقتال الروس، وإشعال الثورة في مؤخرة الجيش الروسي، في أرض القفقاس، وأنهم سيمنحون بعدها الاستقلال في الأراضي الأرمنية في روسيا وتركيا.

شكل الأرمن قوات في أرمينيا في المنطقة الخاضعة للحكم الروسي في تشرين أول عام 1917، وقامت ثورات في طرابزون وموش وديرزنكان وأرضروم ووان، قاتلوا الجيوش التركية لأنهم قتلوا الأرمن وهجروهم إلى سورية، وبعد قتال دام ثمانية أشهر

تراجعت القوات الأرمنية، تحت ضغط الفرق التركية الأربع، تراجعوا إلى الحدود الروسية القديمة، وراجعوا أسباب خسارتهم، واصدر الجنرال أرام مانوكيان بياناً للشعب الأرمني «إذا لم نثبت أننا أمة نذود عن حمى بلادنا، وندافع عن شرفنا وحريتنا، وسلامتنا بأيدينا، فإننا سنبرهن للعالم أجمع أننا أمة تستحق البقاء». واستطاعت القوات الأرمنية المنظمة دحر القوات التركية، وأعلن استقلال الجمهورية الأرمنية في 30 أيار 1918.

نقل الأرمن مقر المجلس الوطني من تفليس إلى يريفان العاصمة القديمة وأصدروا بياناً يدعون الأرمن المشردين إلى العودة إلى الوطن الأم، وبدأوا بترميم الطرق، وتنشيط الصناعة والتجارة والزراعة. وفي 31 أيار عام 1920 اقترح مجلس الحلفاء المنعقد في باريس إرسال وفد من قبل الرئيس الأمريكي ويلسون برئاسة لجنة كينغ كراين لفرض الانتداب على أرمينيا، وعقدت معاهدة سيفر التي تعترف باستقلال أرمينيا، على أن تكون حدود أرمينيا مرسومة بحيث تنطبق بشكل حقيقي على الشعب الأرمني، ويجب أن تعطى الجمهورية الأرمنية ممراً سهلاً إلى البحر الأسود خالياً من العقبات، ولكن هذه المعاهدة (معاهدة سيفر) ألغيت في 2 كانون أول 1920 بمعاهدة الكسندربول وتم الاتفاق على ما يلي:

1-تعترف روسيا باستقلال أرمينيا.

2-تتوسط روسيا لإنهاء الحرب التركية - الأرمنية.

3-تعطى روسيا حق المرور لقواتها عبر الأراضي الأرمنية.

4-قبول وساطة روسيا في حل الخلافات الأرمنية مع جاراتها.

وكانت هذه المعاهدة قد أنهت استقلال أرمينيا وجعلت الوصية عليها روسيا، مما أثار غضب الحكومة الأرمنية، وقامت الاضطرابات. وبتاريخ 18 شباط 1921 قامت لجنة الإنقاذ الوطني برئاسة سيمون فراتيان.

وبدأ الأرمن يحصون قتلاهم والمشردين منهم، وقوافل الموت التي عبرت الحدود إلى سورية والعراق ولبنان، وكانوا أكثر من مليون ونصف قتيل، وأصدر أدباء الأرمن منشوراً جاء فيه: «تقضي المروءة بأن نسجل للعرب عامة، وللسوريين خاصة، ما أظهروه من شهامة وعطف أيام محنتنا، لن ينساها الأرمن مدى الحياة، فقد آووا في بيوتهم الكثيرين من اليتامى والأرامل والمشردين إلى أن انقشعت الغمة، وإن الأرمن يقدمون للعرب، بدافع من ضمائرهم ما قدموه رغم فداحة المسؤولية التي عرضوا أنفسهم إليها»[32].

توزع الأرمن في سورية

كانت بداية تواجد الأرمن في سورية، على أثر استعادة عماد الدين الزنكي للرها عام 1146م، فهاجر كثير من الأرمن إلى حلب، وعندما حرر الظاهر بيبرس المدن الساحلية من الفرنجة عام 1267 هاجر كثير من الأرمن إلى دمشق، وبنوا دير مار سركيس في حي باب شرقي ثم جدد في زمن البطريرك غريغوريوس باروندير بطريرك القدس عام 1617م، ثم رمم الدير زمن البطريرك بوغوص الثالث عام 1768. جاء في لوحة كتبت على جدار الدير عام 1728: «لما كنت طفلاً، أخذني والدي من أرمينيا مع الزوار إلى القدس، فوصلنا حلب عام 1727 ثم تابعنا سيرنا، نحو دمشق فوجدنا 700 حاجاً، فاجتمعنا وشكلنا قافلة وقصدنا القدس، ولقد أعطانا الوالي إسماعيل باشا العظم جنوداً رافقونا إلى القدس».

بنى الأرمن الكاثوليك كنيسة لهم عام 1840م، وبنى الأرمن الأرثوذكس كنيسة السيدة عام 1850، وجددوا كنيسة الأربعين عام 1869 وكنيسة العذراء.

كان الأرمن يسكنون في أحياء مجمعة، ولا يتزوجون إلا من بعضهم لكي يحافظوا على وجودهم متميزين عن جوارهم، كان الأرمن من أتباع المذهب الأرثوذكسي (الأرمن القديم)، ثم اصبحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر ثلاث طوائف (أرمن قديم، وكاثوليك وبروتستنت) وكان التواصل بينهم معدوماً، حتى منتصف القرن العشرين.

زادت أفواج المهاجرين نحو سورية ولبنان بعد اضطرابات 1895- 1896 ومنذ ذلك الحين زادت الهجرة خصوصاً بعد الحرب العالمية الأولى (سفر برلك) عندما هربوا عبر البادية السورية من قوافل الموت.

وفي عام 1939 عندما انسلخت اسكندرونة وأنطاكية عن سورية، هاجر إلى سورية حوالي عشرة آلاف أرمني تحت إشراف عصبة الأمم، ووطنوا في بلدة عنجر على الحدود السورية اللبنانية.

جاء الأرمن إلى سورية وكانوا في بداية القرن حوالي ستين ألفاً، سكنوا في حلب ودمشق واللاذقية والجزيرة، وشكلوا جالية نشطة في مجال الصناعة، حتى صار يضرب فيهم المثل بالجد وحسن الصنعة، واندمجوا مع السكان، ولم يكن لهم إلا عيد الشهداء في 24 نيسان من كل عام يتميزون به، تخليداً لذكرى شهداء عام 1915، وللأرمن حرية الكلام والعقيدة، مما ساهم في اندماجهم بالمجتمع السوري.

تواجد الأرمن في حلب

تتوضع الطائفة الأرمنية، في الأحياء التالية: حي الميدان (بستان الباشا) حي شيبان، والشيخ مقصود، والجابرية والعزيزية، والجديدة. ثم توزعوا إلى الأحياء الحديثة، خصوصاً من وصلوا إلى حلب بين عامي 1931 - 1932، وكانوا حوالي 41

ألفاً، وصار يضرب بهم المثل وانخرطوا بالعمل السياسي، ودخلوا الأحزاب الوطنية العربية، بالإضافة إلى أحزابهم الخاصة، كحزب الهنشاك وهو حزب أرمني اشتراكي، ذو نزعة أممية، وحزب الطاشناق، وهو حزب أرمني ذو نزعة قومية، وفي مجال السياسة برز رجال وطنيون أمثال المحامي والنائب في البرلمان السيد عبد الله فتال والنائب لويس هندية، والدكتور طوروس طوراسيان، والسيد النائب ميخائيل ليان من حزب الشعب، وهناك شخصيات برزت على صعيد العمل المهني أمثال الدكتور أنطونيان والأديب ألبير شدروفيان وغيرهم.

وللأرمن في حلب حوالي 28 مدرسة ابتدائية وثانوية، ولهم مدارس في الأقضية التابعة لمحافظة حلب مثل عفرين وعين العرب، ولهم جمعيات خيرية وثقافية مثل جمعية كولبنكيان الخيرية، ومقرها الرئيسي في نيويورك، ولها فرع في سورية ولبنان ومصر. في سورية في مدينتي حلب ودمشق، ومن مهام هذه الجمعية مساعدة أبناء الأرمن المتفوقين وتقديم المنح الدراسية لهم، وهناك جمعية (باري كوزكان) لها فروع في حلب ودمشق واللاذقية وفي حلب جمعية ثقافية للفنون، وهناك أندية رياضية مثل نادي (الهومنتمن) لكرتي السلة والقدم وألعاب القوى، وهناك مؤسسات صحية مثل دار التوليد تابعة لمؤسسة كولبنكيان الخيرية تأسست عام 1935. ومأوى للعجزة في حي الميدان (بستان الباشا) تأسس عام 1953.

ومن الشخصيات البارزة في صناعة النسيج التابعة كاوغايان بارصوميان، وصناعة البرادات للصناعي جمجميان. وللأرمن مساهمات في الحدادة وتصليح الآلات الزراعية ومضخات المياه وتصنيع هياكل السيارات، وإصلاحها، وللأرمن في حلب مساهمات في نقابات المهن العلمية كالطب والمحاماة والهندسة وفي الأحزاب الوطنية السورية.

تواجد الأرمن في دمشق

تواجد الأرمن في دمشق قبل حلب حسب رأي الأستاذ وجيه الخيمي الذي ارخ للأرمن في سورية، ولكنهم أقل عدداً من الأرمن في حلب. وهم يسكنون في باب شرقي ومنطقة الزبلطاني والقدم والمزرعة والشعلان والخلبوني. ثم اخلطوا مع السكان في كافة الأحياء الدمشقية، ولهم في دمشق كنائس للمذاهب الدينية الثلاثة (الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت).

وللأرمن جمعيات ثقافية في دمشق منها جمعية الشبيبة للفنون بدمشق، والنادي السوري الرياضي لكرة السلة تأسس عام 1925، ولهم سبع مدارس ابتدائية وثانوية في باب توما.

ومن الشخصيات التي برزت على صعيد السياسة المحامي فريد أرسلانيان النائب في البرلمان السوري عام 1947، ونظيره النائب نظريت يعقوبيان والرجل الصناعي والسيد سركيس كيشيشيان المتخصص في صناعة العدسات والنظارات، والعقيد هرانت ماليوان قائد الدرك العام في عام 1945، واللواء في سلاح المدفعية كرمانوكيان، والعميد مارين من ضباط الجيش السوري المرموقين، الذين اشتركوا في حرب فلسطين، وقد استشهد كثير من الأرمن في ربوع فلسطين والجولان وأثناء التدريب وهم يؤدون خدمة العلم كالمهندس الكيميائي زافين قومجيان وكان من أهل حلب، وكان يؤدي خدمة العلم عام 1970.

وكانت للأرمن صحف خاصة باللغة الأرمنية مثل صحيفة سورية، وصحيفة الشروق من الشمال (هوسيس ايك) وصحيفة الفرات، واليوم لا وجود لهذه الصحف، لأن الأرمن أصبحوا كلهم يجيدون القراءة والكتابة باللغة العربية، ولم تبق لهم سوى مطبعة تطبع الكتب والتقاويم باللغة الأرمنية.

تواجد الأرمن في بقية المدن السورية

تجمع الأرمن في اللاذقية عام 1922، استعداداً للعودة إلى الوطن الأم، أرمينيا، وذهب بعضهم وبقي آخرون فاستقروا في اللاذقية وكسب واليعقوبية، وطرطوس ولهم مدارس وكنائس فيها. وفي مدن الجزيرة لا زال الأرمن يقيمون في القامشلي والمالكية (ديريك) والدرباسية وعامودة، والحسكة والرقة ودير الزور وتل أبيض ولهم في هذه المدن مدارس وكنائس ومحلات تجارية ومنشآت صناعية.

من شخصيات الأرمن الأدبية

الأب يوسف قوشاقجي (1914- 1995)

ولد في حلب في 9 نيسان 1914، من أسرة أرمنية كاثوليكية وتلقى دروسه في مدرسة القديس غريغوريوس للأرمن الكاثوليك، وأتقن اللغات العربية والفرنسية والأرمنية واللاتينية، وحصل على البكالوريا اللبنانية ودرس في لبنان الفلسفة والعلوم اللاهوتية.

ارتسم كاهناً في 9 كانون الثاني 1938، ودرس في مدارس حلب اللغة العربية وفي عام 1938 أصبح مديراً لمدرسة القديس غريغوريوس الابتدائية. انكب على التأليف والكتابة في مجلة الأبرشية وكان عميق الثقافة والاطلاع وترك عدة مؤلفات فكرية وأدبية باللغة العربية منها كتاب الأدب الشعبي الحلبي، وكتاب الأمثال الشعبية الحلبية،

وأمثال ماردين في مجلدين، وكتب مع الأب بولس يتيم كتاب أبطال الله حول الرهبان العموريين.

كرمته بلدية حلب لنشاطه العلمي والاجتماعي عام 1987، وتوفي في 25 كانون الثاني عام 1995م.

الصحفي والأديب عبد الله يوركي حلاق 1911- 1996

ولد في حلب في حي الهزازة في 13 حزيران 1911، ودرس اللغة العربية والأدب والتاريخ في مدرسة القديس غريغوريوس للأرمن الكاثوليك، وأتقن اللغة العربية والفرنسية وبدأ الكتابة في مجلة الكلمة، وأصدر في عام 1931 مجلة الضاد.

كان عبد الله شاعراً مطبوعاً، وكانت مجلته رابطة بين الوطن الأم والمهجر وانتسب إلى الحزب الوطني، وساهم في النضال الوطني، وأصبح عضواً في مجلس قيادة الحزب. وفي زمن الوحدة عام 1958 أصبح عضواً في الاتحاد القومي، ثم أصبح عضواً في اتحاد الصحفيين واتحاد الكتاب العرب.

كرمت الدولة الشاعر والأديب عبد الله يوركي حلاق بوسام الاستحقاق السوري عام 1995، ولم يتوقف عن قرض الشعر وكتابة المقالات رغم مرضه العضال. وكتب عدة كتب ودواوين شعر: ديوان خيوط الغمام، وحصاد الذكريات، وعصير الحرمان، وأسديات. ومن إنتاجه القصصي: الزفرات، في حمى الحرمان، المنذر ملك الحيرة. وفي الأدب: من أعلام القومية والأدب، وسفراء بدون تكليف، وقطاف الخمسين، وعشت مع هؤلاء، وشعراء في حياتهم الخاصة.

وله في التاريخ حوالي 30 مؤلفاً لم تنشر بعد. ولم ينشر له سوى كتابه الثورة السورية الكبرى في ربع قرن، وتوفي في عام 1996، واستلم تحرير المجلة ابنه الصحفي والأديب رياض حلاق.

الصحفي الأرمني أديب اسحق (1856- 1885)

ولد أديب اسحق في دمشق (باب شرقي) عام 1856 في أسرة أرمنية كاثوليكية الأصل، كان أديب اسحق طويل القامة جميل الوجه، بارز الأنف، عريض الجبهة، درس في مدارس دمشق وأتقن العربية والفرنسية، ثم انتقل إلى بيروت عام 1868، ودرس في كلية الحكمة المارونية، وتضلع بالعربية، ومارس الصحافة، وامتاز بلغة فصيحة وإنشاء رائع، جعله يرتقع بمستوى الإنشاء الصحفي، وعمل في مجلة ثمرات الفنون الأدبية، وجريدة التقدم، فكان قدوة المنشئين ثم صار كاتباً في ديوان المكس (الجمارك).

كان أديب اسحق حر التفكير، لا يعرف التعصب يكره الاستبداد، وكان متعدد المواهب، في الكتابة والشعر. هاجر إلى مصر 1876 وحضر دروس جمال الدين الأفغاني (1838- 1897) في الأزهر الشريف، في الفلسفة العقلية والمنطق، لازمه سنة وأخذ عنه كرهه للتعصب والاستبداد، ثم انتقل إلى الإسكندرية وعمل في المسرح مع سليم النقاش وعرّب له مسرحيتين هما:

رواية غرام، رواية أندروماك راسين (1639- 1697) مثلت على المسرح.

ورواية فكرية باسم شارلمان (742- 814) الملك الفرنسي الغشوم والمتعصب، وقد حاول الاستيلاء على إسبانيا ولكنه فشل في سرقسطة عام 732م.

قرض أديب اسحق الشعر في المديح والرثاء، مدح الإصلاح:

فـــي ســـما الأنـــس لدينـــا	قمـــــــر الإصـــــــلاح لاح
وبمـــــا أهـــــدي إلينـــــا	طـــائر الإفصـــاح صـــاح
قـــد نـــأى شـــر العنـــاء	وأذى الأتـــــــــــــراح راح
فســـــكرنا بالـــــهناء	إنمـــــا الأفـــــراح راح

كما نظم الموشحات الغنائية في بديع الشعر:

غـرد البلبـل فـي روض الحمـى	فـوق بـان تحـت جنـح الغلـس
عندمـا أقبـل معسـول اللمـى	يتثنـى فـي ريـاض السـندس

وفي سنة 1877 أنشأ جريدة مصر في القاهرة، فلاقت إقبالاً ورواجاً كاسحاً، لجمال أسلوبها اللغوي، ولأن أديب ارتبط بمصير الشعب المصري، ودافع عن حقوقه، واتخذ الإصلاح منهجاً. ثم أنشأ جريدة أسبوعية سماها التجارة يعاونه سليم النقاش. وكانت مواضيعها تدور حول الاقتصاد وطبيعة العمران، فلاقت إقبالاً من الشعب المصري والطبقات المتعلمة خصوصاً. ولكن السلطات ضايقته فهاجر إلى باريس عام 1880م.

أنشأ أديب اسحق جريدة القاهرة المصرية في باريس، وكتب عدة أعداد، ولكنه أصيب بالسل، وضايقه الألم فعاد إلى بيروت مصدوراً، وعندما انقلبت الوزارة المصرية عام 1881، وذهب خصومه عاد إلى مصر، وتولى ديوان الترجمة والإنشاء في وزارة المعارف، ثم عين كاتباً بمجلس النواب، وأهمل الاعتناء بصحته، والتزم بثورة أحمد عرابي عام 1882، ضد الإنكليز، واشتد عليه المرض ومضايقة عملاء الإنكليز، فعاد إلى بيروت، ينشد الراحة والاستجمام، فكثر حوله أحبابه وكتب المقالات وترجم

الرسائل الفلسفية وذاع صيته في الشرق كله، ولكنه توفي في 1 حزيران عام 1885، ودفن في قرية الحدث وشيع بجنازة كبيرة وألقى الشعراء القصائد والمراثي حول قبره، كما رثاه محبوه في مصر ودمشق وبيروت والقدس والعراق.

من رثاء الشيخ خليل اليازجي المقيم في بيروت:

أنت الأديب كما سميت وحبذا اسم عليك نراه قام دليلا
إذا تذكرنا حديثك فالطلى تسبي قلوباً للملا وعقولا

ورثاه من الإسكندرية الشيخ سليمان الحداد بقوله:

بكيت بعد البين أزمانا فاحدث الدمع في الأجفان أجفانا
على أديب له آدابه شهدت في كل فن فلا يحتاج بنيانا
قد كنت للعرب قساً في منابرها وللفصاحة فيما قلت حسانا
يدعى أديباً وهذا الوصف منتشر فكل من ذكر الآداب أبكانا

نماذج من أدبه

سأختار ثلاثة نصوص لأبين أسلوبه في الكتابة، وقد جمعت آثاره كلها في كتاب سمي (الدرر) طبع في بيروت في أواخر القرن التاسع عشر في حوالي 600 صفحة.

الاستبداد في الحرية

اقل ما في عصرنا من الغرائب الخارقة للعادات، والعجائب البعيدة عن المفهومات والتقاء المتعاكسين، فإن فيه الرياء في الإخلاص، والعسف في الاستقامة والجور في العدل. وأشد من جميع هذه علينا، أن نرى الاستبداد في الشورى والرق في الحرية ومن أنكر ذلك وزعم أنا نفتري على عصر النور، وأهله بما ندعي فلينظر إلى عالم السياسة، إلى استبداد الملوك من السلف في أزمنة الجهل والخشونة.

ولقد سوأ المؤرخون السلف من الملوك المستبدين، وأسرفوا في لومهم وأفاضوا في مؤاخذتهم، حتى إن بعضهم فضل زعيم لصوص على الإسكندر العظيم. وقالوا: إن نابليون الأول كان يتصرف في دم الفرنسيين وأموالهم، ويبذل منها ما يشاء بغير حساب. وإن الحرية غدت اسماً بلا مسمى عند القوم، وإن ذكرها في مجالسهم هو من قبيل اللفظ الساقط، وإن محامد هؤلاء السياسيين حماة الإنسانية، وأولياء الحرية وأنصار التمدن أكثر من أن تحصى وتعد. (الدرر ص42).

التعصب والتساهل

لقد جرى لفظ التعصب على ألسنة أهل الإنشاء بمعنى الغلو في الدين والرأي، إلى حد التحامل على من خالفهم بشيء فيما يعتقد وما يرى.

أما التساهل بمعنى الاعتدال في المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلو، وحد التعصب عند أهل الحكمة العصرية غلو المرء في اعتقاده، وحد التساهل عندهم رضى المرء باعتقاده واحترامه لرأي الغير، كائناً من كان، رجوعاً إلى معاملة الناس بما يريد أن يعاملوه، فهو على إثباته الصواب لما يراه. لا يقطع بلزوم الخاطئ في رأي سواه، ولا يمنع الناس من إظهار ما يعتقدون.

ولا أحاول استيعاب المفاسد والنوائب التي نشأت عن التعصب في الدين والرأي. ونجد مئات ألوف من نبهاء الخلق يبيتون في منازلهم ويؤخذون بالسيف، تقتيلاً لمجرد أنهم يفهمون من آي الكتاب المقدس خلاف ما يفهم غيرهم من الناس كما حل بالبروتستانت عام 1572م في بلاد الفرنسيين. (الدرر ص53).

حقوق المرأة

مهلاً سيدي الشيخ، لا تنظرن إليّ شزراً، فلست زير نساء يروم المطارحة أو المفاكهة أو الإغراء أو الإطراء، والتماس الزلفى إليهن بما يرضيهن ولا يرضيك. ويا أيها الأحزاب جميعاً إلى غير هازل، وإن هزل الزمان، وغير هاذر، وإن أفاد فيه الهذيان، فلا يحسبنني اللذان تناظرا في النساء، في منتدى المدرسة الكلية (يعني يعقوب صروف وإبراهيم الكفروني) في الرجل والمرأة، ثم رأيت في تلك الصحيفة (التقدم) رداً أتى فيه صاحبه في التثريب علي ما لم أستوجب منه شيئاً.

قلت أروم بيان حقوق المرأة أيماً وزوجاً، لم يدعني داع من جانب القلب ولكن هداني السبيل دليل من قبل الفكر. (كتاب الدرر ص297).

هجرة الأرمن إلى سورية (حلب)

وصل الأرمن إلى حلب هرباً من الإبادة الجماعية عام 1915، واستمرت الهجرة حتى عام 1924، وسكنوا الجابرية والحميدية في (براكات السريان) وكان المهاجرون خليطاً من الأرمن الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك، الذين كان المطران إبراهيم كوبلي مطراناً لهم منذ عام 1823 وانفصل عن سلطة الأرمن الأرثوذكس منذ عام 1830 واشترى أرضاً لعمارة كنيسة للطائفة، وساعده جرجي صقال فجمع من المحسنين الكاثوليك حوالي 800 ليرة ذهبية، وتوفي في 25 تموز 1832 بداء الهواء الأصفر واستلم من بعده:

المطران باسيليوس عيواظ (1838- 1860)

ولد في حلب 1784 من أسرة أرمنية كاثوليكية، وتلقى علومه الكهنوتية على يد المطران **إبراهيم كوبلي**، وأصبح كاهناً في الكنيسة الأرمنية في مصر في سنة 1802، وانتخبه أهل حلب مطراناً لهم في 4 شباط 1838 بدلاً من المرحوم المطران أبريهام كوبلي، وبنى كنيسة على اسم السيدة أم المعونات للطائفة بحلب عام 1840. وجرى فيها حريق على أثر قومة حلب 1850، وفي سنة 1854 جاء بعض أهل كسب إلى حلب واعتنقوا المذهب الكاثوليكي يتقدمهم **القس أرتين الكسبلي** ورسم المطران باسيليوس خمسة كهنة وأبرشيتين في ثماني سنوات. وتوفي في 21 كانون الأول عام 1860.

صار الأرمن الأرثوذكس أقلية بالنسبة للأرمن الكاثوليك، وكان عددهم حسب إحصاء سالنامه لعام 1901: عدد الأرمن الأرثوذكس 1652 نسمة، في مقابل 4113 أرمن كاثوليك. وبعد عام 1915 صار عدد الأرمن الأرثوذكس 27470 نسمة في مقابل ستة آلاف كاثوليكي، أي صاروا أكثر من كل الطوائف المسيحية.

وأشرف عليهم **المطران سوريمايان** من أهل خربوط ولد في عام 1889، ودرس في استنبول وحرر في بعض الصحف والمجلات الأرمنية، فهو رجل أديب وكاتب ورسم في استنبول في 17 تموز عام 1924، واصبح مطراناً للأرمن الأرثوذكس وساهم في إعادة نشر الثقافة الأرمنية باللغتين الفرنسية والتركية، وكان يتقن اللغة العربية، ألف في عام 1938 كتاباً عن مدينة دمشق نشر الجزء الأول منه مع تاريخ الأرمن في حلب عام 1940، ونشر الجزء الثاني 1946 والجزء الثالث 1950 وله دراسات تاريخية عن بداية الدولة العثمانية وعن الأمير أرطغرل المتوفى 1288م، وهو والد السلطان العثماني مؤسس الدولة، ودلت كتاباته على مقدرة بارعة في التاريخ الإسلامي. عاش المطران سورمايان في احترام وتقدير من جميع الطوائف وتوفي في باريس عام 1951م، ودفن في حلب.

وجاء **الأرمن الإنجيليون** من منطقة سيس عام 1846 إلى حلب، ثم تتابعوا في الهجرة بعد عام 1915، ونقلوا نشاطهم الديني والثقافي، وبرز منهم القسيس باركيف أبارتيان وانتشروا بين السريان، واستطاعوا أن يجذبوا إليهم بعضهم وصار راعي الكنيسة السريانية الإنجيلية والأرمنية القس **إبراهيم نصير** وشكلوا بدايات الكنيسة الوطنية.

لا يوجد للأرمن أية مطامع في سورية، فهم مواطنون مخلصون يقدمون كل ما يستطيعون تقديمه للوطن الذي أحبوه وأخلصوا له، فهم لا يشكلون أية مشكلة للشعب السوري.

مراجع: الأرمن في سورية وفي التاريخ

1) نشأة الأرمن وتاريخهم القديم، ص17، رفائيل اشخانيان، ترجمة هوري غزاريان، بيت كيليكية بيروت 1986.

2) أورارتو مملكة أرمنية ص9، مارغريت ريمشنايدر ترجمة وحيد خياطة دار سومر حلب 1993.

3) الأثنوس والتاريخ ص120، بودولني ترجمة طارق معصراني دار التقدم موسكو 1988.

4) الجديد حول الشرق القديم، ص556، ليفين بونغارد ترجمة جابر أبي جابر، موسكو 1988.

5) تاريخ سورية وفلسطين ج5، ص528، المطران يوسف الدبس، بيروت 1913.

6) ذخيرة الأذهان ج1، ص218، بطرس نصري الكلداني، مطبعة الدومنيكين، الموصل 1905.

7) التوحيد والتثليث ص142، محمد عبد الحميد الحمد دار الطليعة الجديدة دمشق 2003.

8) الأرمن عبر التاريخ ص79، مروان المدور منشورات دار نوبل دمشق 1980.

9) وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، ص209، محمد عبد الحميد الحمد، دمشق 1981.

10) الجاليات الأرمنية في البلاد العربية ص28، هوري غزاريان دار الحوار اللاذقية 1993.

11) الأرمن عبر التاريخ، ص216.

12) دائرة المعارف الإسلامية، ج12، ص468، القاهرة 1937.

13) تقويم البلدان لأبي الفداء ص46، نشر دي خويه باريس 1840.

14) تاريخ مختصر الدول ص263، ابن العبري دار المسيرة بيروت 1986.

15) تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) ج3، ص347، موريس كروازيه، دار عويدات بيروت 1965.

16)الأرمن عبر التاريخ ص348.

17)المصدر السابق ص493.

18)الرها المدينة المباركة ص301، جورج سيغال ترجمة يوسف إبراهيم جبرا دار الرها حلب 1988.

19)المصدر السابق ص306.

20)المصدر السابق ص316.

21)رحلة الأب فيسنسو الإيطالي، مجلة مجمع اللغة السريانية مج1 ص188، مطبعة المعارف بغداد 1975.

22)القضية الأرمنية والقانون الدولي ص41، شاوارس طوريكيان، ترجمة خالد الجبيلي دار الحوار اللاذقية 1992.

23)الجانب المخفي للثورة التركية، ج1، ص83، مولانا زاده رفعت، مطبعة الوقت، حلب 1929.

24)القضية الأرمنية ص49.

25)مذكرات نعيم بك ص7، نشر آرام أنضونيان، بيروت 1920.

26)قتل أمة، ص81، أرنولد توينبي لندن 1916 (عن الإنكليزية).

27)القضية الأرمنية، ص43.

28)محفوظات القنصلية الأمريكية في حلب، مجموعة التقارير السرية، رقم 373، تاريخ 4 آذار 1917. (بالإنكليزية).

29)القضية الأرمنية ص62.

30)صدق المجاز في حقيقة آل فواز، ص122، يوسف سعيد فواز، مؤسسة الرحاب بيروت 1995.

31)الأرمن عبر التاريخ، ص408.

32)المصدر السابق ص409.

الباب السادس

شعوب هاجرت أو اندمجت

الفصل الأول: اليهود والسامرة

الفصل الثاني: قبائل الصليب

الفصل الثالث: قبائل الغجر

الفصل الأول: اليهود والسامرة

- اليهود (العقيدة والطقوس)
- التوراة والتلمود
- اليهود في بلاد الشام
- أهم شخصيات اليهود
- هجرة اليهود إلى فلسطين

اليهود والسامرة: (العقيدة والطقوس)

اليهود هم العبرانيون، وهم جزء من تشكيلة الشعوب التي سكنت الهلال الخصيب، يشتركون مع الآراميين والعرب في التاريخ واللغة والتراث الديني. واليهود يقولون عن أنفسهم أنهم والعرب أبناء إبراهيم الخليل ولكنهم يفترقون بالأمهات. فالإسرائيليون هم أبناء سارة زوجة إبراهيم الأولى والإسماعيليون هم أبناء هاجر الجارية، لذا يطلقون على العرب اسم (سارة قينوس) أي عبيد سارة.

وصار الإسرائيليون يعرفون بأنهم أبناء الأسباط العشرة الذين سكنوا المملكة الشمالية التي عاصمتها (شكيم). بينما سكن أبناء يهوذا وبنيامين وهما من أبناء يعقوب، سكنوا في أورشليم.

كانت العلاقة بين مملكتي يهوذا وإسرائيل، علاقة عداوة وصراع، بينما لم تكن علاقتهم سيئة بالآراميين والعرب (أبناء إسماعيل). وعندما احتل الآشوريون أرض إسرائيل جلبوا إليها جالية آشورية وآرامية من بابل ومن آرام حماه ومع مرور السنين امتزج الشعبان ونتج شعب السامرة.

صار اليهود يميزون أنفسهم عن السامرة في اللباس والعبادة، وصار أبناء يهوذا (معناه حمد) وهو رابع أبناء يعقوب، وتوسعت مملكة يهوذا الذين صاروا يعرفون باليهود العبرانيين.

يعتقد اليهود والسامرة، أن الله كلَّم موسى على جبل الطور وأعطاه الشريعة مكتوبة على ألواح حجرية، سموها (بالتوراة) Torah وهي كلمة عبرانية تعني الهداية والإرشاد، وسلم موسى التوراة إلى اللاويين وأمرهم بقراءتها بعد سبع سنوات في عيد المظال، ثم دوَّن اليهود التوراة على أوراق البردي، وحفظوها في صندوق خشبي (تابوت العهد) ولكن الفلسطينيين استولوا عليه وضاع كل أثر للتوراة.

فماذا فعل اليهود بعد ذلك؟

يذكر اليهود أن النبي عزرا بعد عودته من السبي حوالي عام 444 ق.م، عثر على نسخ التوراة وأعاد كتابتها من جديد، بإلهام إلهي. لهذا يقولون عن عزرا رجل الله. وعندما سمع الملك بطليموس فيلادلفيوس (285- 247 ق.م) بالتوراة طلبها وترجمها

في الإسكندرية، وتمت الترجمة إلى اللغة اليونانية وسميت بالترجمة السبعينية، ثم ترجمت إلى السريانية وإلى القبطية والعربية عام 718م. وجوهر العقيدة اليهودية يتلخص بالوصايا العشر، وهي:

1) أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، ولا تكن آلهة أخرى أمامي.

2) لا تصنع لي تمثالاً منحوتاً ولا صورة، وأنا الرب إلهك إله غيور.

3) لا تنطق باسمي، أنا الرب إلهك باطلاً.

4) اذكر يوم السبت وقدسه، ولا تصنع فيه عملاً داخل أبوابك لأنه يوم استراحة الرب.

5) أكرم أباك وأمك.

6) لا تقتل. 7) ولا تزن. 8) ولا تسرق. 9) ولا تشهد على قريبك شهادة زور. 10) لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا ثوره وحماره، ولا شيئاً مما لقريبك[1].

وصار الكهنة والقائمون على الدين من أولاد هارون يقيمون أمر الصلاة والقربان ويشترطون أن يكون الكوهن أعظم رتبة في الدين وهو الذي يحل أمورهم بدلاً من الحكام الدنيويين[2].

وانقسم اليهود إلى فئتين: اليهود والسامرة

أولاً: اليهود:

يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم الخليل من نسل يعقوب، وتقوم ديانتهم على عبادة الإله الواحد القدوس، خالق كل شيء والعارف بكل شيء، والحاضر في كل مكان، والقادر على كل شيء، والأزلي الرؤوف الحكيم. وهم ينهون عن اتخاذ التماثيل والصور في هياكلهم ولغتهم العبرية لا يستخدمونها في الطقوس إلا مقرونة بالآرامية. وينقسم اليهود إلى طائفتين هما:

1) **اليهود الربانيون:** يعتمدون على تعاليم التلمود أولاً.

2) **اليهود القرائين:** وهم الحاخامات الذين يتبعون تعاليم التوراة وينكرون تعاليم التلمود، وقد ظهرت هذه الطائفة في بغداد على يد الرابي سعديا ابن يعقوب الفيومي.

ثانياً: السامرة

جاءت تسميتهم من اسم (شامر) أي الحارس، وذلك أن الملك عمري بن آخاب (876- 842 ق.م) ملك إسرائيل استولى على شكيم وجعلها محصنة ومحل مراقبة. ولكن الملك الاشوري اسرحدون (680- 677 ق.م) تغلب على مملكة إسرائيل عام

677 ق.م، وأسكن فيها جالية آشورية من بابل وآرامية من آرام حماه. ومن اختلاطهما جاء الشعب السامري.

وفي سنة 128 ق.م، استولى يوحنا هركانوس على شكيم وجرزيم (نابلس) وهدم هيكل السامريين، وصاروا بلا هيكل إلا أنهم استمروا يقدمون قرابينهم على الجبل في مكان هيكلهم القديم، والسامرة لا يعترفون إلا بالتوراة ولديهم نسخة قديمة كتبت عام 656م، وهي تختلف عن التوراة اليهودية بمواضع عديدة، يعيدها العلماء إلى أخطاء النساخ[3].

التلمود

كلمة عبرانية تعني التعليم، ويعتبر التلمود هو كتاب السنة في الشريعة الموسوية وخصوصاً عن اليهود الربانيين، ويتضمن الوصايا والقرابين والأحكام المدنية والدينية، وقد كتب في بابل باللغة الآرامية. ويدعى الربانيون أن الله أوصى الأمورا يم (المفسرون) بكتابة وقراءة التلمود، وكتب الرابي آشي عام 529م كتاب التلمود الأورشمي.

يقسم التلمود إلى قسمين:

أولاً: المشنا (مجموعة النصوص) وتقسم المشنا إلى ستة فصول:

-البذور: وفيه أحكام الزراعة المسبوقة بقواعد العبادة والأعياد الفصلية.

-العقوبات: ويشتمل على التشريعات المدنية والجزائية والإدارية.

-الأمور المقدسة: وفيها بحث القرابين والتضحيات وأمور الهيكل المقدس.

-الطهارة: وهو بحث في الطهارة والنجاسة والحلال والحرام.

-النساء: ذكرت فيه قوانين الزواج والطلاق، والنذور والوصايا.

-التعويض: الضرر والتعويض والمسؤولية، الأملاك المنقولة وغير المنقولة، وعقاب شهادة الزور والتجارة مع الوثنيين.

ثانياً: الجمارا: وهو مجموعة الشروح والحواشي التي تفسر وتبسط قواعد المشنا ويتضمن قصص وحكايات ومسائل افتراضية يعالجها رجال الدين، ومن تلك القصص، الطعن في بتولية العذراء، واتهامها بأنها حملت سفاحاً من جندي روماني يدعى بنداره. هذه القصة البذيئة جلبت لليهود المصاعب لذلك اجتمع اليهود الربانيون في بولونيا عام 1631 وحذفوها.

ولليهود الربانيين اعتقاد بأن من يدرس التلمود ويحفظه عن ظهر قلب، يستحق المكافأة من الله في اليوم الآخر، وأن الله لا عمل له في الليل إلا دراسة التلمود مع

الملائكة، ليعبر عن ندمه لأنه سمح بهدم الهيكل في بيت المقدس عام 70م، على يد القائد الروماني تيتوس، وينصح التلمود اليهود الربانيين بالابتعاد عن السياسة[4]. ولكن قصص وأساطير التلمود جلبت العداء بين المسيحية واليهود الذين ينزهون الله عن التثليث، ويستخدمون الصور والتماثيل في الكنائس، ويعتبرون مريم البتول أم المسيح وليست (أم الله) ويقدسون يوم السبت، وتقوم شريعة موسى على العين بالعين. والسن بالسن، وتقوم شريعة العهد الجديد على المحبة.

ولليهود عادات وتقاليد حسنة، فمن آدابهم احترام الشيوخ والقيام لهم، والعطف على الفقير الذي يسمح له بدخول الكرم والأكل منه حتى الشبع، وعند جني الزيتون يترك المالك ربع محصوله على الشجرة للفقراء والمحتاجين، وعندما يحصد اليهودي حقله يرخي خنصره ليترك بعض السنابل تتناثر خلفه لتجمعها الأرملة واليتيم.

أعياد اليهود

العيد من مظاهر الحضارة، ولكل أمة أعيادها، التي كانت في الأصل ترتبط بالعمل وتقاليده، وتضاف إليها رقى وعبارات مقدسة، تقال في المعبد، وليس هذا مرتبط باليهود وحدهم بل يشمل هذا الأمر كل الأمم.

عيد يوم السبت

لا يعمل اليهودي فيه شيئاً، وتعد النساء الطعام، وتوقد الفوانيس من ظهر يوم الجمعة، وفي يوم السبت يمتنعون عن إضرام النار في الموقد، ويلبسون الثياب النظيفة، ويتفرغون لتلاوة الكتاب المقدس، ويتركون للخادمات تسخين الطعام.

عيد راس السنة العبرية (حاسا)

يقع هذا العيد في أول شهر تشرين (يوافق 2 أيلول) واليهود الربانيون يحتفلون به في الكنيس بنفخ الصور (البوقا) المصنوع من قرن الكبش.

عيد الغفران (كيبور)

يقع هذا العيد في 29 تشري، ومدته خمسة وعشرين ساعة، منذ غياب الشمس في اليوم الثاني من 30 أيلول (شرقي)،وفيه يمتنعون عن العمل ويذهبون للكنيس ويلبسون الثياب الجديدة، ويأكلون الحلوى.

عيد المظال

يقع في أيام الأظلة ويبدأ من 15 تشرين الأول ويستمر سبعة أيام، يأكلون فيه الحلوى المجففة (التين والزبيب) والحلوى المصنوعة من اليقطين.

عيد الفصح (عيد الفطير)

يبدأ هذا العيد في 15 نيسان (شرقي) ويحتفل فيه الربانيون ثمانية أيام، بينما يحتفل به السامرة ستة أيام، ينظف فيه اليهود بيوتهم، ولا يأكلون إلا الفطير، ويبدأ هذا العيد لدى الربانيين (يوم الإثنين أو الأربعاء أو الجمعة) وهو موسم التضحية والحج إلى بيت المقدس، والوقوف أمام حائط المبكى الذي يعتبرونه أنه جزء من الهيكل الذي بناه هيرودوس الآدومي، وهدمه القائد الروماني تيتوس عام 70م، ويقدمون القرابين على الصخرة المقدسة.

بينما يحج السامرة إلى جبل جرزيم (نابلس) ويضحون على صخرة هي مكان هيكلهم المهدم عام 128 ق.م، وينحرون سبعة كباش سالمة من كل عيب، ولا يفترون عن الصلاة والترنم دون بكاء.

عيد العنصرة (شبعوت)

ويسمى هذا العيد أيضاً عيد عشرتا وموعده في 6 من شهر سيوان (أيار) ولا يكون هذا العيد إلا يوم الثلاثاء أو الخميس أو السبت، ويصلون في معابدهم ويلبسون الجديد ويأكلون الحلوى.

عيد الفوز (البوريم)

يبدأ هذا العيد في 13 آذار، وهو بداية صوم استير ويستمر حتى 15 آذار. ويحتفلون به كبقية الأعياد يصلون في معابدهم ويقرأون نصوصاً من التوراة.

عيد التنظيف (الحانوكة)

يبدأ من ليلة 25 من شهر كسليف ويقع في 12 كانون أول شرقي (25 كانون أول) تعزل فيه البيوت، وتنظف استعداداً لفصل الشتاء، ويصادف هذا العيد مع عيد الميلاد.

الموت والدفن عند اليهود

الموت ظاهرة إنسانية، أثارت اهتمام الإنسان الأول، والدفن ظاهرة ثقافية، تدل على الإيمان بالله واليوم الآخر، وأقدم النصوص التي أرخت للدفن، القصة التي وردت في الكتاب المقدس (التوراة) عندما قتل قابيل أخاه هابيل، واحتار ما يفعل بجثته، وإذا بغراب قتل مثيله ودفنه في التراب، فتعلم قابيل الدفن، وكانت بعض الشعوب تأكل لحم الميت، وبعضهم يترك جثة الميت للطيور الجارحة كما يفعل المجوس، ومن الشعوب من يحرق جثة الميت، ويذر الرماد في النهر، كما هي عادة الهندوس.

وعادة الدفن عند اليهود هي العادة التي أخذها العرب منهم، حيث يغسلون الميت ويلفونه بالكفن الأبيض، ثم يحملونه للدفن، وفي الطريق كل من يرى الجنازة من اليهود يمشي خلفها بضع خطوات ويطلب له الرحمة، ثم يصلون عليه في المقبرة.

تقع مقبرة اليهود بدمشق في منطقة الشاغور البراني، وقبورهم تتجه من الشمال نحو الجنوب ويكتبون على شاهدة القبر بالعبرية أو العربية، اسم الميت وتاريخ وفاته وشعارهم النجمة السداسية أو صورة شمعدان الحكمة السباعي.

الختان والزواج

يعتبر اليهود عادة الختان هي رباط العهد بين اليهودي والإله يهوه ويحصل ختان الطفل في اليوم الثامن من ولادته، ويتم الختان بحضن عراب من بيت هارون.

ولليهود عادات وطقوس في الزواج، تشبه عادات الوسط الذي يعيشون فيه، والزواج لا بد فيه من خطبة يتم فيها القبول والإشهار، ثم يعقد الحاخام صك الزواج (شيطارا) وتحدد فيه الشروط الخاصة والمهر. ثم تقام حفلة العرس التي تستمر ثلاثة أيام وتسمى (قدس) ويقيمون حفلة رقص تختلط فيها النساء بالرجال، ويغني المطربون، ويعزفون ويرقصون، حول العريس والعروس الجالسان على دكة من الخشب، وتقدم للحاخام زجاجة من الخمر فيباركها بدعاء من اللغة العبرية، ويشرب جرعة ثم تدار كؤوس الخمر للحاضرين، ويتجنب العريس عروسه لمدة خمسة عشر يوماً. ثم تقام وليمة العرس ويحضرها الحاخام الأكبر والمدعوون من يهود وغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى.

والطلاق جائز عند اليهود، ولكن لا يحق للزوج أن يطلق إلا في حالة المرض والعقم أو الزنا، ولا يحق لليهودي أن يجمع امرأتين في عصمته.

العرب واليهود في التاريخ

يعتبر اليهود أنفسهم أبناء عمومة العرب، فكلاهما من أبناء إبراهيم الخليل، وانتشر الدين اليهودي في الجزيرة العربية، إما أنه جاء مع التجار وبشروا العرب الذين آمنوا بديانة موسى يقول الحاخام يحيى ابن اسحق من يهود اليمن: «أتى الدين اليهودي من أرض كنعان، مع المبشرين قبل تشتيت شملهم، من القدس، جاؤوا إلى اليمن على الطريق الشرقية في البر، وكل يهود اليمن عرب ولا يوجد عندنا يهود غرباء، ولا صهيونيون والمبشرون الذين جاؤوا مع التجارة قفلوا راجعين من حيث أتوا»[5]. أما الحاخام الأكبر ليهود اليمن يحيى بن سعيد الجريدي المقيم في ذمار باليمن فقال: «إن اليهود أتوا إلى اليمن بعد خراب الهيكل (عام 70م) ونزلوا في مكان يقال له (برش) واقع شرق جبل نقم المحيط بصنعاء من جهة الشرق»[6].

يعتبر ابن خلدون أن اليهودية كانت فاشية بين عرب اليمن وقبائلهم الحميرية، وكان منهم الملك ذو نواس الذي أحرق المسيحيين في مدينة نجران وسماه القرآن الكريم باسم (صاحب الأخدود) ومن اليهود العرب السموأل الذي يضرب به المثل في الوفاء.

عندما هاجر الرسول الكريم سنة 622م إلى يثرب، كانت الديانة السائدة هي الديانة اليهودية، وتحالف الرسول (ص) معهم، ولكنهم نقضوا العهد فحاربهم الرسول واحتل كل قلاعهم مثل (خيبر وفدك). وعندما فتح العرب أرض الشام عام 639م صار اليهود يتراسلون مع الرومان، فهجرهم الخليفة عمر بن الخطاب من الجزيرة العربية، فذهب بعضهم إلى عُمان والبعض الآخر إلى دمشق وبلاد الشام.

حارات اليهود والسامرة

يتجمع اليهود في حارة يختصون بها (جيتو) في كل بلد يسكنونه، وتجمعوا في دمشق في حي يعرف (بحارة اليهود) بين باب توما سكنته الطائفة الربانية، ومحلة الزيتون قرب باب كيسان سكنته طائفة القرائين، أما السامرة فقد سكنوا في حي العنابة بالقرب من برج الروس حالياً، ويعرف حيهم بدرب السامري. وقبل الإسلام كانوا يسكنون في منطقة جوبر.

كانت أحياء اليهود ذات نسيج معماري خاص بهم، ولكل حي باب يغلق منذ المساء، ولكل حي شيخ يتولى أموره، ويعين الحراس والسقايين. وكانت كنائسهم في أحيائهم، ما عدا كنيسهم الأكبر الموجود في جوبر الذي يعتقدون أن النبي الياس بناه عند اضطهاد إيزابيل له، وقد لجأ إلى هذا المكان في عام 43 للخليقة (التاريخ العبري). وهذا الكنيس فخم البناء له ثلاثة قناديل كبيرة تضاء بالزيت، وفيه تقام الأعياد التي يقيمها لهم الحاخام الأكبر[7].

يصف لنا المؤرخ ابن كثير (700- 776م) حارة اليهود بقوله: «إنه في منتصف رمضان من سنة 765هـ/ 1364 فتح باب كيسان، وكان قديماً كنيسة، وثم حول إلى مسجد، وسيق إليه الماء من القنوات، وسموه بالباب القبلي، ووضع عليه جسر، وصار طريق سالكه، وزاد عرضه عن عشرة أذرع، لأجل عمل الباسورة (مصاريف المياه) على جنبه، ودخلت المارة عليه من مشاة وراكبين وانكشف داخل الحي، وبذلك أمن الناس من غش اليهود ومكرهم وانفرج الناس بعد هذا العمل المبارك»[8].

كان اليهود يتميزون عن المسلمين والمسيحيين بلبس الغيار، في سنة 700هـ/ 1301م، جاء كتاب سلطاني، من مصر بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية، وهي

شروط لا تليق بمعاملة المواطن، وقرأ القاضي زين الدين الفارقي الكتاب وقد نودي في البلد بإلزام النصارى بالعمائم الزرق واليهود بالصفر والسامرة بالحمر، على ألا تزيد عمامة أحدهم على عشرة أذرع، ولا يركبون الخيل والبغال ولكن الحمير عرضاً، وألا يدخلوا الحمامات إلا بعلامات، وكان اليهود يضعون بأعناقهم جرساً صغيراً أو خاتماً من نحاس أصفر. وكذلك لا تدخل نساءهم حمامات المسلمين وليكن لنسائهم حمامات خاصة، وأن يكون إزار النصرانية أزرق، واليهودية أصفر، وأن تضع اليهودية في رجلها اليمنى خفاً أسود واليسرى خفاً أبيض، وأن تكون أحكام على الأحكام الشرعية، فحصل بذلك للمسلمين خير كثير[9]. إنه اضطهاد لأصحاب الديانات الأخرى في أيام ابن تيمية.

كانت هذه المعاملة في عصر شحن بالتعصب أما قبل ذلك فكان اليهود والمسيحيين يعيشون في حرية. كتب المؤرخ اليهودي جريتز: «أحسن العرب والمسلمون بحسن معاملتهم وإنسانيتهم إلى اليهود»[10]. والدليل على ذلك ما سأذكره عن سيرتي طبيبين أحدهما يهودي والآخر سامري والقطرة تعكس ماء البحر كله.

الحكيم عمران الإسرائيلي

ولد عمران بن يحيى في دمشق سنة 561هـ/ 1166م، ودرس في مدارس اليهود البسيطة الأثاث والغنية بعلوم الأوائل اللغتين العربية والعبرية، ومبادئ الطب على والده، ثم انتقل إلى دراسة الطب في البيمارستان النوري على الشيخ الطبيب رضي الدين الرحبي، وحصّل من كتب الطب ما لا يكاد يوجد عند غيره، و صار من أكابر الأطباء، ونال رضى السلاطين، وقد اختصه الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وطلبه للصحبة فلم يرض، واستدعاه الملك الناصر داود بن الملك المعظم من دمشق إلى الكرك لمداواته، وعالجه وشفاه ووهب له المال الكثير وهو مقيم في دمشق يعالج الفقراء والأكابر ونال منهم الأموال الجسيمة، أما الفقراء فكان يعالجهم في البيمارستان الكبير مجاناً ويهيئ لهم العلاج والطعام. يقول عنه ابن أبي أصيبعة (598- 668هـ): «رأيت من صفاته في العلاج أنه أتى إلى البيمارستان رجل مفلوج، والأطباء ألحوا عليه باستخدام المغالي. أما الحكيم عمران فقد فصده وعالجه، وصلح وبرأ برأ تاماً. وقد رأيته قد عالج أمراضاً كثيرة مزمنة، وكان أصحابها قد سئموا الحياة، ويئس الأطباء من برئهم، فبرئوا على يدي الحكيم عمران بأدوية غريبة، يصفها لهم ومعالجات بديعة عرفها من والده. وتوفي الحكيم عمران في مدينة حمص سنة 637هـ/ 1240م، وكان صاحبها قد استدعاه لمداواته[11].

الحكيم الموفق يعقوب السامري

ولد يعقوب في نابلس موطن السامرة عام (545هـ/ 1151م) ودرس العربية والسريانية وعلوم الفلك والفلسفة، ثم انتقل إلى القدس ودرس على الطبيب الشيخ أبي منصور النصراني كتب أبقراط وجالينوس وأبي بكر الرازي وابن سينا، وباشر معه صناعة الطب، في عام (600هـ/ 1204م)، وسكن في حي السامرة. وصار طبيباً حاذقاً مصيباً في علاجه، مستحضراً للشروح، وكان ضنيناً بما يحسنه، ويشارط من قصده للدراسة من سائر البلاد للاستفادة، أي كتاب أراد قراءته، دراهم معدودة، يقول ابن العبري «وهذه خساسة مباينة للأنفس الفاضلة»[12].

ويذكر ابن أصيبعة عن شهرته في التدريس وعن سمعته في المعالجة ما يلي: «وكنت أقرأ عليه في أول اشتغالي بصناعة الطب، ونحن في المعسكر المعظمي، شيئاً من كلام أبقراط حفظاً واستشراحاً، وكان يذكر خلاصة ما ذكره وحاصل ما قاله، حتى لا يبقى في كلام أبقراط موضع إلا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة، وكان يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي عند دار السلطان ويتباهيان بأشياء في الطب، وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينة، وأبين قولاً، وأوسع نقلاً وأما معالجاته فكانت في الغاية من الجودة، وكان الملك المعظم عيسى بن أبي بكر أيوب يشكر منه هذه الحالة، ويصفه بشدة الاستقصاء. وصل الحكيم يعقوب إلى الشيخوخة وتوفي بدمشق في عيد فصح النصارى وذلك في شهر ربيع الآخر 625هـ/ الموافق 29 نيسان 1228م»[13].

أما في العصر المملوكي، عندما انحسر الخطران المغولي والصليبي، شعر المسلمون بعزتهم، وزادوا استمساكاً بدينهم، ولكن تلك الغيرة الدينية أدت إلى التعصب وإلغاء الآخر، ونال أهل الذمة الأذى والامتهان. وفقدوا الحرية والاطمئنان في العهد المملوكي.

وفي سنة 1492 سقطت الأندلس، وطرد المسلمون واليهود، واضطروا إلى الفرار إلى المغرب ثم إلى المشرق، إلى بلاد الشام وتركيا، وقامت محاكم التفتيش 1504م، وجاء اليهود إلى بلاد الشام لأنهم يتكلمون العربية، وأطلق عليهم اسم السفارديم وشكلوا في دمشق مجتمعاً لليهود الشرقيين، وسهل اختلاطهم باليهود الأصليين أبناء البلاد، ولم يشعروا بالغربة، بل شعروا بالحرية والاطمئنان رغم التعصب العثماني. يقول المفكر اليهودي الروسي د. سمولنسكين (1842- 1885): «نحن شعب، لأننا نعتبر أنفسنا بالروح والفكر مرتبطين مع بعضنا بروابط الأخوة»[14].

كان الأتراك يلزمون اليهود وأهل الذمة بألبسة خاصة وألزمهم الصدر الأعظم بارتداء قبعات زرقاء على أن يبقى الشاش أحمر، وكانت قبعات اليهود هي الأصغر، وقبعات المسلمين هي الأكبر، وصار الحاخام يلبس جبة جوخ ويضع زنار حرير، وشال

كمخة ويلبس فرو سمور، وشروال جوخ، وثوب أغباني وطاقية قصب. أما زي المرأة اليهودية لا يختلف عن نساء المسلمين والمسيحيين إلا أن تترك أحد ذراعيها خارج إزارها.

وفي بداية القرن التاسع عشر جاءت موجة يهودية جديدة من أوروبا الشرقية، ولكن يتكلمون لغة البيديش، وقد أطلق عليهم اسم اليهود الأشكنازيون[15].

وصار الأطباء اليهود هم الأكثر نسبياً، لأن تلك المهنة كانت وراثية يتناقلها اليهود جيلاً عن جيل، واشتهر منهم بعض الأطباء مثل **المعلم يوسف اليهودي** (المتوفى 1638) **والطبيب سعد بن حمرة اليهودي** (1680- 1740) والطبيب المعلم هدايا (المتوفى 1796) **والطبيب عبد الحكيم اليهودي** (المتوفى 1787)[16]. ودخلت مبادئ الثورة الفرنسية على شكل مبادئ دينية مع الفكر الماسوني Free Mason، الدين لله والوطن للجميع، والإله هو مهندس الكون الأعظم ومدبر شؤونه.

يهود سورية في العصر الحديث

على أن قيام الثورة الفرنسية الكبرى عام 1789، وتحطم سلطة الكنيسة، ارتفعت شعارات (الحرية والعدالة والمساواة) وظهر البرلمان وتعالت مبادئ الديمقراطية وأصبحت السلطة مستمدة من الشعب. وقام نابليون بغزو مصر عام 1799، فلقي مقاومة من الشعب المصري ولكنه نقل إليهم المطبعة، وحاصر عكا، واهتزت أركان الدولة العثمانية، وخاطب نابليون يهود فلسطين طالباً منهم تأييده في مقابل إعادة أرض الميعاد إليهم.

أحدث العثمانيون ديواناً للجوالي، وحسنوا معاملتهم لأهل الذمة واعتبروا اليهود الملة الثانية، وقام القناصل يتدخلون بشؤون البلاد، وقد قدر بيكنجهام عدد سكان دمشق عام 1816 بحوالي 100 ألف نسمة، منهم 15 ألف نسمة من اليهود في دمشق و7 آلاف في حلب. وعاملوا السامرة على أنهم فرقة يهودية.

ومن معاملات المحكمة الشرعية، تبين لنا تساوي الطوائف في القضاء، فالوقف اليهودي يعامل كالوقف الإسلامي، كان المشرف على كنيس جوبر **بشه بن يوسف ارازي اليهودي** (1770- 1802) وكانت مهمته مقتصرة على الإيجار والتعمير والترميم والقبض والصرف، ولما توفي اختار اليهود من بعده **يعقوب بن اسحق** وثبت بموجب قرار من قاضي قضاة دمشق، وكان لكنيس جوبر وقفاً في أرض الغوطة يعمل فيه الحاج **أمين برنايا وعلى ذياب ومصطفى بن عبيد** من أهالي جوبر، وعندما أراد القراؤون بيعه، وبيع أرض لهم في حي الزيتون سنة 1832 إلى المسيحيين الروم

الكاثوليك اعترض عليهم محمد أمين عابدين أمين الفتوى الحنفي، لأن ذلك غير جائز[17].

انتخبت الطائفة اليهودية فرج بن موسى شيخاً لحارتهم عام 1802، وصار يتولى شؤونهم أمام السلطات المدنية. وفي عام 1855 قدر الرحالة بورتر عدد سكان دمشق بـ 150 ألف نسمة. وعدد اليهود بـ 4600 نسمة.

والسؤال لماذا هذا التناقض في عدد اليهود؟

صار اليهود يسجلون أنفسهم من رعايا الدول الأجنبية، ليحصلوا على الحماية، ويتخلصوا من دفع الجزية، ولذلك لا يحسبون في التعداد العام.

عندما دخلت قوات إبراهيم باشا المصري إلى بلاد الشام (1832- 1840) فتحت القنصلية البريطانية مقراً لها في دمشق في 26 حزيران 1832، وعين القنصل يونغ (1838- 1845) بدأ يتدخل في شؤون أهل الذمة وخلق الفتن بين اليهود والمسيحيين، وقتل اليهود البادي توما الكبوشي ومرافقه أبراهام عمارة، فحكم القاضي على الحاخام الأكبر يعقوب عنتاي والحاخام ميشون أبو العافية بالإعدام فتدخل القنصل وخفض عقوبة الإعدام عن الحاخام الأكبر، وحكم ميشون أبو العافية فأسلم وتخلص من العقوبة، ولكنه هاجر مع بعض العائلات إلى فلسطين. قال الحاخام الأكبر ليهود دمشق موسى سيسون: «إن المسلمين لم يضطهدونا ككل الناس بسبب طبيعتهم الجافة في حين أن المسيحيين هم الذين يضطهدوننا عمداً»[18].

ومع ذلك كانت فكرة التعايش المشترك قد بدأت، تأخذ مجراها بين المسلمين والمسيحيين واليهود، نستدل على ذلك من سجلات المحاكم الشرعية في دمشق استبدل المعلم اسحق بن شحادة شاقة اليهودي جميع أرض الجنينة والماء والغراس في قرية النبك بدكان موجودة في محلة الحراث التابعة لمحلة الخراب من وقف النصارى اليعاقبة (السريان الأرثوذكس) وتم ذلك بموافقة القاضي الشرعي بدمشق، في 9 محرم 1217هـ/ 1802م[19].

نشاط يهود دمشق الاقتصادي

كانت طبيعة العمران تقتضي وجود التفاوت في مهن الناس المعاشية، وينقسم يهود دمشق إلى ثلاث طبقات:

طبقة التجار والصرافين:

كان بعض تجار يهود دمشق من أصحاب القوافل التجارية التي تحمل الطيب والتوابل والحرير والخمور والصابون بين القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والآستانة، وكان الخواجة ابراهام عبد الله شللوح صاحب وكالة في خان العامود بدمشق للتاجر سليم

بن كرمونة المقيم في خان النجمة (يلدز) في الآستانة، وكانت لهم صلات تجارية مع تجار البندقية واستوكهولم وفيينا، ولندن.

وكانت الصيرفة في عائلة فارحي، وإدارة الخزنة لدى ظاهر العمر 01750- 1755) وكان شحادة فارحي مقيماً في عكا عند أحمد باشا الجزار (1735- 1804) أما سلمون فارحي فكان قيم في خان الصابون بحلب وكانوا يتدخلون في أمور الولاية. استطاع حاييم فارحي وكانت ثروته تقدر بـــ 500 كيش ذهب، أن يتدخل في انتقاء خلف لسليمان باشا على ولاية صيدا عام 1818، وتم تنصيب بدلاً عنه عبد الله الخزندار الذي حصل على منصب كتخدا أو مدير إدارة صيدا (1818- 1824) وعندما استلم المنصب انقلب على حاييم وأعدمه عام 1820، ولكن نفوذ عائلة فارحي المالي لم يتأثر، واستلم ولد أخيه سلمون فارحي الخزانة في دمشق رغم شكاوى أهل دمشق[20].

زاد نفوذ اليهود بعد خروج إبراهيم باشا المصري من بلاد الشام، وصار تجار اليهود يضعون أنفسهم تحت تصرف القناصل وقد وضع اسحق زلطة نفسه تحت حماية قنصل النمسا، ووضع هارون هراري نفسه تحت تصرف القنصل الإنكليزي المستر فارن الذي كان يسكن زقاق القميم عام 1840- 1853، وعندما صدر الخط الهمايوني الشريف عام 1856 الذي يعطي حرية الأديان، صار اليهود ينظرون إلى أنفسهم بالتساوي مع المسلمين والمسيحيين، فقال أحد شعراء دمشق[21]:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
المال منهم والجاه عندهم ومنهم المستشار والملكُ
يا أهل ذا العصر قد نصحتكم تهودوا قد تهود الفلكُ

تقدم أهل دمشق بعريضة للسلطان يطالبونه بعزل الخزندار اليهودي ولكن الوالي لم يستطع الاستغناء عنه، لأن تنظيم الدفاتر كان يتم بالخط المسمى القلفطيري، وهو بالعبرية، وهو أقرب إلى الطلاسم والرموز، ولكن الوالي ولي الدين باشا استطاع تأمين كاتب مسيحي من عائلة اسكندر من أهل حمص، وعندما جاء الوالي الجديد رؤوف باشا برشوة كبيرة من اليهود دبر له مؤامرة وقتله عام 1828، وأعاد رافائيل فارحي أميناً للخزانة.

طبقة الحرفيين وأصحاب المهن الوضيعة

تذكر مجلة الشباب القرائيين أن اليهود يتوارثون حرفة الصياغة وتجارة الذهب والفضة حتى إنك لا تجد يهودياً منهم لم يحترف هذه المهنة، ويعود هذا إلى وفرة الربح وتوارث المهنة[21].

ولكن كان بين اليهود من يعمل في المهن الوضيعة كالدباغين وحفاري الحفر، وحاكة البسط والمنجدين والسروجية، وكان هناك أصحاب حوانيت البزازين وباعة القماش والحرير والخردوات العادية.

وكان منهم الأطباء والعشابون والعطارون، الذين يعالجون الناس ويصنعون لهم الأدوية، وكان منهم البناؤون والمهندسون، والخطاطون والرسامون.

نشاط اليهود السياسي

بدأت المنظمات اليهودية تتصل بيهود الشرق عن طريق القناصل في البداية، وعندما ظهرت فكرة القومية في أوروبا، صاغ اليهود صهيونية تعتمد على الأفكار التوراتية والأساطير التلمودية. وكان اليهود مكروهون من الأوروبيين، وتقدمت الصهيونية بفكرة أنهم جزء من حائط الحماية لأوروبا في وجه الهمجية في آسيا، وبعبارة أخرى إنهم سيكونون حصناً منيعاً للحضارة الأوروبية في وجه الهمجية الإسلامية، ويتوجب على اليهود أن يبقوا على اتصال مع أوروبا التي ستضمن وجودهم بالمقابل[22].

جاء موشيه مونتفيوري (رئيس المجلس اليهودي البريطاني) إلى فلسطين ودمشق، وافتتح في عام 1835 أول مدرسة لليهود في القدس، وطلب الترخيص لليهود بشراء الأراضي الزراعية، وتم له ما أراد، وصدر مرسوم عن الباب العالي عام 1849م، واشترى الأراضي الأميرية، وصار اليهود يتعاطون الحرث والزرع وبيع الأغنام والأبقار وصناعة الصابون وعصر الزيتون، واشتروا أراضي في مرج ابن عامر، وبنى مونتغمري حياً لليهود المهاجرين في القدس[23] من سورية وفتح المدارس الحديثة في دمشق وحلب والقاهرة. يذكر **حاييم كوهن** عن اليهود في الشرق الأوسط: «إن اليهود في مصر وتركيا وسورية من أوائل الطوائف في الشرق التي تلقت تعليماً حديثاً، حيث جرى تغير جوهري على مدارس اليهود في الستينات من القرن التاسع عشر دخل عليهم تعليم اللغات الحية»[24].

بدأت اليقظة القومية عند اليهود وصاروا يتحسسون الاضطهاد والمذلة التي تعاملهم بها الشعوب في أوروبا والشرق، وصاروا يتطلعون لدولة تكون خاصة بهم، كتب الزجّال اليهودي مراد فرج يقول:

أنعيش مضطهدين لم يعرف لنا وطن، ويهمل أمرنا ويلاه؟
أهم اليهود على الخلائق عالة يقضي عليهم بالأذى إكراه
ألا يا نسل إبراهيم هبوا وجدّوا فقد مضى زمن المجون

ومضـــى زمـــن التوسـل والتمنـــي   ومضـــى زمـــن التـــلاوة والأنـــين
فـــهبوا للديـــار فكاليتـــامى   غـدوتم فـي البــلاد بــلا معــين

مؤتمر بال الأول 1897

وضع **تيودور هرتزل** كتابه (عن المسألة الصهيونية)، التي رأى فيها مسألة اجتماعية بالدرجة الأول وليست قومية أو دينية، وعندما وضع كتابه (الدولة اليهودية) صار يلتمس الطرق لتحقيق الدولة متجاوزاً المسألة الصهيونية، قال: «توجد المسألة الصهيونية، أينما وجد اليهود بأعداد كبيرة، وحينما نجتمع يبدأ اضطهادنا، هذه هي المسألة الصهيونية»[25]. وكانت أول خطوة في سبيل تحقيق الدولة اليهودية، عندما افتتح المؤتمر الصهيوني الأول في بال في 29 - 31 آب 1897. دعا هذا المؤتمر إلى إقامة وطن للشعب اليهودي في أرض فلسطين (أرض الميعاد) وقبل أعضاء المؤتمر إحياء فكرة صهيون، ودعوا إلى الهجرة إلى فلسطين، وتأسست الوكالة اليهودية لتكون الإدارة لتهجير اليهود إلى فلسطين.

بدأ الصراع الحضاري والسياسي بين العرب واليهود، وظهر مشروع الكاتب والمفكر العربي **نجيب العازوري** الذي نبه إلى الخطر الصهيوني، فكتب باللغة الفرنسية عن ضرورة نهضة العرب ويقظتهم عام 1906. وتنبأ أن القرن العشرين سيشهد صراعاً عالمياً بعيد المدى، عندما ينشئ اليهود دولتم في مملكة صهيون عام 1948. وصار اليهود يعملون من أجل دولة تقام على أرض الميعاد، وأن سكان فلسطين العرب يجب طردهم بكل الوسائل[26].

بدأ اليهود يهاجرون إلى أرض فلسطين، وأصدر **اللورد بلفور** عام 1917 وعده بإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين، وقامت الثورات في الجانب العربي ومنها ثورة البراق 1929 (عند حائط المبكى) لوقف هجرة اليهود، مما اضطر حكومة الانتداب البريطاني إلى إرسال لجنة شو للتحقيق في أحداث حائط المبكى، وصل الوفد في 30 آذار عام 1930 ومنع بيع الأراضي لليهود، ووقف الهجرة ومنح دستور للبلاد جاء ذلك في الكتاب الأبيض. لكسب رضى العرب وتهدئتهم. ولكن الهجرة ظلت مستمرة وقامت ثورة 1936، فأرسلت الحكومة البريطانية لجنة بيل التي اقترحت **تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق:**

1) قيام دولة يهودية في الأراضي التي يكون فيها اليهود أكثرية وتمتد على الساحل من حدود لبنان إلى جنوب يافا 56٪ لم يسكن اليهود تاريخياً هذه المناطق.

2)قيام دولة عربية في الأجزاء الشرقية من فلسطين وتضم شرق الأردن 42٪.
3)قيام منطقة انتداب بريطاني في الأماكن المقدسة تضم القدس الكبرى 2٪.
وأوصت اللجنة بوضع حد معين لعدد اليهود الذين يسمح لهم بدخول فلسطين كل سنة.

هجرة يهود سورية

عندما عين الملك فيصل بن الحسين ملكاً على سورية التقى في عام 1909 بحاييم وايزمن واتفق معه على إعطاء فلسطين لليهود في حالة قيام دولة عربية مستقلة، وقام اليهود يطالبون بتحقيق وعد بلفور، فعقد مؤتمر لندن، وأثيرت مسألة تقسيم فلسطين، وشكلوا عصابات صهيونية وصارت تمارس الاغتيالات، وقتلت عصابة الشترين اللورد موين في 6 تشرين الثاني 1944م، لأنه عارض الهجرة اليهودية الواسعة، حتى إن ونستون تشرشل قال: «إذا كانت أحلامنا من أجل الصهيونية ستنتهي إلى دخان مسدسات المغتالين، وجهودنا من أجل بناء مستقبلها، ستوجد زمرة من السفاحين الخليقين بألمانيا النازية، وإلا يجب الإقلاع عن هذه الأعمال الشريرة والقضاء على المسؤولين عنها قضاء مبرماً»[27].

بدأت الهجرة من سورية منذ القرن التاسع عشر، وكان اليهود في سورية حوالي 30 ألف يهودي، وبعد التطهير العرقي في (الهولوكوست) النازي شعر الأوروبيون بعقدة الذنب وساعدوا اليهود على الهجرة، وظهرت الكتابات الصهيونية المسيحية في أمريكا[28] التي تحث على قيام دولة إسرائيل التي تمت في 15 أيار 1948.

كان عدد اليهود حسب كتاب الجغرافيا المطبوع عام 1932 في سورية، أن اليهود عام 1930 كانوا حوالي 13165 نسمة موزعين كما يلي:

حلب 6524، دمشق 6291، اسكندرون 323، دير الزور 20، حوران 3، حمص 4. وقد أهمل يهود القامشلي الذين كانوا يزيدون على الألف نسمة[29].

وتم تهجير 9 آلاف يهودي إلى فلسطين عام 1948، وبعدها هاجر 5600 يهودي عام 1952، وفي عام 1961 هاجر حوالي 6 آلاف وفي عام 1975 هاجر حوالي 400 يهودي ولم يبق منهم سوى 100 يهودي رئيسهم الحاخام إبراهيم حمرة، المتنقل بين دمشق وتل أبيب.

مراجع: اليهود والسامرة

1)كتاب سوسنة سليمان ص108، نوفل أفندي نوفل المطبعة الأمريكية بيروت 1922.

2)مقدمة ابن خلدون ص199، كتاب التحرير القاهرة 1966.

3)قاموس الكتاب المقدس ص451، رابطة الكنائس الإنجيلية بيروت 1981.

4)التلمود كتاب إسرائيل المقدس ص63، عبد المنعم شميس القاهرة 1968.

5)يهود اليمن ص216- 218 عباس علي الشامي، سلسلة كتاب المسيرة صنعاء 1988.

6)المصدر السابق ص211.

7)يهود دمشق ص13، يوسف نعيسة دار المعرفة دمشق 1988.

8)البداية والنهاية ج14 ص308، ابن كثير دار المعارف بيروت 1966.

9)المصدر السابق ج14 ص16 و251.

10)اليهود المصريون بين المصرية واليهودية ص8، سهام نصار دار الوحدة بيروت 1980.

11)من عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج4، ص313، ابن أبي أصيبعة، قاسم وهب وزارة الثقافة دمشق 1997.

12)تاريخ مختصر الدول ص275، ابن العبري دار المسيرة بيروت 1986.

13)ابن أبي أصيبعة ج4، ص316- 317.

14)الفكرة الصهيونية ص46، إشراف الدكتور أنيس صايغ مركز الأبحاث بيروت 1970.

15)الموسوعة الفلسطينية ج1 ص257، دمشق 1985.

16)يهود دمشق ص13.

17)رد المحتار على الدر المختار ج2 ص276، ابن عابدين القاهرة 1295هـ.

18)مجتمع مدينة دمشق ج2، ص621 يوسف نعيسة دار طلاس دمشق 1987.

19)سجل المحكمة الشرعية بدمشق رقم 250، القضية المسجلة في ذي الحجة 1217هـ.

20)المصدر السابق رقم 346 المسجلة في عام 1252هـ.
21)مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج11 م9، ص642 دمشق 1929.
22)سهام نصار ص18.
23)الموسوعة الفلسطينية ج2، ص265.
24)سهام نصار ص16.
25)عرب ويهود العداء الكبير ص72، سامي الجندي دار النهار بيروت 1968.
26)اليهودية والصهيونية ص15، هشام دجاني دار الحقائق بيروت 1985.
27)عرب ويهود ص38.
28)المصدر السابق ص81.
29)جغرافية سورية ج1، ص78، كامل نصري، كتاب مدرسي دمشق 1934.

الفصل الثاني : قبائل الصليب

- من هم الصليب؟
- اللغة والشعر
- المرأة عند الصليب
- الدين والعادات
- اللباس والطعام
- وضع الصليب الحالي

قبائل الصلبة، من هم؟ وما هي حقيقتهم؟

المدخل: هل الصلبة هم سكان بادية الشام؟

الصليب، هم جماعة عاشوا في بادية الشام وعلى ضفاف الفرات ونهري الخابور والبليخ، في الألف الخامس قبل الميلاد، وكانوا صيادة متجولين، يعيشون حياة الكفاف (من اليد إلى الفم)، وظلوا كذلك حتى اليوم، بدأوا بتدجين كلب الصيد (السلوقي) والحمار، واستقر بعضهم في منطقة تل أبي هريرة، ومارسوا الزراعة وظل البقية يتجولون في البادية، يعيشون على صيد الغزلان والماعز البري، بينما كان أهل تل أبي هريرة، ينتجون طعامهم من الزراعة وبنوا بيوتهم من الطين، ودجن قسم منهم الضان والجمل، وتابعوا عيشة الرعي والتجوال طلباً للكلأ. وظلت تشكيلة الصيد تتجول طلباً للطرائد آكلة العشب (الغزلان والحمار الوحشي والطيور) وكان همهم الأساسي إنتاج الطعام من الصيد، وسلاحهم العصا المسننة التي تنتهي بقطعة من الصوان، واخترعوا السهم، ونجحوا في بناء الفخاخ الصغيرة، والمصائد الجماعية التي لم تزل آثارها ماثلة للعيان بين الرصافة وتدمر والسخنة.

أدى أسلوب الصيد الجماعي إلى أنماط من السلوك، وظلت معارفهم متخلفة مقارنة مع أصحاب نمطي الإنتاج الرعوي والزراعي، ولم تكن لدى الصيادين أية فكرة عن الاقتصاد، والعمل من أجل الغد، وكانت حياتهم في غاية الصبر والاحتمال، وإذا ظفروا بصيد ثمين، أكلوا وشربوا ورقصوا وغنوا، وصار الرقص من طقوسهم الدائمة التي تساعدهم على الاستعداد للصيد.

بقي عدد هذه الجماعة قليلاً، وكانوا يسيرون في جوف البادية منعزلين، يجرون خلف قطعان الغزلان، وقد وجدت تشكيلة صيد في سهوب آسيا الوسطى، ويعرفون بالتركية (قرقيز قازان) وهذا المصطلح مكون من كلمتين، الأولى معناها الأفّاق والثانية القطيع، ولأنهم استمروا بالبحث عن الطرائد سموا بالقازاق، ومع مرور الأيام، تميزت قبائل الصليب أو الصلبة بثقافة ضحلة، وإن كان لهم وعي سلالي يميزهم عن الآخرين، وظلوا يجهلون تاريخهم المشترك لعدم معرفتهم بالكتابة، ومن طول المعاشرة فيما بينهم نشأت عادات وتقاليد، ومحرمات تختلف عن القبائل الأخرى، وصارت لغتهم غنية

بمفرداتهم عن البادية والأعشاب والحيوانات، واستمروا بممارسة الرقص رجالاً ونساء، وكانت المرأة حرة، من أجل هذا تحتقرهم القبائل البدوية.

والسؤال الهام: متى عرف الصليب في التاريخ؟

لا يعرف الصليب إلا في الجزيرة العربية، وأول من ذكرهم الرحالة الأجانب، سجل **كارستن نيبور** (في رحلة في الجزيرة العربية) أنه شاهد بعض الصلبة قرب البصرة عام 1765، ثم رأى منهم نزلاً في بادية الشام قرب حلب عام 1766، وعدهم من قبائل جبل حوران[1]. ثم ذكرهم **السفير الفرنسي روسو** في تقريره عن رحلته من بغداد إلى حلب 1808، وعندما شاهد قطيعاً من الغزلان في البادية ذكر له دليله وكان من العقيل «إن قبائل الصليب يعيشون على صيد الغزلان بالجملة وإنهم يتغذون بلحومها، ويصنعون ثيابهم من جلودها، وهؤلاء القوم هم حثالة البدو، الذين يحتقرونهم أشد الاحتقار ولا يتعاملون معهم أبداً، وهؤلاء الصلبة عموماً قصار القامة هزيلون ومنظرهم متوحش، وسلاحهم العصا المسننة والبندقية (الفتيل) وهم يسكنون ثنايا الصحراء، بعيداً عن كل حياة مدنية، وهم العرب الوحيدون الذين لا يجد المرء عندهم إلا الحمير»[2].

كان الوصف السابق صادراً عن رجل بدوي يحتقر الصليب، أما أول من دوّن عن حياتهم وقدّم وصفاً دقيقاً هو الرحالة السويسري **جون لويس بوركهاردت** (1774-1817) التقى بهم أثناء تجواله في البادية السورية عام 1810 في شمال تدمر، وكتب عنهم: الصليب من أهل الشمال. تنتشر بين قبائل عنزة والعمور، ويحتفظون بعلاقات طيبة معهم، ويرجع سبب ذلك إلى فقر الصليب وضعفهم، فهم لا يملكون إلا الحمير، وتقيم أسرهم في خيام وأحياناً يجتمع (10- 20) شخص في خيمة واحدة في الطقس الممطر، ولا أثاث لديهم إلا بعض القدور، وعدة حدادة بسيطة، ووسيلة عيشهم الوحيدة هي الصيد والقنص، ويرتدي الرجال والنساء والأطفال جلود الغزال، ويمارسون الاستجداء من العرب الآخرين، ويشترون مما يعملون به من تبييض القدور وتصليح الأسلحة، والبارود والخردق، ويمثل لهم لحم الغزال المقدد والمجفف غداءهم الرئيس طوال السنة، التي يقضونها في التنقل الدائم، وفي الصيف ينزلون بجوار نهر الفرات وقرب الآبار، وموارد المياه، يكمنون للغزال، ولا ترافقهم في حلهم وترحالهم إلا الرحى والصاج لتصنيع الخبز، ودلة القهوة والمحماس لتحميص البن، والهاون لسحق القهوة، وفي العادة ينزل الضيف لدى الشيخ الذي يملك أكبر خيمة[3].

وفي بادية الأردن شاهدهم **الرحالة الفنلندي جورج أوغست فالين** عام 1845 قرب معان، وذكر أن الصلبة هم إحدى قبائل الهتيم العربية، وقد أكد ذلك الرحالة

الحاج عبد الله (السير رتشارد برتن) عندما رآهم في شمال الجزيرة العربية عام 1853م، وسماهم (خلوية البر) وعلق عليهم: إنهم محتقرون مثل قبيلة الهتيم وهم سنكرية وحدادة، ويربون كلاب الصيد (السلاقي) والحمير الأصيلة، الشهاري التي يقدمونها مهراً لنسائهم، وهذه الخصال تكسبهم احتقار البدو أمثالهم[4].

إن أفضل من كتب عنهم الرحالة تشارلز دوتي عام 1878، وعدهم من بقايا القبائل العربية القديمة التي كانت تعيش في بادية الشام منذ آلاف السنين. وهم حسب زعمهم من بني مرة، أو كما يقولون من عرب جساس بن مرة، وإنهم ذلوا من قبل الزير سالم فلاذوا بالبادية ومارسوا الصيد والصنعة[5]. وقال: وهم الآن يعيشون من الصيد، ومن الأعمال التي يمارسها الغجر، فهم يبيضون القدور، ويصلحون الأسلحة، ويصنعون الفؤوس التي يقطع بها الرعاة أغصان أشجار الأكاسيا، والمناجل لحصاد العلف، والزناد لقدح النار من طرقه بحجر الصوان، كما أنهم يصنعون من الخشب ركائب الإبل، والبكرات الخشبية لسحب الماء من الآبار العميقة، والأوعية الخشبية للحلب وصنع الطعام فهم صناع، ولكن بمهارة أقل من صناع المدينة، ويعالجون الحيوانات، ويحذون الخيل، فهم بياطرة مهرة[6].

تابع **ماكس فون أوبنهايم**، الرحالة تشارلز دوني، واعتبره أفضل من يعرف بدو البادية العربية، فقال إن الصلبة اقدر القبائل العربية على اجتياز المفاوز، وهم يتجولون بين أطراف بادية الشام والعراق، من تدمر إلى الموصل، ومن النفوذ في قلب الجزيرة العربية إلى نجد والحجاز وما وراء الطائف، ومما يلي الكويت والإحساء وفي بادية العراق بين البصرة والسماوة.

وذكرهم **ماكس فون أوبنهايم** في كتابه (من البحر المتوسط حتى الخليج) عام 1893، قال: على مقربة من تدمر وبالقرب من السخنة، رأيت حوالي 20 شخصاً من الصليب، وهم ينتمون إلى قبيلة من أغرب القبائل، يختلفون في شكلهم وفي طريقة حياتهم في كثير من النواحي عن عنزة والعرب الآخرين، فهم غالباً أصغر حجماً من العرب، ويعيشون بصورة رئيسية من صيد الغزلان التي يصنعون من جلودها ملابسهم، وتتميز بعض نسائهم بجمال رائع، وكانت نساؤهم تشترك معهم ببناء المصائد خلف الثنايا والمرتفعات لقنص الغزلان[7].

وقد ذكرهم **المقدم فكتور مولر** في كتابه عن البدو في سورية، إن أمر صيد الغزلان من اختصاص الصلبة، تلك القبيلة العربية التي لا يعرف أصلها، ويعيشون في زوايا البادية، ويصنعون ملابسهم من جلودها المدبوغة، ويجدون لذة في الصيد الذي وهبوا له حياتهم[8].

يقول كشاجم الشاعر العربي (محمود بن الحسين البغدادي) في حب الصيد[9]:

لولا طراد الصيد لم تك لذة ... لي فتطاردي بالوصال قليلا

هذا الشراب أخو الحياة وماله ... من لذة حتى يصيب غليلا

أصل الصليب

عدهم الأب أنستانس الكرملي: عرب اقحاح وقال: «سألت رجلاً من الصليب عن أصله، فقال: إننا من خيرة الناس وصفوتهم، ومن علية العرب وزيدتهم، كان جدنا عربياً صليبياً، اسمه ذبيان، عاش في أنزه مكان من جزيرة العرب، ثم صمم على الرحيل عندما ضاق بهم المكان، ثم سالت آخر: فقال: ما يقارب كلام الأول، والسرقة غير واردة عندهم، وهم أهل عفة وكرم لا يعرفون الغش في البيع والشراء»[10].

ولكن المؤرخين وكتاب الأنساب اختلفوا في أصلهم، فبعضهم عدهم من بقايا الصليبيين معتمداً على تسميتهم، أما العلماء الثقات في معرفة الأنساب مثل المحامي عباس العزاوي يقول: «نستطيع أن نعد هذه القبيلة من القبائل المحيرة، وإن كان المشهود لها من (آل) القحطانية، وهم بدو يترددون من بادية الشام إلى بادية العراق في كل سنة، ولا يفترقون عن سائر البدو، إلا بتعاطيهم أموراً في نظر العرب أعمالاً خسيسة كبيع أدوية نباتية يصنعونها، ونساؤهم يطرقن الفأل بالحصى ويقال لها عندهم (الطشة) ولا يحملون السلاح للحرب والغزو والنهب، فهم مسالمون، والبدو لا تعترف لهم بسمو نسبهم. أما الصلبة فإنهم يعتقدون أنهم عريقون في النسب، ولكنهم نسوا أصلهم أو أخفوه لأمر ما، وكتموا نسبهم عن أولادهم فبقي مجهولاً. والصحيح أنهم أنفسهم لا يعرفون أصلهم، فقد نسي بادئ بدء وأخفي عن الأولاد لجهلهم بالكتابة والتدوين، وعاشوا بمعزل عن العشائر الضاربين في البراري»[11].

وما يتذكره الصلبة عن أصلهم أنهم من العرب العاربة (القحطانية) وأن منازلهم في القديم هي الآثار الموجودة إلى الجنوب من العلا[12]. وربما كانوا من عرب الأنباط الذين نكل بهم الإمبراطور تراجان عام 106م، وهجرهم إلى البادية وهدم البتراء. وهذا أمر معروف لدى علماء التاريخ القديم. وإلى هذا أشار الرحالة هنري فيلد الذي يعتقد أن الصلبة من أحفاد الصيادين الذين عاشوا قبل التاريخ، وكانوا في الجزيرة العربية والحماد في الشامية والعراق، وكانوا يتعايشون مع القبائل السامية كالآراميين والعرب، وواصلوا حياتهم مستقلين عن غيرهم، دون أن يفقدوا هويتهم العربية وصلتهم بالبدو الرحل[13].

وأما الرحالة وليم بلجريف الذي قام برحلة إلى الجزيرة العربية عام 1862، ذكر «وزعم البدو أن الصليب هم اشهر قوم في الطبابة بين البدو، وهم غرباء عن الجنس

البدوي، وذكروا أن سحنتهم بيضاء، وتقاسيم وجوههم جميلة، وعيونهم براقة، وتدل ملامحهم على أن أصلهم سوري، وكذلك هيئتهم التي تطفح عفوياً بالبشر، وأن اسمهم (الصليب) وتقاليدهم تؤيد تحدرهم من أصل مسيحي»[14].

وقد أكد الكولونيل لويس بيلي المقيم البريطاني في ميناء بوشهر عام 1865 قال: إن كلمة صليب معناها مشتق من الصلب (الظهر) أي أنهم من العرب الأقحاح، بينما هم عند البدو قوم منبوذون، لا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، ولا يغزون ولا يثأر منهم، وهم مهرة في الصيد ويعيشون على لحم الغزلان[15].

تابعهم في هذا الاعتقاد الشيخ سليمان البستاني وأضاف أنهم من بقايا الصليبيين، ومن أدلته على ذلك، زرقة عيونهم، وامتلاء الوجه ووفرة الشقرة فيهم، وعدم انتمائهم إلى مذهب معين[16].

اللغة والشعر عند الصلبة

تعتبر اللغة أهم العناصر المكونة للأعراق، بل إن اللغة والدين هما العنصران المكونان للجماعات البشرية، وهما العنصران اللذان يحددان ملامح السلوك للناس، يقول المفكر الألماني ياكوب جريم: «إن لغتنا هي تاريخنا، واللغة هي روح الشعب»[17].

فما هي اللغة التي يتكلمها الصليب؟

إنها اللغة العربية، وإن كانت بلكنة خاصة بهم، وفي لغتهم بعض الكلمات التركية والفارسية[18]. إن الصليب هم عرب مسلمون. وأما الكلمات التركية والفارسية فهي من التأثير الحضاري الذي أصاب سكان المدن السورية والعراقية، وقد خلت منه لغة البدو والأعراب. وأرى أن كثيراً من الملاحظات التي يدلي بها الرحالة، لا ترقى إلى مستوى الدقة العالية، وما يورده الأنثروبولوجيون العرب فيه دقة أكثر، كما هو حال المحامي عباس العزاوي، وهو الذي وصف الصلبة بأنهم عرب أقحاح، وأن لغتهم لا تشوبها اللكنة أو العجمة، وهم فصحاء، وها هو شعرهم الذي ينشد على الرباب، في قصائد المديح والهجاء، وكان شيوخ القبائل يخشون هجاءهم لذا يجزلون لهم العطاء. ومن شعر المديح والحكمة:

ابدى بذكر إلهي ع الكل منان   يا رب يا خالق عرشاً بالسمايا
اطلبك يا رب، يا عالي الشان   ترفع عن عبيدك جميع الدهايا

ويقول شاعر آخر:

ما يعطي العطا إلا اللي خاله من العطا   ولا يرد العطا إلا اللي خاله لاش

أوقـد نـارك مـن صـم الخشـب   لا تحـط عليـها دمـن واكشـاش
اسـال عـن منسـبك قبـل منشـبك   لا يجـي ولدكـم لاش

ومن هجاء الصلبة قول شاعرهم الذي مر على قرية صدد، ونزل دار المختار وكان يدعى مرشد بن مقصود، وكان يعمل بالنجارة من قبل، ولكن المختار لم يكترث بالشاعر الصلبي، فقال في الحال:

يـا راكـب مـن فـوق بنـت الحمـارة   خضـره مـا تلقـى نخشـة العـود
تلفـي علـى النجـار، شـيخ النصـارى   وألفين طقعة من لحية ابن مقصـود

ومن شاعرات الصلبة دجيش بنت مزيد مـن عشيرة الخصيـلات، كـانت شـاعرة جميلة أحبها الدويش شيخ قبيلة المطير، ولحبه لها تزوجها ولكن كثرت عليه الملامة فطلقها، رغم حبه لها، فقالت دجيش:

يـالله يـا سـايد علـى كـل ديـرة   يـا رب يـا منشـي مـزن مصـادير
يا الله عسى ما تكره النفسه خيره   يـا والـي الدنيـا عليـك التدابـير
وجدي على اللي قـدم بيتـه حجيرة   اللـي تمنـاه العجـاف المعـابير
ليـه يـا مـاجد تبتلـي بجـيرة   زود علـى تلطيخكـم بالمعـايير
صليبيـة يـا شـيخ مـاني نحـيرة   وانتـم ذبـايحكم ركـاب المنـاعير
مـاجد ليـا ركـب جـواده الظـهيرة   تكطعـت حيرانـها والمخـاتير
خيـال مـا تـرده نشـيره   غـاز علـى روس النـوازي دعـاثير

ومن الفتيات الشهيرات بالحسن والجمال ربدة بنت هـلال من عشيرة آل سلمان، أحبها الشاعر فدغم السلقة من العمارات فقال فيها[19] :

يـا شـيب عينـي جـان صليـب حـوال   اجفـم بريـدة سـيدة البنـات
شـدم لـها شـهرية بنـت هـروال   مضـراب حافرهـا بـالدعث بينـات
والله لولابـه تلحقـن عـار   لا لبس جديد الفرو وارمـي عبـاتي

المرأة عند الصلبة

المرأة الصلبية في نظر **عباس العزاوي**، امرأة عربية حرة أصيلة، تشارك في حياة القبيلة، وهي عفيفة، ولأن الصلبة قوم مسالمون لا ينهبون ولا يسلبون ولا يغزون،

ويمارسون الصنعة لهذا اعتبرهم البدو من قبائل الهتيم، وهي قبائل محتقرة[20]. لأن للصحراء قانوناً من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب.

يأنف البدو من الزواج بالنساء الصلبيات، أو حتى الاتصال بهن جنسياً، محرم عندهم فهن غير طاهرات. في حديث جرى بين الرحالة هنري ديكسون والشيخ مرشد بن طوالة شيخ الوهب من قبيلة شمر، قال له: إن الشيخ من شمر لا يتزوج امرأة من الصليب أو من العوازم أو الرشايدة لأنهم هتيم، وقد اتصل الشيخ عبد العزيز بن رشيد أمير شمر في حائل (1896- 1906) اتصل بفتاة صلبية جنسياً، وعندما شاع الخبر تخلى عنه شيوخ القبيلة ومنهم ابن شريم، فتوجه الشيخ عبد الزيز إلى العراق وعاش هناك ولم يعد إلى حائل[21].

والمرأة عن الصلبة حرة لا تكره على الزواج، وإنما يؤخذ رضاها ومهرها عندهم حمارة (حكري) يقال لها هفيان تأخذها الزوجة، والآخر حمارة شهاري يقال لها نميان يأخذها أهل المرأة، وينمونها لها، فإن حدث طلاق تجد ما يعيلها، والمرأة الصلبية، لا ترضى بالزواج من البدو أو من الصانع أو العبد، وتقوم نساء الصلبة بختان أطفال البدو، وقراءة البخت، والتبصر بالودع والمحار وبنوى التمر والخرز الملون، واشتهرت منهن بمعرفة البخت منيرة المطيرية، والمرأة الصلبية تركب الحمارة متوركة واضعة رجليها بجهة اليسار على غير عادة نساء البدو، وترقص النساء في الأعراس والختان مقابل أجر[22].

توصف المرأة الصلبية بأوصاف متناقضة، فهي إما جميلة فاتنة، وإما خالية من الوسامة، يقول ماكس فون أوبنهايم: «مررت بالرحبة (قرب الميادين) بامرأة صلبية طولها فوق المتوسط، لون بشرتها أسمر غامق، ووجهها ناعم صغير، وعيناها حزينتان متقدتان، تبرزان من تحت أهداب طويلة، وشعرها أسود تبدو عليه الفخامة ولها أسنان رائعة البهاء.

وأما عن رقص الصلبيات، فقد وصف رقصهن الكونت لويس بيلي عام 1865، قال: رقصهن دائري بدون حجاب. وقد وصف لنا هذا الرقص هنري ديكسون وقد شاهد هذا الرقص قرب قصر نايف في الكويت في 3 حزيران 1934، قال: قام رجل مسن يرقص بالسيف مستعرضاً حلقة المشاهدين بخطوات أنيقة، وهو يدعو الشباب إلى النزول معه إلى الحلبة، وفجأة اندفعت فتاة شابة جميلة، فتوجه إليها على الفور زوجها وقبلها قبلة خفيفة على ثغرها، وبنفس الاندفاع قام شاب وسحب شال رأسها، وبدأ الرقص بصيحة حرب، ثم بدأ الإثنان يتحركان، ويتمايلان متقاربين ومتباعدين، ووجه كل منهما باتجاه الآخر، وفي وقت لاحق دخلت عدة فتيات وفتيان حلقة الرقص،

وكانت الفتيات حاسرات وهن يرتدين ملابس احتفالية ملونة، وكن يلوحن بعصا في اليد اليمنى، ويلقين برؤوسهن مع الشعر المكشوف إلى الأمام والوراء وإلى الجانبين، وكانت شفاههن مزمومة أثناء الرقص، ويحاول كل فتى اختلاس قبلة من شريكته، ولكن الفتيات كن يقاومن، وعندما يتمكن الفتى من اختلاس قبلة من الخد، يجب على الفتاة مغادرة حلبة الرقص[23].

هل الرقص مقتصر على فتيات الصلبة فقط؟ أم له مثيل عند البدو؟

يذكر **جي هس** أنه رأى عند قبيلة عتيبة في نجد حفلة الرقص في الختان، تأتي الفتيات إلى حلبة الرقص الواحدة تلو الأخرى، وهن حاسرات الرأس وسط الرجال، ولا شيء عليهن سوى قمصانهن ولا يوجد ما يستر أعناقهن، وتبدأ الفتاة في التمايل، وفجأة ترقص بين صفي الرجال وبيدها زمارة تعزف عليها، ومثل هذا الرقص (رقصة الدحة) ذكرها لويس موسيل عند عرب الرولة، حيث ترقص امرأة محجبة وهي تحمل سيفاً، وترقص أمام الشباب الذين يشكلون نصف دائرة أمام الخيمة[24].

رقصة الدحة موجودة عند كل بدو عنزة، وشمر. وللرقص أنواع حسب المناسبات في الأفراح والختان والأعراس، ترفع راية فوق خيمة صاحب الاحتفال، ويقف رجل في وسط حلبة الرقص وهو يحمل سيفاً، يلوح به على الدوام، يحث الشباب. وفجأة تبرز الفتيات وقد حسرن عند رؤوسهن ووجوههن، فتبدو شعر الفتاة الصلبية المخضب بالحناء ووجهها المبتسم، المزين بالوشم، وهذا عند البدو من الأمور المخزية، وهذا الأمر لا تخجل منه الفتاة الصلبية التي لا تضع الملفع وهن مولعات بالرقص إلى حد التوله، ولدى الصلبة رقصة تتشابك فيها أيدي الرجال والنساء.

وصف لنا **الكابتن الفرنسي ريمون إ. مارتينيه** رقص الصلبة الذي شاهده في ربيع عام 1921، شرقي حمص في موقع أبي الفوارس، قال: صادفنا مجموعة من بيوت الشعر، ولم نجد صعوبة من تمييز بيت الشيخ لاتساعه، واستقبلنا الشيخ معيذف بن خلف الملقب لكرمه بتل اللحم، استقبلنا أهل النزل بالتصفيق والزغاريد، وهذا غير مألوف لدى البدو الآخرين. ولاقتنا نساؤهم بالرقص والغناء بطريقة جميلة، إذ انتظم الجميع في صف يتألف من الفتيان والفتيات، وهن بلباس ملون بالأحمر والأزرق وانطلق أحد الفتيان يغني بصوت رخيم، والجميع بعده يرددون، وكانت خلاخيل النساء ورزيز أساورهن الفضية ترافق الغناء، وبالتدريج اشتدت الأهازيج وازداد اهتزاز الأرداف المرنة، وبخفة دخلت إلى وسط الحلبة فتاتان بأثوابهن، وكان شعرهن متدلياً تحت أردافهن، وكان الرقص قد اختلط بين الفتيان والفتيات، وصار الفتيان يهمون بتقبيل وجنات الفتيات اللواتي كن يهربن بخفة الظبي، ولكن فجأة فاز أحد الفتيان

بقبلة فانسحبت الفتاة، واستمرت الحفلة. وبدأ عـدد الفتيـات يتنـاقص إلـى أن دخـل الشيخ معيذف يدعونا للعشاء[25].

هـذا الرقص نجده عند كل قبائل الهتيم، في سورية ومصر وكل سواحل البحـر الأحمر، فنساء الهتيم يتهمهن البدو برخص العرض فيقولون (إن العبد لدى سيد من الهيثم، لن يفكر بالهرب، لأن سيدته لن تتردد في جعله بين أحضانها)[26]. إن هـذه من التهم التي يرمي بها البدو الهيثم والصلبة، وقد شاهدت في عام 1996 عند الفدعان قرب عين عيسى رقصة الدحة، وقد صورها التلفزيون العربي السوري. اجتمع القوم في حلقة من الشباب وهم يدحون بكفوفهم وبأصواتهم، وحضرت إلى وسط الحلقة فتاة محجبة بعباءة تدعى (الحاشي) وخرج إليها شاب يدعى (القصاد) وتقابلت الحاشي التي تحمل سيفاً والقصاد الذي يقابلها وجهاً لوجه، وسط دحة الحلقة، وغنائهم:

يـــا نعمـــاً لـــك بـــالطيب   إن جبـــت بالحاشـــي تقـــوده

فيرد الجانب الآخر من الحلقة:

قـــول وفعـــل يـــا ولـــد   تســـتاهل حـــب النشـــمية

ويردد الطرفان جميع الحلقة:

يـــا مـــن عيَّـــن لـــي فلانـــة   صـــلاة محمـــد مثيـــة

تســـمع حســـك يـــا ولـــد   تســـتاهل حـــب النشـــمية

وتختلط الأصوات:

يا هلابه يا هلابه

وهنا يقول القصاد لوحده:

يـــا حاشـــينا يـــا بـــو بشـــيت   أنـــا علـــى صيتـــك تعنيـــت

فـــك روحـــك يـــا بـــو الحـــوش   حبـــك بـــالبراطم تـــوش

قومـــي العبـــيَ والعـــب لـــك   قلـــب الجـــاهل يطـــرب لـــك[27]

الدين والعادات

الصليب عرب مسلمون، ولكنهم مثل كل البدو لا يمارسون الطقوس الدينية كالصوم والصلاة، وإن قال عنهم المستشرقون و بعض الرحالة إنهم من بقايا أقوام كانت لهم ديانة سرية مجهولة لدينا، وهذا ظن لا صحة له، واعتقد بعض المبشرين أنهم من بقايا الصليبيين فحاول البروتستانت تنصيرهم خلال عامي (1925- 1926) فلم يفلحوا رغم تكبدهم للنفقات الكبيرة، وكان بعض الصلبة يساير من أجل الحصول على المنافع، ولكنهم أدركوا أنهم يسايرونهم من أجل ابتزازهم، فتركوهم غير نادمين، يقول عباس العزاوي: «وأما ديانتهم فلا يسع المرء إنكار أنهم مسلمون وأن التقولات عن أصلهم عبارة عن إشاعة من المبشرين النصارى»[28].

من عادة الصليب التجوال الدائم في الحماد، وهم راكبون ظهور حميرهم الشهاري، ويسميهم البدو (بدو البدو) ويقولون: «إن الصليبي يستطيع التنقل لوحده في الصحراء، دون خوف من مضايقة أحد، فالبدوي لا يعتدي عليه، حتى ولو كان يحمل جلد النعام الذي قيمته قيمة ناقة، ومن عادات الصلبة الصيد وهم على ظهور الحمير التي تستطيع تحمل العطش لمدة يومين أو ثلاثة، وهم خبراء في معرفة مواقع الماء في الحماد بدقة متناهية»[29]. ويستعين بهم البدو كرواد للبادية أثناء الانتقال إلى مراع جديدة أو أثناء الغزو.

ومن عادات الصلبة الصيد والترحال الدائم، كل عشر عائلات، تراهم يمسون ولا يصبحون، كما وصفهم الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة[30]:

اجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل خلال ذلك رغاء

إن حياة الصلبة رغم غموضها، تثير لدى الباحث حب الاستطلاع. كتب **الدكتور جبرائيل سليمان جبور**: «لقد حداه حب حياة البادية، ودراسة قبيلة صليب بنوع خاص إلى وضع كتابه البدو والبادية»[31]. فكان كتابه من أفضل الكتب التي كتبت عن البدو.

والسؤال الملح: ما سبب تجوال الصلبة الدائم؟ إنه من تقاليد العمل المتوارثة، من إنتاج ضرورات العيش، حتى صارت هواية الصيد لديهم متعة وهواية. ومن آثارهم في بادية الشام مصائد الغزلان الجماعية، بين تدمر والرصافة، يصفها لنا **جون لويس بوركهاردت** بقوله: «تختار أماكن مفتوحة في السهل، ويتم غلقها من ثلاث جهات بأسوار من الحجارة، بدون ملاط، بحيث لا تستطيع الغزلان القفز فوقها، وتترك عن عمد بعض الثغرات، في هذه الأسوار، ويحفر بجانبها من الخارج حفرة عميقة، لتقع الغزالة الشاردة فيها، ويسهل قنصها، والقبض عليها. تقوم هذه المصائد بالقرب من

غدران المياه التي تلجأ الغزلان إليها في فصل الصيف، وعند بدء الصيد يكمن عدد من الشبان والفتيات يترقبون، حتى يروا قطيعاً من الغزلان (عانة) فيقوم بدفعها نحو المصيدة، وتحاول الغزلان المذعورة من الصياح القفز فوق السور نحو الخارج ولكنها لا تستطيع الخروج إلا من الثغرات، وعندها تسقط الغزالة في الحفرة الخارجية ويتم الإمساك بها بسهولة، ويصل الصيد أحياناً إلى مئات الغزلان، ويتم بيعها للبدو وإلى أسواق المدن المجاورة في القريتين وحسية وحمص وتدمر والسخنة»[32].

ويمكن تدجين بعض أخشاف الغزلان. يذكر **الدكتور جبرائيل جبور** أنه رأى الضباء تسير قطعاناً في سنوات الحرب الأولى، في السهول بين القريتين وحمص، ولكل قطيع (نجود) تقوده، وهذه الغزلان ثلاثة أنواع، الغزال العفري، والغزال الأرائم، والغزال الأدم، ومن يزعم من الصلبة أن الغزال العفري (الجازي) لا يشرب الماء، والغزالة (الأدماء) طويلة العنق، وقوائمها طويلة، وبطنها أبيض ويمكن للصليب تدجين الغزال، ويسرجونه مع الماعز، وقد رأيت امرأة صلبية تأتي إلى القريتين، ومن ورائها خشف يتبعها أنى سارت في أزقة القرية، كالكلب الذي يتبع صاحبه[33].

من عادات الصلبة التجوال الدائم وهم يسوقون قطعان الماعز والضأن بصحبة حميرهم (الشهارى والخكاري) وبيد كل واحد منهم عصا تشبه الرمح في رأسها سنان من حديد، ومع بعضهم بندقية الفتيل (الشيشخانة) لصيد الغزلان والحباري والنعام وحمير الوحش.

قال **الدكتور جبور**: «لقد سمعت من بعض من زعم أنه رأى الصلبة وقد صاد نعامة، وهم يصيدونها مشاة إما بالحيلة أو الكمين»[34].

وحمير الصلبة (الشهاري) مميزة وهي بيضاء اللون فارهة، وهناك أسطورة يروجها الصلبة، أنهم يتركون حميرهم في الحماد فتأتي الحمير الوحشية، ويحدث سفاد بين الأتان والحمار الوحشي، وقد أكد هذه الأسطورة **الرحالة جورماني** في رحلته إلى الجزيرة العربية عام 1864، كتب أن صليب الفرات يصيدون حمار الوحش في برية سنجار ويربونه لتهجين حميرهم، وبعد النتاج تخصى الذكور وتباع متى بلغ الحمار سنتين من العمر، بمقدار مئتي ريال نمساوي للواحد. كما ذكر **دوغلاس كاروثرز**، أن كثيراً من الصليب يقطعون الفرات في الشتاء للقبض على بعض حمير الوحش لتلقيح أتنهم، وكان الصلبة يستخدمون قرون الوحش كأوتاد خيام لبيوتهم[35].

ولدى الصلبة نوع آخر من الحمير يدعى (الخكر) سريعة المشي وتتحمل العطش، يتاجرون بها ويبيعونها في المدن بسعر مرتفع، وإن كانت تشبه الحمير البلدية، إلا أنها أقوى وأنشط منها، إنها من بقايا سلالات لا مثيل لها في العالم، ربما كانت من تلك

الحمير التي كانت في الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت تستخدم في القوافل التجارية بين سورية والهضبة الإيرانية وبين سورية ومصر والجزيرة العربية.

اللباس والطعام والعمل

اللباس من الخصائص المميزة لكل جماعة بشرية متفردة، وللصلبة لباس يميزهم عن غيرهم، فممعظم أفراد العشيرة، رجال ونساء، يلبسون الثوب الطويل الواسع، من جلد الغزال. واليوم ثيابهم عادية كألبسة البدو العباءة والكوفية والعقال، وكانوا في القرن الماضي، يلفون رؤوسهم بعصابة حمراء بدلاً من العقل، ويبدو شعرهم المضفور من تحت عصابة الرأس.

تلبس النساء المقرونة أو الشمبر وتتزيا نساءهم بالوشم الأزرق، خصوصاً الشفة السفلى (وشم البرطم) ويزين أنوفهن بالحزام الذهبي، ويتزنرن بمحزم من الصوف الملون يسمى (الشويحي) بينما يضع الرجال سير من الجلد على أوساطهم.

وطعام الصليب، طعام فقراء الأعراب، ويحصلون على اللحم من صيد الغزلان والطيور. وخبز القمح والشعير، وعدد **جون لويس بوركهاردت** عام 1810 أنواع طعامهم:

1-**الفتية**: وهي خبز القمح الملتوت بالزبد والسمن والحليب والدبس وتسمى (الخافوري) وتقدم للضيوف.

2-**الحنيني**: مزيج التمر والزبدة التي تسخن على النار، وهو الطعام المفضل عند الصلبة.

3-**خبز الملّية**: يوضع قرص العجين على أحجار الصوان (رضاف) الساخنة، ثم توقد نار قوية من فوقها حتى ينضج القرص ويخرج الرغيف ويقطع إلى شرائح.

4-**خبز الصاج**: هو الخبز العادي، وذلك بشي العجين الرقيق فوق صاج حديد. يوضع فوق ثلاثة مناصب من الحجر، وتوقد النار تحت الصاج، وهذا هو الخبز اليومي المعتاد.

5-**اللحم المشوي**: يشوى اللحم في الموقد على النار مباشرة أو بوضع سرائد اللحم فوق الصاج، وتؤكل بعد نضجها.

6-**اللحم الدفين**: توضع قطع اللحم المملحة، داخل جوف الكرشة، وتصر ويخرج من داخل الكرشة عظم الضنبوب كالقصبة، ثم تدمس الصرة في داخل النار، وتظل النار توقد فوقها والبخار يخرج من قناة العظم، وبعد أن ينضج اللحم، تشق الكرشة المشوية، ويخرج اللحم ويقدم وهو وليمة فاخرة.

ويشوي الصلبة لحم الجربوع (فأر الصحراء) الأرانب والطيور وهي تشوى عندهم داخل الموقد.

7-اللبن والتمر: طعام الصلبة اليومي، اللبن المخيض، الذي أخرجت منه الزبدة.

8-أكل الكمأة: يلتقط الصليب حبات الكمأة والفطر والزبيدي، وهي متواجدة بكثرة في فصل الربيع، وكانت توجد بكثرة في البادية، وينقلونها إلى المدن المجاورة ويبيعونها، وأفضلها الكمأة الحمراء، وهي تؤكل مطبوخة ومشوية، ويمكن أن تحفظ مجففة وتطبخ من جديد. والصلبة كانوا كالبدو عامة يغسلون أيديهم قبل الطعام، ثم يمسحون أيديهم برواق الخيمة بعد الطعام.

ويعمل الصليب بتجارة الملح الذي يستخلصونه من ملاحات البادية، ويبيعونه في المدن. كما يبيعون القلي (القلو) ويحصلون عليه من حرق نبات الشنان المتوفر بكثرة حول الطيبة والكوم وارك بجوار السخنة، ويبيعون القلو إلى معامل الصابون في حلب ودمشق قبل استيراد كربونات البوتاسيوم.

كما يبيعون الأعشاب الطبية إلى العطارين في المدن السورية (حلب وحماه وحمص ودمشق) وتعمل النسوة في الطبابة، وهي أسرار يتوارثه من جيل إلى جييل، ولا تعطي المرأة هذا السر إلا لابنتها الكبرى. ولرجال الصليب مهارة في تحضير الأدوية من الأعشاب خصوصاً أدوية عسر الهضم (كالدعجة) وأدوية الرئة كالزعتر البري المقشع وأمراض السكر. ويفصد الصليبي دم الراس، بتشطيبه لجلدة الرأس، بقطعة صوان حادة، لتخرج بعض قطرات الدم لتخفيف ضغط الدم. وهناك المجبرون المشهورون، وعند الصلبة اعتقاد أن أسباب كل الأمراض هي من أمراض الأسنان وعدم طحن الطعام جيداً، لذا ترى أسنانهم بيضاء جميلة، ولا يعرفون نخر الأسنان إلا نادراً. وقد اشتهر في العراق الحاج سليمان بن عبود الحقيلي وهو طبيب من الصلبة.

والصلبة مسلمون يحرمون كل ما تحرمه الشريعة الإسلامية، مع ذلك يتهمهم البدو زوراً بأنهم يأكلون الميتة، ويعتبرهم الوهابيون في الجزيرة العربية مشركين، وقد قتلوا كثيراً منهم بهذه التهمة. يقول **لويس موسيل**: «يسمي الوهابيون الصلبة بالمشركين، لأنهم لا يعرفون شيئاً من آيات الذكر الحكيم، ولا يصومون، وقتل الوهابية العدد الكبير منهم، مما جعل وضع الصلبة في بادية الشام وحوران أفضل من وضعهم في شمال غرب الجزيرة العربية»(36).

والصلبة صناع ماهرون يعملون لدى القبائل القوية مثل عنزة وشمر ومطير، لهذا تنظر إليهم هذه القبائل باحتقار، وتسميهم صناعاً. ويقول البدو «إن الصلبة أغنياء لأنهم يأخذون دراهمنا، ولا يصرفونها، ويتسولون الطعام من عندنا، ولا حاجة لهم

بالنقود إلا لشراء القصدير ومواد التبييض، ويطمر الصلبي ماله بالصحراء ثم يعود إليه عند الحاجة لأنهم جن الأرض»[37]. طبعاً في هذا الكلام مبالغة، فالبدو ليسوا كراماً كما يتصورهم البعض.

والمرأة عند الصلبة تعمل أكثر من الرجل، لأن البيت عندهم وحدة اقتصادية مكتفية بذاتها، فالمرأة تعمل الطعام، وتخيط الثياب، وتربي الأطفال، وتعتني بالحيوانات، بالإضافة إلى صناعة ونسج شقاق البيت الأسود. ويقول بوركهاردت: «تنسج نساء الصلبة الشعر المغزول على نول بسيط، مصنوع من عصاتين قصيرتين، تثبتان بالأرض على مسافة معينة، حسب الطول والعرض المطلوب لعمل الشقة، أو لصناعة العدل (كيس الطعام). كيف تصنع الشقة؟ توضع فوق خيوط السدو عصا ثالثة، وتثبت ثلاث عصي أخرى على بعد أربعة أذرع، وتوضع على العصا الأفقية (المعترضة) الخيوط الأفقية، لجعل المسافة مناسبة بين الخيوط العلوية والسفلية، وتستخدم عصا مفلطحة بينهما، وتستخدم قطعة خشب صغيرة (مكوك الحائك) كما يستخدم قرن غزال صغير (صيصة) لإعادة خيط النسيج، وتتولى النساء وحدهن النسج، وقد يشارك الرجل المرأة في الغزل»[38].

يملك شيوخ الصلبة قطعاناً من الضأن والإبل، وترافقهم في الرحيل والتنزيل، وهم يشابهون وشيوخ البدو في الكرم، بل يعدهم بعض الرحالة أكثر كرماً من شيوخ البدو الذين ذاع صيتهم بالكرم هم الصلبة بقصائدهم مقابل مكافأة زهيدة[39]. فالشيخ معيذف بن خلف لقب بتل اللحم لكرمه، وهذا لقب لم ينله أي من شيوخ الرولة، ومن الشيوخ الكرام محمد بن جلاد شيخ صلبة العمارات والشيخ مثلج الصافي شيخ الصلبة عند شمر، وقد غطوا على المشايخ بكرمهم[40].

ومن وسائل التسلية عند الصلبة لعبة المنقلة، يقوم كل لاعب بحفر سبعة ثقوب في الأرض على خط مستقيم، ويقابله لاعب آخر يحفر مثله سبع حفر أخرى، ويوضع في كل ثقب سبع حصاة بيضاء بحجم حبة النوى، وتستمر اللعبة بالتناوب واللاعب الرابح من يجمع أكبر عدد من الحصى[41].

والمجتمع عند الصلبة يمتاز بالعفة، حيث لا سرقة ولا غش، وإن كان البدو يرمونهم بكل الموبقات فالزنا عند الصلبة أقل مما هو عند غيرهم، وإن كانت نساؤهم ترقص مقابل أجرة بسيطة.

الوضع الحالي لعرب الصلبة

أول ذكر للصلبة في التاريخ هو الملاحظة التي سجلها كارستن نيبور عام 1765م، عندما أثاروا انتباهه بلبسهم لجلود الغزلان عام 1765، وكانوا يسكنون في الشامية

بالقرب من عشائر الأبو شعبان[42]. هذه الملاحظة كانت أول ذكر للبوشعبان في الديرة تحت حكم الموالي (البوريشة).

أهم عشائر الصلبة

أقدم العشائر العربية هم الصلبة، تكونت عشائرهم أثناء إنتاجهم للخيرات المادية في بادية الشام، ولم يرتقوا عن مستوى القبيلة الأولى. وهم يتكلمون لغة عربية وبلهجة واحدة ولديهم تكوين نفسي وثقافي واحد، والوجاهة عندهم تنتقل بالوراثة، ويعتقدون أنهم متحدون بالدم وبالاسم، فهم قبيلة الصليب ذات الأصل الرفيع.

1)**عشيرة السعد**: يقولون عن أنفسهم، أنهم أصل كل الصلبة، وهم خلفة غانم بن صليبي، ورئيسهم الحالي ذبيان الحنيان، وحليس أبو رثيقة، ويتواجدون في منطقة سامراء، وحول جبل سنجار، وعدد بيوتهم في بداية القرن العشرين حوالي 200 بيت.

2)**عشيرة البذاذة**: ويتواجدون في بادية سنجار وشيخهم سعران بن حاني ونخوتهم الهديب، وشيخهم الحالي سميان بن جراء وعدد بيوتهم حوالي 300 بيت.

3)**عشيرة البناق**: يواجدون في بادية السماوة، ورئيسهم فرحان بن جرموس، ومضيان بن رسيح، وعدد بيوتهم حوالي 150 بيت.

4)**عشيرة آل مسيلم**: يعيشون في ديرة النجف، ونخوتهم عيال مسلم ورئيسهم مطلق بن ظهور وهيجل بن حمدان، ورئيسهم الحالي مجول بن قطن وعدد بيوتهم حوالي 450 بيتاً.

5)**عشيرة العناقرة**: يتواجدون في منطقة الجوف، ونخوتهم أولاد عنتر، ورئيسهم خليف الخليوي وتعدادهم حوالي 180 بيتاً.

6)**عشيرة الهزيم**: يعيشون في منطقة شفاثة (عين التمر) وشيخهم في القديم فرج الفريجات وشيخهم الحالي جانوص بن هذال، وعدد بيوتهم حوالي 400 بيت.

7)**عشيرة الماجد**: يعيشون في بادية الكويت ومنهم النوازي، كانوا في دير سنجار وكان شيخهم سعران بن حاني، وشيخهم الحالي حمود بن شنوف ونخوتهم عيال غانم بن صليب، ويعتقدون أنهم أصل كل الصليب وتعدادهم حوالي 500 بيت.

8)**عشيرة لية الصلبة**: نخوتهم عيال صليبي، ورئاستهم في عائلة مطر بن حليس، ويتفرعون إلى عدة عشائر منها عشيرة الجميل، ونخوتهم أخوة سلمة ويعيشون ويدعون أنهم يتفرعون عن عشيرة الجميل من بني حسن. وشيخهم غنيم بن سريح. يعيشون في القصيم (الصمان) وهم حوالي 400 بيت.

9)**عشيرة الحسن**: نخوتهم عيال مزيد، يعيشون في بداية القرن العشرين في نواحي جبل عبد العزيز، ورئيسهم عواد بن جراد، وعدد بيوتهم حوالي 150 بيتاً.

10)**عشيرة الهتيم:** نخوتهم أولاد عبس، ورئيسهم معيذف بن خلف الملقب لكرمه بتل اللحم. كانوا يعيشون في الجزيرة وبادية الشام، وحول ضمير، والآن في ديرة الكويت. وعدد بيوتهم حوالي 400 بيت، وشيخهم في منتصف القرن العشرين عبيد بن معيذف.

11)**عشيرة آل طرفة:** يعيشون في الجوف ورئيسهم مطر بن حليس وسليمان بن مالك وعابد النوري، وهم حوالي 300 بيت.

معظم هذه المعلومات مأخوذة عن عباس العزاوي، في كتابه (عشائر العراق) (ج4، ص315- 321) وعن الرحالة هنري فيلد عام 1930م[43].

قصارى القول

الصليب حالة تاريخية محيرة، فهم مجهولو النسب التاريخ، وهم نتاج بادية الشام. لم يختلطوا خلال تاريخهم الطويل بالحضر إلا من بعيد، ولا يقيمون في أي مكان أكثر من أسبوع واحد، مما جعلهم خبراء في معرفة الحماد، لذا يدعوهم البدو بمخايلة البرق. فهم يستطيعون تقدير المسافات من ارتفاع البرق وانخفاضه في الأفق، فإذا كان البرق تحت بطن الحمار، فالبعد حوالي ثلاثة أيام.

يتخذ البدو أدلة في الصحراء والبادية في أيام الشتاء القارص وفي أيام الصيف اللاهبة، ولا يستغرب المرء أن يصادف صليبي وهو يسير لوحده، دون خوف وكأنه يسير في نزهة.

لم يعد للصلبة وجود في سورية، بعد أن هاجر بعضهم إلى السعودية والكويت، وبعضهم دخلوا المدن السورية الكبيرة وعاشوا يمارسون الصنائع والمهن، دون أن يحتقرهم أحد. والقتيت برجل من الصلبة في بلدة دوما عام 1968 يعمل في قصابة الجمال، وهو يعيش وأسرته وبعض أقاربه دون أن يعكر صفوه أحد، ولا يسأل عن أصله.

أما في السعودية والكويت فلا زالوا يحملون سمة المذلة والمهانة، رغم تحجب نسائهم اللواتي لا يظهرن إلا عيونهن، فلا زالوا يعتبرون من طبقة الخدم، وصار بعضهم يملك وسائل العيش المريحة في المدن.

الفصل الثالث: الغجر أو النَّور (الواقع والتوجه)

- الغجر في التاريخ
- اللغة الغجريَّة
- ديانة الغجر
- الأسرة الغجريَّة

الغجر في التاريخ

الغجر من الأعراق البشرية المجهولة الأصل والتاريخ والمكان الذي صدروا منه. واتفق علماء الأنثروبولوجي، على أن الغجر ينقسمون إلى عدة أعراق، فهم ينتسبون حسب البلد الذي يعيشون فيه.

لا زال عدد الغجر قليلاً في العالم فهم لا يتجاوزون الأربعة عشر مليوناً في العالم، ويجمع أكثر العلماء على أن أصلهم يعود إلى الهند، ولا زال عدد كبير منهم يعيشون هناك.

يميل الغجر إلى السُمرة، والنحافة والقصر، والغجر هم بقايا جامعي النباتات القدماء، كانوا يعيشون على نظام اقتصاد الكفاف، من اليد إلى الفم، ولكل يوم رزقه، من أجل هذا يبدو لنا الغجر قوماً طائشين، مقارنة بالفلاحين الذين يعملون في جد وصرامة ويدخرون معيشة الغد، بينما يعيش الغجر على الرقص والسرقة وقراءة الفال، وترقيص الدببة والسعادين، والعمل في الحدادة والدباغة (صناعة الغرابيل) وتصنيع الأسنان، وفي الأعمال والمهن الوضيعة في المدن.

يسمى الغجر في البلاد العربية (بالقرباط أو النَّور) ولهم أسماء أخرى منها (القرج).

من أين جاء الغجر إلى البلاد العربية؟ وكيف جاؤوا؟

تقول المصادر العربية أنهم جاؤوا إلى البصرة على أثر فتح السند في العصر الأموي. جاؤوا إلى البصرة واستقروا في بطائح البصرة ودست بيسان، وجلبوا معهم الجاموس. ونقل الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعضهم مع الجاموس إلى منطقة العمق شرق أنطاكية. وزاد عددهم في زمن والي العراق الحجاج على أثر فتح السند والمولتان على يد محمد بن القاسم بن منبه الثقفي عام 712م، وجاءت قبائل الجت وعرفوا بالزط، وهي كلمة هندية، قلبت الجيم زاي، فقالوا: الزط.

جاؤوا إلى البصرة وجاوروا بني تميم وعبد القيس بن بكر، وبني شعبان وصاروا مواليهم. وصاروا يقاتلون معهم. جاء في لسان العرب (الزط هم جيل من أهل السند). وقال عنهم الشاعر عوهم بن عبد الله التميمي معيراً وذاماً لبني تميم بتحالفهم مع الزط، بينما تفتخر تميم بتحالفها مع الفرس:

صار الزط جماعات تعمل في حراثة الأرض وقلع الملح في منطقة الأهواز، وعانوا الظلم والاستغلال مما دفعهم إلى الثورة، وقطع الطرق وإخافة السابلة لمدة أربع عشرة سنة (817- 831) ويقال نهبوا القرى وضواحي المدن في الأهواز والبحرين واليمامة، وقد عيّر نصر بن شبث العقيلي رسول المأمون الذي دعاه إلى الاستسلام للمأمون قال له: «ويلي عليه لم يقوَ على 400 ضفدع من الزط تحت جناحيه، فكيف يقوى على حلبة العرب»[44].

استمرت قلاقل الزط إلى أيام المعتصم، عندما أرسل إليهم عجيف بن عنبسة عام (219هـ/ 835م) ومثّل بهم وشردهم، وجفف الأهواز وأمسك الطرق والمنافذ عليهم وحولهم إلى مجموعات معزولة، وتولى تطهير تلك المستنقعات منهم هارون بن نعيم بن وضاح الخراساني، وأرسل قادتهم إلى بغداد وقتلوا ونقل حوالي 27 ألفاً منهم وأسكنهم منطقة الثغور على أطراف الروم في بلدة عين زربة، وأوكل إليهم مقاتلة الروم وكانوا حوالي 12 ألف محارب. وفي عام (21هـ/ 836م) هاجمهم البيزنطيون وأسروهم وأخذوهم هم وجواميسهم إلى منطقة تراقية[45]. ومن هناك انتشر الغجر في شرق أوربة.

وهكذا كانت بداية انتقال الغجر إلى أوروبا وتسربوا من شبه جزيرة البلقان إلى الريف وصاروا يرقصون ويغنون، وعاشوا جماعات منعزلة، وصاروا يشتغلون بالحرف المهنيّة الوضيعة كالدباغة والحدادة، وبدأت أعمالهم تثير القلق، وكانت تثير الناس أجسامهم النحيلة وبشرتهم السوداء، وصار السكان ينسبونهم إلى الجن، وأشيعت عنهم الأساطير التي بدأت تترسخ بازدياد أعمال الغجر الشاذة، وكان الغجر يدعون أنهم جاؤوا من مصر، فسموا جبسي Gypsies. أما في رومانيا فسموا تساغان، وسكنوا في المجر جبال الكريات 1417 ودعوا (بالقرياط) ووصلوا إلى فرنسا وإسبانيا ودعوا هناك (غيتانوس).

بدأ الغجر يعانون من الأوروبيين أقسى أنواع التعذيب. كتب الأديب الإسباني سرفانتس عام 1614 عما يعانيه الغجر «لقد تعلمنا المعاناة في وقت مبكر من أجل هذا لم نشعر بالمعاناة، وأن أقسى أنواع التعذيب لا تخيفنا. وإنهم يكذبون لأنهم لم يتعلموا الصدق، والكذب أهون الشرور عندهم لحماية حالهم». ثم هاجروا إلى أمريكا من إنكلترا. يصف لنا الكاتب الإنكليزي والتر سكوت معاناتهم قال: «إذا سئل الغجري: ما هي موارد عيشك؟ أجاب: آكل حينما أجوع، واشرب حينما أشعر بالعطش، وليس

عندي موارد للعيش، ولا ما يبعثه القدر مصادفة، ولكن عندي حريتي، وأنا لا أحني هامتي أمام أحد، ولا أعترف بأحد، وأذهب إلى حيث أريد، وأعيش كما أستطيع، وأموت حين تحل ساعتي»[46].

عاش الغجر في أمريكا على سرقة الجياد وألعاب السيرك، وترقيص الدببة، وكناسة الشوارع، وعندما حاولت روسيا (الاتحاد السوفييتي) عام 1927 توطينهم وإسكانهم في بيوت، وتعليمهم في المدارس، لم يقبلوا وهربوا من تلك المنازل المخصصة لهم، ولكنهم نسوا لغتهم.

الغجر في موطنهم الأصلي الهند

يسمى الغجر في الهند (بنجاراز) وهم منتشرون في معظم شبه القارة الهندية، وأكثرهم في ولاية حيدر أباد الدكن (ولاية أندرا براديش) وكانوا يلاقون الرعاية من المسلمين الذين لا يميزون بينهم على أساس طبقي، فالهندوس يعتبرونهم من طبقة المنبوذين (الشودرا) وهي أدنى طبقات المجتمع.

لا زالت ثقافة (البنجاراز) متدنية، وإن كانوا يفتخرون بأنفسهم، ويروون الأساطير عن عراقتهم، يقولون: كان الرجل الصالح كريشنا يحب خادمه (مولا) فأهداه فتاة جميلة، تدعى (آرادا) وأنجب الزوجان ولداً جميلاً، فرح به الزوجان وصاروا يطوفون به في المدن والقرى، ويعرضون عروضاً مسلية في الرقص والغناء، وأطلق الناس عليهم اسم (القنجران) أي المكتفي باللهو، وصارت هذه طريقة معيشتهم، وعاشوا لامبالين، فهم شجعان لا يخافون الموت، ويفضلون أن يضعوا حداً لحياتهم قبل أن تمتد يد العدو وتزهق ارواحهم.

لا زال الرجال البنجاري يسيرخلف ثوره (الهتاديا) وقد زين قرونه، ومعه بضعة ماعز وزوجته وأولاده، ويثير المارة صوت الأجراس النحاسية، والحرير الأحمر الذي يزين الثور، وعندما يصلون إلى أطراف الغابة أو أطراف المدينة صنعوا لهم عشة من الخشب وأغصان الشجر، وفي أعماق المدن يتزوجون ويولدون ويموتون في العراء. وقد رأيت منهم عام 1985 في شهر أيلول امرأة شابة تغتسل وإلى جانبها زوجها يصب الماء على رأسها، واستأذنت الزوج في أخذ صورة فأذن لي بابتسامة، وعندما علمت المرأة التفتت إلينا بصدرها العاري ونهديها الجميلين وقالت: one more، أي أنها تريد صورة أخرى.

إن المرأة البنجارية تحب الزينة، خصوصاً الفتيات اللواتي يمتهن الرقص والغناء في الشوارع والساحات العامة. وبعض الفتيات يبصرن بالطالع، وبعضهن يعملن في

البناء في نقل الرمل والحصى. ومن عادات أهل الهند عموماً أن المرأة هي التي تدفع المهر لزوجها، وتجهز البيت، إلا الغجر، فالزوج هو الذي يدفع المهر ويجهز البيت. ويتم الزواج عن طريق الكاهن (الجوشي) الذي بعد أن يزوج العروسين، يضع أمامه طبقاً من النحاس، ويلقي الحضور بالدراهم مساعدة للعروسين، ثم تقوم العروس وتطوف حول موقد النار والبخور وترافق الحفلة الأغاني والرقص.

معظم الأسر البنجارية فقيرة، يعيشون في بيوت من الصفيح على جوانب الطرق في أطراف مدينة حيدر آباد. أما في مدينة بومباي فقد شاهدتهم في شارع المحطة وهو شارع ذو جزيرة عريضة تزيد على خمسة أمتار، شاهدت بعض الأسر تعيش في فصل الأمطار الدافئ في العراء.

ومن أعمالهم في مدينة حيدر آباد، رأيتهم في ضاحية (يوسف جودا) ينقرون الحجر ويصنعون منه أجراناً وأحجار رحى. ويعملون في قيادة مركبات (الركشا) وهي دراجة هوائية يركب المسافر خلفه ويسوق البنجاري الدراجة، ثم تطورت هذه المركبة إلى دراجة نارية ذات ثلاث عجلات ومغطاة لاتقاء الشمس والمطر.

اللغة الغجرية

للغجر لغة خاصة بهم، وهي لغة بدائية، الهيكل العام للغة من أصل سنسكريتي، وفيها كلمات البلد الذي يسكنه الغجر، وهذه اللغة جعلتهم لا يذوبون في المجتمعات التي يعيشون فيها، إلا في بلغاريا اندمجوا مع الشعب عندما نسوا لغتهم ولكن احتفظوا بعاداتهم المتوارثة وهم لا يقلعون عن السرقة والقوادة، وحب التنقل والتشرد، وظل للكبار تأثير على الصغار، فالأب يفرض هيبته على أسرته[47].

لغة الغجر الأصلية هي السنسكريتية، فمثلاً كلمة أخ وأخت في لغة الدومري (القرباطي) في سورية Ben وbar وفي السنسكريتية بارتر Phartr وفي اللغة القرباطية كلمات فارسية، وفي سورية وتركيا غنية بالكلمات العربية والتركية وتدعى هذه اللغة سبارس (Spares). كتب العالم الأنثروبولوجي الكساندر باسباتي عام 1870 عن الغجر في الإمبراطورية العثمانية: «إن أهم ما يظهر التاريخ الحقيقي للعرق الغجري هو دراسة لغتهم». وقد حدد الباحث الإنكليزي جاكوب بريانت، الذي درس لغة الغجر، وحدد أصلها الآري وجزم بأن اللغة السنسكريتية هي الأساس[48].

وحدد الباحث اللغوي الفرنسي جلبرت أن في لغة الغجر الفرنسية ما يزيد على ألفي كلمة عربية الأصل، وهذا يدل على استقرارهم في فترة من الفترات في البلاد العربية[49].

ويمكن تقسيم اللغة الغجرية إلى لهجتين هما:

1) مجموعة الدوم Dom ومنها اشتق اسم الدومري Domary وهي اللغة السائدة بين غجر الشرق الأوسط، في تركيا والبلاد العربية.

2) مجموعة الروم Rom ومنها جاء المصطلح Romany وهي لغة الغجر في أوروبا الغربية والشرقية قال جوكيو: لقد أصبحت لغة الغجر خارج الهند بمرور الزمن، مستقلة لاستقرارها بوجه عام، واقتبسوا كلمات واصطلاحات شرقية مخالفة بمعناها الأصل الهندي القديم والحديث[50].

الديانة الغجرية

ديانة الغجر تعود إلى عبادة وثنية قديمة، فهم يقدمون للإله ديفي القربان، ومعبدهم عبارة عن كومة من الأحجار، ولديهم تعاويذ، يتعبدون بها لآلهة وأشباح لا يفصحون عنها أمام الغرباء.

ولكن الغجر يظهرون أنفسهم حسب البلد الذي يسكنونه، ففي الهند أمام المسلمين يتظاهرون بالإسلام، وأمام الهندوس هم هندوس وفي أوروبا هم مسيحيون.

وفي البلاد العربية يقدمون التوسلات لأرواح أجدادهم طالبين منها العون في المعالجات الروحية التي يخلصون بها المرضى من الجن والشياطين. وعندما يموت الغجري يسد الشيخ أنفه بالشمع كي لا تدخله الأرواح الشريرة. وتوضع مع الميت حوائجه الخاصة في القبر، ويؤمنون بالتناسخ، ويفضلون الغسيل بالماء الجاري إن وجد، لأنه عندهم مقدس.

وللشيخ عند الغجر مكانة كبيرة، وهي وراثية، يفرض القوانين والأنظمة، ويدعي الغجر أنهم من قوم جساس بن مرة البكري في سورية. أما الكولية (الغجر) في العراق فيدعون أنهم من بني تميم، ويشتغلون بالحدادة وتطبيب المواشي، والنساء يشتغلن في قراءة الطالع (الفال) مقابل حفنة من الأرز (التمن) وقليل من التمر[51].

الأسرة الغجرية في البلاد العربية

عندما جاء الزط من الهند إلى البصرة، أدخلوا عادت وتقاليد لا يعرفها العرب في موطنهم الأصلي الجزيرة العربية، كانت أكثر أعمال الزط في القمار وقمارهم في الفضة والذهب، ومن ذلك قمار الديكة، وقد يبلغ ثمن الديك جملة من المال، وكذلك لعبهم بالنرد حتى أن أهل الحال الضعيف ومن لا مال له ممن يذهب إلى الباطل بالفتوة، ربما لاعب على أنامله، وإذا خسر وضع يده على حجر وقطع إصبعه بالفأس،

ثم يغمس يده بالدهن الحار فيكويها. ومنهم من يأخذ إصبعه المقطوع ويضعها بالدهن، ويشعل النار فيها، وهي تحترق ورائحة اللحم تفوح، وهو يستمر يلعب ولا يظهر منه أي جزع[52].

وعلى الرغم من كثرة البطالة فالأسرة الغجرية متماسكة على الرغم من ظهورها بالمظهر المنحرف للمراقب الخارجي الذي يجهل طبيعة الغجر، وفي سورية يتم الزواج بوقت مبكر ويشترط الزوج الطهارة في زوجته، ويدفع العريس المهر، ويتم ذلك بحفل وبحضور الشيخ (اليولي باشا) ويقدمون وليمة للمدعوين، وتضع المرأة المخطوبة منديلاً يدعى (ديكلو) وبعد الزواج تخلعه، ومن عاداتهم أن لا تظهر المرأة المتزوجة سيقانها لذا ترتدي ثوباً طويلاً وسروالاً طويلاً.

ومعظم الغجر أميون إلا في الدول الأوروبية، فقد تعلم عدد كبير منهم، واختصوا بالطب والهندسة، وظل بعضهم يعمل في السيرك، ويعملون في السحر، ويدعون القدرة في قراءة الكف، وتعلموا بعض الصناعات مثل تصليح الأسنان وتغطيتها بالذهب والمعدن الأبيض.

ينقسم الغجر في سورية إلى قسمين: من يطلق عليهم النور وهؤلاء يمتهنون الرقص والغناء ويعيشون في الصيف على قارعة الطريق العام، ويقدمون البهجة لقاصديهم، ويسكنون المدن الكبيرة في الشتاء. وترقص بعض نسائهم في الكبريهات (الملاهي الليلية) ويغنين. وقد اشتهرت منهن في حلب يسرى البدوية. وممن اشتهر منهم بالموسيقى أمير البزق محمد عبد الكريم في حمص.

كان الشاعر الأردني عرار (المحامي مصطفى وهبي التل) من عشاق ومحبي الغجر (النور) المقيمين في ضواحي عمان في وادي السير، قال:

ليت الوقوف بوادي السير إجباري	وليت جارك يا وادي الشتا جاري
وليس في أن أقضي ليلة ثملاً	بين الخرابيش والندمان من عار
بين الخرابيش لا عبد ولا أمة	ولا أرقاء في أزياء أحرار
الكل زط مساواة محققة	تنفي الفوارق بين الجار والجار

وهناك قسم آخر من الغجر يدعون بالقرباط (القرج) يعملون في الصنعات والمهن ويأكلون من عرق جبينهم، وهؤلاء استقروا في المدن، واختلطوا بالسكان. بعض النور هاجروا إلى الإمارات العربية، يعملون في الملاهي وعائلاتهم موجودة في دمشق، والغجري يفتخر بأصله. وهو لا يرضى أن يزوِّج ابنته لعربي أو لرجل متحضِّر.

مراجع: الصليب والغجر

1)البدو ج4، ص193، ماكس ف. فون أوبنهايم، ترجمة محمود كبيبو دار الوراق لندن 2004.

2)المصدر السابق ج4، ص192.

3)ملاحظات عن البدو والوهابيين ص12، جون لويس بوركهاردت، ترجمة محمد الأسيوطي، بيروت 1988.

4)Sir Richard. F Burton, Personal Norrative of Pilgrimge. P127 London 1893.

5)Doughty. Ch. Travels in Arabia Deserta. P236- London 1936.

6)المصدر السابق ص290، بالإنكليزية.

7)البدو ج4 ص174.

8)Victor Muller. En Syrie avec les tribus du desert p93 Paris 1931.

9)ديوان كشاجم، ص389، قصيدة رقم 383 طباعة بيروت 1933.

11)عشائر العراق ج1، ص311- 312 عباس العزاوي مطبعة بغداد 1937.

12)البدو ج4، ص183.

13)Fild H. Earlyman in North Arabia p28 NewYork 1929.

14)البدو والبادية ص150، جبرائيل سليمان جبور، دار العلم للملايين بيروت 1988.

15)المصدر السابق ص338.

16)المصدر السابق ص343.

17)الأثنوس والتاريخ ص104، برومليبه، بودولني، ترجمة طارق معصراني دار التقدم موسكو 1988.

18)الغجر الرحالة الظرفاء المنبوذون ص58، دارم طباع ومنذ رالحايك، دار طلاس دمشق 2002.

19)عشائر العراق ج1 ص325.

20)المصدر السابق ج1 ص311.

21)عرب الصحراء هنري ديكسون ترجمة موسى الزعبي ومنذر المصري دار الفكر دمشق 1996.

22)المصدر السابق ص355.

23)المصدر السابق ص476.

24)البدو ج4، ص186 .
25)الغجر الرحالة ص54.
26)ملاحظات عن البدو والوهابيين ص172 .
27)عشائر العراق ج1، ص345.
28)المصدر السابق ج1، ص313.
29)البدو ج4 ص176 .
30)معلقة الحارث بن حلزة، شرح التبريزي طباعة كلكتا الهند 1894 .
31)البدو والبادية ص19 .
32)ملاحظات عن البدو والوهابيين ص88- 89.
33)البدو والبادية ص87.
34)المصدر السابق ص109 .
35)Doglas Carruthers. Arabian Adventures. P146 London 1935.
36)البدو ج4، ص177 .
37)المصدر السابق ج4، ص175 .
38)ملاحظات عن البدو والوهابيين ص28- 29.
39)المصدر السابق ص32.
40)عرب الصحراء ص473.
41)المصدر السابق ص480.
42)البدو ج4، ص315.
43)Fild. H. Arab middle of Iraq p46 Chicago 1935.
44)تاريخ الرسل والملوك ج8، ص598 الطبري تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل، القاهرة 1958 .
45)الكامل في التاريخ ج7، ص80، ابن الأثير، تحقيق عبد الله الطباع، دار صادر بيروت 1957 .
46)الأثنوس والتاريخ ص227.
47)المصدر السابق ص231.
48)الغجر الرحالة ص102 .
49)المصدر السابق ص103 .
50)الغجر أصلهم وتقاليدهم ص21، جورج ليان، دار الكفاح دمشق 1964 .
51)قبائل الغجر ص160، لطفي شلش، دار الكتاب المصري، القاهرة 1957 .
52)سلسلة التواريخ ص150، سليمان التاجر، تحقيق الأب لامنس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1895م.



M.Abdulhameed Al-Hamad

Syrias' Communities and Their religion

" History,Ideology and Future "

